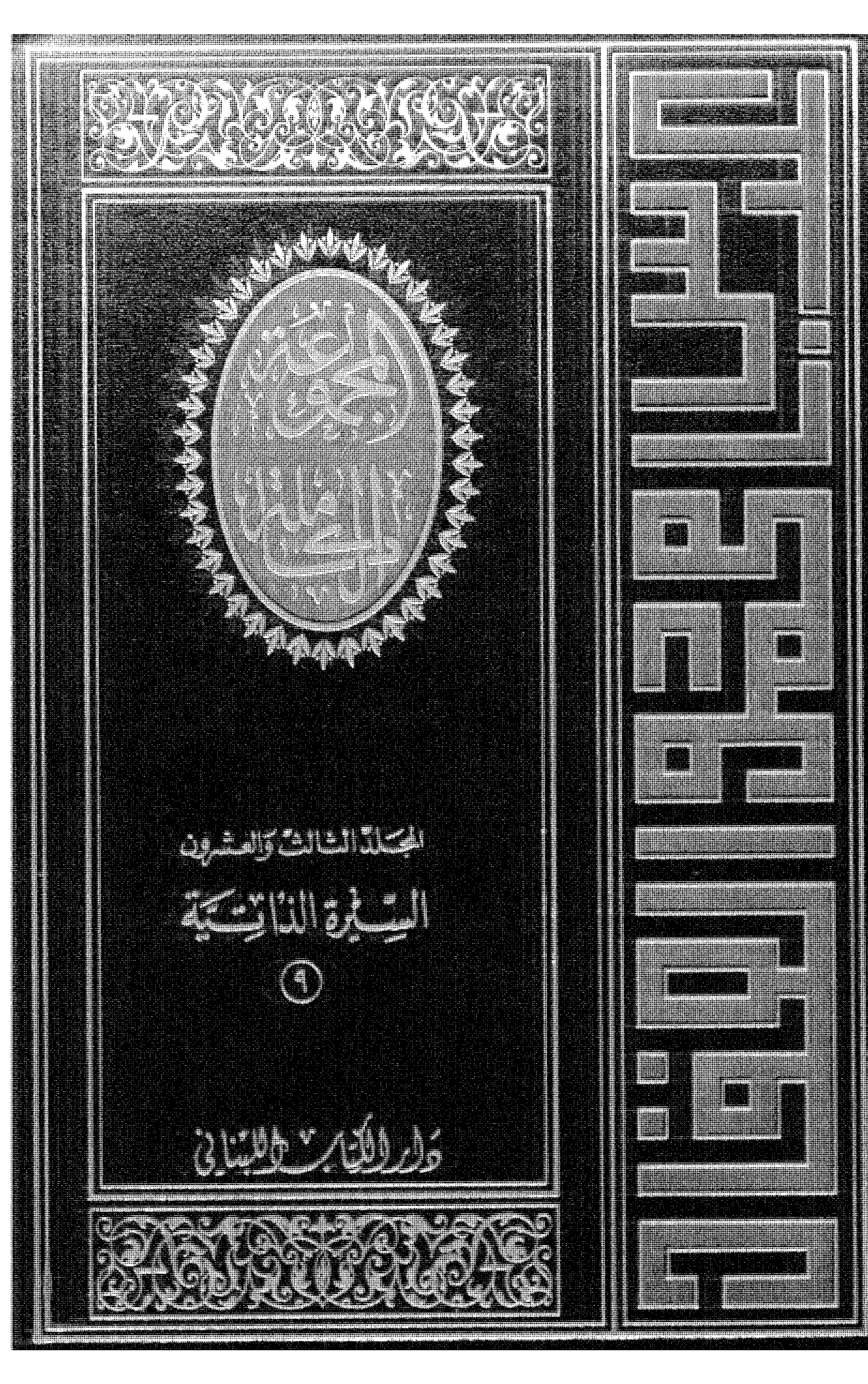

المجلد الثالث والعشرون
السيرة الذاتية
٩
دار الكتاب اللبناني

المجلد الثالث والعشرون

السيرة الذاتية

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الثالث والعشرون

السيرة الذاتية -٩-

يحتوي على

يحتوي: عالم السدود والقيود

سارة

في بيتي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
هاتف - ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L.
LE BEIRUT

الطبعة الأولى
١٩٨٢

عباس محمود
العقاد

عالم السدود والقيود

دار الكتاب اللبناني - بيروت

كلمة تقديم

عالم السدود والقيود الآن ــ عندي وعند كل عابر بسبيله ــ هو ذلك البناء المعزول في ناحية منزوية الى طرف من الأطراف في بعض احياء القاهرة الواسعة الكثيرة ، كأنه يحس نفرة الناس منه ونفرته من الناس ، واسمه في سجلات الحكومة سجن مصر العمومي ، واسمه الشائع على الالسنة « قره ميدان » .

أما يوم كنت آوي اليه ولا ارى غيره ولا اسمع بالدنيا الا من وراء جدرانه فلم يكن بناء معزولا ولا كانت الناحية التي هو فيها ناحية منزوية الى طرف من الأطراف ، ولكنه كان هو العالم بأسره وبأرضه وسمائه ، وكان العالم الخارجي جزءا لاحقا به مضافا اليه ، وتلك شيمة في النفس الانسانية ان تنقل مركز الكون كله الى حيث تكون ، فالسجن وان كان عند السجناء منزلا بغيضا يصبحون ويمسون على امل الخلاص منه وكراهة الاستقرار فيه ، هو مع ذلك محور العالم ما داموا بين جدرانه ، وهو شط والدنيا كلها شط آخر يتقابلان ويتناظران ، فلو ظهرت في السجن صحيفة كبيرة لكان لأخباره فيها مكان « الحوادث المحلية » الظاهر في صدور الصحف السيارة ، ولكانت اخبار العالم فيه كأخبار الحوادث الخارجية ورسائل الأقاليم ومنقولات البرق والبريد . واذا ارتقى بعضها الى محل الرعاية والتنويه فانما يرتقي اليه بالاضافة الى سجين من السجناء أو حادث يدور حول عقره وحجراته وخباياه .

وهذه الصفحات هي خلاصة ما رايته واحسسته وفكرت فيه يوم كنت أنزل « عالم السدود والقيود » واشعر به ذلك الشعور،وأنظر الى العالم من ورائه ذلك النظر : لست اعني بها ان تكون قصة وان كانت تشبه القصة في سرد حوادث ووصف شخوص ، ولست أعني بها ان تكون بحثا في الاصلاح الاجتماعي وان جاءت فيها اشارات لما عرض لي من وجوه ذلك الاصلاح ،

ولست اعني بها ان تكون بحثا في الاصلاح الاجتماعي وان جاءت فيها اشارات لما عرض لي من وجوه ذلك الاصلاح ولست اعني بها ان تكون رحلة وان كانت كالرحلة في كل شيء الاانها مشاهدات في مكان واحد ، ولا ان استقصي كل ما رايت واحسست وان كنت اقول بعد هذا ان الاستقصاء لا يزيد القارىء شعورا بما هناك ، وانه لا فرق بينه وبين الخلاصة الا في التفصيل والتكرير ، وانما دعوى هذه الصفحات ـ بل خير دعواها ـ انها تتكفل للقارىء بان يستعرض عالم السجن كما استعرضته دون ان يقيم هناك تسعة شهور كما اقمت فيه(١) .

فان كانت الصفحات التالية عند دعواها فذاك وحده هو حقها من القراءة وشفاعتها عند القراء ، وهي اذن قد اختصرت تسعة شهور طوالا في مدى ساعات معدودات يطويها القارىء بين دفتي هذا الكتاب الصغير وهو يتفكه ولا يضيق ذرعا بالسدود والقيود ، وحسبها ذلك من نجاح .

عباس محمود العقاد

---

(١) كانت مدة السجن من ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٠ الى ٨ يوليه سنة ١٩٣١

إلى قره ميـدان

فتحت الكوة الصغيرة ، ثم فتح باب الرتاج الكبير ، ثـم احتوانـا البناء المخفور الذي يعرف في مصلحة السجون باسم«سجن مصر العمومي» ويعرف على ألسنة الناس باسم « قره ميدان » أي الميدان الأسود باللغـة التركية !

وخطر لي ــ وأنا أخطو الخطوة الأولى في أرض السجن ــ قـول الفيلسوف ابن سينا وهو يخطو مثل هذه الخطوة :

دخولي باليقين بلا امتراء　　　وكل الشك في أمر الخروج

فهو تقرير فلسفي صحيح للواقع !..

أما الدخول فها هو ذا يقين لا شك فيه ، وأما الشك كل الشك فهو في أمر الخروج متى يكون والى أين يكون ؟ أإلى رجعة قريبة ، من السجن واليه ؟ أم الى عالم الحياة مرة أخرى ؟ أم الى عالم الأموات ؟

في تلك اللحظة عاهدت نفسي لئن خرجت الى عالم الحياة لتكونن زيارتي الأولى الى عالم الأموات ، أو الى ساحة الخلد كما سميتها بعد ذلك ــ أي ضريح سعد زغلول .

■ □ ■

ولم تقع مني هذه الرحلة بين الدار والسجن موقع المفاجأة ، لأنني كنت أنتظرها منذ زمن طويل ولو على سبيل الحجز الذي ينتهي بافراج سريع ، ولكنني كنت لا أرى فرقا بين أيام أو أسابيع أقضيها على ذمة التحقيق وبين مدة أقضيها في الحبس بحكم القضاء ، لأنني كنت أقدر أن

حبس التحقيق ــ وان قصر ــ كاف لأن يصيبني بأكبر الضرر الذي يخشاه الناس من السجن ، وهو ضرر العلة التي لا تزول •

وعلى توقعي الاتهام والحبس كانت الأنباء تتوالى علي بما يؤكد ذلك التوقع من جهات عدة ، وسمعت النبأ اليقين في هذا الأمر من صديقنا المغفور له سينوت حنا بك ، وقد لقيني مرة فاستوقفني وقال لي : « حذار يا أستاذ ! » فقلت له باسما : « لا يغني الحذر من القدر ! » قال لي : « اني أروي لك ما أعلم لا ما أظن : ان مقالاتك تراجع في بعض الدوائر مراجعة خاصة ، وانهم ينتظرون يوما معينا ربما كتبت فيه ما يساعد على تأييد التهمة ، ثم يقدمونك الى المحاكمة بما استجمعوا من أدلة قديمة وحديثة ! »

وكان في نيتي أن أسافر صيف سنة ١٩٣٠ الى لندن مع وفد مجلس النواب لتمثيل مصر في مؤتمر المجالس النيابية الذي عقد تلك السنة في العاصمة الانجليزية ، وقد استخرجت جواز السفر السياسي ، واشتريت دليل لندن ودليل العواصم الاوربية التي كنت أنوي زيارتها ، ولم يبق الا تذكرة السفر والاتفاق على الموعد واللحاق باخواننا الذين سبقونا الى باريس ليشهدوا فيها الاحتفال بعيد الحرية ، ثم بدا لي أنني اذا سافرت فقد أمهد بيدي وسيلة لنفيي في أوربا سنوات بلا عمل ، ولا قدرة على البقاء في ذلك الجو القارس أيام الشتاء ، وربما كان منع عودتي أسهل على الوزارة من محاكمة قد تنتهي بالبراءة أو بعقوبة لا ترضيها • فعدلت عن السفر في اللحظة الاخيرة ، وقلت ان السجن أحب من النفي الذي لا عمل فيه ولا ضمان للصحة ولا الحياة !

وفي اليوم الثاني عشر من شهر أكتوبر دق الجرس أصيلا وأنا وحدي بالمنزل ، لأن أخي كان معتقلا في قضية « البلطة » المشهورة متهما بالتآمر على حياة رئيس الوزارة ، ولأن الخادم لم يعد من راحته الظهرية وصلاته العصرية ، ففتحت الباب فاذا ضابط في رتبة « اليوزباشي » على ما أذكر يبادرني بالسؤال :

ـ هل حضرتك فلان ؟

ـ قلت نعم .

فمد الي ورقة من دفتر في يده على هيئة ذكرتني الكونت نيمور وهو يلقي القفاز في محضر لويس الحادي عشر .

قلت : « تفضل أولا فاجلس » .

فتردد في الدخول ، ثم دخل وجلس ، فتناولت الورقة وقرأت فيها دعوة من صاحب السعادة النائب العمومي للحضور الى مكتبه في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ، ووقعت على الدفتر ـ كما طلب الضابط ـ بأنني تسلمت الورقة . وأخذت في اعداد الكتب التي سأقرأها في السجن ، والادوية التي أتعاطاها ، والملابس البيتية التي أحتاج اليها هناك . وزدت فأعددت الاغطية الصوفية التي تلزمني للفراش والغطاء . لأنني كنت حتى تلك الساعة أجهل « تقاليد السجون » وأظن أن الاغطية الخاصة مسموح بها كالملابس الخاصة اثناء التحقيق وفي الفترة التي تسبق المحاكمة . ثم حضر الطاهي فأريته هذه الاشياء كلها وقلت له : انه سيحضرها لـي في السجن غدا عند اللزوم .

فظهر لي أنه لم يفهم ، وأنه ينوي أن يقصد بها سجن الاجانب الذي كان أخي معتقلا فيه .

فقلت له : « بل هي لي أنا في السجن الذي سيخبرونك عنه غدا بدار النيابة ! ! » ووصفت له الدار واجتهدت أن أفهمه جهد المستطاع ، وذلك جهد يعرف العارفون بالشيخ « أحمد » أنه ليس باليسير !

وذهبت في الموعد المحدود الـى دار النيابة . واستغرق التحقيق ساعات . ثم قال لي حضرة المحقق : « انني آسف لأننا سنضطر الى ابقائك عندنا قليلا يا استاذ ! » وبدأ حضرات المحامين يوجهون نظر رجال النيابة الحاضرين الى « الحيطة الصحية » الواجبة في هذه الحالة ، ومنها اختيار السجن الذي يوافقني أثناء الحبس « الاحتياطي » أكثر من سواه .

وكان الاساتذة المحامون لحسن الحظ من الخبيرين بمزايا سجون القاهرة التي تردد عليهـا في سنوات الثورة السياسية معظـم المشتغلين بالقانون والسياسة ، فأضافوا خبرتهم بالسجن الـى خبرتهم بالمحكمة وقدرتهم على النصح السديد للمتهمين والموكلين ، واستحسنوا أن يكون الحبس في « سجن مصر » لأن الجو فيه أوفق لي من سجن الاستئناف . وقد كان .

فذهبت مع الضابط والجند في سيارة خاصة الى « قره ميدان » وتخطيت الباب فاذا هدوء غير مألوف لأن الوقت كان وقت الراحة عقب الغداء . وتوجه بي الضابط نحو حجرة الكتاب لتسليم ما عندي مـن الودائع وكتابة الاوراق التي لا بد منها لكل مسجون جديد . وما هي الا لحظة حتى توافد الموظفون وكثر دخول السجانين ينظرون الى القادم الذي سرى بينهم نبأ قدومه . وأخذ كاتب هناك مرح ثرثارة يداعبهم واحدا بعد واحد كلما مروا به وتصنعوا سؤاله عما يضمره لهم بريد اليوم . فيقول لأحدهم : « اطمئن ... فقد عينوك مديرا لمصلحة السجون ... » ثـم يحدج ببصره كمن يستغرب سكوته . ويقول له : « ألا تصدق ؟ آه يا ابن الحلال . معذور . فانك في السجن ولست في البيمارستان .. »

أو يقول لغيره : « تعال هنا ... قرب اذنك ! ! قرب أيضا » ... ثم يناديه بصوت يسمعه كـل من في المكان : « افرح ... نقلوك الـى أسوان . لا تقل لأحد يا ولد ! »

وهكذا في أثناء التسليم والتدوين . فاستعدت في ذهني موقف هملت وحفاري القبور اذ يغنون وهم في ذمار الموت ! !

الليلة الأولى في السجن

لم يكن مكتب الموظفين الا بمثابة « الاعراف » التي تفصل بين نعيم الحرية وجحيم الاعتقال . ولكنها « أعراف » تنقل من النعيم الى الجحيم كما تنقل من الجحيم الى النعيم . وقد كانت في اليوم الذي سجلت فيه اسمي بين الداخلين تسجل أسماء شتى للخروج أو للافراج كما يسمونه في لغة السجون !

■ □ ■

وعبرنا مكتب الموظفين ومكتب المأمور مع ضابط العنبر في هذه المرة لا مع ضابط الشرطة الذي انتهى مقامه عند الباب .

فاتجه الضابط الى عنبر «ب» وفتح الباب الحديدي ودخلنا العنبر فكان أول ما صادفنا فيه منظرا عجيبا لا تألفه العين : أناسا بملابسهم العادية جالسين القرفصاء في صمت لا يلتفت أحدهم يمنة ولا يسرة . ومن ورائهم نفر مكبون على الارجل والايدي كما تمشي الدواب يزحفون زحفا ويتغنى أحدهم بصوت خفيض والباقون يجيبونه بصدى — لا بكلام — يقولون فيه : « هيه هيه » . . . أما المغني فالذي أذكره من انشودته الآن عبارة واحدة : « رايحه له فين ! ده عليه سنتين ! »

فقلت فأل جميل وايم الله ! وللفأل شأن كبير في « نفسيات » المسجونين كما سيرى القراء في بعض هذه الذكريات .

■ □ ■

وكان لا بد لي من « فرجيل » يصاحبني كما صاحب الشاعر الايطالي

« دانتي » في طبقات الجحيم ليدله على أنواع العذاب ودرجات المعذبين . فمن هؤلاء الجالسون القرفصاء ؟ ومن هؤلاء المكبون على أربع ؟ أهذا ضرب من العقاب في مكان العقوبات ؟ وما بال أناس منهم يلبسون ثيابهم العادية على اختلافهم بين المعمم والمطربش ولابس « الطاقية » ، ولا يلبسون كأهل السجون ؟

على أنني لم ألبث طويلا حتى عثرت علـى الدليل الذي ينوب في جحيمنا عن فرجيل !

فقد كان على يسار الحجرة التي خصصت لي حجرة للصحفي الظريف علي أفندي شاهين رحمه الله . وكان محبوسا رهن المحاكمة في قضيـة مقالات ورسوم قذف بها بعض الوزراء وعلى رأسهم اسماعيل صدقي باشا كبير الوزراء في تلك الايام . وكان واقفا عند باب حجرته ينتظرني بعد أن سبقت البشائر الى العنبر بقدومي ! ! فلقيني مرحبا . وعلى مقربة منـه اثنان أو ثلاثة من أهل بولاق « دائرتي الانتخابية » كانوا في مؤخرة صفوف الجالسين القرفصاء ، فنهضوا يحيونني ويهمون بالصياح لولا أن شاهدوا الضباط والسجانين فعادوا جالسين .

وعلمت بعد ذلك بهنيهة ان هؤلاء الجالسين القرفصاء هم المحبوسون على ذمة التحقيق ممن آثروا البقاء بملابسهم العادية . وانهم جلسوا تلك الساعة في انتظار الخروج « للطابور » الذي هو موعد الرياضة المصطلح عليه مساء كل يوم . وللمحبوسين شوق الى موعده يفرحون به أشد من فرح الطلقاء بنزهة الاصيل على شاطىء النيل وطريق الاهرام !

أما المكبون على أربع فهم أصحاب النوبة المنوط بهم تنظيف بلاط العنبر وتلميعه . وهم يتغيرون كل شهر مرة ويقومون بهذا العمل طول النهار ، ويؤثرونه على أعمال السجن الاخرى لأنهم ينطلقون فيه على مدى واسع بعض السعة ، ولا يحبسون في الحجرات .

* * *

قال دليلي أو « فرجيلي » بعد الشرح المتقدم : « وان هؤلاء المساكين يعانون هذا العناء من أثر دعوة النبي يوسف عليه السلام » •

قلت : « وما ذاك أفادك الله ! »

قال : « لقد دعا يوسف ربه في السجن أن يغزر ترابه ويحلي طعامه ويقصر أيامه » فالتراب لا ينقطع لحظة عن أمثال هذا المكان •

قلت : « يخيل الي أن يوسف عليه السلام قال اللهم غزر رغامه ولم يقل غزر ترابه ••• لأن السجعة تقضي بذلك » !

وما لبثت في السجن نصف ساعة حتى رأيت بعيني حرص الاقدار على اجابة ذلك الدعاء ، فما هو الا أن يزحف الماسحون من طرف العنبر الى طرفه حتى يكون التراب قد سفا على المكان الذي تركوه •

■ □ ■

والى هنا لم أكن قد تناولت طعام الغداء مع اهتمامي برعاية المواعيد في تناول الوجبات •

فأين الطعام ؟ هل أحضره الطاهي أو نسي احضاره وفهم غير ما تعبت بالامس في افهامه اياه ؟

هنا ظهرت لي قيود السجن دفعة واحدة ، فليس من المستطاع أن أعرف هذا الخبر الصغير الا بعد أن أسأل السجان ، وبعد أن يسأل السجان الضابط ، وبعد أن يسأل الضابط البواب ، وبعد أن يحال البواب الى المأمور وأطباء المستشفى ، وبعد أن ينقضي في ذلك كله وقت غير قصير •

ولم يكن الذنب في هذه المرة على ذكاء « الشيخ أحمد » كما توهمت لأول وهلة ، فانه قد أحضر الطعام بعد انصرافي من دار النيابة • ولكنهم حجزوه على الباب حتى يتلقوا أمرا بقبوله وانتظام حضوره ، وحتى يراه الطبيب ويرى الادوية التي معه ، وحتى يتم الفحص عن حالتي الصحية وما يصلح لي من الدواء ، ثم قبلوا الطعام والدواء وردوا الغطاء والفراش ، لأن السجن كما قالوا فيه الكفاية من غطاء وفراش ! !

وفي هذه الاثناء بدأت أشعر بقشعريرة الرطوبة التي ينضح بها الاسفلت في أرض العنبر وسقوفه ، ثم فرغ السجان وصاحب النوبة الموكل بحجرتي من اعداد سريرها وأدواتها ولوازمها ، فألقيت نظرة على الغطاء الذي سيغنيني عن غطائي فلم أطمئن اليه كثيرا ، ولكني قلت : لا بأس بالتجربة هذه الليلة . وبقيت متوجسا من هذه النافذة المفتوحة على رأسي يندفع منها الهواء طول ليل الخريف ، فما العمل فيها ؟

قال دليلي أو « فرجيلي » علي أفندي شاهين : « لا عليك من هذه النافذة ! فسترى كيف نعالج خطبها » ، والتفت الى صاحب النوبة فأوصاه أن يسدها بالحصيرة المفروشة على أرض الحجرة كما يصنع في حجرته هو ، ففعل صاحب النوبة توا ليريني كيف يحكم هذه الصناعة ، وضحك شاهين أفندي ضحك العلم والمعرفة وهو يقول لي : « احمد الله على أنهم لم يختاروا لك سجن الاستئناف . فهناك النافذة أربعة أضعاف النافذة هنا ولا أمل في سدها بحال من الاحوال ، فضلا عن الظلام المطبق من الصباح الى المساء » .

قلت : « الحمد لله ! »

وهبط ظلام الليل شيئا فشيئا ، وعاد المسجونون قبل ذلك أفواجا الى الحجرات ، وتعالت بينهم ضجة كضجة السوق في يوم زحام ، ثم توالى اغلاق الابواب وادارة المفاتيح في الاقفال ، ثم بدأ « التتميم » أو المراجعة حجرة حجرة :

كم يا ولد ؟ عشرة !

كم يا ولد ؟ أربعة ... وهكذا الى نهاية الدور ، وفي كل عنبر أربعة أدوار ، ولن يبرح السجان دوره حتى يستوثق من مطابقة العدد الموجود للعدد المكتوب في سجله المعلق عند الباب .

وازدادت الضجة بعد انتهاء المراجعة فلم يكن للسامع أن يسمع الا

أسماء تتقاذف بها أفواه رجال ونساء ، وصرخات وأهازيج وشتائم هي عندهم في منزلة التحيات المباركات ! ثم سكنت الضجة بعض الشيء وتبين من هنا وهناك نداء مفهوم ، وشرع اثنان في قافية من القوافي المعروفة في محافل الاعراس والموالد المصرية . وكأنهما علما بمقدم الصحفي الطارىء على السجن في تلك الليلة فجعلا للصحافة قسما من هذه المساجلات المحفوظة :

ـ الاولاد تنادي وراك وتقول

ـ ايش معنى

ـ المؤيد ! المؤيد ... وهو يعني « المقيد » .

■ □ ■

ـ فوق راسك يا معلم علي

ـ ايش معنى

ـ المقطم !

وهذه حقيقة واقعة وليست بمجاز ! لأن بناء السجن واقع في حضن جبل المقطم .

■ □ ■

ـ الرغيف في سقف بيتكم

ـ ايش معنى

ـ كوكب !

■ □ ■

ـ تطلع من هنا تقابلك في البيت

ـ ايش معنى

ـ الحماره !

وقس على ذلك ما يقال ، وما يسمع كرها ولا يقال .

أما أنا فقد أظلمت الحجرة عندي ظلامين ، لأن النافذة المغلقة حجبت كل ضياء يتسلل الى الحجرات من فناء السجن المنار بنوره الضئيل ، فلم أستطع أن أعرف مكان الكوب ولا سلة الطعام في ذلك الظلام ، ولبثت أسمع الاصوات تخفت وتخفت حتى انقطعت أو كادت في نحــو الساعة التاسعة كما أنبأتني الساعة العربية التي تدق في مسجد القلعة ، ولم يبق من مسموع الا وقع أقدام الحراس على البلاط ، والا صيحاتهم كل نصف ساعة يطيلونها ويتنافسون في اطالتها . فذكرتني مبيت ليلة على حدود الصحراء ، أسمع فيها صياح الذئاب .

■ □ ■

التهريب

تقدمت في علم السجن بعد يوم واحد خطوات سريعات ، وعلمت مركز الدور الذي أنا فيه ــ وهو الدور الخامس ــ بين أدوار السجن عامة ، وعلمت ما له من الشرف والوجاهة المرموقة في تلك المدينة الصغيرة التي يسكنها نحو أربعة آلاف ، فانه هو محور حركة التهريب والحيل والمناورات .

وليس التهريب في السجون بالشيء الهين ولا بالمطلب اليسير ، لأنه هــو الدفاع الوحيد الذي ينتقم به المسجونون مــن الاسوار والقيود والحراس ، وهو فسحة الحرية الباقية لمــن فقدوا الحرية . فعليه وحده تنصب جميع الجهود والحيل والخبائث . وله وحده تجارة واسعة النطاق تجري على معاملات خاصة ولغة خاصة ومواصلات خاصة ، لا يكفي للعلم بها يوم واحد . ولكن لا يمضي يوم واحد على السجين حتى يأخذ في العلم ببعضها ، ثم لا يزال في الافتنان والمزيد ما شاء الله أن يهبه من سعة الفهم والنبــوغ !

والتبغ والحلوى هما عماد المهربات جميعا في السجون ، وهما السلعة التي يغالي بأثمانها من يطلبونها هناك حتى يبلغ ثمن اللفيفة الواحدة خمسة قروش . وثمن عود الثقاب قرشا أو أكثر ، وثمن القطعة « من الحلاوة الطحينية » كثمن اللفيفة من التبغ وربما زاد عليها في بعض الاحيان .

ولكل سلعة من السلع المهربة ، بل لكل شيء من الاشياء التي يتصل بها السجناء رمز من الرموز ، يعرفه كل من في السجن ولكنهم لا يزالون

مصطلحين عليه بعد انكشاف سره وافتضاح صفره • فالحارس يعلم أن « الزمارة » هي اللفيفة ، وأن « العين » هي النار من ثقاب أو غير ثقاب ، وأن « العربة » هـي الحارس نفسه ، وأن السجين الذي يقول لزميله : « حاسب العربة فايتة » انما يعني أن الحارس في الطريق • ولكن السجناء مع هذا قد ألفوا الكناية والتخفي والزوغان فنسوا الكلمات الواضحة وصمدوا على هذه المصطلحات والرموز •

والدور الخامس فيه سجناء المحاكم المختلطة أو « الحمايات » كما يسمونهم هناك • وهم مميزون بطعام غير طعام السجن يشتمل على الخضر واللحم والفاكهة والحلوى كل يوم ، ولهم في الافطار كوب كبير من الشاي وبيضتان • وفي المساء جبن أو مـا شابهه من طعـام محرم على سائر المسجونين •

وفي الدور الخامس قسم آخر من سكان السجن المجدودين في نظر الزملاء الآخرين ، وهو قسم المحبوسين على ذمة التحقيق الذين يسمح لهم « النظام » بالطعام واللباس من المنازل ، فيصل اليهم كل يوم دجاج ولحوم وخضر مطبوخة وفاكهة وحلوى وألوان من « الثمرات » المحرمة المشتهاة في ذلك الجحيم •

وهؤلاء يشتاقون « التبـغ » ان كانوا مـن المدخنين فيجدون في « العنبر » من يشتاقون الحلوى واللحوم ويملكون اللفائف أو «الزمامير» للبيع والمقايضة ، فتنعقد الصفقات وتظهر البراعة والافتنان في التوصيل والتسليـم •

على أن البيع لا يجري كله بالمقايضة ولا غنى فيه عن « النقد » في كثير من الاحيان ، أما حمل النقد فممنوع في نظام السجن ولكن هل يمنع بلع النقد واحتواؤه في الاجواف ؟ هيهات ! ومن هنا كانت العملة المختارة في السجن هي قطعة القرشين الفضية وقطعة « نصف الجنيه » الذهبية ، وما عدا ذلك من القطع فهو شذوذ يتوقف عليه شذوذ المعدات والامعاء ،

ومنها ما تصل طاقته في الشذوذ الى ربع ريال ، وقد تزيد على ما يقال !

■ □ ■

ولم تمض علي ليلة في السجن حتى عرف الخبثاء المتربصون أن هناك فرصة للاستغلال لا ينبغي أن تضيع ، فاستغلوا جهلي بكل ما استطاعوا من وسيلة وحيلة ، وكانوا موفقين كل التوفيق .

جاءني خادم الحجرة في الصباح الاول بعد الافطار وأنا لا أعلم بطبيعة الحال شيئا عن المحظورات والمباحات وأولها اعطاء الطعام والفاكهة لخدام الحجرات ، فأعطيته كل ما بقي من الموز والفاكهة في السلة ، ففرح بها وتهلل وجهه وأسرع فخبأ بعضها تحت لبدته ولف بعضها في سرواله ، وتسلل من الحجرة الى حيث لا أعلم . فأدهشني أنه لم يأكل ما أعطيت وظننت أنه يخفيه عن أصحابه حتى ينفرد بأكله في ناحية ، ولكني عرفت بعد ذلك أنه باع معظمه بزمارة ! ! وقنع منه بأكل القليل .

وجاءني بعد ذلك فسألني :

ــ هل تعبت كثيرا من البق والبراغيث ؟

قلت :

ــ كلا ! لم أشعر لها بوجود .

قال :

ــ لكن هذه « الملاعين » ستظهر قريبا عندما تشم « نفس الناس » وتزعجك كثيرا ، ومن العجيب أنها لم تظهر أمس والحجرة مهجورة والاغطية مخزونة ، فلا بد من تطهير السرير وحدائد النافذة والباب للقضاء عليها ...

وطفق الخبيث يهول لي في فتك هذه الحشرات وألاعيبها في الاختفاء والظهور كأنها تحاور السجناء وتلاعبهم لعبة «الاستخفاء» عن عمد وتدبير .

وخشيت أن يكون ما قال حقا ، لأن المزعجات كلها مسلطة على السجناء في اليقظة والرقاد .

فقلت :

ــ وكيف نقضي عليها ونستريح منها ؟

قال :

ــ بالنار ، اطلب سعادتك موقد الغاز من السجان وهو لا يضن به على مثلك ، وقل له انك تريده لتطهير الحجرة من البق والبراغيث •

فشكرت له اخلاصه ، وانتظرت حتى جاءني السجان فطلبت منه « الموقد » وذكرت له الغرض منه ، فلم يضن به كما قال الرجل • بيد أني علمت بعد لحظات قليلة حقيقة ذلك الاخلاص الذي شكرت صاحبنا عليه !

فما هو الا أن تسلم الموقد مشعلا حتى أسرع قبل كل شيء فأشعل منه لفة من خيوط الصوف ونظر الى الدور الاعلى ــ وهو الدور السادس ــ فاذا بلبدة تسقط على مقربة منه كأنها سقطت عفوا بغير طلب ، واذا به يدس فيها اللفة المشعلة ويطويها طيا محكما ويقذف بها حيث سقطت ، وهو يقول في صوت بين الهمس والنداء : « خذ التليفون ؟ »

والتليفون كما علمت بعد ذلك هو الخيط المهرب على هذا المنوال لاشعال الزمامير !

قلت : « يا شيطان ؟ أهذا هو البق الذي تريد احراقه »

فحاول أن يتمادى في الكتمان والزوغان • ولكنه ضحك على الرغم منه وأفصح لي بسر هذه « التهريبة » التي كانوا لا يظفرون بها الا في الفلتات • وقال لي انهم كثيرا ما يشعلون خيط الصوف على طريقة قدح الزناد ، ثم يقذفون به في الحجرة المجاورة فيتلقاه أحد السجناء على ذراعه الممدودة خارج « شعاع » الباب ثم يلقي به الى جاره حتى يدور في الدور كله • ولذلك سموا هذا الخيط بالتليفون !

■ □ ■

وماذا يصنع المدخن الذي يود التدخين لا محالة ومعدته خاوية من « ذات القرشين » أو من الزرار كما يسمون تلك القطعة في لغة الاصطلاح ؟

أتراه يقلع عن تلك العادة ؟ كلا ذلك آخر ما يفكر فيه ، بل ذلك حديث لا يفكر فيه آخرا ولا أولا فيما يظهر • وانما يعتمد على الثقة ومعاملات القرض والتسليف حتى يفرجها الله • وإنها لمعاملات معترف بها تسري بين السجناء سريانها بين الطلقاء • فلكل سجين « حسابه الجاري » الذي يليق بسمعته المالية وكفاءته « السجنية » • وهي على نقيض الكفاءة التي توجب الثقة في معاملات المصارف والمتاجر الخارجية • لأن أسوأ الناس سلوكا وأطولهم اقامة في السجن هو أحقهم بزيادة الاعتماد وحسن السمعة • وأما البريء أو المحكوم عليه في أمر يسير فذلك في حكم المفلس المعدم الذي لا يوثق به في التسليف من هنا الى هناك !

ولا أزال أذكر صرخة الفزع التي سمعتها من أحد تجار التبغ المشهورين حين أبلغوه أن مدينه « فلانا » قد بريء في محكمة الاستئناف بعد أن كان ميئوسا من براءته وكان هو أول اليائسين المتفائلين ببقائه ••• فقد صاح التاجر فيمن أبلغوه شامتين مستهزئين : « ويحكم ماذا تقولون ؟ هل برأوه النذل الوضيع ؟ » ثم عاد فاستسلم وأناب وقال لمن حوله وكأنه يحدث نفسه : « ولكن الحق علي أنا المغفل الذي أثق بمثل هذا الكاركي الحقير ! » وكان الاولى به أن يقول : « هذا البريء الحقير » بدلا من كلمة الكاركي التي هي عندهم اصطلاح على من دخل السجن محكوما عليه لأول مرة • ولعلهم أخذوها من كلمة « الكاكي » الذي يشبه لونه لون العلامة الموضوعة على لبدة هذه الفئة من فئات المسجونين •

وربما تبادر الى الذهن أن ديون السجن عرضة للغدر والاهتضام اذ كان صاحبها لا يجسر على المطالبة بها خشية العقاب اذا هو أقر على نفسه بالتهريب والاتجار بالمحظورات ، ولكن الحقيقة أن ديون السجن كديون الشرف عند جماعة المقامرين هي أحق الديون بالضياع وهي مع ذلك أبعد الديون عن الضياع • ولا شك أن الدائن يستميت في رد حقه على قدر حاجته الى الاستماتة والمجازفة • وهو يحتاج الى الاستماتة والمجازفة كلما

قل اعتماده على المطالبة المشروعة والاصول المتفق عليها • فيذهب في طلب الدين المهرب الى أقصى حدود العنف والارهاب ، ويلقي في روع غريمه أن رد المال أهون من الاصابة التي لا مفر منها اذا هو تذرع بالغدر والمحال • وربما استنكر «الرأي العام» بين هؤلاء اللصوص أن يأكل المدين مال الدائن في غيابة السجون ، وهم جميعا لا يستنكرون الخطف والسطو والاختلاس في فضاء الله الرحيب • لأنهم يحتاجون في السجن الى تجارة المهربات ويعلمون انها تجارة قوامها الثقة والسداد ، وان كان هذا لا يمنعهم ان يعجبوا « بالشاطر » الناجح الذي يستدين ثم يتمكن من الزوغان !

ومن هؤلاء الاشقياء من يعجز عن معاملة التسليف فيهجم على التزييف وهو يتوقع ما وراءه من الخطر والعقوبة القاصمة •

رأيت من هؤلاء اثنين جاء بهما أحد السجانين الى مكتب السجان الاول في انتظار عرضهما على حضرة المأمور • وكنت أجلس أثناء الرياضة في فناء السجن بين المكتبين المتقابلين •

فبسط لي السجان المصاحب لهما يده وقال : « انظر ! هذا من تزييف هؤلاء المجرمين » وعد أمامي ثماني عشرة قطعة من ذات القرشين صنعها ذانك السجينان في المعمل واتقنا صنعها جد الاتقان ، مع السرعة وقلة الادوات وشدة الحذر من الرقباء ، فلا تختلف القطعة الصحيحة الا بالرنين وهو محك مأمون في داخل السجون ، ومن ذا الذي « يرن » الزرار في لحظة التهريب ؟ فالشياطين يعلمون أن صاحب البضاعة سرعان ما يتناول القطعة بيده حتى يقذف بها الى معدته ، ثم يختلط الصحيح بالزائف في ذلك الكيس الحي وتختفي الشبهة باختفاء القطعة بين أحشاء التاجر المخدوع •

قال أحدهما لصاحبه : « فيها خمس سنوات يا فلان »

فاضطرب صاحبه • وقال : « قسمة ونصيب ••• وكل هذا من أجل تفسين لا طلعا ولا نزلا »

ثم التفت نحوي كالمستغيث سائلا :

أصحيح أن الحكاية فيها خمس سنوات ؟
قلت :
ــ لا أظن •
فنظر الي الاول نظرة يتنازعها ادعاء العلم بأحوال السجون ولهفة الخلاص • وقال لي كأنه يتحدى ويستزيد من الاطمئنان في وقت واحد :
ــ وكيف هذا وقد رأيت بعيني جماعة عوقبوا بالسجن خمس سنوات لأنهم زيفوا النقود ؟
فطاب لي أن أداعب مهارة هذين الشيطانين وأخذت أشرح لهما ما أعتقد من الفارق بين التزييف في الخارج والتزييف في داخل السجن ، وقلت لهما ان المزيف في الخارج يختلس حق الحكومة وحق الناس ، ولكن المزيف هنا يختلس ما هو مختلس بطبيعته ومستحق للمصادرة عند ضبطه ، وليس على هذا عقوبة أكثر من عشرين أو ثلاثين جلدة ، وأيام أو أسابيع من سجن الانفراد والخبز القفار •
قال :
ــ لتكن مائة جلدة ، وانطلق يدعو لي بالطمأنينة وارتقاء المراتب والصحة والعافية وكل شيء •••
قلت :
ــ هداك الله يا صاح • ولكن هذه الدعوات الصالحات هل تراها « عملة صحيحة » عند صيارفة السماء ؟ !

القـــراءة

يسمح النظام في « قره ميدان » بالقراءة للمحجوزين على ذمـة التحقيق والمحكوم عليهم بالحبس البسيط ، وتنحصر القراءة المسموح بها في الكتب الدينية والعلمية والادبية التي « لا تخـل بالنظام ». مـا عدا الروايات وكتب التسلية ، ويرجع الأمر في التفريق بين مـا هو جـائز من المقروءات وما هو محظور الى رأي الموظف « الكتابي » الذي يتفق وجوده ساعة وصول الكتاب ، لأن الموظفين العسكريين يترفعون عن الخوض في هذه المسائل « الملكية » ولا يشعرون بغضاضة على أنفسهم من القائها على كاهل حملة الاقلام ، ولكن ما الحكم في اللغات التي لا يعرفها الموظف الحاضر ؟ وما الحكم في الروايات التي هي من صميم الادب ؟ وما الحكم في الكتب التي لا يلوح عليها أنها روايات الا لمن قرأها وأحاط بتراجم أصحابها ؟ وما الحكم فيما يخالف النظام من التصانيف اذا كان المراقب الفاضل لم يسمع قط باسم كارل ماركس ولا كروبتكين ، ولا مانع عنده من إجازة كل تأليف لاخوان هذا الطراز ؟

الحكم في ذلك كله للمصادفة والمزاج ، فكثيرا مـا يتوغل في السجن من أجل هذا كتاب يقشعر له بدن النظام الاجتماعي وكل نظام في الوجود ، وكثيرا ما ينتظر الكتاب الاذن بعبور الجدران أياما وأسابيع حتى يرسل الى الادارة العامة ويعثر هناك على مـن يعرف الالمانية أو الاوردية أو الارمنية وما شابهها اذا كان مكتوبا باحدى هذه اللغات .

وقد وقع اختياري عندما وصل الي اعلان دعوة التحقيق على كتابين

في التاريخ والادب ، وهما الطبعة الجديدة من مختصر تاريخ العالم للمصلح الانجليزي « هـ• ج• ولز » ، وسيرة بيرون للكاتب الفرنسي « اندريه موروا » مترجمة الى الانجليزية ، فأفردتهما جانبا ووضعت علامات على الكتب الاخرى التي سأطلبها بعد الفراغ من هذين الكتابين •

ولم يكن اختيارا في الحقيقة ذلك الذي هداني الى اختصاص تاريخ العالم وسيرة بيرون بالقراءة في أيام السجن الاولى ، ولكن الكتابين كانا قد وصلا الي في البريد الاخير فوجدت الفرصة سانحة للفراغ منهما في هذه العزلة المقسورة !

على أنني لو تعمدت الاختيار المناسب « لمقتضى الحال » كما يقولون لما اخترت غير كتابين من هذا الباب وعلى هذه الوتيرة ، فليس أحب الى الانسان من أن يعوض حركة الجسم اذا فقدها بحركة الخيال ، وليس أقرب الى المعقول من أن يلتمس في عالم القراءة ما يعز عليه في عالم الواقع ، وأي قراءة أليق بالسجين على هذا الاعتبار من تاريخ يصاحب به حركة الانسانية بأسرها من بداية نشأتها ومن قبل نشأتها الى يومها الحاضر ؟ أو من سيرة رجل قضى حياته كلها جامحا بين رحلات الخيال ورحلات السياحة ورحلات الهوى والمغامرة ؟

فقد أحسن القدر الاختيار لي فيما أرى ! ومن قبل ذلك بأعوام أذكر أنني كنت أنتقي ما أقرأ وأنا مريض يائس من الشفاء ، فكانت يدي تتجه الى نوعين من الكتب بينهما مسافة بعيدة من الاختلاف في الموضوع والوجهة ، وأعني بهما الكتب التي تغلب عليها النزعة الجسدية والمتع المادية والكتب التي فيها بحث عما وراء الطبيعة واستكناه لحقائق الارواح وعالم الغيب ، وما أشد الاختلاف بين الموضوعين ؟ وما أبعد المسافة بين النوعين ؟ ولكن الصلة التي تجمع بينهما أقرب الجمع بعد ذلك هي « التعويض » النفسي الذي يشتركان فيه ، فكلاهما كفيل بتعويض المريض الذي يحس من نفسه انه سيفقد الحياة ، وانما يعوضانه في عالم الخيال والتفكير ، لأن

حياته الواقعية تريه مقدار الحاجة الى عالم الحس كما تريه مقدار الحاجة الى عالم الروح •

■ □ ■

على أنني لم ألبث أن عرفت أن للكتاب في السجن فائدة غير فائدة القراءة ، وربما كانت فائدته الاخرى هي المقصودة في كثير من الاحيان عند كثير من المسجونين ، ولا سيما المصاحف وكتب الدين على اختلاف الاديان •

أما هذه الفائدة الاخرى فهي الاستخارة ! وهي أن يفتح القارىء الكتاب على الصفحة اليمنى ثم يعد سبعة أسطر ويقرأ ما يصادفه في السطر السابع ، فاذا هو المصير الذي ينتظره و « القرعة » التي تصيبه بغير تدبير ولا مجاملة ولا مداراة • فاذا كان الكتاب مصحفا أو سفرا دينيا كائنا ما كان فذاك اذن أشبه بالوحي السماوي وصوت النذير من عند الله •

ولا أظن أحدا من القراء لم يسمع قائلا يقول في دهشة وغضب : « أتريد أن أغالط نفسي ؟ ••• » كأن مغالطة النفس أبعد الاشياء ! وكأن الانسان لا يغالطه الا الآخرون ولا يغالط هو الا الآخرين •

ولكن ساعة من ساعات الضيق الشديد أو الحزن الشديد أو اللهفة الشديدة لتُريَنَّ الانسان — كل انسان — أن المغالطة الكبرى انما تكون من جانب النفس لا من جانب الخادعين بين الاصدقاء والاعداء ، فهو يصدق الرجاء أو العزاء لأنه يحتاج الى تصديقه ، لا لأنه يقيم البرهان عليه ويتبين الوقائع التي ترجحه وتقويه ، والمقياس الوحيد لصدق العزاء في ساعة الضيق انه ضروري لازم لا أنه صحيح معزز بالبرهان ، ولهذا يغتبط المسجونون بالبشارة التي تأتي من الاستخارة كأنها خبر وثيق لا كذب فيه ، بل يغتبطون بها لأنها خبر لا يضير فيه الكذب ما دام يسر ، ولا يفتقر الى تمحيص الغد ما دام مقبولا في حينه •

وقد كان بعض المسجونين الذين يلقونني عند الحلاق ويرونني في

غفلة من الحراس يحدثونني ببشائر « الاستخارة » والاحلام كأنهم يتحدثون « بالاسانيد » والبينات ، فأشكر لهم مودتهم ولا أحب أن أزعزع فيهم ركنا من أركان العزاء ، وما أوهى أركان العزاء جميعا عند بني الانسان !

كان باب الحجرة عندي مفتوحا للتنظيف في صباح يوم ، فجاءني زميلي ودليلي وجاري السيد علي شاهين يحمل مصحفه ويعلمني هذه الفائدة الجديدة من فوائد الكتب بين جدران السجون ، ومن المصادفات المدهشة أنه أخذ في الاستخارة لنفسه وانفتحت له احدى الصفحات اليمنى من سورة يوسف فقرأ في السطر السابع : « ... سوءا الا أن يسجن أو عذاب أليم . قال هي راودتني »

فانتفض صاحبنا كأنما سمع الحكم بالسجن يتلى عليه ! وحق له أن ينتفض لأن المصادفة في الحقيقة كانت من المدهشات التي قلما تتفق في هذه الاستخارات ، اذ ليس في المصحف كله آية تناسب استخارة السجين الذي سيحكم عليه كما تناسبها هذه الآية . ولكن ما أعمق معين المغالطة في نفس الانسان كلما احتاج الى الرجاء والعزاء ! . فان صاحبنا لم يقف عند السطر السابع بل زعم أن أصول الاستخارة تقضي بمتابعة المعنى الى تمامه ، وجعل يقرأ ويقرأ حتى وصل في ختام الصفحة التالية الى الآية التي تقول : « فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم »

وكنت أقلب في كتاب « تاريخ العالم » فقال لي صاحبي : « ألا تستخير عندك ؟ »

قلت : « وهل تصلح الكتب الافرنجية للاستخارة ؟ »

قال : « جرب ! »

ولا أظن شيئا يبعث الاسى على تاريخ بني الانسان المساكين كما تبعثه الاستخارة في كتاب تاريخ عام . فما أذكر أننا وقفنا على سطر الا وكان فيه عراك أو نكبة أو معنى محزن ان كان فيه معنى على الاطلاق ،

وفي احدى هذه الاستخارات ظهرت لنا آية قرآنية مترجمة علمت موضعها بقلم رصاص كان مع السيد علي شاه ين، ولم أكن أنا أحمل قلما ولا رضيت أن يحمل الي شيء من المهربات ، فاذا السطر السابع منها هكذا :

Grieve at what had escaped you, nor at what befell you; and (Allah is aware of what you do)

وتمام هذه الآية من القرآن في سورة آل عمران : « اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ، فأثابكم غماً بغم لكي لا تحزنوا على مـا فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بمـا تعملون ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ... »

■ □ ■

وفي اليوم التالي لدخولي السجن أبلغت أن المصلحة ترخص لي في شراء الصحف التي أريدها على حسابي ، فتعبنا جدا في احضار صحف المساء قبل الغروب واغلاق الحجرات ــ وهي توزع في ميدان القلعة نحو الساعة الرابعة ــ لأن البائع الخبيث علم أن هذه النسخ « مضمونة البيع » فالاولى به اذن أن يبدأ ببيع النسخ « غير المضمونة » ! ! ولم يشأ من أجل هذا أن يحضر الى السجن وفي ضوء النهار بقية ، وأصر على ذلك مع تنبيهه مرة بعد أخرى ، وان كان هذا لا يمنعه أن يلقاني بالدعاء والابتهـال كلما خرجت من السجن وكلما عدت اليه في طريق التحقيق والمحاكمة !

وربما علم بعض حضرات القراء أنني شرعت في أيام سجني أتعلم اللغة الفرنسية ، وهي مصادفة من المصادفات أيضا لم تكن تجول في نيتي عندما دخلت السجن واخترت كتب القراءة التي تقدمت الاشارة اليها ، وانما فكرت في ذلك على أثر تحية وجيزة لقيتها من رجل ايطالي مهاجر وضعوه في الحبس ريثما يتثبتون من « جنسيته » في الوكالة الايطالية . فقد اقترب مني هذا الرجل يوما ورفع قبعته محييا وهو يقول بالفرنسية : « يا حضرة النائب .. » ثم شفع ذلك بكلام كل ما فهمته منه يومئذ أنه

قرأ أخبار قضيتي وأنه يسره أن يراني ويبلغني تحياته • فحاولت أن أفهمه جوابي بالانجليزية فلم يفهم الا قليلا لا يزيد على ما فهمت منه ! فسألت نفسي : وما بالي لا أتعلم الفرنسية في هذه الفرصة ؟ أمامي الآن نحو خمسة أشهر وهي مدة كافية للالمام بالمبادىء ، ولم يكن وقت التحقيق صالحا للشروع في هذا البرنامج لأنه وقت غير محدود • فلنبدأ الآن فقد عرفنا بعد صدور الحكم بالحبس البسيط مدى ذلك الوقت المحدود •

■ □ ■

وأنت أيها القارىء ــ وقاك الله ــ لا تعلم كما علمت أنا في السجن أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول « قلم » الى حجرة سجين باذن من مصلحة السجون ، فان الترخيص للسجين بحمل القلم يقتضيه كما قيل لي ان يكتب عريضة لادارة السجن ، وأن ترفع هذه العريضة الى مدير المصلحة ، وأن ترفع بعد ذلك الى كل من وزير الداخلية ووزير الحقانية ، وهناك يصدر الامر بالرفض أو القبول اذا شملته رعاية خاصة ، والارجح أن يرفض لغير سبب الا أن الرفض مباح للرئيس وأنه في معظم الاحيان شرط من شروط الرئاسة •

ولم كل هذا العناء ؟

نعم ان القلم ضروري لتعليم الاسطر كما تعودت في دراساتي ومطالعاتي ، ثم تدوين الكلمات التي تراجع وتحفظ ، ولكنني استعضت منه بالظفر أحز به العلامة في الهامش وفي خلال السطور ، وبثني الصفحات في مواضع المراجعة والاعادة • واستغنيت عن كتابة العرائض التي يقول فيها جبرائيل لميكائيل وميكائيل لاسرافيل واسرافيل لعزرائيل ، ثم لا ينتهي بعد ذلك الى كثير ولا قليل •

ومن طرائف المقترحات التي سمعتها وأنا أبدأ دروس الفرنسية الاولى أن أدع هذه اللغة وأعد نفسي ــ بدرس الفقه والشريعة والتصوف ــ لأن أكون اماما واعظا في الاقطار الاسلامية ! وأن أفطن للحكمة الالهية التي

قيضت لي محنة السجن كما فطن لها صاحب الاقتراح الملهم بظهر الغيب .

وجعل صاحبي ــ أعني صاحب الاقتراح ــ يسأل ثم يجيب نفسه :

ــ هل تستحق أنت بلاء السجن ؟ لا ولا ريب !

اذن لا يظلم ربك أحدا ! وما أراد ربك بسجنك الا نفعك ونفع المسلمين بك ، وأن لا تكون غاية سعيك خدمة الوطنية المصرية دون الجامعة الاسلامية . فدع الفرنسية واقرأ في الاشهر الباقية كتب التفسير وأصول الدين وتجرد لما جردك له الله ، وثق أنك هنا لأمر عظيم .

وهكذا كان يحاورني من حين الى حين رسول تلك البشارة المغموطة، والهداية التي تخلق الهداة على الرغم منهم ! ورسولنا هــذا هو هندي متورع محبوس في قسم الحمايات لتهمة اختلاس في تجارة كبيرة ينكرها أشد الانكار ، ويزعم أن عداوته للحكومة في الحركة الهندية هي علة تلفيق التهمة عليه ، وكان لا ينقطع عن كتب التفسير والاحاديث يقرأها بالعربية فيفهمها بعض الفهم ولكنه يتكلم الانجليزية اذا أراد التبسط في الحديث .

وفارق الرجل السجن وفارق مصر وهو بغصة المحسور على ذلك الامام الذي هو واثق انه امام منتظر ، وواثق كذلك أنه قد ضيع بيديه الامامة التي أعده لها القدر ، وما أعجب الجمع بين الثقتين !

المنع والترخيص

كل شيء في السجن ممنوع حتى يصدر الامر باباحته والغاء منعه •

فالاصل في السجن « المنع » لغير سبب وبغير تفسير ، فاذا أبيح عمل من الاعمال وأجيز أمر من الامور ، فذاك الذي يحتاج الى سبب ويحتاج بعد ذلك الى ترخيص واستئذان •

وان هذه القاعدة وحدهـا لكافية لأن تجعل السجن سجونا كثيرة بعضها أضيق وأثقل من بعض • ولكنها مع ذلك رحمة سماوية اذا قيست الى الطريقة التي ينفذونها بها حرفا حرفا ومرة مرة ، بغير تصرف ولا قياس ولا مراعاة للنظائر والمناسبات •

فاذا أبيح الشيء مرة فانما يباح في حالة لا تسري الى غيرها وفي وقت لا يمتد الى ما بعده ، فلا يمكن أن تتكرر الاباحة ولو تكررت الدواعي والمناسبات ، ولا يمكن أن يباح الشيء الذي يشبهه تمام المشابهة ويجري مجراه في وصفه وفحواه ذهابا مع القياس والاستطراد • كلا ! بل كل شيء مباح بحرفه ووسمه ووقته وشخص المقصود بـه ، فاذا تغير الحرف أو الوسم أو الوقت أو الشخص فقد بطلت الاباحة وعاد المنع كما كان !

وبعض الامثلة غني عن الاسهاب في هذا الباب •

كان قوام طعامي خارج السجن الفاكهة والخضار الطازج ولا سيما في الصباح والمساء ، وقد ميزت من الخضار الجرجير والخس ، ومن الفاكهة الكمثرى الايطالية والجوافة ، لأن هذه الفاكهة تشتمل على خلايا وبذور تساعد الهضم بخشونتها مساعدة لا تقوم بها الثمار الاخرى •

فأما الفاكهة فقد فصلت فيها مصلحة السجون من قديم عهدها الاول فصل أنبياء بني اسرائيل في المباح والمحظور من الطعام والشراب • فهذا حلال وهذا حرام ، ولا نقض بعد ذلك ولا ابرام • وليست الكمثرى مما يسمح به ذلك « الحاخام » ، أما الجوافة فلم يحن أوانها من العام !

واختلف الحال في الخضار فلم يتنزل في أمره تحريم كذلك التحريم بين آيات الكتاب العظيم ، ولكن كهان الهيكل قد حجروا على ما أباح الكتاب واسعا فلبث « المنع » الاصيل في مكانه القديم لا يتراجع عنه ولا يريم !

كتبت اللجنة الطبية التي تقرر لي أصناف طعامي كل أسبوعين هذه العبارة في تذكرتي الصحية : « يصرف له خضار كالفجل والجرجير •• »

فمضت أيام وأنا لا أرى غير الفجل في كل غداء ، والفجل ، وقاك الله ، صنف يحتمله الهضم الضعيف يوما ثم لا بد له من أسبوع على الاقل لينساه ويجازف مرة أخرى بالرجوع اليه • فأما الفجل وحده ولا خضار غيره مطبوخا أو نيئا في كل غداء فذاك بلاء للهضم الضعيف وليس بغذاء أو دواء !

قلت : « فأين الجرجير ؟ »

قالوا : « ان الساعي الذي يذهب في طلب هذه الاصناف لا يجده في السوق ولا يسعه أن ينتظره حتى يعبر به الباعة في الطريق » •

قلت : « وما باله لا يشتري الخس مثلا أو الكراث ؟ »

قالوا : « ان اللجنة الطبية لم تسمح بغير الفجل والجرجير ! »

قلت : « بل سمحت بكل خضار لأنها لم تذكر الفجل والجرجير الا على سبيل التمثيل » •

قالوا : « لا بد من سؤالها والاستئذان منها ، لانها لو شاءت لذكرت أسماء الاصناف الاخرى ولم تقصر الاشارة على هذين الصنفين » •

وبديه أن السجن مدرسة كما يقولون ، ولكنه ليس بالمدرسة التي

ألقي فيها درسا في معنى التمثيل بالكاف أو في معنى التخصيص والتعميم !

■ □ ■

وسمحت لي اللجنة باللبن في طعام الافطار فكأنها قد سمحت لـــي بكوب فارغ لا شيء فيه ، لأن اللبن الذي يصل الي في الصباح الباكر لا يكون صالحا للغذاء ، ولا ينبغي أن يصلح لغير الاهراق قبل ذلك بساعات.

وبيان ذلك أن اللبن الذي يجلبه المتعهد الى مستشفى السجن انما « يسلم » في الساعة العاشرة من كل صباح .

والساعة العاشرة موعد حسن لمن يتناولون اللبن في الغداء ، وموعد لا بأس به لمن يتناولونه في العشاء ، على شريطة أن يكون محلوبا في صباح يومه ولا يكون « بائتا » متخلفا من اليوم الذي قبله .

فأما في طعام الافطار فأين هو المستشفى الذي يطعم مرضاه لبنا مضت عليه أربع وعشرون ساعة في الصيف أو في الشتاء ؟

وخطر لوكيل السجن الذي خاطبته في هذه المسألة عند مروره بي ساعة الرياضة أن « يتصرف » فيها بعض التصرف على خلاف القاعدة المرعية هناك ، فأمر رئيس المرضين أن يضـــع المقدار اللازم لـــي من اللبن في « الثلاجة » من ساعة وصوله حتى ساعة تقديمه في صباح اليوم التالي ، عسى أن يمنع ذلك فساده وتخثره ويبقيه سائغا سليما حتى موعد الافطار .

لكن رئيس المرضين ذهب الى المأمور يستأذنه كما هي العادة في كل شيء ، فأنكر المأمور هذا الحل « الهرطقي » لأنه بدعة عجيبة لم يتنزل بها الوحي في « الناموس » القديم ، ووجب أن يهرق اللبن هدرا وأن يلغى الافطار عليه حتى تعود اللجنة الطبية الى فحص جديد .

وليس يخفى أن « النظام » لا يمكن أن يمنع وضع اللبن في ثلاجة المعمل الملحق بالمستشفى أو في أي مكان يحتويه ، ولا يمكن أن يمنع صيانة اللبن من الفساد بغير كلفة ولا نفقة زائدة ما دام الثلج لا ينقطع عن المعمل في صيف ولا شتاء ، بل صيانة اللبن أنفع للمستشفى وأقل نفقة عليه من

شراء لبن جديد لي في الصباح الباكر قبل حضور الاطباء .

ولكن « الناموس » لم ينص بالحرف والوصف على قنينة من اللبن توضع في ثلاجة لأجل سجين يسمى عباس العقاد فهو قد نص اذن على المنع والتحريم ! !

■ □ ■

على أن الاخطر والاغرب في باب الضحك والفكاهة ، لولا ما فيه من مساس بالحياة ، هو قصة انتقالي الى المستشفى أو انتقال المستشفى الي ، ثم ما كان بعد ذلك من فصل حكيم في هذه المشكلة العضال التي ليس لها الا ذكاء سليمان بن داود .

وسيعجب القارىء من « عنوان » هذه القصة كما أسلفته لأنه لن يتخيل أن هناك مشكلة تقوم بين مريض ومستشفى لينتقل المريض الى المستشفى أو ينتقل المستشفى الى المريض .

ولكنه اذا عرف القصة على جليتها لم يستطع أن يتخذ لها عنوانا أصدق من ذلك العنوان ، فهي في الواقع خلاف بيني وبين المستشفى قد انتهى ــ بحكمة سليمانية ــ على أن ينتقل هو الي بدلا من انتقالي أنا اليه.

وجلية القصة أن الاطباء قرروا بعد أيام من دخولي السجن وجوب وضعي في مستشفاه ومعاملتي في اختيار الطعام والفراش وأوقات الرياضة معاملة المرضى .

ولكن ماذا حدث بعد هذا القرار ؟ هل نقلت الى المستشفى كما يقضي العقل و « النظام » ؟

كلا ! وانما الذي حدث أنهم اعتبروا الحجرة التي أنا فيها ملحقة بالمستشفى وانفض الاشكال ! !

وقد أبلغوني ذلك الحل الحكيم فأضحكني على الرغم من مضض السجن وتعب الجسم وسوء العاقبة ، وأصبحت أعذر ذلك العطار الذي حسب أنه استراح من النمل بكتابة كلمة الفلفل على حق السكر ، فان

هذه الحيلة العطارية ليست بأغرب من حيلة السادة المشرفين على السجون الذين كتبوا اسم المستشفى على حجرة العنبر ، فأصبحت بهذه المعجزة السحرية مكانا صالحا للعلاج ، مشرقا بالضياء ، متوهجا بحرارة الشمس ، معزولا من الرطوبة ! ! ولا أحسب الفرق عظيما بين من يحاول تضليل العناصر الطبيعية بكلمة على حق كبير ، ومن يحاول تضليل النمل بكلمة على حق صغير ، فهما ولا ريب في البراعة سواء ..

ولما قلت لهم ان المستشفى فيه حجرة تدخلها الشمس ويتخللها الهواء وتصلح للاقامة فيها قالوا : « وكيف تقيم فيها ؟ أليست فيها دواليب الملابس ؟ »

قلت : « وهل يستحيل نقل هذه الدواليب ؟ أليست صحة مريض أولى بمكان في المستشفى من دولاب ؟ »

فدار البحث أياما بين السجن والادارة العامة والاطباء والنيابة وغيرها من المراجع التي لا أدريها ، ثم ظهر بعد طول البحث وشدة التنقيب أن الدولاب الاصيل أولى بمكانه في المستشفى من الانسان الطارىء الغريب !

وغاية ما صنعوه بعد جهد جهيد أنهم نقلوني من الحجرة الاولى الى حجرة أخرى في طرف العنبر مزيتها على زميلتها أن الشمس تنالها — في الظاهر — من حائطين اثنين بدلا من حائط واحد .

ولما انتقلت اليها واقترحت عليهم أن يفتحوا في الحائط الآخر كوة صغيرة تنفذ منها الشمس الى داخل الحجرة ، حسبت من دهشتهم واستغرابهم أنني طلبت اليهم أن يفتحوا ثلمة في الدين أو ثلمة في نظام الدولة .. سامحني الله !

غير أنهم في هذه الحجرة الجديدة قربوا الشبه بينها وبين المستشفى من وجوه مختلفة غير كتابة العنوان على الباب ، فأغلقوا شعاع الباب بالزجاج وجعلوا للنافذة رتاجا يفتح ويقفل ، ومدوا اليها أسلاك النور الكهربائي الذي لا ينقطع طول الليل عن المستشفى الاصيل ، ولم يفعلوا

ذلك الا بعدما استحال ترك الحجرة بغير نور ، وبعدما ثبت أن بقائي في الظلام الحالك بلا قراءة ولا حديث ولا شاغل من الساعة الخامسة في المساء الى الساعة السادسة في الصباح ، أسبوعا بعد أسبوع وشهراً بعد شهر هو علاج وبيل لا ينصح به أحد من الاطباء .

ولكنها اباحات السجن ولا بد في طي كل اباحة من قيد أو قيود .

فالمفتاح الذي ينير ويطفيء النور لا بد أن يركب عند الباب من خارج الحجرة ، ولا يصح في حكم النظام أو حكم « الناموس » أن يركب في داخلها لكي أفتحه وأقفله حين أحتاج الى فتحه واقفاله .

وهو في تركيبه خارج الحجرة يظل معرضا لكل سجين يعبر بالعنبر أو يمشي في الدور ، ولا يكون معرضا لسجين واحد يحرص عليه لأنه ينير له ويعينه على شأنه ، ولكنه النظام ولا تفسير ولا تأويل لما يقضي به النظام !

فاذا فرغت من القراءة الساعة العاشرة أو الحادية عشرة أو الثانية عشرة فسبيلي أن أقرع الباب السميك أستدعي الحارس ليتولى هو بيديه « شعائر اطفاء النور » . فاذا كان قريبا متيقظا في تلك الساعة فالخطب هين ، والدعوة لا تطول الا ريثما تجاب . أما اذا ابتعد أو نام فالحل الوحيد في حكم النظام هو ازعاج السجناء الذين معي في الدور جميعا لادارة المفتاح الصغير ، فان لم يكن هذا فمبيتي سهران الى لصباح لأن أعصاب عيني لا تألف الغمض في الضياء .

١ ـ أخـــلاق

الالفة شرط المعرفة •

ولا تصدق هـــذه القاعدة على شيء كما تصدق على أخلاق الناس واستطلاع أسرار الانسانية التـــي لا تنكشف ــ وليس في الوســـع أن تنكشف ــ من اللقاء الاول •

فنحن لا نعرف شعبا من الشعوب ولا فردا من الافراد حق عرفانه حتى نقاربه ونعاشره ، ونزيل ما بيننا وبينه من حجاب الغرابة الذي يمنعنا أن ننفذ الى قرارة نفسه وتتغلغل الى بواعث أعماله ومناشيء احساسه ، وما يراه هو طبيعيا عاديا في نظره ويراه الآخرون في أنظارهم غريبا أشد الغرابة بعيدا أشد البعد من العادات المألوفة •

لكن الصعوبة في الامر أن الغرابة مانعة للمعرفة من جهة ولازمة لها من الجهة الاخرى •

مانعة للمعرفة لأنها تحجب عنا الاسرار التي تنطوي وراء الظواهر ولا تنكشف الا بانكشاف الاستار والحواجز •

ولازمة للمعرفة لأن المعرفة هي التمييز والفصل بين الحدود ، وكيف ترانا نميز انسانا من انسان ، اذا نحن لم نشعر بوجود الاختلاف والغرابة بينه وبين غيره ؟ أو نعتقد أنه مخلوق غـــير الخلائق الاخرى في دخيلته وظاهر أمره ؟

لهـــذا كانت المعرفة الحقيقية أصعب الاشياء وأدعاها الـــى اليقظة والانتباه ، لأنها تفرض على النفس أن تجمع بين النقيضين في وقت واحد ،

وترى الشيء غريبا ومألوفا في حالة واحدة ، وانما يكون تذليل هـذه الصعوبة باشراك الشعور والخيال والعقل في البحث عن الامور التـي نبتغي عرفانها والنفاذ الى بواطنها ، فما يراه العقل متناقضا مختلفا يجمعه الشعور في نور واحد ويتولاه الخيال بالتقريب أو التبعيد حتى تتمكن النفس من ادراكه واستيعابه على حقيقته التي تخفى عن الحس والمشاهدة .

وفي السجن يعاني الباحث هذه الصعوبة بعض المعاناة حين يراقب أخلاق السجناء ويعالج التمييز بينهم وبين سائر الناس في الطبائع والعادات. فهو يراهم مئات وألوفا ولا يرى غيرهم في حالة تعارض حالتهم ومعيشة تفترق من معيشتهم ، فيسبق اليه ـ من ثم ـ أنهم وسائر الناس على حد سواء في جملة الاحوال ، وانك تستطيع أن تبدل ألفا منهم في جنح الظلام بألف ممن يعيشون خارج السجن دون أن تحس الفارق بين هؤلاء وهؤلاء عند طلوع الصباح !

الا أن هناك أمـرا خليقا أن يهون هـذه الصعوبة ويزيل اللبس والاختلاط بعض الازالة ، وذلك أن المسافة بين هذه البيئة « السجينة » وبين الباحث الغريب عنها تظل بعيدة مفصولة مهما يطـل الوقت ويبطل الفارق في مكان الاقامة ، فتبقى بينه وبينها على طول المدى وقرب الجوار مسافة كافية للرؤية الصحيحة والتمييز الواضح .

■ □ ■

ومن السهل على من يراقب أحوال هؤلاء السجناء أن يقسمهم قسمة عاجلة الى طائفتين من المجرمين مختلفتين في البواعث والاخلاق وضروب الاجرام .

فهناك مجرم الاعتداء الذي لا يبالي ايلام غيره .

وهناك مجرم الخسة الذي لا يبالي ما يجلبه على نفسه من العار والمهانـة .

وأظهر ما يبدو من خلائق المجرم الاول ـ مجرم الاعتداء ـ أنـه

جامد الحس من ناحية الشعور بالالم على اطلاقه ، فهو يتحدث عن أفجع المصائب وأشنع حوادث القتل والتعذيب كأنه يتحدث عن فكاهة لا ازعاج فيها للسامع ولا للمتكلم ، وقلما يدرك استغرابك اذا أنت استغربت هذه اللهجة منه في وصف الفظائع والموجعات دون التفات منه الى وقعها أو مبالاة فرائسها أو المستمعين لقصصها • وقد كان في الدور السادس — وهو الدور الذي فوق دورنا الخامس في عنابر السجن — فتى من قرى الصعيد قتل أخته في القاهرة لأنها هربت من أهلها ولاذت بدور البغاء ، فتعقبها حتى عثر بها في الدار التي تسكنها ، وراوغها أياما وهو يخفي عنها قصده حتى اطمأنت اليه وسالمته ومهدت له صنوف المتعة بصواحبها وجاراتها ، وهو يتحين الفرصة لقتلها في غفلة عمن حولها ، الى أن سنحت له ذات يـوم ففاجأها بطعنة سكين وانقض عليها بالطعنات دراكا حتى فارقت الحياة • ففي ليلة من ليالي السجن طاب له السمر واستدرجه زملاؤه في الحجرات المجاورة له الى شرح قصته ، فما راعني الا أن أسمع هذا الفتى يصف قتل أخته ، وكيف غرر بها ، وكيف تناول الطعام معها وهو يخفي السكين في ثيابه ، ثم كيف طعنها بعد ذلك ، وكيف صاحت بـه تناديه باسم الاخوة وتناشده حرمة المشاركة في الامومة ، ثم كيف قضى عليها واحتز رأسها وسافر به الى بلده ليريه أنداده وقرناءه الذين عيروه من قبل واستطالوا عليه • فلو أنه كان يتكلم عن ذبح شاة أو دجاجة لمـا اختلف الامر ولا تباينت اللهجة ، ولا كان أقل من ذلك مبالاة بمـا يقول واسترسالا في النكات والمزاح كلما عبث به أصحابه وتعمدوا احراجه واستفزاز طبعه • وليس هذا كله من الغيرة على العرض والنخوة للكرامة ، فان الغيرة على العرض تثير الغضب والنقمة ولكنها لا تخلق البلادة ولا تعمي الانسان عما صنع بعد فوات الثورة وسكون الهياج ويقظة النفس للذكرى والاستعبار والاسف على ما كان من سبب القتل والاضطرار اليه •

ومع هذا ربما كان لهذا الفتى القروي الجاهل الخشن عذره مـن

عادات قومه وشدة الغيرة في نفسه ، وربما كان يبالغ في الاستخفاف بفعلته لتخدير شعوره والأنفة من الندم على شيء هو من واجبه في شرع فتوته وفي شرع أبناء بلده ، ولكنني سمعت فتى متعلما يباهي بقليل ما تعلم من الدروس الابتدائية والثانوية ويكلم سجناء «الحماية» باللغة الانجليزية ليدلهم على حظه من الدراسة، ويريهم أنه سليل طبقة غير طبقة المسجونين معه في مثل جرمه، وكان قد حكم عليه بالسجن خمس سنوات لاشتراكه في جماعة مؤلفة للسطو على الأغنياء ، فلما استدرجوه ذات ليلة للكلام عن سبب سجنه لم يتردد في ذكر السبب الصحيح ، ولم تبد على كلامه مسحة من الندم والخجل ، وانما كان يبدو عليه الزهو بانتمائه الى جماعة لها فروع وقرارات ورؤساء أقسام واجتماعات ومداولات ، وكان يتحدث عن قتل من تقرر عندهم قتله كأنه يتحدث عن عقبة يفخر بالمهارة في ازالتها ، ولا يفرض لها حياة تصان وتتعلق بها الآلام والأحزان .

وقد كنت أسمي هذه البلادة في هؤلاء المنكوبين « أنانية » أو امعانا في الأثرة العمياء لو كانوا يشعرون بالألم في نفوسهم ولا يشعرون بالألم في نفوس غيرهم ، ولكنهم على ما علمت من أطوارهم الكثيرة محجوبون عن شعور الألم حيث كان ، فلا يحسونه في أبدانهم ولا في ضمائرهم كما يحسه الآخرون فيما يعتريهم من المؤلمات الجسدية والفكرية ، وربما ضرب أحدهم رأسه بالحائط ضربا عنيفا داميا ليتهم غيره بضربه ، أو ربما وخز نفسه وعرض أعضاءه للتلف من أجل أيام قليلة يطمع في قضائها بالمستشفى أو تحت الرقابة الطبية ، وقد قطع أحدهم بضعة من جسمه بحديدة كليلة يكتبون عليها في السجن رقم السجين ولا تصلح للقطع الا بجهد شديد لأنه قدر أن هذه الفعلة قد توقع مأمور السجن في عقوبة أو شبهة اهمال !

فالآفة عند سجين الاعتداء انما هي آفة نقص في وظائف الشعور وليست آفة « الأنانية » على معناها الشائع المفهوم ، وليس ببعيد أن يجرم الانسان لفرط الشعور بالألم كما يجرم لقلة الشعور به في نفسه وفي

غيره ، ولكن هذا الصنف من المجرمين نادر جد الندرة بين من شهدت في سجناء « قره ميدان » .

أما مجرم الخسة الذي لا يبالي العار والمهانة فهو حقير بين ضراة المجرمين المعتدين ، يقولون عنه انه «تتن» يدخل السجن في غير طائل ويصبر على الاهانة وسوء المعاملة من المساجين ولا يستثار .

ومعظم ما يقترفه هؤلاء المجرمون « الأخساء » مقصور على صغائر السرقات والاحتيال على الصغار والأغرار وما الى ذلك من جرائم النذالة والطمع الوضيع .

وهم في الحق « تتنون » كما يقول عنهم زملاؤهم من أصحاب الضراوة والاعتداء : شعورهم بالعار ضعيف وشعورهم بالزهو أضعف ، ويعترفون على اخوانهم علانية بأقبح الرذائل في غير حياء ولا احساس بفقدان الحياء ، ومع هذا تأبى الطبيعة الانسانية أن تحرم أحدا نصيبه من الزهو والمباهاة ولو كان من أدنى الأدنياء ، فحتى هؤلاء يزهون فيما بينهم ببعض الخلال ويأخذون على أنفسهم بعض العيوب ، وبماذا يزهون؟ يزهون بالافتنان في أساليب النذالة والاحتيال الشائن المرذول ، وعلى من يعيبون ؟؟ يعيبون على الجهلاء بتلك الأساليب ! وعلى المحدثين في الاجرام لأنهم بلهاء لا يفهمون الخدع و « المصطلحات » التي يفطن لها ذوو الدراية بالسجون !! وهم في كل حال لا يعدون الزهو الرخيص الذي لا يكلفهم جهدا من الجهود .

٢ ـ أخـلاق

من أصدق المقاييس التي تسبر بها طبائع النفوس الفكاهة والغناء .

فانك لن تجد الفكاهة ولا الغناء في نفوس خلت كل الخلو من الخير والمحبة الانسانية وصلاح الفطرة للعطف والمؤاخاة .

فالسليقة التي تعرف الفكاهة تعرف مواطن الضعف والتناقض من النفوس الانسانية ، أو تعرف ــ بعبارة أخرى ــ أسرار النفس وخفاياها وما تداريه وما تكشف عنه وما تقابل به الدنيا وما تحفظه في أعماق سريرتها ، فكأنما تلك السليقة على اتصال أخوي حميم بجميع النفوس الآدمية ، كاتصال الصديق بصديقه المطلع على دخائل قلبه وحقائق نياته ، وكأنها على استعداد دائم لأن تضحك مع جميع النفوس ضحك السرور والمشاركة ، وأن تضحك منها ضحك العطف والمداعبة ، وتلك حالة نفسية لن تخلو من الخير والشعور الحسن من ناحية بني الانسان .

أما السليقة التي تحسن الغناء أو تحب الاصغاء اليه فهي سليقة تحس وتعرف الوزن والنظام بشيء من الزكانة والالهام ، وهي ــ كتلك ــ سليقة تلتقي بالنفوس الأخرى في مجال العاطفة والذوق والشعور بالجمال.

وفي السجن لم أر الا عددا يسيرا جدا يحسن الفكاهة ، وان كنت رأيت سجناء كثيرين هم موضوع فكاهة ومثار ضحك ودعابة . ولا أذكر أنني سمعت كلمات كثيرة تدل على فطنة للمواقف المضحكة والمساجلات النفسية اللطيفة، وان كنت قد سمعت كثيرا من النكات المحفوظة والفكاهات المكررة التي يفوهون بها كما تفوه الببغاء بما يلقى اليها من الأصوات .

ولم أسمع قط غناء حسنا من سجناء الجرائم العنيفة أو سجناء الجرائم الخسيسة • ولكنني سمعت الغناء الحسن من بعض الفتيان المحكوم عليهم بالحبس في قضايا تهريب المخدرات وتعاطيها ، وهم في أغلب الأحايين مسخرون ينقادون لكبرائهم المسيطرين عليهم ، لم تنغرس فيهم بعد نذالة الجريمة العامدة المدبرة التي تطلب الكسب من وراء الإضرار بالناس ، ومن كان منهم يتعاطى المخدرات فهو ضعيف يعتدي على نفسه وليس بمجرم من أولئك الجناة الأشرار الذين يعتدون على غيرهم عدوان المكيدة أو عدوان الضراوة •

فاذا اتخذنا الفكاهة والغناء مقياسا للخير والمحبة الانسانية في نفوس السجناء فأهل الخير فيهم قليل ، وهذا القليل الموجود يشف — في أغلبه وأعمه — عن معدن وضيع أو معدن مشوب ، وان لم يجز لنا أن نقول ان الخير فيهم معدوم وان صلاحهم ميؤس منه ، ولا سيما حين يعالجون بما يناسبهم وحين يقترن حسن النية في علاجهم بالفكرة الرشيدة والعزم الصبور •

ويخطىء من يظن أن السجناء لا يغنون كما يغني الطلقاء والأبرياء كلما وجدوا فرصة للغناء ، فانهم ليهتفون ولا يقصرون في الهتاف ملء صدورهم كلما خلا لهم الجو تحت ستر من الليل ، وربما كانوا اشد كلفا بالشدو والهتاف من الطليق المرسل على أرسانه ، لأن رفع الصوت وسيلة من وسائل الشعور عندهم بالحرية وارسال النفس على السجية ، فهو مطلوب لهذا الغرض ولو لم يكن فيه طرب أو سلوى ، ولا حاجة بالانسان الى دخول السجن لعرفان هذه الحقيقة بل لاستماع هذه الحقيقة الصارخة من مسافة بعيدة ! فان العبور على مقربة من السجن بين العشاء والساعة التاسعة كاف لاستماع ما يسمعه السجناء في الداخل من الغناء والهتاف ، وقلما تمر ليلة واحدة دون أن يدوي السجن بأناشيد أهل الصعيد ومواويل أبناء البلد على اختلاط لا تمييز فيه بين السامع

والمسموع ، ولكن أهل الصعيد وأبناء البلد كما يعلم القراء يغنون كأنهم يتكلمون ، أو هم يغنون ويصيحون حين يعوزهم السمر والكلام وتكل ألسنتهم من السكوت ، وليس هذا الذي نعنيه بالغناء المبين عن الطبائع والاخلاق ، وانما نعني به الأوزان الفنية التي تتجلى فيها الأذواق وخلجات العواطف وألوان الاحساس، وهذا الذي تقول إنه قليل نادر بين المجرمين •

■ □ ■

وربما كان الأولى بي أن أتخذ مقياسا آخر للخير في طبائع زملائنا السابقين يعنيني أكثر مما تعنيني هذه المقاييس التي تعم جميع الباحثين في هذه المشاهدات ، لأنني اختبرت من معاملة زملائنا صنوفا من البر والطيبة مختلفة المصادر والاسباب ، فكنت أنا نفسي مقياسا محسوسا يقاس به ويقيس !

فمنهم — وهم القليل — من كان ينطوي على كرم مأثور ، ويلوح لنا من بعض بوادره وتصرفاته أنه يقبل على نفسه حالة السجن ومضانكه وآلامه ولا يقبل أن يعانيها رجل من ذوي الصناعة الفكرية ، كأنه يحس في قرارة ضميره بفارق بين عمله وعملنا وسائقه الى السجن وسائقنا ، ولا يأنف أن يعترف بهذا الفارق ثم يرجح كفتنا على كفته عند الموازنة •

ومن هؤلاء من كان أساه لنا واهتمامه براحتنا والتسرية عنا يكلفانه المجازفة الجريئة والاقدام على العقوبة وتضييع حقه في الاعفاء من ربع المدة وهو الحق الذي يناله كل من قضى مدة السجن بغير اخلال بقواعد النظام ، ويزيد في فضلهم أنهم كانوا لا يطمعون منا في جزاء عاجل ، ولا ينتظرون الجزاء بعد الافراج عنهم وعنا ، اذ كان موعدهم بمفارقة السجن بعد موعدنا بسنوات أو شهور طوال •

وقد كان بين هذا الفريق فتى يجيد الغناء بعض الاجادة ، ويبث فيه شيئا من الحنين السائغ والبواعث الشجية ، وكان يخشى الحراس اذا غنى مساء لأنه معروف الصوت في السجن كله لا يختلط حيث كان بأحد

غيره ، فكنت أسمع بعض زملائه الذين يحضونه على الغناء يقولون له ان « الأستاذ » ــ ويقصدونني أنا ــ هو الذي أوعز الينا أن نقترح عليك كيت وكيت من الأدوار ، فلا يتردد في الاجابة دون أن يعرفني أو أعرفه ودون أن يلقاني أو ألقاه .

ومنهم من لا يبلغ مبلغ هؤلاء في كرم الخليقة ولكنه يخدمنا ويبذل المعونة لنا عن غبطة منه بانشاء العلاقة بينه وبين أناس يراهم أرجح منه منزلة وأكبر ممن تجمعه بهم علاقة الزمالة ، ويرضيه أن يستحق من هؤلاء الناس كلمة الثناء وعرفان الجميل والشعور بفائدته لهم في حالة من الحالات ، وتلك ولا ريب نية خير لا غبار عليها ، لأنها دليل على طبيعة لم تتجرد من التطلع الى حسن الظن وطيب الأحدوثة .

ومنهم من كان باعثه للخدمة والمعونة اعجابه بالجرأة كما يفهمها ، ونظره الينا كما ينظر الى أنداده الجسورين في معارك الفتوة ومقاحم الضرب والمصارعة ، وهو باعث لم نكن نغتبط به وان كنا لا ننسى حسن النيـة فيـه !

وكلهم كانوا يضمرون لنا شعور المودة ويخلصون الرغبة في بذل المعونة الميسرة لهم كلما أتيحت لهم وسيلة من وسائلها .

■ □ ■

على أننا لم نخطىء في معظم السجناء عاطفة مصرية صميمة لاحظناها في جميع المصريين على تباعد الطبقات والأقاليم ، ونعني بها « عاطفة العائلة » وما يتفرع عليها من رعاية الأرحام والأسنان .

رأيت مرة طفلا صغيرا من الأطفال الذين يودعونهم سجن مصر ريثما ينقلونهم الى سجن الأحداث في الجيزة ، وكان هذا الطفل مع أقرانه الصغار ينتظرون الترحيل في فناء السجن المعرض لأنظار الرؤساء والسجانين ، فمر به سجين من العائدين في جريمة السرقة ، فرفع له الطفل رأسه وناداه بلهجة المسكنة الطبيعية التي يستشعرها الصغير في غيبة اهله وقال له (جوعان)!

فتمهل اللص العائد هنيهة ثم قال له : « وماذا أصنع لك يا بني ؟ ! »

وانصرف آسفا فظننته لا يعود ولا يفكر بعد ذلك في الطفل المستغيث ، ولكنه ما لبث أن عاد بعد دقائق ومعه رغيف سرقه من المخبز فقسمه نصفين وأعطى الطفل نصفه واستبقى لنفسه النصف الآخر ، ولو نظروه وهو يسرق الخبز لما نجا من الجلد الأليم أو من السجن على انفراد •

ورأيت رجلا شيخا نازلا من درج المستشفى وهو لا يقوى على الحركة ، ولا يجد الممرض الموكل به وبغيره من يقوى على حمله ، وكان على مقربة منه يافع لم يتجاوز السادسة عشرة لا يدل مرآه على ضلاعة ولا على صحة سليمة ، فشق عليه أن يبصر الشيخ المريض يتعثر في خطاه ويئن من وجعه ، وتقدم اليه فحمله ومشى به على جهد شديد حتى أعياه حمله دون أن يكلفه الممرض ذلك أو يخطر له أنه قادر على هذا العبء الفادح ليافع مثله •

وتلاحى شيخ فان وفتى عارم مشهور بالشر والعربدة في السجن وفي الحي الذي يعيش فيه ، فسبه الشيخ سبا لا يطيقه من كان فتى في سنه، ولا يأمن من يسبه به ان يستهدف لضربة قاسية ، فما صنع الفتى المسبوب الا أن بدا عليه الدهش والتردد لحظة ثم هز رأسه وقال لمن حوله : « انظروا الى الرجل الشايب يعيب ولا يخجل ! •• » وقال للرجل الشايب: « لو غيرك قالها لقتلته ! ولكن ماذا عسى أن أعمل لك وأنت أكبر من أبي ؟ »

وهذه على التحقيق ظاهرة اجتماعية ملحوظة في أخلاق الأمة المصرية بأسرها ، سببها فيما أرى قدم العهد في هذه الأمة بحياة الأسرة والحياة الاجتماعية والبيتية على اجمالها،ولهذه الظاهرة في تكوين الأخلاق وتحويل العادات قرار عميق لا يغفل عنه المصلح الاجتماعي المشغول بأطوار هذه الأمة العريقة ، ومن زمام هذا الخلق الأصيل ينبغي أن يتناول المصلح الاجتماعي أهم دواعي الاصلاح فيمن يحتاجون اليه من الضالين والزائغين، سواء كانوا من نزلاء السجون أو من الطلقاء الذين نجوا من العقاب ولم ينج الناس مما يجترحون عامدين وغير عامدين •

الوعظ

من المناظر ـ ولك أن تقول من المسامع ـ القليلة المؤنسة في السجن حلقات الوعظ التي يعقدونها بين حين وآخر ، ففيها يتسنى لمن بالسجن أن ينظروا الى اجتماع انساني يخاطب فيه السجناء خطاب أصحاب النفوس التي قد يثمر فيها الكلام وقد يرجى لها العلاج !

رأيت أول حلقة من هذه الحلقات يوما من أيام الاثنين على ما أذكر ، اذ كان بعض الحراس ينطلقون بين الحجـرات ينـادون : « المسيحيين المسيحيين » وأنا أعجب لهذا النداء ولا أدري لماذا يجمعون المسيحيين وحدهم دون بقية السجناء ، وقبل أن أسأل أحدا عن القصة رأيت الواعظ المسيحي في ثيابه السود ، فذكرت الوعظ في السجون وانتظرت أثناء الرياضة الصباحية حتى أسمع ما يقول باسم الدين لهؤلاء الخـارجين على الشرع والقانون .

وما هي الا لحظات معدودات حتى أقبل السجناء المسيحيون أفرادا متفرقين من مذاهب شتى لا تجمعها كنيسة واحدة ، فجلسوا بين يدي الواعظ القرفصاء الى زاوية مشمسة في فناء السجن ، وجلس هو على كرسي وفتح التوراة وأخذ يقرأ منها ما صادفه من القصص ويشرح معناها بصوت يعلو ثم يعلو حتى يسمعه من في الميدان القريب .

ومنذ ذلك اليوم كان يطيب لي أن أشهد هذه الحلقات وأسمع ذلك الواعظ كل يوم اثنين ، لانه كان يتحدث عن قصص التوراة حديث الحاشية المخلصة عن النوادر الملكية التي تقع بين كبار السلاطين وكبار الاتباع ذوي

الدالة عليهم ، وكان يروي التجارب التي يبلو بها الله أنبياء بني اسرائيل كأنها مفاجآت الاب الشيخ الحكيم حين يمتحن مدارك الابناء الصغـار ويغتبط بما يراه من حيرتهم البريئة وضعفهم المستسلم ، ويضحك أحيانا ضحك العطف والرجاء حين يكشف لهم عن دعواهم القاصرة وغرورهم المتعجل ، فيطيب لي أن أرى التوراة منقولة الى عالم الخيال الفطري والتصوير الشعري والتمثيل الفني الذي لا تكلف فيه .

وكان من عادته اذا فرغ من شرحه ووعظه أن يطلب الى أحد السجناء أن ينهض للصلاة والدعاء ويجهر بما يجيش في نفسه ونفوس زملائه ، فمنهم من يحسن الكلام ومنهم من يتعثر بالالفاظ المألوفة في الادعية والصلوات ، وكل أولئك مما يستحب الاصغاء اليه والتأمل في مغزاه .

ولا أحسب أن احدا منهم كان يجيد الكلام في دعائه وصلاته كما كان يجيده رجـل من أضراهم بالشر وأولاهم بالعقـاب وأسوئهم سيرة بين السجناء ، وان شهدوا له بالبراعة والذكاء : وهو تاجر مخدرات مشهور .

سمعته مرة يصلي ويذكر خطايا الخاطئين وآثام بني الانسان ... فسألت عنه فقيل لي هذا فلان صاحب الحيل المعروفة في ترويج المخدرات، وكنت قد سمعت عنه وعن قضاياه وأحابيله في ايقاع صرعاه ، واغرائهم بتناول السموم وادمانها ، فقلت لو كان هذا المصلي الخاشع يدعو الله ليستجاب دعاؤه لمـا دخل السجن ولا قام مقامه هذا للصلاة فيه ! ولكنها حيلة جديدة من حيله الكثيرة ، ولعلها أيضا من حيل التخدير !

■ □ ■

ويتردد على سجن مصر عدة من الوعـاظ المسلمين بين الصبيحـة والظهيرة ، ولكن في غير موعد مقرر أو يوم معلوم .

فاذا وصل أحدهم الى السجن جمعوا له سجناء دور من الادوار في ساحته الارضية ، وجلس هو على كرسي أمامهم ينصح لهم ويحذرهم عقاب الآخرة بعد عقاب الدنيا على طريقته في النصح والتحذير .

فبعضهم كان يحفظ خطبه ويعيدها كما هي كل مرة بعد تحوير طفيف لا يقدم ولا يؤخر ، وهو يحاول أن يذهل سامعيه من السجناء عن هذا التكرار برفع الصوت والتلبس بالغضب والصرامة في الزجر والانذار ، ويمضي في تكراره مطمئنا اليه لانه يعظ في كل مرة سجناء دور واحد من أدوار السجن الكثيرة ، وتنقضي مدة طويلة بين العظتين في الدور الواحد يخيل اليه أنها كفيلة بالتشكك والنسيان .

وبعضهم يتوخى الطريقة العصرية في اختيار المناسبات واتخاذ المناسبة الاخيرة من بعض الحوادث الطارئة التي لها مساس بأحوال سامعيه .

وبعضهم يعتمد على التأثير بالسن والمهابة والسمت والثياب الفاخرة ، ويحيط عظاته بمراسم طنانة كأنها مراسم أصحاب العزائم والتعاويذ .

وكان يعنيني أن أراقب السجناء حين يحضرون الى العظات وحين ينصرفون ، لأرى كيف يقبلون عليها وكيف ينصرفون عنها وكيف — فيما بين ذلك — يستمعون اليها .

فبدا لي أن أناسا منهم يحضرونها بروح الهازىء المستخف الذي يتحدى الواعظ بشقاوته واستعصاء أمره ، وكأنما يقول بينه وبين نفسه : (هلموا الى ذلك الرجل الطيب الذي يحسب أنه يفهم من الامور ما لا نفهم ، لنرى كيف يعلمنا العقل والدربة ، ويصلحنا بكلماته وتهويلاته) .

وأناس منهم يرحبون بساعة الوعظ كما يرحب التلميذ بساعة لعب يستريح فيها من حصة الدراسة ، ويأنس فيها بالجلوس بين اخوانه في شيء من الطلاقة والسماحة .

وأناس آخرون يرحبون بساعة الوعظ لأنهم يغتنمون فيها الفرصة حين يزجرهم الواعظ ويصب عليهم اللوم والتبكيت ، ليبثوه الشكوى من قسوة الحراس وجور الاحكام ، ويلقوا شيئا من اللوم على (النظام) وشيئا من اللوم على الايام .

ولا تخلو جموعهم من أفراد تلمحهم عند انصرافهم منكسي الرءوس كاسفي البال من أثر الوعظ أو من تداعي الخواطر واسترسال الخيال ، وربما سمعتهم يرثون لأنفسهم ويندمون على ما فرط منهم ، ويودون لو هداهم الله وردهم أناسا كسائر خلقه لا يعرفون المحاكم والسجون ، ولا يبتغون العيش الا من الرزق الحلال ، ناعمين وادعين بين الامهات والآباء والازواج والابناء ، ثم يعلقون ذلك كله على القدرة والاستطاعة ، وهم مستقرون في ضمائرهم على أنهم لا يقدرون ولا يستطيعون ، لأنهم لا بد لهم من العيش وكسب الرزق ، وهم يشكون بوار الصناعات وشح الناس وندرة الاعمال .

■ □ ■

على أن أثر الوعظ في الجملة ضعيف سريع الزوال ، وقد يبلغ من ضعف أثره وسرعة زواله أن ينقضه بعض سامعيه في ساعة سماعه ، وأن يصبح الواعظ نفسه هدفا يرميه أولئك الخبثاء ، وصيدا يصيدونه ، ودليلا يثبتون به أو يثبتون فيه بطلان وعظه وضياع جهده وعبث رجائه ، حتى يخيل الى الانسان في هذه الحال أن حلقة الوعظ انما هي حلقة سباق وصيال بين الجريمة والهداية ، تلتقيان فيها لتنظر كلتاهما أيهما هي الاقدر على الظفر بالاخرى وتعريضها بين المتفرجين للهزيمة والسخرية ! انتقاما منها لاعتدادها بنفسها وسوء ظنها بقوة غريمتها ! وقلما تتمثل حلقة المباراة هذه في شيء كما تتمثل في القصة التالية التي سمعتها من أحد موظفي السجن ، والعهدة على راويها .

أعرف واعظا مشهورا يطوف بلاد القطر ويحب أن يتخذ له أبناء من موعوظيه في كل بلدةوكل اقليم ، يرعاهم رعايةأبوية ويسره أن يرى منهم حفاوة البنوة وتحيتها ، ويمد يده للتقبيل كلما انتهى من وعظه غير ممتنع ولا ناظر الى تقبيل يده الا كما ينظر الاب الى تحية الاعتراف والشكر من ولده .

وشاخ الواعظ الذي أعنيه وضعف عن الطواف في أنحاء القطر ، ولكنه لم ينقطع كل الانقطاع عن الوعظ في السجون وان أطال الفترة بين عظاته كلما تقدمت به السن .

وجاء الشيخ يوما وهو لا يكاد يقوى على الجلوس والحركة الا بمعونة معين ، فأسهب في نصائحه على عادته وملأ السجن بأصوات الدعوات يلقيها على سامعيه ، ثم يطلب منهم تكريرها مرات متواليات بنغمة مرتلة يلقنهم اياها وهو يهتز بينهم على نغمة ترتيلها ، أو يتركهم يعيدونها ويسبح في غيبوبته العلوية حتى يفيق منها !

فلما ختم عظاته وترتيلاته تدافع السجناء حوله يهمون بتقبيل يديه والتماس البركة منه فاذا هو يحجم عنهم ويصيح بهم صيحة منكرة : « مكانك يا ولد ! اياك أن تقترب يا ولد ! من بعيد يا وَلد ! » كأنه يرتل هذه الكلمات على طريقته في ترتيل النغمات !

قلت لبعض الموظفين ممن اتفق وجودهم على مقربة مني « ما خطب الشيخ يأبى تقبيل اليد من هؤلاء ؟ أزهادة منه في السجناء ؟ أم زهادة في هذا الصنف من قبلات الابناء ؟ »

قال : « لا هذا ولا ذاك ، ولكنه معذور لأنهم سرقوه مرة ويخشى أن يعيدوا عليه الكرة ، فهو يجانبهم هذه السنوات ويستعيض الله خيرا من تلك القبلات » .

قلت : « يا سوء هذا التقريظ ! أيسرقون واعظهم وهم في دار العقاب ؟ ! »

قال : « لقد فعلوا جزاهم الله من أبناء عققة ، وفعلوها في يوم تجلى فيه الاستاذ فاختلب القلوب وأبكى العيون ، وأرسل يديه لهم ينكبون عليهما بالتقبيل ويوسعونه من التمسيح والتبجيل ، وهو يحسب أنهم ينتصحون ولا يسرقون ، وينتفعون بما يفعلون ، فقد أشبعهم وعظا وهداية فأشبعوه اعترافا ورعاية .

وذهب الى حجرة المأمور وقد رضي عن نفسه وأحب أن يكافئها بعطسة أو عطستين من عطسات الايمان والتسميت برحمة الله • فضرب يده في جيبه الواسع فاذا علبة السعوط ضائعة ، وأسرع الى مكان الساعة الذهبية الثمينة فاذا الساعة ضائعة ! وكيس النقود أين هو ؟ لا ريب أنه لن يبقى في الجيب اذا فارقته الصاحبتان الحميمتان !

« وطارت بقايا الوعظ من رأس مولانا ، وصاح بالمأمور يستغيث ، فأكبر الرجل أن يصاب الاستاذ في كفالته بهذه الخسارة الفادحة لأنها خسارة في وعظه وفي ماله ، فجمع السجناء الموعوظين ولما يستقروا بالحجرات ، وأقسم لهم لينكلن بالسارق شر تنكيل اذا هو اهتدى اليه ولا بد أن يهتدي اليه ، فلينقذ نفسه من شاء السلامة ولا عقاب عليه •

« فأما علبة السعوط فقد عادت فارغة لأن « الشطار » أحرص من أن يفلتوا من أيديهم شيئا فيه رائحة الدخان •

« وأما الساعة فقد عادت لأنها لا تنفع ، وعاد معها كيس النقود لأن النقود التي فيه أكبر من أن تبلع ، وسئل السارقون : كيف تجترئون على الاستاذ وتستحلون ماله وعتاده وتزدرون وعظه وارشاده ؟ فقال خبيث منهم : ما اجترأنا عليه ولا سرقناه ، وانما هي بركة من مولانا نغتنمها ونتقرب بها الى الله ! »

قال الموظف الذي يقص علي ما رآه : تلك قصة الشيخ • فهل يلام اذا هو ضن بهذا المال المبارك وفرط في القبلات ؟ وهل عليه جناح اذا هو أشفق من هذا الافراط في اختلاس البركات ؟!

■ □ ■

ونحسب أننا نظلم السجناء اذا أحلنا الذنب كله في فشل المواعظ على رداءة طباعهم واستعصاء أدوائهم • فالواقع أن المواعظ على أحسن حالاتها لا تشفي غلتهم ولا تخاطبهم بما يناسبهم ولا تتحرى دخائلهم ومواقع التأثير والاقناع من طواياهم ، والواقع أن اصلاح الاخلاق عسير

في السجون . وهي على نظامها القامع الذي يفرض الكبت على الطبائع ، ويشل وظائف الحياة في جسوم قوية ونفوس لا تقصد العفة لطهارة أو قداسة حتى يقال انها تستفيد بالرياضة وعلاج الشهوة والارادة .

وأشد من ذلك ايذاء لأخلاق السجناء أنهم يفقدون في السجن الدرس الوحيد الذي هم مفتقرون اليه .

فهم أناس منحرفون يجزيهم القانون بما يجزيهم به حين يعتدون ويسلبون ، لأنهم يؤمنون بالعنف والقوة ولا يؤمنون بالحقوق وآداب الاجتماع ، ويعتقدون أنهم في حرب مع المجتمع من غلب فيها ظفر ولا جناح عليه ، فاذا استطاع أحدهم شيئا فعله ولم يحسب حسابا لما يجوز له وما لا يجوز .

فماذا يلقون في السجن من معاملة السجانين ؟ يلقون من معظمهم ما يثبت في نفوسهم تلك العقيدة ويزيدهم ايمانا بأن الامر قائم على العنف والغشم واعتداء من يستطيع العدوان ويأس الضعيف المغلوب من انصاف ذوي السلطان ، فيبطل درس الشريعة والادب ويبقى درس الواقع الذي شبوا عليه من نشأتهم الاولى ووجدوا مصداقه في السجن ومباءة الاصلاح والتوبة ، وكيف يراد منهم أن يعدلوا عن ذلك الدرس ويرتابوا في صدقه وهم لا يجدون الا ما يؤيده ويزكيه !

ليلة المستشفى

اذا كان السجين يستنفد كثيرا من الحيلة والخبث في تهريب الممنوعات فمن الحق أن نعلم أنه لا يستنفد حيلته كلها ولا خبثه كله في هذا المطلب العزيز ، ولكنه يستبقي كثيرا منهما أيضا لتهريب صنف آخر عزيز عند السجناء وان كان بغيضا أشد البغض عند الطلقاء ، وهو المرض ، قاتله الله .

نعم « المرض » أعني ، ولا خطأ في الكتابة ولا في الطباعة ! ! فان الامور لتنقلب أحيانا في السجن رأسا على عقب حتى يتمنى المرء فيه ما يتمنى الخلاص منه وراء جدرانه ، والمرض بعض هذه الامور .

اذا تيسر بقضاء من الله فذاك لطف من الله ! واذا لم يتيسر فالصناعة تغني هنا ما ليست تغنيه الطبيعة ، والمرض الصناعي المقلد عزاء لمن فاته المرض الطبيعي الاصيل ، حتى يأذن الله بما يشاء .

ولهذا برع السجناء في تقليد الامراض على أنواعها وفي مقدمتها الامراض الجلدية والامراض التي ترتفع بها الحرارة ، فليس أيسر عليهم من اصطناع الحمى أو اصطناع الجرب والبثور الكريهة واعراض الاصابات السرية ، وتسمع الواحد منهم يهمس لصاحبه في أثناء الرياضة أو يناديه بالليل اذا أمن الوشاية : « غدا حمى في العيادة يا فلان ! » أو « غدا في قسم الجرب ! » فاذا هو موعد يلتقيان فيه ساعة بل ساعات وقد يطول الى يوم بل أيام ، لأن المريض الذي يلتبس مرضه على الطبيب يحجز في قسم « الملاحظة الطبية » حتى تنجلي حقيقة دعواه وتسفر الملاحظة عن

دخوله المستشفى أو اعادته الى الحجرات ، مع جرعة مريرة من العقاب •

وليس العقاب بالشيء المهم عند مصطنعي المرض وطلاب الراحة فترة من الزمن ولو أعقبها التعب المضاعف ، فان السجين اذا ظفر بالانتقال الى قسم « الملاحظة الطبية » أياما فقد غنم الفراغ من العمل أولا ، وغنم الطعام المقبول في بعض الحالات ثانيا ، وغنم لقاء أصحابه الذين يحال بينه وبينهم في الحجرات والمصانع ، وقد يسعده الحظ عند الطبيب فيغنم الصعود الى ساحة الرضوان عند السجناء ، وهو المستشفى !

وهذا المستشفى اذا رآه انسان من الطلقاء عافه لأول نظرة ولم يصبر على البقاء فيه ساعة واحدة ، ولكنه مع ذلك أمنية لا يسعد بها الا المجدود وصاحب الحيلة التي تتسع لصنوف كثيرة من المداورات والمراوغات ويعلمها بعض موظفي السجن وبعض الاطباء ، ولكن لا يتسع المقام هنا للتفصيل والبيان •

أما كاتب هذه السطور فليس من السعداء المجدودين ، ولكنه من الاشقياء المطرودين ! لأنه وصل الى المستشفى وفر منه تحت سواد الليل ولما تنقض عليه غير ساعات ، وماذا عساك أن تصنع لمن يرقى الى هذه الامنية الغالية ثم يدركه البطر فيدفعها عنه بيديه ؟

هكذا حصل • فقد علم القراء أنني دخلت السجن بذخيرة من السعادة في عرف السجناء تكفي عشرة منهم لو كان هناك عدل في القضاء !

دخلته بألوان من السقام فوق الاصطناع وفوق التقليد ، ولم ألبث أن نقلت الى المستشفى ــ حكما ورسما ــ وأنا لم أبرح حجرتي الارضية التي لا تدخلها الشمس ولا تفارقها الرطوبة ! فلما سألتهم : ألا توجد في المستشفى حجرة مفردة تدخلها الشمس وتفارقها الرطوبة ؟ قالوا نعم توجد هذه الحجرة ولكنها مشغولة بدواليب الملابس كما أسلفت في بعض هذه المقالات •

وعلى هذا لا بد من البقاء حيث أنا أو الانتقال الى احدى الغرفتين

الواسعتين في المستشفى للاقامة هنالك مع جمهرة من المرضى قد تبلغ العشرين •

فبقيت حيث أنا عدة أيام ، وبقي الزكام يتقدم ويتقدم حتى احتبست الانفاس وامتنع النوم وعيف الطعام وهبط وزن الجسم بضعة أرطال ، ولم يبد من الظواهر ما يدل على تحسين قريب في الحجرة الارضية المحسوبة من المستشفى ، وهي معزولة عنه بحراس وأشداد •

لقد رأيت ذلك المستشفى ــ أي رأيت ساحة الرضوان بعيني ــ مرات في خلال زيارة الطبيب ، ولكنني لم أطمح اليه ولم أزل أتوقاه وأتحاماه ، فلما طال الامر وخيفت العاقبة ألا تجرب ساحة الرضوان مع المجربين ؟ ألا تفتأ على زهدك في هذا الرجاء الموعود وفي كل رجاء عند القوم موعود ؟

وجئتهم صباح يوم لم أنم في ليلته لحظة واحدة فأنبأتهم أنني أوثر غرفة المستشفى الواسعة بين أشتات المرضى على البقاء في هذه الحجرة المسقمة ، فلما كان العصر جاء الاذن بالانتقال فانتقلت الى غرفة المجروحين والمكسورين ومعي بعض الصحف والكتب والعقاقير والقوارير •

وانقضت الساعات الاولى على ما يرام :

نظرت من النافذة التي كان سريري يقابلها فاذا بي أرى ميدان القلعة والناس يذهبون فيه ويجيئون والمركبات تروح فيه ذات الشمال وذات اليمين ، وهذه سعة ــ ولو نظرية ــ لا يشعر بها السجين بين حجرات العنابر الارضية ، فغالطت نفسي قليلا وقلت خير !

وهبط المساء فأضاءت المصابيح الضئيلة واستطعت أن أقضي هنيهة في قراءة الصحف المسائية ولم أكن أستطيع ذلك في الحجرة الارضية قبل ادخال النور اليها ، فغالطت نفسي مرة أخرى وقلت خير ، ولعله خيران !

وسكن ليل السجن الا أصداء من الطريق فاستوى كل مريض على سريره ، وأخذوا في السمر الطريف ، وأي سمر طريف ؟ هذا مدمن

مخدرات قبضوا عليه وأودعوه سجن الاستئناف ريثما يفرغون من تحقيق أمره فألقى بنفسه من الدور الثاني الى الارض هربا من الدنيا التي يحرم فيها بلاء المخدرات ! وهذا مدمن آخر يصف كيف يعالجونه من دائه بنقل الدم من جسمه الى جسمه لأن دمه لا يزال كالسم المخدر اذا سرى اليه أغناه عن الجرعة المشتهاة ، وهذا يذكر أيامه في سجن طرة الكبير بين القتلة وقطاع الطريق وهو لا يخلو في ذكرياته من ازدراء حاضره والحنين الى ماضيه ، وهذا يتحدث بما عاناه في دخول المستشفى من العنت والبلاء ، وبين ذلك كله جريح يئن وآخر يقضي ضروراته على مشهد ممن حوله ، وآخر يستدعي صاحبه ليعينه على قضاء ضروراته عجزا منه عن القيام والحركة . وقس على ذلك ما عداه .

وكانت النوافذ مفتوحة في ساعات المساء الاولى ، فلما أغلقت واحدة بعد أخرى فشت روائح الدواء وما هو شر من الدواء في الغرفة المغلقة ، وزاد الكرب حين هدأت الاصوات وخيم السكون فلم يكن يقطعه الا أنين مقلق أو زفير مختنق من بعض أولئك المساكين ، والا دقات الساعة الكبرى في مسجد القلعة تتزايد في عدتها على الحساب العربي كأنها تستحث الليل الراكد الثقيل .

■ □ ■

وجعلت أصابر الوقت لحظة بعد لحظة ولا سبيل الى الاغفاء ، وكلما ابتدأ نصف ساعة قلت سأنام قبل انتهائه وهو ينتهي وينتهي ما بعده ولا اختلاف بين الانصاف ولا الساعات ، وكنت أحصي الوقت على الحساب الافرنجي بظهور المرض صاحب النوبة وهو يفتح الباب كل نصف ساعة ويتسلل الى آخر الغرفة ليدير مرصد الساعة الذي يسجل له مثابرته على السهر طول الليل ، ومضيت أشغل الوقت خلال هذه الفترات بفكرة واحدة لا تتبدل وهي : هل من فائدة للانتظار ؟ وهل أرجو أن أستقر في هـذه الغرفة أياما وشهورا وتلك حالتها بضع ساعات ؟ ثم انقضت الساعة الثانية

فطاولت نفسي الى الثالثة في انتظار نوم نافر لبثت أنتظره ليالي متعاقبات ، وشعرت بمضض انتظاره تلك الليلة في كل لحظة لما خامرني من خيبة الأمل وما أحاط بي من التنغيص والايذاء ، فلما كانت الساعة الثالثة بلغ الصبر غاية مداه ، ولما انتصفت الرابعة بادرت الممرض وهو يفتح الباب وطلبت اليه أن يدعو ضابط الحراسة تلك الليلة ، فتردد قليلا ثم لم ألبث أن سمعت قرقعة المفاتيح في هبوطه على السلم وصعوده بعد فترة ومعه ضابط الحراسة .

سألني الضابط مستغربا : ماذا جرى ؟

قلت : لا شيء الا أنني لا أطيق المكث بهذا المكان ولا بد لي من العودة الى الحجرة أو المبيت في أي مكان غير المستشفى .

فتبسم كأنما كان ينتظر هذه النتيجة وقال لي : وماذا كنت تصنع لو صادفتك القرعة في قسم الامراض الباطنية ؟

قلت : أهو شر من هذا ؟

قال : بما لا يقاس .

قلت شكرا لكم على هذه المرحمة ؟ ولكن الحجرة على كل حال أرحم من الغرفتين ، لأني أجد الأرق هنا وهناك ولكنني آرق هناك ولا أسمع الانين ولا أشم هذه الروائح ولا أرى ما يسوء .

وهكذا ودعت المستشفى غير آسف وطويت الليلة ساهدا الى الصباح ، ثم خرجت من السجن بعد عدة شهور ولو أنني استعرضت ليالي فيه لما استطعت أن أذكر بينها ليلة أسوأ ولا أنكأ من ليلتي تلك في ... ساحة الرضوان .

أحمد حمزة

أحمد حمزة رجل بارع الذكاء •

بل هو أبرع الناس ذكاء ان كان المقصود من الانسان أن يفهم عكس ما يفهمه الناس •

فاذا اتجه الفهم بين الناس من اليمين الى الشمال فالشيخ أحمد حمزة خير من يفهم من الشمال الى اليمين ، وكل ما هنالك ــ كما يرى القراء ــ اختلاف في اتجاه الفهم كالاختلاف في اتجاه الكتابة بين العرب والاوربيين : فريق يبدأ السطر من يمينه وفريق يبدأه من شماله ، وكلهم يكتبون ويقرأون •

وأحمد حمزة هذا ليس بسجان ولا بموظف في السجن ولا بزميل فيه ، ولكنه طاهي البيت عندي منذ عشر سنوات •

ولا يعرف القارىء كنه طريقته في الفهم الا ببعض الامثلة الواقعة ، فالى القارىء من هذه الامثلة قليل من كثير •

أيسر طلب تطلبه منه يجري على هذا الاسلوب :

ــ هات قهوة يا شيخ أحمد

ــ نعم ؟

ــ هات قهوة

ــ أجيء بماذا ؟

ــ بقهوة !

ــ بقهوة تقول حضرتك !

ـ أي نعم بقهوة

فيكتفي ولا يحوجك بعد ذلك ـ لذكائه ـ الى يمين مغلظة ليصدق أنك تطلب قهوة !

■ □ ■

وكنا على المائدة سبعة فطلبنا من الشيخ أحمد حمزة أن يضيف الى كراسي المائدة الستة كرسيا سابعا من غرفة الاستقبال •

ثم كان الاسبوع التالي فكنا على المائدة أربعة ، وكان كرسيان من كراسي المائدة خاليين ، ولكن أحمد حمزة صف الكراسي الستة على حسب العادة وجاء بالكرسي السابع من غرفة الاستقبال ، لأن هذا المكان حق كسبه الكرسي بالاستعمال • ولما ضحكنا وأغرقنا في الضحك نظر الرجل الى الكراسي ونظر الى ما حوله والى نفسه في حيرة واستغراب لا يدري فيم يضحك هؤلاء الناس ولا ممن يضحكون • أينكرون عليه زيادة الكرسي وهم الذين أمروه بنقله قبل أسبوع ؟ أيضحكون منه أن خالف ويضحكون منه أن أطاع ؟ لا جرم يعقل هؤلاء الخلق من اليمين الى الشمال حين ينبغي أن يكون العقل من الشمال الى اليمين !

وكنت متعبا في بعض أيام التوعك والانحراف •

وكنا نهيىء مكانا في البيت لاحضار قطعة من الاثاث ، ونحب أن نقيس المكان الذي توضع فيه على حسب المقاس المطلوب ،

فقلت له عليك يا شيخ أحمد بالمتر فقس الحائطين وقل لي أيهما اطول وأصلح لوضع الأثاث المنتظر ، فمضى هنيهة ثم عاد يتمتم ويوسوس كمن يناجي الغيب •

قلت : ما الخبر يا شيخ أحمد ! هل قست الحائطين ؟

قال : نعم

قلت : وكم الطول ؟

قال مثلا : ثلاثة أمتار

قلت : وكم العرض ؟

قال : كذلك ثلاثة أمتار

فعجبت للامر لأنني أعرف أن الحجرة ليست مربعة ولكنها مستطيلة بعض الاستطالة ، وسألته : أي الحوائط الاربعة قست ؟

قال : الحائط الذي فيه الباب والحائط الذي أمامه !

■ □ ■

وكان في المنزل ضيوف ذات يوم وأنا أفضل اذا كان في المنزل ضيوف أن أغسل يدي في حوض المطبخ وأدع لهم حوض الحمام ، فدخلت المطبخ ــ حرم الشيخ أحمد ــ وطلبت منه صابونة فذهب وعاد بها وأنا أبدأ غسل يدي ووجهي على مهل ولا أحسب أن هناك ما يدعو الى العجلة . ثم خرجت فاذا بالضيوف كلهم عند حوض الحمام ينتظرون الصابون ، لأن الشيخ أحمد أخذ الصابونة من ذلك الحوض ولم يخطر له أن يسأل نفسه لماذا أجشم نفسي أن أغسل يدي ووجهي في المطبخ وأدع لهم الحمام ، وانما قيل له : هات صابونة فجاء بصابونة ، وهذا هو المطلوب ، ولماذا لا يجيء بها من حوض الحمام ولم يقل له أحد مؤكدا مشددا : اياك أن تجيء بها من حوض الحمام ؟

أما معجزة الشيخ أحمد الكبرى فهي تلك التي صنعها بصورة قصر أنس الوجود وقد تركته هو وتركت المبيضين بالمنزل ونجوت بنفسي الى مدينة أخرى فرارا من ربكة الاثاث المشتت الذي لا يطاق معه قرار . فتجلت هنا عبقرية الشيخ أحمد التي تخلف كل ظن وتخرق كل حد وتخرج عن كل تقدير . لقد خطر لي أن أقصى ما يستطيعه الشيخ أحمد من اعجازه المعهود في هذه الحالة أن يضع الصور في غير مواضعها منحرفة نحو اليمين أو نحو الشمال وصاعدة الى الاعلى أو هابطة الى الاسفل ، فقيدت مواضعها بمسامير لا تتحول وأوصيت المبيضين أن لا يخلعوا المسامير عند طلاء الجدران ، ولكن أين يذهب بي سوء الظن بأفانين هذه العبقرية التي

تهوى أبـدا أن تداعب الظنون وتتخطى الآماد مما تحيط بـه الافكار والاوهام ؟ فقد عدت من غيبتي القصيرة فوجدت الصور والحق يقال في مواضعها تماما بلا انحراف ولا تحريف ، ولكنني وجدت أنس الوجود مقلوبا يقع فيه النيل موقع السماء وتقع فيه السماء موقع النيل ! !

وانما يبدو لنا مدى هذا الاعجاز اذا علمنا أن الشيخ أحمد من أهل ذلك الاقليم الذي قام فيه أنس الوجود ، فلو كانت « الرؤية » وحدها كافية لتصوير أثر من الآثار لكان الشيخ أحمد أولى من المصور الكبير « هدايت » بتصوير ذلك الهيكل غيبا بلا معاينة ولا استحضار ! !

وللشيخ أحمد ملكة نادرة في نسيان الاسماء ثم تحريفها وتصحيفها عند التذكر أعجب تحريف وتصحيف .

فاذا تكلم « راشد » مثلا بالتلفون في غيبتي ثم سألته : من الذي تكلم ، فمن المستحيل أن يكون المتكلم راشدا وانما هو « منشة » على التحقيق أو التقريب !

وينتهي « جاماتي » عنده الى « جماد » ، والشجاعي الى رجل من « كوم الشقافة » ، والطناحي الى الصنافي ، وذو الفقار الى زعفران ! .. وقس على ذلك سائر الاسماء .

قلت : يا شيخ أحمد . أرحني أراحك الله بالكتابة ، وأنت بحمد الله تعرفها على الاقل خيرا من معرفة الكلام ، فاذا تكلم أحد فاكتب ولا تعتمد على الذاكرة بعد الآن .

وحضرت الى المنزل فسألته : هل من أحد تكلم ؟

قال : نعم . تكلم أربعة

قلت . وهل كتبتهم عندما تكلموا ؟

فقال لي نعم ، وأحضر لي الورقة فاذا فيها البيان الشافي على هـذا النحو الوجيز . اذ ليس فيها الا هذه السطور الاربعة سطرا فوق سطر وهـي :

أحد تكلم
أحد تكلم
أحد تكلم
أحد تكلم ...

ولما تنازعني الغيظ والضحك من هذا البيان الذي لا بيان فيه ، وهذه الكتابة التي خير منها الكلام وخير منهـا النسيان بـدا عليـه العجب والاحتجاج ، وعلمت أنني المخطىء لا الشيخ أحمد المعصوم من الخطأ على طريقته العكسية الواضحة . فانني حين أقول للشيخ أحمد : « اذا تكلم أحد فاكتب ... » فليس ينبغي لي أن أنتظر غير ما فعل ، فقد تكلم أحد فقال أحد تكلم وأعاد الكرة كلما عادت الكرة . فأين الخطأ وأين المخالفة يا منصفون ؟ .

هذه أمثلة يعرف إخواننا الذين خبروا الشيخ أحمـد نظـائر من طرازها البديع ، والظريف في أمره بعد ذلك أنه جاءني يوما يستأذن في « أجازة » شهر للسفر الى البلد على غير عادة .

فسألته : وفيم هذا السفر الغريب ؟

قال : يا أستاذ انهم يوزعون الآن تعويضات الخزان . وأقاربي وأهل البلد يخشون الغبن وخطأ الحساب ، فأرسلوا يستقدمونني ويلحون علي في شهود التوزيع .

قلت : ومن لها غيرك يا شيخ أحمد ؟ سافر على بركة الله ، كان الله في عون البلد الذي أنت هاديه وألبق من فيه .

■ □ ■

والشيخ أحمد كما علم القارىء ليس بسجان ولا موظف في السجن ولا زميل فيه ، فما الذي زج به في هذا المأزق المكروه ؟

الذي زج به فيه أننا تركنا له البيت وحده وأنا وأخي يوم كنا كلينـا معتقلين ، وقد ظل عمدتي الوحيد في كل ما له علاقة بتدبير شيء في المنزل ،

أو احضار شيء منه حتى انتهت الشهور التسعة • ولا حاجة بي الى أن أقول انه لم يقلع خلالها عن ذكائه البارع ولا عن تزويدنا بالاعاجيب من « وحائده » وأفانينه •

فقد استطاع الشيخ أحمد بذكائه الثاقب وتجربته السنين الطويلة أن يعلم أنني أتناول الغداء نحو الساعة الثانية ولا أغير هـذا الموعد الا لسبب عارض ، ولكنه لم يستطع أن يعلم أن مواعيد السجن غير مواعيد البيت ، ولم يستطع أن يصدق السجانين حين قالوا له ان الساعة الثانية عشرة هي موعد الغداء عندهم ، لأنه لا يصدق الا ما يسمعه من الاستاذ !

وتعبوا في اقناعه بغير جدوى ، وعالجوا افهامه أن « العنبر » يقفل عند الظهيرة وأن الموظفين المنوط بهم رقابة السجن ينصرفون في هـذه الساعة ، وهو لا يفهم ولا يزيدهم على أن يقول : « ان الاستاذ لم يتناول غداءه قط في الساعة الثانية عشرة وقولوا ما شئتم فأنا لا أصدق لكم كلاما حتى أسمع من لسانه ! » وهيهات ذلك الا باذن وموعد زيارة وكتابات وردود •

وكان السجانون قد عرفوا الشيخ أحمد وخبروا منهاجه في فهـم الامور ، فولعوا بعناده واستثارته ، وأنذروه يوما لئن لم يحضر غدا قبل الساعة الثانية عشرة ليدخلنه السجن ولا يخرجن منه بعد ذلك أبدا •

ولم يحفل الشيخ أحمد بوعيدهم ولم يتقدم لحظة عن الموعد الذي اختاره لحضوره • فلما دق الباب كان السجانون على أهبة القبض عليه ، واتفق ثلاثة منهم على استدراجه وجذبه الى داخل الباب ، فأخذوا بيديه وشدوا عليه وهو يستعيذ بالله ويقاوم بقوة الجبارين وقوة الخائفين ثلاثة رجال ليسوا بالضعاف ولا بالهينين •

والشيخ أحمد لا يعلم أن دخول السجن انما يكون بتحقيق وأمـر بالقبض أو حكم من القضاء واثبات في الاوراق والسجلات ، بل كل مـا يعلمه أن من جاوز عتبة البناء المرهوب فهو مسجون لا فكاك له حتى يشاء السجـان !

فماذا ينتظر ؟ أينتظر حتى يتغلب عليه هؤلاء الظلمة العتاة ويوقعوه في الفخ الذي ليس بينه وبينه الا شبر واحد أو شبران اثنان ؟

لا وحــق الاولياء ومشايخ الطرق أجمعين ! لقــد حصلت بركتهم ونفخوا في عضلات مريدهم وربيبهم حتى حار السجانون من أين له كــل هذه القوة التي دافعهم بها مجتمعين . فلم يستطيعوا أن يزحزحوه شبراً أو شبرين ، وأفلتوه وقد غلبوا ضحكا ، فانطلق كالسهم في ميدان القلعة لا يلوي على شيء ولا يصدق بالسلامة !

ولكن هل عدل عن الموعد وأقلع عن العناد ؟

معاذ الله ومعاذ الذكاء . لــم يعدل ولم يقلع ولم يزد على أن يدق الباب في الايام التالية ويضع الآنية على مقربة منه ، ثم يرجع هو الى حيث يضمن النجاة ويأمن الظلمة العتاة ! ولم يزل كذلك حتى بلغه عني مصداق ما يقول السجانون .

وعلى هذا جرى في احضار الملابس لموعد الحمام ، فهو لا يحضرها الا أيام الحمام في البيت ، ولا شأن له بما يقولون عن مواعيدهم ومواعيد البخار الذي لا يدار في أيام الجمع ولا يختلف عن الاوقات المرتبة له على حسب الحاجة اليه ، وظل على عناده حتى أبلغته مواعيد الاستحمام كمــا أبلغته مواعيد الطعام .

ولا تسل عن المشقة في تعريف الشيخ أحمد بالملابس اللازمة حين يدعو الامر الى التدرج من الملابس الثقيلة الــى الملابس الخفيفة بــين الفصول ، فالتفرقة بين القميص الصوفي الاحمر والبرتقالي والرمادي عنده من المشكلات المعضلات ، وهو مع ذلك لا يتورع عن طلاء ما يلقاه مــن تمثال أو صورة عنــدي بالالوان التــي تروقه كلما تقشرت طبقة منهــا واحتاجت الى طلاء . فتلك فنون لا يحجم عنها الشيخ أحمد ولا ينتظر اذني في عملهــا ، ولا يحتفل بالتفكير فيهــا أقــل احتفال ، واذا ضحك أصدقائي الفنانون صانعو تلك الصور أو تلك التماثيل من فنه في التلوين

والتظليل فماذا يعنيه من ضحك الناس المغرمين بالضحك من كل شيء ؟ لقد تعود منهم أن يضحكوا حين يصنع الشيء وحين يصنع نقيضه ، فليضحكوا ما بدا لهم ما داموا لا يقطبون ولا يغضبون .

لكن بدائع الشيخ أحمد ليست كلها مضحكة ولا كلها سليمة ، فربما كان منها ما يميت وما يغيظ . وقد جاد علينا بواحدة من هذه البدائع القاتلة في السجن ثم اكتفى بها ولم يشفعها بثانية ، ولله الحمد .

فأنا أتداوى من عوارض البرد بالماء الساخن انغمس فيه بضع دقائق ثم أسرع الى لبس البرنس في الصيف أو البرنسين معا في الشتاء بغير وناء ، فاذا أبطأت ساءت العاقبة وجنيت جريرة هذا الابطاء زكاما قد يلازمني الاسابيع ، وقد يتجاوز الزكام الى ما هو أشد وأقسى .

فلما كان يوم من أيام الحمام خرجت من الحوض الساخن والتمست البرنسين والملابس فاذا الشيخ أحمد قد نسي أن يصلح بعض أكمامها وتركها مقلوبة تارة ومعدولة تارة أخرى ، وهذه هفوة صغيرة ولكنها كافية ! ! لأنني شعرت بالقشعريرة تسري في أوصال جسمي ورعدة البرد تملأني ، فأسرعت الى الحوض الساخن مرة ثانية حتى عاودني الدفء وشملتني الحرارة ، ولكن الوقت الذي قضيته في الحوض كان أطول مما يطاق ، فلم ألبث أن خرجت منه حتى غشيني الاغماء ، ولو أدركني في الماء قبيل ذلك بلمحة عين لكانت هي القاضية .

وان نسية من هذه النسيات التي يتقنها الشيخ أحمد لكافية لتوديعه مدى الحياة ، لولا امانة عزيزة تشفع له واخلاص وثيق يزكيه ، وطول خدمة مذكورة تكافيء هذه النسيات .

التسلية في السجن

لو تمت « تعليمات » السجن بحرفها في معاملتنا نحن المحكوم علينا في قضايا النشر والصحافة ، لكان معنى ذلك أنني قضيت تسعة شهور صامتا لا أنبس بكلمة واحدة ، الا أن تكون هذه الكلمة سؤالا أو جوابا لموظف من موظفي السجن في عمل من أعماله الرسمية ثم ألوذ بالصمت « البوذي » الطويل عاكفا عليه ليلي ونهاري بلا صلاة ولا قربان !

لأن ادارة السجن أوصدت على كل مسجون في قضية صحفية أو قضية من قضايا النشر باب حجرة منفردة .

وأمرت أن ينفرد كل منا في أوقات الرياضة فلا نتلاقى بمكان واحد، ولا يمر أحد منا على حجرة الآخر .

بل أمرت أن يكون ذهاب كل منا الى المستشفى لمقابلة الطبيب أو اللجنة الطبية في موعد غير موعد زملائه .

وعلى هذا كنا في « سجن انفرادي » كالذي يعاقبون بـه السجناء الاشقياء ، ونحن لا ندري ولا ادارة السجن تدري . وكنا أسوأ حالا من شرار المجرمين لأنهم يجتمعون في ساعة الرياضة عشرات عشرات ، ويجتمعون في المصنع بضع ساعات ، ويجتمعون في حجرة النوم خمسة خمسة أو عشرة عشرة أو عشرين عشرين حسب اتساع الحجرات .

وهذه نقيضة أخرى من نقائض السجن وأعاجيبه ، وهو كمصر في رأي هيرودوت موطن النقائض والاعاجيب .

ومهما يكن من زهادة الانسان في اللغو والكلام ، وفي اخلاده الى

العزلة والسكون فليس السكوت تسعة شهور بالامر المعقول ولا بالامر الهين ، وأي سكوت ؟ انه السكوت لغير عبادة يتعزى العابد بسلامها وثوابها ، وانه السكوت مع الفراغ من العمل ، ومن النظر الى الدنيا ، ومن ضروب السلوة جميعها الا القراءة ومراقبة النمل على الجدران !

لقد كنا نرى بعض المحبوسين من الموسرين القادرين على استئجار الحجرات المفروشة أثناء التحقيق يهجرون تلك الحجرات لانفرادها وعزلتها، ليشتركوا مع غيرهم في حجرة واحدة ينامون فيها على الارض بغير فراش الا الحصير من الليف الخشن ، ويعملون بأيديهم في تنظيف الارض وغسل الآنية كل صباح ويؤثرون ذلك على السرير وحشايا القطن ، والراحة من الخدمة وامتهان النفس في الغسل والتنظيف ، لأنهم يستطيعون الكلام هنا بغير عقوبة ، ولكنهم يعاقبون اذا سمعهم الحارس يكلمون جارا لهم من النافذة أو فتحات الباب حين ينفردون في حجرة معزولة .

وقد كنت أنا من المشهود لهم « بحسن السير والسلوك » عند السجانين ورؤسائهم الموقرين ؟ لأنني كنت لا أهتم بفتح باب الحجرة ، ولا أسعى للتحدث الى أحد ، ولا أحاول الخروج او المرور من غير مكاني المألوف ، ومع هذا تخطىء ادارة السجن اذا هي ظنت أنني أستحق شهادتها بحسن السير والسلوك كل الاستحقاق . فلو أنني حوسبت بالعدل والقسطاس المستقيم في عرف النظام الاعوج ، لخسرت كثيرا من الدرجات في تلك الشهادة .

فالحق أننا نتكلم ونتلاقى ونتسامع الاخبار على قصد وعلى غير قصد ، وان كان ذلك كله فلتات لا تخفف من قيود « السجن الانفرادي » المفروض علينا الا بمقدار يسير .

أما شرار المجرمين فقد كان مباحا لهم كل ما هو محرم علينا . فما هو الا أن توصد عليهم الابواب نهارا، حتى يتجمعوا للعب بحجارة «الدومينة» أو بحجارة النرد أو ما شاءوا من الالعاب وضروب التسلية . وقد يسأل

سائل : « ومن أين لهم حجارة النرد أو الدومينة ؟ أتراهم يهربونها من خارج السجن كما يهربون التبغ والنقود ؟ » ألا فليعلم هذا السائل اذن أنه يسيء الظن ببراعة السجناء ، فانهم قد برعوا في صناعة هذه الحجارة داخل السجن حتى صنعوها من لباب الخبز الساخن وهم في حاجة اليه . فأثبتوا بذلك أنهم يعرفون كيف يجدون اذا هموا باللعب أو مخالفة النظام، وأثبتوا بذلك أيضا أن اللعب أحب الى الانسان من الطعام .

وليس يحلو اللعب للسجناء بغير رهان . فاذا كان نقد أو تبغ أو طعام ممنوع فذاك هو الرهان المفضل على هذا الترتيب ، وان لم يكن واحد منها فلا رهان بعد هذه المتع المشتهاة أحلى وأشهى من الضرب الوجيع والمبالغة في الايجاع اظهارا للقوة والتذاذا بالسطوة ، وربما كانت لذة الضرب الكبرى عند السجين أنه يمنحه القدرة على التغلب والتعذيب وتوقيع العقاب ، في مكان لا يزال فيه مغلوبا معذبا خاضعا للعقاب .

أما الليل فالظلام يحول دون اللعب بالنرد والدومينة ، ولكنه لا يحول دون اللغط والغناء والعربدة وكل ما يحلو لسكان الحجرة ما داموا في أمان من أعين الحراس وآذانهم ، وهم على الاكثر في أمان !

■ □ ■

وكانت تسليتي بالليل قبل أن تسمح ادارة السجن بادخال النور الكهربائي الى حجرتي أن أستمع الى لغط اللاغطين حتى يهدأ : فأسمع مصارحات السجناء بأسرار حوادثهم ومراوغاتهم تارة ، وأسمعهم يمثلون روايات التهريب واخفاء الممنوعات تارة أخرى ، وربما كان من هذه الروايات المضحك والفاجع والمقزز والمثير للسخط والنقمة ، وربما كان منها ما يستمر ليلة كاملة ويشترك في تمثيله حجرات ثلاث بعضها فوق بعض ، وكل منها في دور مختلف من أدوار العنبر . وأصلح هذه الروايات للتمثيل فيما أذكر رواية اشترك فيها أربعة أطفال ، ومهرب كبير من عتاة المجرمين ، وسجين من سجناء المحاكم المختلطة . فأما الاطفال — وهكذا

يسمونهم في السجن وان بلغوا الثامنة عشرة ـ فكانوا في الدور السادس أي الدور الاوسط ، وأما المهرب فكان في الدور السابع وهو أعلى من السادس ، وأما سجين المحكمة المختلطة فكان الى جانبي في الدور الارضي أي الدور الخامس الممتاز بالاطعمة الخاصة وشيء من التيسير في المعيشة .

وبدأت الرواية باتفاق بين المهرب والاطفال من جهة ، وبين الاطفال وسجين المحكمة المختلطة من جهة أخرى ، وفحوى الاتفاق أن يدلي الاطفال بخيط من خيوط الصوف التي ينزعونها من غطائهم أحيانا لتوصيل الرسائل والمهربات ، فيربط فيه السجين في الدور الارضي صرة صغيرة تحتوي قطعتين من ذوات القرشين وقليلا من الحلوى ، وعندما تصل هذه الصرة الى الاطفال ينادون المهرب فيسقط اليهم خيطا قد ربط فيه الصرة التي تحتوي لفائف التبغ المطلوبة ، وانما وثق الطرفان بأمانة الاطفال في هذه الرسالة لأنهم أطفال مخلصون لا يعرفون الخباثة ، ولا بد من توسيطهم بين البائع والشاري على كل حال لأنهم متوسطون بينهما بحكم المكان الذي لا يتحول . فاطمأن البائع والشاري الى الصفقة وبات كل منهما يمني نفسه بليلة سعيدة : فالبائع يتلمظ شوقا الى الحلوى ويترقب ثمن البضاعة التي يعاني ما يعاني في سبيل تهريبها واخفائها ، والشاري يحلم بالتدخين ويعد الانفاس في انتظار انفاسه الهنيئة ! أما بقية الممثلين في الرواية ـ وهم الاطفال ـ فلم يكونوا عند حسن الظن أو عند سوء الظن بهم فهما في هذه الحالة سواء ، ولكنهم أضمروا النية على شيء آخر وقرروا فيما بينهم أن ينوبوا عن الطرفين البائع والشاري في الاستمتاع بالتدخين والحلوى والقروش جميعا ، وهكذا كان .

فلما أسقطوا الخيط الى سجين المحكمة المختلطة المجاور لي لم يقصر الرجل في ربط الصرة ، وهمس لهم أن يرفعوها فرفعوها وهم يغالبون الضحك ، والرجل لا يستريب بضحكهم ولا يرى فيه الا أنه من مرح الاطفال حين يلهون بأمثال هذه الالاعيب . ثم لبث الاطفال

يضحكــون هنيهــة وانتظــروا ريثمــا يتحقــقون من محصول الصرة ويطمئنون الى نجاح الحيلة من ناحية الشاري ، ثم نادوا المهرب فما توانى دون أن أجاب على الفور باسقاط الحبل وفيه البضاعة النفيسة ، ثم مضت لحظة. كنت أسمع في خلالها همس الاطفال وضحكاتهم المخنوقة وشجارهم الاخوي على تقسيم الغنيمة فيما يظهر ، فلما لم تصل اللفائف الى سجين المحكمة المختلطة ولم تصل القروش والحلوى الى المهرب ، ناديا علــى الاطفال في وقت واحد وهما حذران متوجسان ، ولم يخطر لهما أول وهلة أنهم قد غدروا بهما ، وانما خطر لكل منهما أن يرتاب في صاحبه ويسأله على الرغم مما في رفع الصوت من المجازفة والتعرض للعقوبة والمصادرة ، فاذا بكل منهما يقسم أغلظ الايمان على بره بوعده ويحرق الارم غيظا من أولئك الصبية الملاعين ! ! وأكد لهما الصدق فيما يقولان سكوت الصبية الملاعين وانفجارهم بالضحك كلمــا غلبهم وأعياهم أن يغالبوه ، وانقلب النداء شتما ووعيدا والحافا شديدا . ولا فائدة لكل اولئك ولا جواب غير الهمس فالضحك المخنوق فالقهقهة الداوية من حين الى حين ، فلم يبــق للرجلين الا أن يتجرعا غصة اليأس ويستعيضا الله فيما كانا يحلمان به من لذة وهناءة ، وسكتا وهما كظيمان مقهوران .

لكن الرواية لم تنته عند هذه النهاية ، وانما انقضت فترة قضاها الاطفال في سرور وفرح بالغنيمة ونجاح الالعوبة ، ثم انبعث صوت جاد أو متكلف للجد من حجرتهم ينادي المهرب مرة بعد مرة ، فخف المهرب الى الجواب ، ووثب الى النافذة كأنه حسب أنهم ندموا علــى غدرهم وفكروا في رد الامانة اليه . فقال متوددا : « ما بالك يا فلان ؟ لم كنت لا تجيب ؟ » فضحك الغلام الخبيث وقال : « كنت نائما » . فأرسل المهرب عليه عشرات من التحيات لأبيه وأمه وصاح به : « أو تنام في غمضة عين ؟ ومن ذا الذي كان يضحك ويقهقه منذ هنيهة ؟ » ثم أخذ في ملاطفته وعاد يسأله : « ماذا تريد ؟ هل أسقط لــك الخيط ؟ » قال الغلام الخبيث :

« نعم •• وتسقط عينا » أي كبريتا باصطلاح السجناء • فأدرك المهرب أنهم يعبثون به ويكايدونه ! وقد كانوا حقا يكايدونه ويبالغون في المكايدة، لأنهم كانوا قد دخنوا اللفائف جميعا ، وأشعلوها بالشرار الذي ينقدح في خيط الصوف من ضرب الارض بصفيحة الرقم المعروفة هناك «بالدوسيه» • فلم تكن بهم حاجة الى الكبريت ولا حاجة الى النداء على المهرب من أجله ، ولكنهم حرصوا على الاستمتاع باللعبة الى آخرها ، وتركوا صاحبهم يفرغ ما عنده من السباب والتهديد ، وهم يمرحون ويمزحون •

وتلك رواية من روايات التهريب التامة لم يقاطعها أحد دون تمامها الى الفصل الاخير منها كما يحدث أحيانا في أمثالها • ومسرح السجن غير ضنين بأشتات من هذه الروايات التي نشهدها نحن ليلة ويشهدها غيرنا ليلة أخرى ، ولكنها لا تنقطع عن شهودها المتفرقين في معظم لياليه •

■ □ ■

وتيسرت لي القراءة طرفا من الليل بعد دخول النور في الحجرة فكنت أقرأ حتى أمل الصفحات فألهو بمراقبة النمل على الجدران ويطيب لي هذا النوع من اللهو لأنني أستأنف به أياما من الطفولة كنت أقضيها في هذه المراقبة • وأكاد أصدق يومئذ أنني أعالج ضربا من الطلاسم التي كان يعرفها سليمان عليه السلام •

وذاك أن تلميذا من أصحابنا في المدرسة كان يقول لنا انه يحفظ قسما يتلوه على النمل ويرسم له خطا فلا يتعداه ، ومن عصى القسم وحاول تعديه سقط وحلت به لعنة سليمان •

واحتلنا على صاحبنا التلميذ حتى باح لنا بذلك القسم ، فاذا هو آيات يكررها القائل ثلاث مرات وهو متوضىء فتحصل المعجزة • وقد رأيناه فعلا يحز للنمل خطا على الحائط ويتلو القسم فيرجع النمل عن الخط أو يسقط دونه ، وجربنا نحن القسم فصحت التجربة ، وأيقنا برهة

أننا نملك سرا من أسرار السحر المتصرف في خلق من خلائق الله ، حتى خطر لنا يوما أن نرسم الخط ولا نتلو القسم ، فما راعنا الا أن تصح التجربة بغير تلاوة كما صحت بالوضوء والتلاوة ، فعرفنا السر ولكنا أسفنا على السحر الذي فقدناه !

ومن ذلك اليوم ونحن نمتحن النمل بالخطوط لنعرف كيف « يفكر » في اجتياز العقبات واللف حول الدوائر والمربعات ، وكنا نحيطه بدائرة مفتوحة ودائرة ثانية مفتوحة من جانب آخر ونحيط الدائرة الثانية بدائرة ثالثة لا فتحة فيها ، ونراقب كيف يهتدي الى الفتحات في خروجه حتى يصل الى الدائرة الكبيرة وكيف يهتدي الى هذه الفتحات بعينها حين يرتد عن الدائرة المقفلة ، ونكرر هذه التجربة عشرات المرات ، فلا نرى نملة واحدة « تفكر » في الرجوع الى طريق الفتحة التي تركتها منذ هنيهة ، فانتهى بنا الامر الى أن فقدنا اعجابنا بذكاء النمل الموصوف كما فقدنا السحر أو الوهم الذي سلطنا على هذه المخلوقات ، وساءنا أن نعلم أن هذه المخلوقات الموصوفة بالذكاء انما تعمل بغير « تفكير » ! كأنها من الآدميين !

■ □ ■

وكانت التسلية بمراقبة الآدميين ميسرة كالتسلية بمراقبة النمل على الجدران ، ولكن أين هم الآدميون الذين يستحقون المراقبة داخل السجون ؟

انهم أرقام كما وسمتهم ادارة السجن ولم تظلمهم كثيرا في هذه السمة ، فقد يمر بك المئات بعد المئات من تلك الارقام دون أن يبرز من بينها رقم واحد بشخصية انسانية وملامح نفسية ، لأن « التفاهة » لعنة غالبة على مجرمي « سجن مصر » الا النادر الذي لا يقاس عليه ، ومن كان منهم ذا « شخصية وملامح نفسية » فالاغلب أن يجيئه ذلك من طريق الجنون أو الشذوذ النافر ، خلافا لسجناء طرة وأبي زعبل الذين يجتازون بسجن مصر في انتظار الافراج بعد زمن قليل ، فان « الشخصيات » بين

أصحاب الجرائم الكبيرة أكثر عدا من « شخصيات » السرقة الخسيسة والعدوان الوضيع ، وقد رأيت من هؤلاء وهؤلاء نماذج قليلة سأرجع الى الكلام عنها في بعض هذه الفصول .

على أن الانسان يراقب الناس كما يراقب جميع الاشياء داخل السجن وهو « بنصف نفس » كما نقول في أحاديثنا العادية ، أو يراقبهم وهو ينوي التأجيل كمن يدخر الزاد المستطاب لساعة في المستقبل غير الساعة التي هو فيها ، فينظر اليهم وكأنما بينه وبينهم مسافة أشهر وأيام ، ويمتلىء بالمشاهد والتجارب وكأنه الجمل في الصحراء يختزن الماء في جوفه حتى يشربه مرة أخرى الشرب الذي ينتفع به ويشعر بريه ، وربما ازدحم وعيه الباطن بالتجارب كأقوى وأثبت ما تكون التجربة ، ولكن وعيه الظاهر لن يبرح كالجاهل أو المتجاهل الذي لم يسمع الا بنصف الخبر ولم يشارف التجربة الا من مسافة قصية .

■ □ ■

الزيارة أو برج بابل

كان التعجب صعبا على آبائنا الاولين على ما يظهر ، لأنهم حصروا عجائب هذه الدنيا في سبع لا أكثر ، وحسبوا من هذه العجائب « برج بابل » الذي كان سكانه لا يتفاهمون لأنهم يتكلمون بلغات كثيرة •

وكل بيت على الارض هو « برج بابل » عجيب يأوي الناس منه الى مكان واحد ، ولا يتفاهمون فيما بينهم وان تكلموا بلغة واحدة • لأنهم يفترقون في ألوان الحياة أبعد ما يختلف انسان من انسان : بين امرأة ورجل ، وشيخ وطفل ، ومهموم ولاعب ، وقديم وحديث ، ولا توجد اسباب للافتراق بين عقل وعقل وشعور وشعور أبعد ولا أوسع من هذه الاسباب التي تجتمع في بيت واحد •

كل بيت هو « برج بابل » لا يحتاج الى أكثر من « قاموس واحد » ليصبح أعجوبة من تلك الاعاجيب التي أحصاها آباؤنا الاقدمون على أصابع يد واحدة وأصبعين اثنين من اليد الثانية !

ولكني أحسب أن برج بابل يحتاج الى صورة هزلية تمثله كما نمثل بعض الناس في الصور الهزلية بأنف أطول من أنوفهم الطويلة ، أو رجل أقصر من أرجلهم القصيرة ، كلما تعمدنا المبالغة التي تعيننا على ابراز الحقيقة •

ولا أحسب أن فنانا يجد للبرج الدائر صورة هزلية أظرف وأصدق من ذلك المكان المعروف في كل سجن بقفص « الزيارة »

لأنه المكان الذي يتكلم فيه الناس بلغة واحدة •

ويتكلمون بأعلى ما في وسعهم من زعيق وصريخ .

وتصغي اليهم على مسافة ثلاثة أشبار فلا تفهم ما تسمع ولا هم يفهمون ما يسمعون .

وثق أنهم لا يتكلمون في الفلسفة ، وما أنت في ذلك بحاجة الى توكيد .

وثق أنهم لا يصطنعون الالغاز والمعميات في التعبير كما يصطنعها المتخاطبون أحيانا بالاصفار والرموز .

ولكنهم يتكلمون في أبسط الامور ، ويجتهدون غاية الجهد في التوضيح والانصات .

ومع ذلك كله لا يتفاهمون بالكلمات كما يتفاهمون بالظنون والاشارات .

واذا شاء لك حسن الحظ ــ أو سوء الحظ ــ مرة واحدة أن تشهد قفص الزيارة عرفت سر هذه العجيبة ، وعرفت أنها كسائر الاسرار من أبسط الاشياء ، لأنها الشيء الذي لا يكون غيره ، وهكذا ينبغي أن يكون .

أربعة أقفاص يقابلها من الجانب الآخر أربعة أقفاص مثلها على مسافة أشبار ، وفي كل قفص رجل أو اثنان أو ثلاثة ، وأمامهم جميعا دقائق معدودات يقولون فيها كل ما أعدوه للقول في شهور أو أسابيع ، ويحب كل منهم أن يقول كل ما عنده وأن يسبق الآخر الى افراغ ما في جعبته ، ويتواصى كل منهم قبل دخوله الى القفص أن يخفض صوته ولا يغطي على صوت جاره .

ولكنهم لا يبدأون حتى يختلط بينهم الكلام وتأخذهم العجلة فاذا هم من حيث لا يشعرون قد انتقلوا من الهمس الى زعيق المصابين بالصمم المغلق ، واذا بالسامع من وراء الجدار يسمع سؤالا عن الزرع وجوابا عن السوق وكلمة عن الابناء والبنات وكلمة عن الماشية والانعام ، ولا يدري

ماذا جواب ماذا ولاهم يدرون مــن السائل ومن المجيب ، الا أن يرى المتحدثين رأي العين فيفهم بالظن من ملامحهم واشاراتهم ما يتخاذل دونه الكلام ، أو أكثر الكلام •

وهذه هي الزيارة التي يتشوف اليها المسجون ويحسب دوره فيها باليوم والساعة ، لا لأنه يسمع ولكن لأنه يرى ، ولا لأنه يعني كثيرا بمن يراه ولكن لأنه ينفذ بهذه الرؤية الى العالم الخارجي ولو بعض النفاذ •

وعلى هذا الشوق من المسجونين الى أيام الزيارات لا تجد «مصلحة السجون » سريعة الى شيء كسرعتها الى انتحال الاعذار لالغاء الزيارات عامة بحجة المرض تارة وبحجة الوباء تارة أخرى • فما هو الا أن يشاع أن مرضا معديا ظهر في ناحية من أنحاء القطر حتى ينتهي خبر هذه الاشاعة الى كل مسجون في كل زاوية من زوايا السجون ، لأنه يصغي الى «برج بابل» فلا يسمع فيه لغطا ولا ركزا ، وما حاجته بعد ذلك الى مطالعة الصحف ونشرات الاطباء !

قال لي مسجون من مدمني المخدرات حجبوه في اللحظة الاخيرة عن زيارة كان يتوقعها منذ أسابيع : انني يوم ساقوني الى السجن كان في بيتي اثنان مريضان بالحمى ، فلماذا لم يغلقوا في وجهي باب السجن ذلك اليوم ؟

قلت : انه لمنطق سليم ! فان الحميات والامراض وأوبئة العالم بأسره لن تحجب عن أبواب السجن هذا المدد الذي يتدفق كــل يوم من خضم المجتمع الواسع ، ولكن للمتهمين والجناة على ما يبدو من هذه التفرقة في المعاملة « خاطرا » عند مصلحة السجون ليس للزوار الابرياء •

وفي حساب بعض السجناء أن « الزيارة » قيراط اذا كان الافراج أربعة وعشرين •

قال بعضهم لواحد من أولئك السجناء الذين فجعتهم مصلحة السجون في بعض هذه القراريط : لا تعلم « المصلحة » هذا الحساب فتعطيك أربعا وعشرين زيارة و « تأكل عليك » الافراج ؟ !

الطعام ومطالب الجسد

أيسر تجربة للمسائل العامة خليقة أن تؤكد لنا صحة هذه الحقيقة المأثورة ، وهي أن المبدأ لذاته ليس بالمهم ، أو ليس بالشيء الذي يستحق الجانب الاكبر من الاهتمام والدراسة ، وانما المهم قبل كل مهم هو تطبيق المبادىء وتنفيذها ، فان التطبيق في أيدي المصلحين قد يصلح المبادىء الفاسدة ويقوم اعوجاجها ، كما أنه قد يفسد المبادىء الصالحة ويعكس مقاصدها اذا هو جرى على أيدي العجزة وأهل الفساد .

فليس الاصلاح اذن منوطا بالقاعدة والنظام وانما هو منوط بضمان التطبيق ، وحسن الرقابة على التنفيذ .

وهذه الحقيقة تسري على مسألة الطعام في السجون أشد من سريانها على مسائل الدواوين الاخرى ، لأن الاغراء حاضر والشكوى عسيرة وتحقيقها أعسر ، وخوف السجناء من الشهادة الجريئة خوف غير مستغرب من أناس مهددين مملوكين في قبضة الحراس والرقباء ، موسومين بالكذب والخداع عند المشرفين عليهم والموكلين بشئونهم ، موصوفين بضعف الخلق ، وضعف النخوة ، وضعف الغيرة على الحق ، وضعف الابانة عنه ، فاذا هم أحدهم بالشكاية ثناه ضعفه فأحجم ، واذا ألح عليه الضيم فأقدم بعد وجل وتردد لم يستطع الافصاح ولا اقامة الدليل ، ولم يجد من العطف والتشجيع ما يغنيه عن حسن البيان وقدرة الاثبات ، وقد يخذله زملاؤه طلبا للسلامة وايثارا للزلفى ومرضاة الحراس والرقباء ، فالحاجة الى مراقبة التنفيذ في مثل هذه الاحوال أشد وألزم ، والثقة بالمبادىء والنظم أقل ثقة تعهد في مبدأ أو نظام .

ولو سئلت رأيي في تعديل طعام السجن من حيث المبدأ والنظام لما اقترحت من التعديل غير القليل : زيادة جزء من المواد السكرية وجزء من الفاكهة والسماح في الشتاء بالمشروبات الساخنة ، وما عدا ذلك فهو غذاء صالح كما هو قائم الآن ، لأنه يقوم على البقول عامة الاسبوع ، والخضر النيئة مرتين في الاسبوع ، وتستبدل الخضر المطبوخة مع اللحم بالبقول مرة أو مرتين على أقصى تقدير ، وهذا على قلته كاف لحاجة الجسم ناف للضرر الذي يصيب الانسان من نقص بعض الاصناف .

لكن الاهتمام جد الاهتمام انما يكون بالرقابة على تنفيذ هذا النظام ، فان العدس قد يكون صحيحا وقد يكون منهوكا بالسوس ، والخضر النيئة قد تكون ذابلة هزيلة وقد تكون ناضرة جزيلة ، واللحم قد يكون لحم حيوان شائخ أعجف سقيم ، وقد يكون لحم حيوان فتي فاره سليم ، والسمن قد يكون مغشوشا مخلوطا وقد يكون من اللبن النقي المخوض ، والخبز قد يصنع من الدقيق النظيف وقد يصنع من الدقيق المشوب بالحصى والتراب ، والفرق كل الفرق ما بين عدس وعدس وخضر وخضر ، ولحم ولحم ، وسمن وسمن ، وخبز وخبز ، وان كانت كلها في العنوان سواء .

فالرقابة هنا هي أس النظام ، والحذر من العبث والاهمال هو أولى الامور باليقظة والانتباه .

كذلك المرضى المستحقون للبر والرحمة قد يصلون الى مكانهم من المستشفى بغير عناء ولا كلفة اذا حسنت الرقابة واستقام الاشراف ، وقد يحرم هذا الحظ من هو أهله ويعطاه من هو غير أهله اذا التوت الامور واستفاض الخلل والاهمال .

ومن الحق علي أن أقرر هنا أنني شكوت مرة من بعض الخلل الخطير فلم ينقض يوم على الشكوى حتى أزيلت أسبابها وحيل بين المسيء وما يسيء ، ومن الحق علي كذلك أن أشهد لكثير من الاطباء والموظفين في سجن مصر بالجد والامانة والاخلاص وبذل الوسع في تخفيف الشقاء

وتلطيف الآلام ، فاذا قضيت هذا الحق وهو فرض لا أنساه فمن حق الضعفاء علي أن لا أنسى حاجتهم الى الرقابة الناجعة ، ولا أنسى سهولة الاجحاف بهم والقسوة عليهم ، اذا آلت الامور الى غير القادرين وغير المخلصين .

■ □ ■

على أن مسألة الطعام في السجن ــ سواء صلح نظامه أو افتقر الى التعديل والتنقيح ــ مسألة لم تغب عن أذهان الحاكمين ، ولم يغفلوا عن تقريرها بالمبدأ والقاعدة تارة وتعهدها بالرقابة والاستطلاع تارة أخرى ، ولكن العجيب كل العجب أنهم قد غفلوا وتغافلوا جميعا في مصر وفي معظم بلاد العالم عن وظيفة جسدية ليست في صميمها بأقل من وظيفة التغذية وقد ترجح عليها بما لها من الاثر السريع في الاخلاق والآداب ، ونعني بها وظيفة الغريزة الجنسية وحاجة الرجل الى المرأة في الشهور أو السنين الطوال التي يقضيها بمعزل عن النساء ، فهل في وسع طبيب أن يجيز تعطيل هذه الوظيفة في جسد صحيح ميسور الغذاء ؟ وهل في وسع حاكم أن يزعم أن السكوت عنها أو اسبال الستار عليها كاف لالغائها وكفيل بمحوها واخفائها ؟ وهل في وسع الحاكم والطبيب أن يرضيا عن شذوذها وتحولها كما تشذ وتتحول في مئات من الاحوال ينتهي خبرها الى الحراس والرقباء ، وفي ألوف من الاحوال لا ينتهي خبرها اليهم وان كانت في حكم المعلوم المفهوم ؟

ليس السجناء نساكا ولا رهبانا فيطالبوا بزهد النساك والرهبان ، وليس من الصلاح لهم أن يطالبوا بذلك وهم لا يؤمنون بنية الزهد ولا يستمرئون سلوى العفاف ، ولا يقصدون النسك ولا الرهبانية . فمن أعجب الدلائل على كسل العقل الانساني واعتياده أن يحل المشكلات بالاعراض والتغابي هذه الغفلة السادرة عن المسألة الجنسية في السجون ، وهي مشكلة لا تحل بالسكوت ولا تحل بالشذوذ ولا بد لها من حل ، وليس من يتصدى لحلها بين الرؤساء المسئولين كأنما هي شيء غير موجود !

حدث في بعض الليالي أن استيقظ السجن كله على ضجة هائلة لا يتميز منها صوت بين صليل عشرات من الجرادل والكيزان تتساقط على الارض أو تصطدم بالجدران ، ويتخلل ذلك صيــاح المجروحين وعويل المضروبين وزمجرة كزمجرة الوحوش وضحك كضحك المخبولين ، ثــم جاء ضابط السجن وفتح الحجرة التي انبعثت منها هذه الضجة فاذا بالذين فيها وعدتهم نحو الثلاثين ممن يسمونهم بالاحداث عرايا متهتكون واذا بالحادث كله مسألة من مسائل الشذوذ .

ويتكرر هذا الحادث وان لم تتكرر هذه الضجة ، ويبطل الحياء منه لكثرة التكرار والابتذال فيرويه بعض المتهمين على مسمع من السجناء والحراس بصفاقة كأنها صفاقة الحيوان ، ومنهم من كان يساق الى الجلد فينعى على زميله أنه خائن وأنه حانث في يمينه ، ولا يحسب أن في الامر غير ذلك ما يشين ، وربما وقعت هذه الحوادث وفي الحجرة أكثر من خمسة أو ستة ، لأن الحياء منها يوشك أن يكون في حكم المعدوم .

ولست أذكر أنني قرأت كتابا واحدا عن ذكريات السجون الا وفيه اشارة الى الشذوذ الذي يدفع اليه كبت الغريزة الجنسية ، فهو مذكور في كتاب دستيفسكي « منزل الاموات » وفي كتاب مكارتني Macrtney « الحيطان لها أفواه » ، وفي كتاب الدكتور هامبلين سميث Homblin Smith عن حياة السجون ، وفي كتاب بلير نيلز Blair Niles عن المسجونين بجزائر الشيطان ، وفي كتاب جوزيف فيشمان Fishman عن المسألة الجنسية في السجون ، وفي كتاب فكتور نلسون عــن أيام السجن ولياليه ، وفي الكتب والمجلات التي عقبت على بعض حوادث الاصلاحيات وسجن جوليت joliet بالولايات المتحدة ، وهي كتب تصف سجون آسيا وأوربا وأفريقيا وأمريكا ولا تقتصر على بيئة واحدة ولا على زمن واحد ، فالآفة اذن آفة السجن حيث كان ، والامر أعم من أن يعالج بالمداراة والنسيان .

وقد عولجت هذه الآفة بأساليب مختلفة في أمــم شتى ، فسمحت

حكومة الفيلبين للسجين بعـد قضاء فترة يسيرة أن ينتقل الى مستعمرة تأديبية يتصل فيها بأهله وذويه •

وقررت حكومة سلفادور أن تسمح لمن تشاء من زوجات السجناء أن تزوره زيارات أسبوعية في حجرات مستقلة •

واعتمدت الولايتان الامريكيتان ألاباما ومسيسيبي Alabama and Mississippi نظام الاجازات بين حين وحين لمن يحسن سلوكه من السجناء، ولم يختل في ملاحظة الموعد المضروب لانتهاء الاجازة غير سجين واحد من مئات يقضون اجازاتهم كل عام •

وأضافت ولاية مسيسيبي الى ذلك أنها تمنح السجين فترة تجريبية من شهر الى ستة أشهر اذا استقام في أثنائها واهتدى الى عمل صالح يرتزق منه مدت له التجربة سنة فسنة الى آخر المدة المحكوم بها ، وأعفي مـن العقوبـة •

أما في روسيا فقد عولجت هذه الآفـة بطريقة لا يمكن أن تقرها حكومة تؤمن بالدين ونظام الاجتماع الذي خرج عليه الشيوعيون • قال الصحفي المشهور نيجلي فارسون Negly Farson في كتابـه « طريـق الفضولي » :

« أخبروني في الاصلاحية التـي بظاهر كييف أن تجربة السماح للسجناء ـــ ومعظمهم من القتلة ـــ بالذهاب الى قراهم ابان الحصاد تجري على ما يرام ، لأنهم يعودون بلا استثناء • وأمامهم تجربة أخرى وهي أن يأذنوا للسجين العامل في الحقول أن يملي على الحارس أسماء صديقاته البنات في كييف ، فيجيز الحارس واحدة منهن الى حيث تلقى السجين ، وتدار الظهور وتغمض العيون عندما يوغل الفتى وفتاته في الغاب » •

ويقال انهم يعتمدون على هذه التجربة في محو الشذوذ الجنسي من السجون • فان بقي منه أثر فكالذي يبقى في المجتمع الطليق بين المطبوعين عليـه •

الا أن الروسيين المحدثين قد عالجوا شذوذا بشذوذ ،وأدنى من ذلك الـى العرف والفائدة أن يباح للسجناء الخروج مـن السجن في فترات محدودة ، وأن يعتبر اطلاقهم حينئذ مكافأة لهم على حسن السلوك ولا سيما في المسائل الجنسية ، ولا شك أن السجناء يحتاجون الى ترك سجونهم فينة بعد فينة لمطالب كثيرة غير هذا المطلب ، تنفعهم وتنفع ذويهم وقـد تخفف أعباء الزيارات عليهم وعلى ادارات السجون ، ولعل التجربة تنفعهم أيضا فيما لا يقع الآن في الحسبان من تقويم خلق واحياء عبرة وتجديد ثقة وتشويق الى نعمة الحرية • ومهما يكن في التجربة من حرج محتمل أو مقطوع به فهو دون الحرج الذي يصيب النفوس والابدان مـن اكراه الغرائز وفرض الحرمان أو الشذوذ على من لا يحمده ولا يبتغيه •

■ □ ■

الوقت

الوقت أعدى أعداء السجين ، فلو اهتدى الى طريقة يخلص بها من وقته لاهتدى الى طريقة يخلص بها من سجنه .

الوقت في كل مكان من ذهب كما يقولون . الا في السجن وما شابه السجن ، فهو من رصاص ان أردت ثقلته وبشاعة اسمه ، وهو من تراب ان أردت رخصه ومضايقته ، والرغبة في كنسه !

الوقت أثقل شيء على « وجدان » السجين وأخف شيء على لسانه : كل دقيقة فيه محسوسة محسوبة ، وكل دقيقة فيه حسبة يراد اسقاطها من الحساب ، وما هكذا يكون الوقت في غير السجون .

سل من شئت بين ألوف السجناء عما بقي له من مدة سجنه وثق أنه يغالطك في الجواب ، وثق أنه غالط نفسه قبل أن يغالطك مرات ، بل ثق أنه لا يغالطك الا ليستعين بذلك على مغالطة نفسه !

سألت أحدهم كم بقي لك من السنين ؟

فقال ثلاث ، وأنا أعلم أنه قد بقيت له خمس سنوات لا تنقص الا بضعة أيام . وانما القاعدة عندهم أن يسقط السنة التي هو فيها والسنة التي يخرج في نهايتها ، ولا يحسب الا ما بين السنتين !

ولهم في تقصير المدة على اللسان أساليب بعضها مصطلح عليه وبعضها من اختراع كل سجين على حسب ذكائه وملكة استنباطه .

سألت سجينا بقيت عليه سبعة شهور : كم بقي عليك من أشهر ؟ فقال : الربيعان والجمادان ورجب وشعبان !

قلت أو تخرج في شعبان ؟

فقال : سأخرج في عفو العيد ! أي في آخر رمضان .

فهو قد جمع الربيعين والجمادين في اسمين بدلا من أربعة أسماء ، وأسقط شهر رمضان كله كأنه لا يعد في الزمان .

وأعرف سجينا كان سيخرج يوم الثلاثاء ، فلما بقي على خروجه ثلاثة أشهر أخذ يحسب المدة الباقية بالاسابيع ويختم الاسبوع بيوم الاربعاء ، حتى اذا وصل الى الاربعاء الاخيرة لم يحسب ما بعدها وأسقط بذلك ستة أيام .

وكان لي جار مررت به أودعه قبل خروجي بيوم ، فقال لي انه سيخرج بعدي بخمسة عشر أسبوعا . وأشار الى خطوط على الحائط الى جوار النافذة بعدة الاسابيع الباقية . فعمدت الى خطين منهما فمسحتهما وقلت له : انني أسقطت عنك هذين الاسبوعين كرامة لهذا التوديع ! ! فوالله لقد سر بذلك كأنني مسحت الاسبوعين في مدار الايام ، وشكرني على هذه النية أو هذه الامنية ، وأحسبه قد عالج مشقة مرهقة في اعادة الخطين الى مكانهما ، لأن هذه الاعادة تبدو له كأنها زيادة أسبوعين !

وعلى هذه المغالطة الشائعة لن تجد سجينا واحدا يجهل الحقيقة أو يجهل عدة ما بقي له من الايام باليوم ولو كان الباقي عدة شهور ، واسأل من شئت منهم على غرة : كم بقي لك من يوم ؟ فاذا هو يجيبك توا بلا تفكير ولا ابطاء ! ! واياك أن تستكثر هذه الايام أو تظهر بالدهشة والاسف ما يدل على استكثارها وان كانت كثيرة . بل كل ما يمكن أن تقول في لهجة الاستخفاف : تهون ! فيقول لك : لا هنت ، أو يكرر الكلمة على مسمعك قائلا : تهون ! تهون !

واذا دخل الليمان سجين محكوم عليه بخمس سنوات أو نحو هذه المدة قالوا له : انما أنت زائر ! واحتقروه كما يحتقر ساكن البيت ساكن الخان النزيل ! وأقنعوا أنفسهم بهذه المغالطة أن الخمس سنوات في الليمان خطب يسير .

والشأن في هذه الخصلة شأن جميع السجناء بلا استثناء عالم أوجاهل وذكي أو غبي ومجرب أو غرير . فكلهم يسوسون مشكلة الوقت على هذا المنوال،وكلهم يألفون المغالطة هذه الالفة ، وكلهم يستكبرون ما مضى ويستصغرون ما سيأتي وسوف يأتي الى يوم الافراج ، وهو يوم محقق الوصول عندهم جميعا كأنما الموت قدر مؤجل الىما بعد وفاء المدة ، أو كأنما الانسان لا يخرج من دنياه الا بعد خروجه من سجنه أو منفاه !

قال الكاتب الروسي الكبير « دستيفسكي » يصف منفاه وسجنه في سيبيريا : « من اليوم الاول بدأت أحلم بيوم الخلاص ، وجعلت هجيراي أن أحصي ألوفا وألوفا من المرات على ألوف وألوف من الطرائق والانماط مقدار أيامي التي سأقضيها في المعتقل ، وكنت أفكر في ذلك دون غيره ،.وكل من حرم الحرية فترة محدودة من الزمن فانما يفكر على هذه الوتيرة ، واني من ذلك لعلى أتم يقين » .

وقال في وصف الايام الاخيرة : « لقد نسيت أمورا كثيرة ، ولكنني أذكر ــ ويا لشدة ما أذكر ــ كم كانت الساعات في السنتين الاخيرتين بطيئة بطيئة وكم كانت الايام حزينة حزينة ، لا يلوح عليها أنها ستقترب من مساء ولا تزال كأنها خضم من الماء ينحدر قطرة فقطرة ، واني لأذكر كذلك أنني كنت مفعما بشوق طاغ الى البعث والنشور من هذا القبر زودني بقوة على الصبر والانتظار والرجاء ، ومن ثم تعودت الجلد والاحتمال وعشت على الترقب والامل ، وعددت كل يوم عابر ، فان بقي من الايام ألف فقد أشعر بالارتياح لأن يوما قد مضى ولم يبق الا تسعمائة وتسعة وتسعون ! »

وهكذا تعتصم النفوس بالمغالطات ويصيح المستغرب :

هل أغالط نفسي ! كأن الانسان لا يغالط الا غيره ! وهو لنفسه في الحقيقة أول المغالطين !

يوم الإفراج

يوم الافراج .

أو يوم البعث والنشور .

أو يوم الحرية .

أسماء كثيرة يسمى بها يوم الخروج من السجن ، والناس يحسبونه أسعد أيام المسجون لأنه اليوم الذي انتظره مئات الايام أو ألوف الايام ، ويحسبون أن المسجون اذا قارب فجره لم تغتمض عيناه سرورا بلقياه وأوشك أن يطير فرحا بالوصول اليه ! وهم على حق فيما يحسبون لو أن الشعور مما يقاس بأمثال هذه المقاييس التي تقاس بها الاحجام والارقام . ولكن الشعور يجري على منطق غير هذا المنطق وينقاد لأحكام غير هذه الاحكام . فيوم الافراج يوم لا تهتز له نفس السجين بسرور عظيم ولا تقبل فيه على موعد جديد . وسبب ذلك هو بعينه السبب الذي يحسبونه جالبا للفرح واللهفة والتهلل والاغتباط ، وهو أن السجين قد انتظره مئات الايام أو ألوف الايام .

يظل السجين ينتظره ويطيل انتظاره ويتأمله من كل جانب ويحسب المسافة بينه وبينه بالاشهر والاسابيع والايام والساعات ، ويقدر ما يصنعه فيه ويعيد التقدير ويعيد الاعادة ولا يفكر طوال ساعات الفراغ أو ساعات العمل في شيء غير هذا التفكير الدائم الدائب الذي يستنفد كل صورة وكل احتمال وكل خيال : حتى اذا جاء اليوم الموعود اذا بالسجين يراه كأنه وجه قديم طالما رآه وأدمن النظر اليه وعرف ملامحه وقسماته خفية وظاهرة وكبيرة وصغيرة ، ولم تبق منه لمحة واحدة لم يرها ويحقق رؤيتها بدل المرة

عشرات ومئات ، فهو منظر من مناظر الماضي السحيق المتغلغل في القدم والالفة ، وليس بمنظر ظريف ولا بموعد جديد •

والمساجين ينظرون كل يوم الى المفرج عنهم ويعجبون لهم ما بالهم لا يطيرون ولا يبتهجون ! ويحسبونهم يتوقرون ويكتمون ما يخامرهم من شعور • حتى اذا جاء يومهم في الافراج عجبوا لأنفسهم بعد أن كانوا يعجبون للآخرين • وهكذا كان من حظ بني الانسان أن يستنفدوا السرور بالمتعة التي تطول الرغبة فيها ويطول انتظارها ، فلا يستشعرون السرور الصحيح الا بأنصاف الآمال أو المفاجآت التي لا تخطر على البال !

ويخيل الي أن أبخل البخلاء اذا انتظر مليون جنيه بعد عشر سنوات وهو على يقين من الوصول اليه عند موعد محقق لا خلاف فيه لأصبح هذا المليون وكأنه مبلغ في الخزانة داخل في الحساب ، لا يشعر بالزيادة عند وروده ولا يشعر بفقده قبل يوم الموعد المنظور ، فهو ضائع من حسبانه في حالتي الترقب والاستيلاء عليه ، وهو أقل من مائة جنيه يغنمها ويشعر بزيادتها ولم يحسب لها ذلك الحساب الطويل •

على أن اليوم ــ سواء عددته من أيام السعادة أو من أيام الفتور وقلة المبالاة ــ هو يوم ينطبع في الذاكرة وينطبع معه كل ما يلازمه من المناظر والمسامع والاحاسيس ، فهو محسوس به احساسا عميقا شديدا راسخا في قرارة الوعي والبديهة ، وذلك شيء أندر جدا من المسرات وأندر جدا من الاحزان •

واذا أراد الانسان أن يشعر بأغوار هذا العمق فما هو بقادر على ذلك الا اذا فوجيء في اللحظة الاخيرة بتغيير في الموعد أو خروج عن خط الانتظار المرسوم : هنالك يعالج شعور الفقد والشك بعد شعور الاطمئنان واليقين ، ويعلم أن تأخير ذلك اليوم ساعات معدودات هو بمثابة الحرمان المباغت من أعوام لا يحدها الاحصاء • وقد رأيت سجينا يركبه البؤس والكرب والقنوط لأنهم أوشكوا أن يؤخروه يوما واحدا لخطأ في المضاهاة

بين الاشهر العربية والاشهر الافرنجية ، فلما ردوا له ذلك اليوم الواحد اذا به يشعر بالخلاص منه أشد من شعوره الاخير بالخلاص من الاشهر والسنوات •

جاءني مأمور السجن عصر اليوم الذي سأغادر السجن في غده ، وقال لي انه لا يعلم في أي ساعة سيكون الافراج ، فيحسن بي أن أكون على استعداد للخروج منذ الصباح الباكر ، وانه لهذا سيرسل لي الحلاق بعد هنيهة ليحلق رأسي ولحيتي التي مضت عليها ثلاثة أيام ، ولا يحب رجال السجن أن يخرج السجين من عندهم على هذا الحال ، لأن رؤية اللحية الطويلة تلقي في روع الناس أن السجين خارج من مكان يكثر فيه الاهمال وتقل النظافة والنظام •

والحلاقون في السجن هم حلاقون مسجونون يزاولون هذه الصناعة ويحسدهم أصحاب « الاشغال » الاخرى لأنهم يرون أن الحلاقة عمل خفيف لطيف لا مشقة فيه ، وكانوا يزوروننا في الحجرة مرتين كل أسبوع فتسمع منهم قصص السجن بجميع أنحائه لأنهم يطوفون على جميع السجناء ، والعجيب أن هؤلاء الحلاقين على كثرتهم كانوا من المتهمين في قضايا المخدرات اما بالتعاطي أو بالاتجار ، وكانوا لهذا يعلمون من أخبار الحياة الاجتماعية العالية والوضيعة ما يشوق الاطلاع عليه ، وقد نسوقهم الى ذكره ان آثروا السكوت أو خشوا رقابة الحراس •

أما في هذه الحلاقة الاخيرة فقد كان يعنيني أن أفرغ منها في دقائق عاجلة لأنني فوجئت بتغيير نظام الخروج ، وكان لا بد لي من ابلاغ ذلك الى أخي الذي كلفته أن ينتظرني بباقات الزهر على مقربة من السجن حوالي الظهر موعد الافراج المعتاد ، وقد كان ضريح « سعد » الذي أعددت له تلك الباقات على طريق « قره ميدان » • وكان يتردد بيني وبين أخي بالرسالة والجواب بعض الموظفين وهم ينصرفون بعد العصر بقليل • فاذا فاتني أن ألقى واحدا منهم قبل انصرافه فقد اختلف التقدير واختل

الحساب ، وقد أزور ضريح سعد عقب خروجي ولكن بغير أزهار ، أو أزوره ومعي الازهار ، ولكن بعد أن يبطل معنى هذه الزيارة التي قصدت أن تكون أول ما أباشر من عمل الحرية .

وشاء الحلاق أن يبتليني في هذه الحلاقة الاخيرة بكل ما اشتهر به أبناء صناعته في أحاديث الغابرين والحاضرين من حذلقة وثرثرة ومضايقة واعنـــات .

والحق أنني كنت أسمع بهذه الشهرة وأقرأ روايات الرواة عنها في كتب العرب والافرنج فأحسبها من مبالغات الهازلين لأن الله لم ينكبني قبل ذلك بحلاق ثرثار . أما في ذلك اليوم فقد عرفت أن الحقيقة أكبر من مبالغات الجادين والهازلين في بعض الاحايين . وأخذ هذا الحلاق «الظالم» بحقوق جميع المظلومين من أبناء الصناعة !

وضع صاحبنا في ذهنه أنني خارج غدا وأن الناس سيلقونني فــلا يلتفتون الى شيء غير « حلاقتي » النظيفة وغير العجب من أن أظفر بهــذه الحلاقة الفاخرة بين جدران السجون ! وسيتحدثون ولا يسألون عن شيء في حديثهم الا أن يعرفوا اسم ذلك « الفنان » المغمور المدفون في تلــك الغيابة المظلمة ، وسيلبثون منتظرين متشوفين حتى يأذن الله برده الــى حانوته المجهول فيتسابقوا اليه وينبذوا مــن كانوا يعبثون في رءوسهم ولحاهم من جهلاء الحلاقين ، ويحمدوا الله أن سعدوا بجلسة تحت يدي هذا النابغة العظيم .

وضع صاحبنا في ذهنه هذا الخاطر فأحفى غاية الاحفاء وأمعن غاية الامعان ، وطفق يفهمني أنه ما من عدة يستعد بها الحلاقون في الاماكن المنتظمة الا وهو قادر على الاستغناء عنها بحيلة من الحيل وبراعة مــن البراعات ، ومضى يجرب تلك الحيل وتلك البراعات حيلة حيلة وبراعــة براعة ليريني صدق ما يقول رأي العين ، وأنا أقرظ وأزكي وأعيد التقريظ والتزكية ، ولا جدوى ولا نجاة .

وأخذت أنبهه الى أنني مستعجل وهو لا يتنبه ، وأرجوه أن يسرع وهو لا يزيد على قوله « حاضر » ثم ينساها بعد لمحة ، ويدأب على ما كان فيه كأبطأ ما يكون الابطاء وأدق ما يكون التدقيق .

وتململت وهو لا يحفل ، وتأففت وهو لا يكترث ، وظن أخيرا أنه فهم لماذا أتململ وأتأفف وان « الدنيا » حر وقد كانت « حرا » حقا لأن الشهر شهر يوليو والساعة ساعة الاصيل ؛ فلما قلت له بل انني « انتفض » من البرودة ضحك وأغرب في الضحك وظن انها « نكتة » وأنه وهو « واحد » من أبناء البلد لا يليق أن تفوته هذه النكتة دون أن يوفيها حظها من المزاح والتعليق !

فما العمل ؟

كل شيء يمكن اقتضابه الا أن ينطلق الانسان بوجه نصفه محلوق ونصفه غير محلوق . فغالبت غيظي وضحكي المكظوم من هذا الغيظ ، واتخذت كل ما يسعني اتخاذه من هيئة الجد والاهتمام وقلت (انني لا أستطيع أن أصبر فوق ما صبرت ، فاكتف بما صنعت واقنع بما أبدعت ، واجعل همك أن تتركني بعد دقائق قليلة على حالة تصلح لمقابلة الناس ، وأنا أتمم البقية غدا فسيكون عندي متسع للاتقان والاحفاء .

فاختلج كالمذعور وصاح بي : عيب يا أستاذ ، ماذا يقولون عنا اذا شهدوا هذه « اللكلكة » وهذه العجلة بغير عناية ؟ ؟ أيقولون اننا لا نقدر الاستاذ قدره ، أم يقولون اننا صبيان في هذه الصناعة ؟ ؟

وفطنت لما يدور بخاطره وما يمني به نفسه من ذلك الاعلان المأمول . فأحببت أن أفجعه بعض ما فجعني وقلت له وكأنني أطمئنه وأهدىء روعه : لا تشغل بالك بهذا يا فلان ! انني لن أبوح لأحد باسمك ! فعجل ما استطعت وأرحني أراحك الله ! !

فارتعب الرجل وخيل الي أنه يوشك أن يدق صدره ويلطم خديه ، وبدر على لسانه ما خبأ في جنانه ، فصاح قائلا : ماذا يا أستاذ ؟ أتحرمني

هذا الشرف وأنا أنازع رصفائي عليه منذ أيام ؟ يا ضيعة المسعى ويا خيبة الرجاء ؟ أتكتم اسمي كأنني أسأت وقصرت وأنا أقطع يدي وآتي بغاية ما عندي لأبلغ اليوم قصارى الاحسان والاتقان ؟ ؟ ... لا لا .. يا أستاذ .. كلها نصف ساعة وينتهي كل شيء على ما يرام . ولا عليك من اقتراب موعد الاغلاق فان الحراس لن يضنوا بفتح الباب لي اكراما لك ، ولا سيما في عشية الوداع !

وكأنما كان هذا المنكود ملهما أن يثير قلقي ويذكرني ما أحذر وأتقي. فان اشارته الى « موعد الاغلاق » عصفت بالبقية الباقية من صبري فألقيت بالمنديل الذي ناطه بعنقي وهممت بالخروج الى فناء السجن فلم يثنني عن انفاذ عزمي الا أن الخروج على هذه الصورة يجمع حولي الحراس والموظفين ، ان بقي أحد منهم الى تلك الساعة ، فلا يتيسر لي أن أتصل بمن أريد .

أشهد أنني شعرت بغبطة الافراج كلها ساعة أفلت من يد ذلك الحلاق « راجي عفو الخلاق » لاعفا الله عنه . فان حركة اليأس التي اندفعت اليها في غير عمد ولا روية قد أكرهته على قبول « التضحية » بفنه واتقانه والرجاء في شهرته وعرفان قدره ، فاستسلم للعجلة والندامة معا وانقلب الى ابداء براعة السرعة وحذاقة الهرولة بعد براعة التؤدة وحذاقة الاستقصاء والاناة . وتبعني بعد أن تركته وهو يستحلفني ألا أنساه ، وأنا أقسم له أنني لن أنساه وان أردت نسيانه . ثم انتهيت الى فناء السجن وقد تخلف فيه بعض الموظفين عمدا الى ما بعد موعد الانصراف ، لأنهم قد علموا من الحراس بما أنبأني به المأمور فانتظروني ريثما أخرج من الحجرة لعلي أفضي اليهم بنبأ أو رسالة ، وقد تمهدت السبيل في اللحظة الاخيرة وخلا الجو للمقابلة والكلام ، فأسررت اليهم بما عندي وعلمت بعد ذلك أنهم أدوا الرسالة في أمان ، بل في افراط من الامان ، لأنني علمت أيضا بعد ذلك أن أناسا من هؤلاء كان معهودا اليهم أن يتلقوا رسائلي الشفوية وينقلوها

الى مرجعين لا الى مرجع واحد • وأنهم كانوا يوقعون بمن يخلصون في نقل رسائلي مخاطرين مستهدفين للغضب والعقاب ، ليستأثروا وحدهم بهذا الواجب المشكور المأجور •

بت تلك الليلة كما أبيت كل ليلة ، ونمت كما أنام كل ليلة ، وأصبح الصباح فلم أكد أفرغ من تناول الافطار حتى وافاني الضابط في الحجرة يسألني : هل أنا على استعداد ؟ ؟ فقلت على أتم الاستعداد اذا شئت أن أفارقكم وأنا بملابس البيت ، امـا اذا كرهتم ذلك فليس بيني وبـين الاستعداد التام الا خمس دقائق • ولاح عليه أنه ينتظر هذه الدقائق وهو مشفق من اغضاب رؤسائه ، لانني لم ألبث في الحجرة الملاصقة لحجرة المأمور الا دقائق معدودات تسلمت فيها ودائعي وانتقلنا بعدها مهرولين الى سيارة مقفلة داخل السجن على أهبة المسير ، فما هو الا أن استقررنا بها حتى فتحت لها الابواب وطارت الى الميدان فالى شارع محمد علي وهي لا تلوي على شيء ، ومـا زالت تعدو بهـذه السرعة حتى بلغت سجن الاستئناف ، وأسلمتني اسلاما جديدا الى مأموره ، فنقلني نقلا جديدا الى حجرة خالية ، واستنزلني بعدها الى الفناء في ساعة الرياضة ، وكانت نحو العاشرة ، ولا يزال باقيا على موعد الافراج عند الظهر ساعتان •

على أنني لم ألبث ربع ساعة في هذه الرياضة التي لا معنى لها في يوم الافراج غير التزام القواعد والاصول ، واذا بكبير من موظفي السجون يقبل على عجل ، ويسلمني ودائعي مـرة أخرى ، ويهنئني « بالفرج » ويتركني في كفالة ضابط يصاحبه رجل عملاق من رجال الشحنة الذين يعدونهم لأعمال العنف والتهديد ، ويمضي الموظف الكبير لطيته وأمضي أنا والضابط والعملاق الى حجرات الموظفين بمحافظة العاصمة من طريق خلفية ، ثم الى مركبة تهرب بنا الى منزلي بمصر الجديدة من ناحية شارع فاروق •

في أيام المحاكمة كانت الجلسات تبدأ الساعة العاشرة أو الحادية عشرة

وكانوا يحضروننى مع ذلك في ابان الشتاء القارس قبل الساعة الثامنة وقبل أن يأذنوا لأحد بالدخول الى قاعة الجلسة ، وقد فهمت سر العناية بهـذا التبكير ، لأن النيابة كرهت أن أدخل القاعة وهي مزدحمة فيقف الحاضرون تبجيلا لهذا « المتهم » الذي يراد له الهوان ، كما فعلوا في الجلسة الاولى •

وفي يوم الافراج فهمت سر العناية بهذا التبكير وهو اتخاذ الحيطة للمظاهرات وزحام الاستطلاع •

أما الذي لم أفهمه ولا أزال أجهله فهو هذا العملاق المعد للعنف والتهديد ولا حاجة هناك لعنف ولا تهديد : انني لن أهرب من المركبة الهاربةولا أخال ان عملاقا واحدا يخيف الجماهير اذا تعطلت المركبة ووقفت في الطريق ، فلم يبق الا أنه حكم الصنعة كما يقولون ، وان الشرطة لا يتخيلون لهم مهمة يؤدونها بغير تخويف ، لأنهم لا يكونون شرطة بغير ذلك ! والا فما الفرق بين المزاملة والحراسة ؟ وما الفرق بـين السطوة والايناس ؟

طارت بنا السيارة في مدينة معهودة غير معهودة ، وشائقة غير شائقة ، كأنني أطرأ عليها لأول مرة أو كأنني أستذكرها بعد غيبة طويلة ، ولا يمنعني أن أتلفت اليها تلفت الغريب الطارىء الا أنني في فسحة من الوقت بعـد فترة وجيزة للتلفت والاستذكار •

ولا يحضرني أنني التفت الى معلم من معالم الطريق غـير مدرسة الصناعة بالعباسية الوسطى • فقد كانت حديثة البناء فسألت عنها الضابط فقال لي : نعم هي حديثة ، ولم يزد على ذلك •

ولما شارفنا المنزل دعوت الضابط والعملاق لتناول القهوة أو المرطبات فاعتذرا ، لأنه حكم الصنعة كذلك !

ولم يمنعني كل هذا التحوط والروغان أن أعود من مصر الجديدة الى حيث أنجز البرنامج الذي عولت عليه قبل مغادرة السجن ، فرجعت

من حيث أتيت ، وزرت ضريح سعد وضريح ويصا ، وتبين لي أن أخي وأصحابي كانوا يلاحقونني من مكان الى مكان ، لأنهم كانوا يعلمون بانتقالنا من كل موضع ومخبأ ، على الرغم من التخفي والاتاهة والاسراع .

وجلست في المنزل كما كنت أجلس ، ولقيت الاصحاب وسمعت التهنئات . فأما الاصحاب فقد سرني لقاؤهم بعد وحشة ، وأما التهنئات بالافراج فكنت كأنما أصغي منها الى حكاية قديمة أو حديث معاد .

هل مضت على آخر جلسة في هذا المكان تسعة أشهر ؟ لا أظن . أو أظن أنها مضت ونسخت نفسها بانقضائها ، فلم أمكث في المنزل ساعات حتى خيل الي أنني رجعت اليه ذلك الضحى بعد أن فارقته ذلك الصباح !

■ □ ■

بعض الشخصيات

لبثت في السجن وخرجت منه ولست أذكر من سكانه الذين يستحقون اسم « الشخصيات » غير ثلاثة أو أربعة من أربعة آلاف انسان تحويهم جدرانه ، وهو عدد يساوي عدد الرجال في عاصمة من عواصمنا المصرية المشهورة .

ذلك أن « الشخصيات » في سجن مصر نادرة .

فالسجناء هناك أرقام في حساب مصلحة السجون وهم كذلك أرقام في حساب الطبيعة : كلهم مغمورون في بحر لجي من الضآلة والخسة والتفاهة ، لا يعلو بينهم رأس فوق الغمار ، ولا تتباين فيهم الخلائق والصفات الا كما تتباين الموجة والموجة في بحر هادىء ذليل ، لا تضربه العواصف ولا يعج ولا يلتطم .

وهؤلاء « الشخصيات » الثلاثة أو الاربعة الذين أذكرهم من سكان السجن هم أيضا خلقاء أن يغرقوا في غماره ، ويتواروا في خموله لولا بعض الغرابة الملحوظة على أثباج ذلك الخضم الواسع من التفاهة والفهاهة .

فالغرابة اذن شفيعهم الى الذكر والنباهة ! وليس شفيعهم الى الذكر والنباهة مزية انسانية أو قدرة خارقة أو صبغة مستملحة من ألوان الحياة الفريدة .

أحد هؤلاء « الشخصيات » مجنون يتنازعه السجن والبيمارستان .

والثاني مجنون أيضا ولكن على طراز آخر من الجنون .

والثالث مقعد مبتور الرجلين الى الفخذين .

والرابع — ان كان لا بد من تحقيق قولة الثلاثة والاربعة — خليط من الجنون والعربدة والمكر والدماثة المصطنعة والجموح الصحيح •

وكلهم يسكنون السجن على انفراد ، لأن الجمع بين واحد منهم وزميل آخر في حجرة واحدة مستحيل •

■ □ ■

انني لأتمشى ذات يوم في فناء السجن اذا بشيطان أسود يقطر منه النفط القذر يعدو هنا وهناك ويفر منه الجند والموظفون •

من هذا ؟

هذا هو المجنون الاول نقيب ، ولنسمه بهذا الاسم القريب من اسمه ولا نذكره باسمه المشهور مخافة المساس بهذه الشهرة الحسنة والسمعة المبرورة ! وخشية المقاضاة ورد الشرف والتعويض !

ولماذا صنع نقيب هذه الصنعة الكريهة بنفسه ؟ ولماذا أغرق نفسه في حوض النفط وهو بغيض الى الشم بغيض الى الذوق بغيض الى النظر ، غير مأمون على البشرة والحواس والجوارح ؟

مكره أخوك لا بطل !

هجم على المخبز لاختطاف رغيف ساخن ليس من حقه ، فهجم عليه الحراس يوسعونه لكزا ولكما ويقودونه الى « سعادة المأمور » ، فخير ما يصنعه نقيب في هذه الحالة أن يقذف بنفسه الى حوض النفط القذر لحظة واحدة يخرج بعدها كما رأيت شيطانا مرهوبا يفر منه من كانوا يطاردونه ، ويتقي لمسته من كانوا يوسعونه ضربا ولا يرسلونه من قبضتهم طرفة عين !

وراح نقيب يصول ويجول ويعدو ذات اليمين وذات الشمال ، وكل حارس حريص على كسوته يهرب من وجهه ويستغيث بالسجناء المطلقين في الفناء لأنهم لا يخافون على كسوتهم كما يخاف الجندي والحارس ، حتى شبع نقيب من الصيلان والجولان، وأنذره ضابط السجن بمسدسه فخضع واستكان •

ويجيئه المأمور الرجل الوقور ويصيح به : ما هذا يا هذا ؟ انني لا أريد أن أجن معك ، انني سأرسلك الى البيمارستان ! ! فينظر اليه نقيب في جد لا شائبة فيه من الهزل والمجانة ، ويقول : معاذ الله يا سعادة البك ! وهل نحن من أهل ذاك ؟

■ □ ■

لا سمح الله !

ولنقيب مذهب في تقدير الجرائم والعقوبات يختلف من كل مذهب مأثور بين الناس في فلسفة الشرائع والقوانين .

كان على وفاق مع رجل قصير قميء من تجار المخدرات محبوس على ذمة التحقيق ، وكان الرجل يستظرف نقيبا ويلطفه بلحوم الدجاج والضأن والديكة الرومية والفاكهة والحلوى والمطبوخات من كل صنف تتسع له ثروة المتجرين بالمخدرات .

ويسعى أهل الفساد بين نقيب والرجل فيمنع عنه بره وسلامه وكلامه ، ويهيج نقيب هيجته الغضنفرية الحمارية الجامعة بين الزئير والنهيق ، وهو لا يحتاج الى أكثر من هذا السبب للغضب والثورة والوعيد .

فبعد أن يفرغ جعبته من الشتم والتعيير في بعض الايام يسكت كمن يفكر ويتدبر ثم يقول :

من أنت يأيها الحقير ! انني أمحقك ... انني أسحقك .. انني قد ضربت الدكتور فلانا وهو طول وعرض وقامة وهامة وأخذت فيه أربعة أشهر . فأنا أقتلك وأنت « شبر نكد » ولا آخذ فيك أكثر من أسبوعين ، ويشاور القاضي عقله بعد خروجي من المحكمة !

ولو اعتمد المشترعون مذهب نقيب في تقدير الجرائم والعقوبات لاستغنوا بمتر في كل محكمة عن كل هذه الاسفار والمجلدات ، وكل هؤلاء المفسرين والشراح .

■ □ ■

وتسمع في هدأة الليل لغطا وحركة ، وتسمع الحارس يقول : من هذا ؟ وأولى به أن يسأل : من هؤلاء ؟

نعم من هؤلاء أولى ، لأنك تسمع غناء عبده الحمولي ، وتقريظ الحاشية حوله ، وهتاف السامعين وضجة الطفيليين الراغبين في دخول الفرح وغشيان السامر وما هم من المدعوين اليه .

وكل هؤلاء هم « نقيب » وحده بلا مساعد ولا معين ، لأن « نقيبا » كما ينبغي أن تعلم يحسن « التقليد والمحاكاة » بعض الاحسان ، ويهوى الغناء من قديم ولا يعجبه غناء بعد عبده الحمولي ومحمد عثمان ، ويضاف اليهما يوسف المنيلاوي مع التحفظ والعطف وزم الشفتين !

وتسأله كل مرة يتحدث فيها عن مجالس الطرب القديم في عهد اسماعيل : كم عمرك ؟ فيصر في كل مرة على أنه لم يتجاوز الاربعين !

مع كل هذا الجنون عاقل !

أو مع ما فيه من العقل مجنون !

■ □ ■

واذا تكلم نقيب فليس من يلجئه الى السكوت ، واذا سكت فليس من يلجئه الى الكلام .

ولكن الخبثاء من سجناء المحاكم المختلطة — وأكثرهم تجار لبقون — يعرفون كيف يخرجونه من الصمت العنيد اذا احتاجوا الى مناوشاته وعربداته وأغانيه ، وهم أحوج ما يكونون اليها في غياب المسارح والسهرات .

هو يهذر ويحكي عن أهله وينسى بعد ساعة واحدة كل ما قال .

واله لفي صمته العنيد ذات ليلة اذا بصائح يناديه : كيف حال بهية !

واذا بصوت ينفجر من ناحية الحجرة التي فيها نقيب : بهية من يا ولد ! ؟

فيجيب التاجر الخبيث : بهية أختك ! بهية ذات الشعر الاصفر ! بهية

ذات العينين النجلاوين ! بهية ذات الردفين الثقيلين! بهية التي تلبس الرداء الاخضر ! بهية التي تسكن في باب الشعرية ! ! بهية يا حسرتي على بهية ! !

وكل هذه أوصاف سمعها التاجر وسمعها « العنبر » كل ليلة من الليالي الغابرة من فم نقيب دون غيره ، ونسيها نقيب .

ويصدق صاحبنا ما سمع ، ويثوب الى نفسه وكأنه يناجيها : « صدق من قال لا أمان للنساء ! » ... والعجيب أن « بنت الكلب » أوشكت أن تدفعني الى الموت لأنها شكت الى رجلا يغازلها ويسد المنافذ عليها ، فبطشت به ولم ينقذه من يدي الا عمره ، لك حق يا فلان . اذهب فاصنع بها ما تشاء ! !

ثم يرجع ثائرا ويندم على هذا « التفويض » وينادي التاجر : اياك يا هذا أن تصنع بها شيئا : والله بعمرك ! ! والله الحكاية كلها مشوار من هذه الحجرة التي أنا فيها الى بيتك ومن بيتك الى هذه الحجرة التي أنا فيها ، وعوض الله عليك في عمرك : أسمعت ؟

نعم سمع ، وسمع العنبر كله ، وهذا هو المقصود .

■ □ ■

وأعترف أنني قد عرفت من نقيبنا هذا شيئا كثيرا من طبيعة الشاعر القديم ، أو الشاعر المداح الهجاء : عرفت أن كل ما يتوخاه ذلك الشاعر في فنه هو أن يقول لمدوحه انني أريد أن أرضيك بالثناء وترضيني بالعطاء ، وهي صفقة معقودة علانية بعلم المادح والممدوح والسامعين ، لا حاجة فيها الى الصدق ولا الى المعاشرة ولا الى الاخلاص ولا الى شيء غير البضاعة والثمن ، والبضاعة هي المدح الظاهر والثمن هو العطاء الظاهر ، وكان الله يحب المحسنين .

نقيب لم يكن يعرف أحدا من سجناء المحاكم المختلطة الذين كانوا يبرونه بالحلوى والجبن والادام ، ولكنه يعرف دائما أن الذي يعطيه قطعة من الحلاوة الطحينية أو شريحة من الجبن رجل ثري يملك سيارة فاخرة

تخطف الهواء ويركبها الراكب وهو حذر على طربوشه أن يطير • وأنه يملك قصرا بادخا في بعض الضواحي دخله هو وأكل فيه ولم ينفذ الى حجرة استقباله الا بعد أن عبر خمسة بوابين ، ويعرف أن الحرير أبخس ما يلبسه الخدم في ذلك القصر الباذخ فضلا عن السادة والسيدات ! وهو يجهر بهذه المعرفة ليلة العطاء العلني المشهور المذكور بين سائر السجناء • وينادي أحد الزملاء ليحدثه جهرة بهذا كأنه يعني أن يكشف له سرا في غياب الممدوح ، لأنه لا يخاطب الممدوح وانما يخاطب سواه ، فالكلام اذن لا تمليق فيه ولا تزوير ولا محاولة ارضاء أو جزاء •

نعم ، ويعرف نقيب تماما في اليوم التالي أو اليوم الذي بعده أن ممدوحه هذا بعينه صعلوك ابن صعلوك • لا يملك سيارة وانما هو « حمار سبخ » لا يساوي شلنين ! ! ولا يملك قصرا باذخا وانما هو كوخ في عرب المحمدي ينبني وينهدم في يوم ! ! ولا يلبس الحرير وانما هي ملاءة الفراش القديمة يرقعها ويفصلها جلابيب • والظريف أن يكون جلباب الممدوح أو المهجو ذلك اليوم من نسيج منقوش بالمربعات التي تنقش بها ملاءات السرير ، فالشاعر على هذا لا ينسى بعض الحقائق وبعض المناسبات !

■ □ ■

ذاك هو المجنون الاول •

أما المجنون الثاني فقد كنا نعجب له كيف اتسع وقته لزيارة البيمارستان وهو لا يفارق السجن الا ليعود اليه ، وكيف يفارق البيمارستان اذا دخله مرة وهو أقرب الى أهله من أهل السجون •

قال لي انه قضى في السجن أكثر من عشر سنين ، وقال لي أحد الحراس انه قضى فيه ثلاث عشرة سنة كلها أحكام مقطعة بين ثلاثة أشهر أو ستة أشهر أو سنة ، وهو يعيد نفسه الى السجن كلما أخرجوه عند انتهاء أمده على الرغم منه ، وما عليه الا أن يخطف ما يخطف ، أو يضرب كل من

صادفه أمامه صالحا « للانضراب » ثم يدع للمحكمة والشهود والمجني عليه أن يحلوا اللغز ويكشفوا عن سر الجريمة بين مضروب لا يعرف الضارب وضارب لا يعرف المضروب ٠

وقد سرى الى قرارة خلده شعور صادق بضرب من « الملكية » للسجن بحق المكث الطويل فيه ، فسمعته يوما يتحدث مستخفا غاية الاستخفاف عن مأمور السجن الذي مضت عليه في الوظيفة سنوات ، ويذكره باسمه وهو يناجي بعض أصحابه قائلا : من هو « فلان » المأمور هذا ؟ ! ٠ اننا لا نسمع به الا هذه الايام ! !

وهذا ــ المخلوق ــ وليكن اسمه عساسا على طريقتنا في تسمية نقيب ــ هو النشوز بعينه لمن يراه ولمن يسمعه ولمن يراقب أحواله ويستقصي أخباره ٠

وجهه ناشز وصوته ناشز وأخلاقه وأعماله نشوز في نشوز ، ولكن المدهش في نشوزه انه على استواء واحد كأنما ينشز بقاعدة مرسومة ، فاذا غنى اليوم وأعاد الاغنية بعد عشرة أيام فوقع النغمة في الاذن واحد وهي مع ذلك ناشزة في كل مرة على نحو مختلف من النشوز ٠ فليس التشابه في أغانيه كتشابه الاسطوانة التي تعاد والدور الذي يضبط ويدار على لحن واحد ، ولكنه مع ذلك تشابه لا يحكيه أحد سواه ٠

ولا ريب عندنا في أن عساسا هذا على حظ من مزاج الشاعرية يناسبه ويماثله في الهبوط والتفاهة ، فهو اذا احتواه الليل بين أركان حجرته رفع عقيرته وخاطب تلك الحجرة الجافية معددا لها شواهد حبه ودلائل غرامه ، وانها هي التي تعلق بها وتعلقت به ففيها مشتاه ومصيفه واليها منقلبه ومآله ، ولديها معتصمه وملاذه من المأمور وغير المأمور ، وعليه نظافتها وجلاؤها ، وبينه وبينها ما ليس بين الزوج وزوجه من رحم ومودة ٠

ومن أجل هذه الاغاني سماه السجناء والحراس « عساس الاوضة » لأنه يسمي الحجرة « أوضة » ولا يسميها زنزانة كما تعرف في قاموس السجون ٠

وللجراية عنده أنشودة أخرى تجاري حركة التوزيع ساعة نشريق العدس والخبز عليه وعلى الزملاء : قـرب يا شاويش وهات الجراية ! ! واغرف يـا شاويش وفرق الجراية ، وانصفنا يـا شاويش واشبعنا من الجراية ... وهكذا مـن قافية الشاويش الى قافية الجراية حتى ينتهي التوزيع وينصرف السجناء وهم يرددون ما لقنهم اياه شاعرهم عساس .

وتمام العلم بنشوز هذا المخلوق الغريب أن تعلم أنهم نقلوه مـن « أوضته » العزيزة عليه الى قسم التأديب فأراد أن ينتقم من المأمور فماذا صنع ؟ ؟ عمد الى الصفيحة التي تناط الى صدره وعليها رقمه فشحذها وقطع بها احدى خصيتيه !

■ □ ■

أما ثالث الثلاثة أو الاربعة الذين يستحقون اسم « الشخصيات » بين أولئك النكرات فليس هو بمجنون ولا بمخبول ولا بشاعر أو فنان ، ولكنه رجل مقعد يمشي على خشبة ذات مكر يدفعها بمقبض في كلتا يديه كمـا يدفع السابحون زوارق الحمام .

ولا يخاف السجناء مجنونا في ثورته كما يخافون ثورة هذا المقعد الكسيح .

ويخطىء القارىء اذا فهم مـن قولنا « ثورته » ان الرجل يثورها مهتاجا مغلوبا على أمره كما يثور الغاضب المحنق ، أو الطائش الاحمق . كلا ! فان الرجل ليثور لأنه يريد أن يثور ، بل محتاج الى أن يثور ، فثورته في كل مرة لا تأتي الا بروية وتدبير وتقدير .

وجلية أمره أنـه سجين مخدرات وأنه في السجن مـا زال يتجر بالممنوعات والمهربات ، وأهمها وأنفسها التبغ والكبريت .

ولعله يكسب في السجن أضعاف ما يكسبه من السموم المهربة وهو طليـق .

فاذا استضعفه أحد من عملائه وظن أن هذا العاجز الكسيح أهون

من آن يحسب له حساب أو يؤدى له حساب ـ فالويل للاحمق المأفون من عاقبة جهله وغروره : انه لمغلوب ولو كان أقوى الاقوياء ، وانه لن ينجو من الجروح والرضوض وان لم يظفر به الكسيح كل الظفر ولم يهزمه كل الهزيمة ، فبينما الخصم القوي الواقف على قدميه لا يناله في مقتل ولا مأمن اذا بذلك الكسيح يتناول كل ما نالته يداه ويقفز ويندفع ويكر ويفر كأنه الديك الصائل لا تمسكه العين في حركة واحدة أو موضع واحد ، وسلاحه في كل ذلك تلك الخشبة التي يجلس عليها وذلك المقبض الذي يحمله في كلتا يديه ، ولا تنتهي المعركة الا وهـو أربح الخصمين وأسلم المضروبين •

هذا المخلوق هو مثال القوة التي تخلقها الحاجة اليها ، واستضعاف الناس لمن لا يحسبونه من أهلها •

■ □ ■

بقي الرابع المرشح لتكملة العدد ، ولك أن تحسبه أو تسقطه من عداد هذه النخبة المباركة ، فلست أعرف له من معالم « الشخصية » الا أنه يضطرك الى رؤيته ويفرض عليك وجوده • فاذا أقبل شبح من بعيد في غرارة من غرارات العقاب المفتوحة عند الكتفين فغالبا ما يكون الشبح المقبل هو « الون » بعينه • واذا رأيت كسوة حمراء من كسى التأديب تقترب في عنف وعجلة فأقرب الاحتمالات الى الصواب أن « الون » هو صاحب تلك الكسوة الحمراء ، واذا لم يكن بين المصطفين للجلد فهو لا محالة بين المصطفين للتحقيق أو بين المصطفين للفحص الطبي في غير مرض ولا انحراف مزاج ، واذا لم تسمعه مغنيا في هذه الطبقة فهو ولا ريب صائح أو صاخب في الطبقة المجاورة • فليس هو « شخصية » لأنك تحب أن تراه أو يهمك أن تراه ، ولكنه « شخصية » لأنك لا بد أن تراه وان كرهت مرآه •

وأظرف عربداته الكثيرة أنه طرأ له يوما من الايام أن يصطنع الخرس والصمم فلا سمع ولا جواب ، ولج في اصطناعه حتى حاول أن يعمّي الأمر

علي وهو يزعمني من أصدقائه وخلصائه ولا يداري عني ما يداريه عن الضباط والحراس المبغضين ، فلما سألته : أصحيح أنك لا تسمع ولا تتكلم ؟ لمعت عيناه ولم ينبس بحرف ، وتباله بسيماه كما يتباله الصم المغلقون ، الذين لا يسمعون ولا ينطقون ولا يفقهون .

ولم تمض دقائق على هذا التمثيل الغبي حتى سمعته في غرفة العمليات الجراحية يردد بعض العبارات الانجليزية بأعلى صوته ، ويجيب الطبيب على كل سؤال يلقيه عليه ، وانما الفضل في شفاء خرسه المصطنع للدواء المرقد الذي خدره به الطبيب فحجب ارادته وأطلق لسانه ! !

■ □ ■

وقد أظلم السجن اذا أنا جزمت بأن الاربعة الذين أجملت وصفهم هنا هم كل من فيه من ذوي « الشخصيات » والغرائب الملحوظة ، فغاية ما أجزم به أنهم هم كل من أذكر الآن ممن رأيت ، ولعل لهم أشباها ونظراء لم أرهم والحمد لله ولا آسف على ما فات .

ذلك أنني بليت بمن لقيت من هؤلاء الاربعة بعد خروجي من السجن بلية لا يؤسف على فواتها ، فمنهم من كان يلقاني في شوارع العاصمة فلا يدعني دون أن يتقاضاني ضريبة لقائه ، ومنهم من كان يحييني تحية الزملاء الرصفاء كلما بصر بي في ناد أو طريق ، وعرف أولهم «النقيب» طريق داري فحاصرني فيها مرارا لا يبرح الدار اذا حضر حتى أخرج أو أعود ، وأسوأ ما في الامر أنه لم يكن يحضر الا وهو سكران طافح معقود اللسان مسترذل الحديث .

قلت له آخر يوم وقد دعوت له الشرطي : يا نقيب ! انك تحتاج الى سجن لتكون ظريفا وقانا الله من ظرفك وأنت سجين ومن مضايقاتك وأنت طليق . فاذهب ولا تعد ، والا أعدتك مع هذا الشرطي الى حيث لا أراك .

وذهب ولم يعد حتى الآن ، لا أعاده الله .

الجريمة والعقاب

سومرست موام Somerset Maugham كاتب انجليزي مستفيض الشهرة له مؤهلات كثيرة لمعرفة الطبيعة الانسانية ، لأنه كان طبيبا ومريضا في وقت واحد فهو عليم بما في الانسان من ضعف وما يشتمل عليه من أثرة وعطف . وهو كاتب قصاص يتتبع « الشخوص » وينقب عن أسرار الطبائع وبواعث الاخلاق ودخائل الآداب المصطلح عليها بين الطبقات . وقد اشتغل « بالجاسوسية » أيام الحرب العظمى فعاشر الساسة والمغامرين وعرف كيف يستدرج الناس الى افشاء الاسرار والوشاية بالاعداء والاصدقاء والوقوع في أشراك المطاردين والرقباء ، وكيف يزل أصحاب الدعوات والمثل العليا من أجل مطمع أو مظهر أو شهوة أو غواية ، وكيف يستهين بالحياة البشرية من ليس له غرض في اتلافها غير المال والمتاع ، وكيف يقبل الشرفاء استخدام الاثمة والاخساء عندما تعن لهم المصلحة العامة أو المصلحة الخاصة ، وكيف يتوارى الناس وراء دعوى الوطنية أو الغيرة على الحضارة والحرية لقضاء اللبانات وشفاء الحزازات والترات، وقد زاده علما بطبيعة الانسان انه ساح في الغرب والشرق سياحة متفرج وسياحة مستطلع مستخبر . فأعانته هذه المؤهلات كلها مع الفطنة الوقادة والبديهة الحاضرة على استكناه النفوس والنفاذ الى ما وراء الظواهر واختبار دعوى الخير والشر في الصالحين والطالحين على حد سواء .

هذا الرجل الكيس اللبيب يروي بلسان مدير الشرطة في بعض البلاد الاسيوية قصة عن « أسرة موقرة » مؤلفة من أب وأم اشتركا في قتل زوج

المرأة السابق ولهما بنت هي بنت الخليل وان كانت منسوبة الى الحليل ، وقـد حدثت جريمة القتل لأن المرأة حملت وزوجها السابق لا يشك في سفاحها اذا ظهر عليها الحمل • فدبرا الجريمة قبل أن يفتضح السر ونجحا في اخفائها ، ثم انقضت الايام والسنون والاسرة تعيش في سلام لا يعكر صفوها معكر ولا ينغص عليها العيش تبكيت الضمير ولا يجترىء أحد على الايماء اليها بمسبة أو اهانة •

ويقول سامع القصة لمدير الشرطة سائلا :

لا أظن الزوجين قد نسيا ما اقترفا ؟

فيجيبه المدير : « اني لن أدهش اذا كانا قد نسياه • فان الذاكرة الانسانية قصيرة الامد قصرا يستغرب ، ولئن سألتني رأيي مـن الوجهة الفنية لم أحجم أن أبوح لك بأنني لا أعتقد أن الندم لاقتراف الجريمة يرين ثقيلا على ضمير انسان اذا كان على يقين من كتمان سره » •

ويعود سامع القصة فيسأل : « ألا تشعر بشيء من النفرة أو القلق وأنت جالس الى هؤلاء القوم ؟ أنـا لا أرغب في انتقادك ولكني أراني مضطرا أن أكاشفك بأنني لن أحسبهم مستطيعين أن يكونوا أناسا لطفاء !»

فيجيبه المدير : « انك في هذا لأنت على خطأ • انهم ناس جد لطفاء ، وهم معدودون ها هنا بين خيار القوم • والسيدة كارتريت على الخصوص « معتبرة » أنيسة المحضر ، ومن عملي أن أمنع الجريمة وأن أعتقل المذنب بعد وقوعها ، ولكن خبرتي بالمجرمين أكبر من أن تدعني أظنهم على الجملة شرا مـن الآخرين • وقد تدفع الضرورات رجـلا دمثا الى اقتراف جرم محظور فيكشف ويناله الجزاء ، الا أنه لا يندر أن يظل بعد ذلك رجلا دمثا كما كان • نعم ان المجتمع يعاقبه على انتهاك قوانينه وهو حق لا نزاع فيه ، ولكن أعمال الانسان ليست في كل حين هي دليل باطنه الخفي وجوهره الصميم • ولو أنك زاولت صناعة الشرطي كما زاولتها عهدا طويلا لرأيت أن المهم في امر الانسان هو كيف يكون لا كيف يعمل ، وماذا هو لا ماذا

صنع ••• ومن دواعي الغبطة ان الشرطي لا شأن له بأفكارهم وانما شأنه كله متصل بأعمالهم ، ولو كان الامر على غير ذلك لاختلف جد الاختلاف ولعاد أصعب مما هو الآن بكثير » •

وخلاصة الرأي الذي يذهب اليه الكاتب الخبير ان كثيرا من المعاقبين يشبهون كثيرا من غير المعاقبين ، وان بعض الجناة اذا أفلتوا من الجزاء لم يميزهم أحد بوسم خاص أو علامة ظاهرة بين سائر الناس •

ولهذا الرأي أنصار كبار بين رجال القانون المؤهلين لدراسة هـذه الامور ، وفي طليعتهم المحامي الامريكي النابه « كلارنس دارو »[1] صاحب كتاب « الجريمة وأسبابها ومعالجتها » وهو حجة في هذا الموضوع لسعة علمه ووفرة القضايا الجنائية التي درسها ودافع عـن جناتها ، والقضايا الجنائية في أمريكا مدرسة زاخرة بالمعارف والعظات لا يتـاح نظيرها في الاقطار الاوربية أو الشرقية ، لأن جرائم الحضارة الحديثة في أمريكا قد بلغت من الاتقان والتنوع مبلغ الفنون المحكمة التي تستنفد جهود المحققين والقضاة والمحامين •

وفي وسعنا ـ بـل الواجب علينا ـ أن نفهم هـذا الرأي دون أن يتقاضانا فهمه أن نتبعه ونسترسل معه الى نتائجه البعيدة •

فمما لا شك فيه اننا نستطيع أن نؤمن بهذا الرأي ونستطيع أن نؤمن معه بالحقائق الضرورية لمنع البغي على المجتمع ومنع البغي علـى الجناة والمسيئين •

فمهما يقل القائلون في تساوي بعض المعاقبين وبعض الناجين مـن العقاب فهناك حقيقتان ليس فيهما خلاف بين الباحثين في موضوع الجريمة والعقاب : أولاهما ان المجرمين الذين يشبهون سائر الناس يستحقون أن يعاقبوا لأنهم مسئولون عـن أعمالهم ، والثانية ان المجرمين الموسومين بالشذوذ الخلقي يحتاجون الـى عناية الطب كما يحتاجون الـى علاج الشريعة •

---

(1) Clarence Darrow

يرى « كانت » ان عقاب المجرم واجب وحق ولو لم تكن له نتيجة غير جزاء العمل بمثله ومقابلة الاضرار بالاضرار • فان العدل البديهي يأمر بأن من يؤلم يتألم ومن يسيء يسأ ، والضمير الانساني يأبى أن يرى شقيا معذبا ومن يشقيه ويعذبه يغدو ويروح آمن السرب مستريح البال ، ولو لم يتماد في الايذاء والتعذيب •

أما أصحاب الفقه الحديث فلا يحسبون من عمل المجتمع أن يتولى تطبيق العدل البديهي على هذا المنوال ، وانما يطلب المجتمع عقاب المجرم لاصلاحه أو للوقاية من شره ، وكل ما عدا ذلك عبث لا يفيد ولا يليق •

فمنذ أصبح عقاب المجرم حقا للمجتمع ولم يعد حقا للمعتدى عليه أصبح العقاب لمحض الانتقام والتشفي رذيلة لا تليق ولا تؤدي الى المصلحة الاجتماعية ، وليس يليق أيضا أن تعاقب المجرم لردع غيره وارهاب الناس من مثل مصيره ، فان هذا معناه كما يقول المنكرون لمذهب الردع والتمثيل انك تعذب زيدا لاصلاح خالد ، وهذا ان صح أن العبرة بمصير المجرمين تردع أحدا ممن تسوقهم ضرورة الطبع أو ضرورة الحوادث الى الاجرام ، وهو في اعتقاد هؤلاء المنكرين غير صحيح •

فاذا كان الغرض من العقاب هو اصلاح المجرم وحماية المجتمع فهل السجن على أحسن نظمه ومقاصده مما يحقق هذه الغاية ويكفل للمجرم الصلاح وللمجتمع الحماية ؟

الحق أن فكرة « السجن » عتيقة جدا ظهرت في تاريخ الانسان قبل أن تظهر فكرة العقاب للاصلاح والوقاية الاجتماعية بآلاف السنين • فقد كان السجن في بداية الامر مكانا لاعتقال الاسرى أو المحكوم عليهم بالموت، ثم أصبح مكانا للتخلص من بعض المغضوب عليهم أو الواقفين في طريق ذوي السلطان ، ثم جاء العصر الحديث فحسبنا أن استبقاء السجون واتخاذها مكانا للعقاب وتنفيذ القانون على سنة من سلف أمر لا محيص عنه ولا ضير فيه ، مع أن قليلا من التدبر يرينا أن « فكرة السجن » قابلة لكثير من المناقشة والمراجعة في العصر الحديث ، وان الامم قد يأتي عليها

يوم تستغني فيه عن السجون بتة وتعدل عنها الى طريقة اصلح منها لتنفيذ القانون ، وربما كان هذا اليوم غير بعيد بالقياس الى ما غبر من تاريخ السجون •

أما اذا اتخذنا السجن « مستشفى » لعلاج المرضى المطبوعين على الجريمة فمن الواجب اذن كما يقول « كلارنس دارو » أن نجعل توقيت العلاج في السجون كتوقيت العلاج في المستشفيات •

فنحن لا نرسل المريض الى المستشفى ليبقى فيه سنة وان شفى في ثلاثة أشهر ، أو ليخرج بعد أيام وان كان شفاؤه يحتاج الى أعوام • فلا بد اذن من وسيلة لعرفان الوقت الذي يحسن فيه الافراج عن السجين بغير ارتباط سابق بموعد معروف لا يقبل التعجيل والارجاء •

ان تجربتي للمجرمين « المطبوعين » الذين يصلون الى السجون دلتني على أنهم قلما يكونون الا واحدا من اثنين : فاما رجل معطل الحس بآلام الناس وقد يكون معطل الحس بآلام نفسه وأقرب الناس اليه ، واما رجل مختل الارادة لا يضبط نزواته في ساعة الهياج أو ساعة الاغراء ، وكلا هذين لا تنفعه السجون الحاضرة على أحسن ما ارتقت اليه من تنظيم وتعليم ، وان حاجته الى العلاج والعناية النفسية لأشد من حاجته الى العقاب والايذاء ، لأن الايذاء يوسع الهوة بينه وبين المجتمع الانساني وهو محتاج الى من يقرب المسافة بينه وبين أبناء جنسه ويمحو من نفسه انه عدو يحارب الاعداء ويحاربونه •

ومن اليوم الى اليوم الذي تلغى فيه السجون ونهتدي فيه الى طريقة أصلح منها لحماية المجتمع وتنفيذ القانون يخيل الي أننا لا نملك وسيلة للاصلاح في هذا الصدد خيرا من استخدام الرقي العلمي والتقدم الصناعي في مطاردة الجريمة وكشف أسرارها قبل وقوعها وبعد وقوعها الى زمن طويل ، وقد نصل الى المستطاع من تحقيق هذا المقصد اذا رفعنا طبقة الشرطة وزودناهم كما نزود المحققين بالاساليب العلمية التي تعين على

مطاردة أعداء المجتمع وتعقبهم قبل الاجرام في دور النية والشروع ، وبعد الاجرام في دور الهرب والتضليل .

والآن تكفي لمسة للرصاصة التي في داخل المسدس لاثبات علامة يسهل رسمها وتحقيق شخص اللامس الذي استخدم الرصاصة بمضاهاة الرسم على أصابع المتهمين ، ويقال ان بعض العقاقير اذا عولج بها المتهم حجبت ارادته وأفضى بدخيلة سره ، ومن هذه العقاقير الكلورال والسكوبولامين (Scopolamine and Chloral) وهي التي يقال ان مكتب التحقيق في روسيا استخدمها لاقناع المتهمين في قضايا « الخيانة العظمى » بالاعتراف وافشاء أسرار المؤامرات المزعومة . وقرأت في مجلة الفورم Forum وصفا لأساليب صناعية ونفسية يهتدي بها المحقق الى المتهمين بغير خطأ كثير ، ومنها أداة كهربائية يقبض عليها المتهم ويواجهه المحقق بالاسئلة المريبة وغير المريبة فتسجل الاداة مقدار اضطرابه وافراز جلده للعرق ولو كان يسيرا ، لأن هذا الافراز يضعف مقاومته لتيار الكهرباء فيظهر الاثر على الفور في موضع التسجيل . قال هنري مورثون روبنسون كاتب المقال :

سألت الاب « سمرز » أن يجرب معي هذه الاداة فعمد الى تجربة خلاصتها أن يطلعني على عشر ورقات من ورق اللعب وأن أنتقي واحدة منها في ذهني ولا أبوح بها لغيري ، فأخذت ورقة القلبين الاثنين ثم عرضت علي الاوراق واحدة بعد واحدة والاب سمرز يسألني أهذه ورقتك ؟ فلما عرضت علي ورقتي تعمدت الانكار وقلت لا وأنا أراقب موضع التسجيل على الاداة لأرى الاثر الذي يظهر عليه ، وقد حاولت جهدي أن أحتفظ بسكينتي وقلة اكتراثي ولكن الاداة الكهربائية سجلت اضطرابي اليسير جدا مرة بعد مرة حتى اضطررت الى الاعتراف » .

وأشار الكاتب الى أسلوب « نفسي » يعتمد على تداعي الخواطر للكشف عن سرائر المتهمين ، فاذا كانت التهمة سرقة مائة دولار في محفظة

سوداء من درج مكتب وضع المحقق خمسين أو ستين كلمة وتلاها واحدة بعد واحدة على المتهم وطلب منه أن يعقب على كل كلمة بغير روية . فاذا تريث المسئول أكثر من ثانيتين ونصف ثانية وهي المدة الطبيعية للتعليق فهناك وجه للريبة ، واذا تليت عليه بين الكلمات كلمة مائة دولار ثم كلمة درج ثم كلمة مكتب ثم كلمة محفظة ثم كلمة سوداء وأطال الوقوف عند كل منها فهو اذن يعلم شيئا يريد اخفاءه ويجفل من ظهوره .

هذه أساليب مفيدة لا يحسن اهمالها وترك البحث فيها ، ولكن ينبغي مع التوفر على دراستها أن نذكر : « أولا » أن العقاقير الحاجبة للارادة قد تمكن المحقق من املاء الاعتراف على المتهم وارهابه حتى يخاف الافضاء بسبب الاعتراف . وأن نذكر « ثانيا » أن العقول تختلف في قوة العارضة وسرعة الجواب فيتلجلج المسئول وهو بريء ويخشى أن يحسب المحقق هذا التلجلج دليلا على اتهامه ، فيضطرب ويزداد اضطرابه كلما ألح عليه هذا الخاطر ولمح من المحقق ما يؤيد وهمه ، وربما أعانت سرعة الخاطر انسانا آخر على تحضير الجواب المناسب دون أن يظهر عليه من الاضطراب ما يلفت النظر أو يريب .

وأن نذكر « ثالثا » أن اتقان أساليب التحقيق لا بد أن يقابله من الطرف الآخر اتقان أساليب الاجرام وتخصص المجرمين في دراسة أساليب الشرطة وأساليب المحققين والاستعداد لها بما يحبطها ويتغلب عليها . فتنشأ عصابات المجرمين المعروفين « بالمحترفين » والاخصائيين ، ولا يبقى من المتهمين من تفلح معهم تلك الاساليب غير الافراد المعروفين « بالهواة » لأنهم لا يجيدون الحرفة ولا يتعاونون فيما بينهم على اتقانها .

فلا ينبغي أن ننسى أن الاساليب العلمية لن تستأصل الجريمة من الدنيا ولكنها على كل ذلك لازمة ونافعة ، لأنها وسيلة لا يصح اهمالها ، ولا محيص لنا من استخدام كل وسيلة مستطاعة في هذه الحرب التي بقيت منذ أوائل عهد الناس بالاجتماع ، وستبقى على ما نرى من أحوالنا المعهودة الى زمن لا تعرف له نهاية .

بعض الإصلاح

في انجلترا يقسمون المسجونين لآجال بعيدة الى أقسام : يمتد القسم الاول الى ثمانية عشر شهرا والثاني الى سنتين ونصف سنة ، والثالث او القسم المخصوص ينتقل اليه السجين بعد أربع سنوات ، ومزية هذا القسم أن يعطى فيه السجين بنسا كل يوم ويزاد كل سنة خمسي بنس الى أن تكمل الأجرة اليومية بنسين ولا يزاد عليها بعد ذلك ، ويباح لسجين القسم المخصوص ان يشتري التبغ والحلوى من أجرته اليومية ، وأن يشتري صحيفة أسبوعية وما شاء من الكتب المباحة سواء من أجرته أو من هدايا أصحابه .

ومزية القسم الثاني الذي هو دون القسم المخصوص بعض التحسين في الملابس والفراش والتوسعة في الرياضة والألعاب وشراء الصحف وما اليها .

ويتوقف الكثير من هذه المزايا على درجات السلوك وهي ثماني درجات لكل يوم ، ومن استوفى المقدار المطلوب من هذه الدرجات اسقط عنه ربع المدة واستحق التوصية عليه بعد خروجه لتدبير عمل ومورد معيشة .

وفي السجون مكتبات تبلغ عدة الكتب في بعضها اثني عشر الف مجلد ، وتتلى على السجناء أخبار العالم مرة كل أسبوع ملخصة من الصحف السيارة ، ويباح لهم سماع الاذاعة وأغاني « الحاكي » ولعب الشطرنج وبعض الألعاب الرياضية ، وتلقى عليهم المحاضرات في موضوعات شتى يختارها مدير السجن أو قسيسه ، ويسمح لهم بالتمثيل وتنظيم

الحفلات في أيام الأعياد ، وطعامهم على العموم خير في مادته وفي تنويعه من الطعام المسموح به للسجناء المصريين ، أما العقوبات فهي كما في مصر الجلد والسجن المنفرد وغذاء الخبز والماء .

ويؤخذ من رواية هانس فلادا[1] الألماني ومن بعض الرسائل الأوربية أن حالة السجون في أوربا تقرب من هذه الحالة وتشبهها كل المشابهة أو بعض المشابهة بغير اختلاف في الجوهر ، الا الروسيا فان للسجن فيها نظاما مفرطا في التوسعة والترفية نعتمد في وصفه على كتاب السير جيمس برفس ستوارت « رحلة طبيب في روسيا » الشيوعية[2] اذ يقول من كلامه على مدينة موسكو :

« كل حجرة على بابها مذيع ، والفراش نظيف ومريح ، والنوافذ المشبكة بقضبان الحديد واسعة ، والأبواب تترك مفتوحة الا ما بين الساعة الواحدة والساعة السادسة بحيث يتيسر للسجناء أن يتزاوروا كما يحبون . وقد مررنا بحجرة مغلقة أغلقها السجين باختياره فلما شعر بنا فتح الباب ودعانا الى زيارته وأخبرنا أنه حكم عليه بالسجن عشر سنوات لاختلاسه واحدا وسبعين الف روبل من مصنع سكر ، وأنه مفرج عنه ذلك اليوم ، وهو مغتبط متهلل بعد أن قضى في السجن ست سنوات وعشرة أشهر وسبعة وخمسين يوما وعوفي من قضاء المدة الباقية لاجتهاده وحسن سلوكه ، وقال لنا انه وجد وظيفة كتابية في مصلحة التجارة بسبعمائة روبل مشاهرة وسيبدأ العمل فيها على أثر خروجه .

« ويأكل السجناء في حجراتهم ريثما تبنى في السجن حجرة واسعة للمائدة العامة ، ويطلب من كل سجين أن يعمل ثماني ساعات كل يوم تتخللها ساعة للطعام ، وينقسم السجناء الى قسمين فمن كان منهم أميا يجهل الكتابة وجب أن يتعلمها على يد زملاء له من الذين كانوا مشتغلين

---

(1) Who once eats out of the Tin Bowl, by Hans Fallada.
(2) A physician's tour in Soviet Russia, by sir James Purves — Stewart.

بالتدريس خارج السجون ، أما المتعلمون فيلحقون ببعض مصانع السجن ليمارسوا صناعات يدوية معظمها مـن قبيل الغـزل والنسج والخياطـة والزركشة ، ولهم على ذلك مرتب يتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين روبلا مشاهرة تودع بأسمائهم في خزانة السجن وتسلم اليهم يوم الافراج ، ويسمح للسجين أن ينفق حصة من مرتبه في شراء الملابس والتبغ واللوازم ما عدا المشروبات الروحية فهي محذورة ، وله بعد قضاء سنة يوم أجازة كل أسبوع يقضيه في بيته ، وتزاد الأجازة الى أسبوعين خلال السنوات التالية ، أما اذا كان السجين فلاحا فله أن يقضي ثلاثة أشهر في قريته أثناء الحصاد وللأصدقاء والأقارب أن يزوروا كل سجين مرة كل عشرة أيـام أثناء السنة الاولى ومرة كل خمسة أيام فيما يلي ذلك من السنين ، لأنهم يختارون من بين السجناء وتعقد لهم لجنة لمعاقبة زملائهم الذين يخالفون النظام ، وانما يقصر حمل السلاح على الحراس الخارجيين ، بل قد تشرف اللجنة على تصرفات موظفي السجن وتقترح التعديل في بعض النظـم المرسومـة .

وهناك جماعة للتمثيل وأخرى للشطرنـج وقسم للتصويـر وقسم للموسيقى وقسم لهندسة الآلات ، ومكتبة فيها ستة آلاف مجلد تشتمل على التاريخ والصناعة والأدب والروايات ويشرف عليها كتبي رقيق فـي الثالثة والعشرين يقضي سنتين لاقترافه جريمة شهوية يخجل من التحدث عنها الا بأنها تقع تحت طائلة المادة ١٨٢ من قانون العقوبات . وقد حولوا كنيسة السجن الى مسرح جميل وأزالوا الحواجز التي كانت تفصل كل سجين عن زميله عند شهود العظة الدينية .

وكل يوم من أيام العمل يحسن السجين أداءه يعفيه من يوم ونصف من أيام العقوبة . وأيام العمل خمسة والسادس للراحة ، ومن يقصر أو يتكاسل يعاقبه زملاؤه بالحرمان من الاجازات والزيارات والمسليات وبعض المزايـا الأخرى .

وفي السجن حمامات معتادة وحمامات تركية ساخنة ، وقد شاهدت حجرة الحلاق يغشاها عدة سجناء للتزيين والتجميل ، والأجرة عشرون كوبكا لحلاقة الذقن وثلاثون لقص الشعر وخمسة وأربعون للتدليك وثلاثون للتعطير وستون لحلق الرأس كله • أما قص الشعر كما يقص عادة في السجون فهو بالمجان •

« وفي السجن صيدلية ومستشفى يديره طبيب « غير سجين » وممرضة ، ويشرف على مطبخ المستشفى شيخ ظريف ذو عوارض وشوارب طوال يتلهى بلفها على أذنيه ! وعقوبته عشر سنوات لقتله امرأته غيرة عليها! وطبيب الأسنان يقيم في الحجرة التي كانت من قبل حجرة سوداء وهي الآن مضاءة واسعة النوافذ ، ومن هنا وهناك في الأبهاء العامة والحجرات عمدان الدعاية وصحف مصورة يكتبها السجناء ••• » الخ الخ

هذا نظام السجن في موسكو كما وصفه الطبيب الانجليزي الكبير ، ولم يقل لنا ما هي نتائجه في الحياة العامة ولكنه روى على أثر هذا الوصف ان السجناء لا يحاولون الفرار ولا ينصرفون من السجن في اجازة أو زيارة الا عادوا اليه • وهذا طبيعي لا غرابة فيه بعد ذلك الوصف ، وفي وسعنا أن نتخيله بغير مشاهدة ولا اخبار •

نقول ان هذا النظام مفرط في التوسعة والترفيه لأننا نعتقد أن ضرره أعظم من نفعه ، اذ المقصود من الرحمة بالسجين ان نجتنب الايلام الذي لا ضرورة له ولا منفعة فيه،وليس المقصود أن نحول السجن الى متعة يشتهيها بعض الطلقاء ويؤثرونها على حياة البيت ومتاعب الحرية •

وتتيجة هذه التوسعة على السجناء في الروسيا غير واضحة في الاحصاءات الرسمية لا في الكتابات التي اطلعنا عليها • ولكننا نستطيع أن نقيسها على ما حدث في الهند وهي بلاد تشبه الروسيا وتشبه مصر في طبقة المعيشة اذا صرفنا النظر عن نظام الحكم وعن الرخاء الذي تمتاز به البلاد المصرية • قال مستر رايت Wright الذي كان مفتشا للشرطة في أقاليم الهند الوسطى :

« أذكر في بعض أيام الشدة والكساد التي ندر فيها الغيث وجاع الفلاحون أنه رؤي من المصلحة أن يشار على القضاة باصدار أحكام الجلد على صغار السراق بدلا من ارسالهم الى السجون ••• فنجع العلاج وأتى بالنتيجة المطلوبة ، ثم تبين أن جرائم السلب والسطو التي هي أعنف من السرقة الصغيرة تكفل لمقترفيها قضاء العقوبة في السجون فأخذت هذه الجرائم في الزيادة السريعة ، وأذكر في الأيام التي هي أروج من ذلك وأرغد أن أناسا تعمدوا السرقة ليستريحوا في أكناف السجون •••• »

وقد رأيت في سجن مصر من اعترف لي بمثل ذلك ، ورأيت سجينا آخر يتخفى ولا يجيب نداء الحارس الذي يدعو المطلقين كل يوم ، لأنه يرجو أن ينساه الحارس ويظل في السجن أياما أخرى بغير عقوبة !

■ □ ■

ان « نسبة » السجناء في مصر تلفت النظر بالقياس الى كثير من الأمم في أوربا وآسيا وأفريقيا•ويؤخذ في الاحصاء التقريبي المقارن الذي جمعته لجنة « عصبة الأمم » الموكلة بشؤون الجزاء والمسائل الجنائية ونشرته قبل بضعة أشهر أن عدد السجناء في مصر يبلغ مائة وستة واربعين من كل مائة الف من جملة السكان ، في حين ان هذه النسبة تنقص الى نحو تسعة عشر في حكومة ايرلندة الحرة ، وسبعة عشر في فلسطين ، وخمسة وستين في زنجبار وستة وخمسين في اليابان ، وسبعة وخمسين في استراليا ، وهي تزيد في بعض الأمم حتى تبلغ ثلثمائة وثلاثة وثمانين في « سيراليون » ومائتين وخمسة وسبعين في استونيا ، ومائتين واثنين وثلاثين في حكومة اتحاد افريقية الجنوبية ، وقريبا من هذه النسبة في بلاد شتى من أمم الحضارة • ولكن النسبة في مصر تلفت النظر مع هذا لأن الأمة المصرية لم تشتهر بحب الاجرام كما اشتهرت بعض الأمم التي لم تألف الحضارة والنظام ، فهل لأيثار معيشة السجن على معيشة البيت دخل في زيادة عدد السجناء ولو بين طبقة الأراذل والخلعاء ؟

يجوز هذا في نطاق محدود وحالات قليلة • ولكن ازدياد النسبة عندنا مرجعه فيما نظن الى سبب آخر غير ايثار معيشة السجن على معيشة البيت ، وهذا السبب هو تعاقب عصور الظلم والعسف والاستبداد حتى أصبح ضحية القانون وطريدة الحاكم موضع العطف لاموضع الازدراء ، وأصبح دخول السجن لا يعيب صاحبه كما يعيبه في عهود الحرية والانصاف، وسيزول هذا السبب رويدا رويدا ويعجل به الزوال كلما فهم الجهلاء والمنبوذون أن الخروج على الشريعة عداوة للمجتمع وليست عداوة للحاكم الظالم والحكومة الطاغية ، وسبيل ذلك هو التعليم والتربية الخلقية واصلاح المعيشة الاجتماعية لا تصعيب معيشة السجون وتعمد القسوة على السجناء •

ونحن كما أسلفنا في حل من كل تحسين ينقذ السجناء من الايلام الذي لا ضرورة له ، والتنغيص الذي لا تقع فيه ، ولا يغلو الى الحد الذي يغري بالاجرام والاستخفاف بالعقوبة •

ومن هذا التحسين فرض الكتابة والقراءة على الأميين وتدريب الصناع على صناعاتهم حسب الأصول الحديثة وتعليم من لا يحسنون الصناعات حرفة يبتغون بها الرزق والمعيشة الشريفة ، وتخصيص درجات لمن يجتهدون في نقص تعلم القراءة والكتابة أو في تعلم الصناعات واتقانها تحسب لهم في نقص مدة العقوبة وتوفير وسائل الراحة ، وتخول من يحصل عليها عند خروجه من السجن أن تضمنه الحكومة في عمل أو وظيفة ولو جازفت ببعض المال لتعويض الخسائر ووفاء الضمانات ، فقد ثبت أن البلاء الذي يعانيه السجين بعد السجن أشد وأنكى من بلائه بالاعتقال وضياع الحرية • لأن الناس ينفرون منه ويسيؤن الظن به ولا يأتمنونه على سعي ولا تجارة ، فاذا أمنوا عاقبة السرقة والاختلاس أقدموا على استخدامه وانتفعوا بكفاءته ولم يحذروا غدرات طبعه ، واستطاع كثير من الموصومين ان يستعيدوا حظهم من حياة العمل النافع والمكانة الاجتماعية •

ولا ضير من اباحة التدخين والأطعمة المنوعة والملابس الخارجية على أن يكون ذلك كله مزية يكافأ بها المستقيم ويحرمها المقصر والمسيء ، بل هذه المزايا خليقة ان توفر للحراس والرقباء أسباب العقوبة الزاجرة المعقولة وهي حرمان السجين بعض المزايا المشتهاة اذا أساء وخالف النظام ، بدلا من معاقبته بالجلد والمشقة والاعنات •

فقد رأيت كثيرا من السجناء يباهون بالقدرة على احتمال الجلد والمشقة ولم أر سجينا واحدا يستخف بأكل الخبز القفار ولزوم العزلة والحبس عن الرياضة ، فاذا كثرت المزايا كثرت الرغبة فيها والاجتهاد في تحصيلها وكثرت وسائل العقوبة الأدبية التي تليق ببني الانسان ، وقلت الحاجة الى العقوبات البهيمية التي ترهق البدن ولا تصلح النفس ، بل تعودها الفخر بما هو ادعى الى المهانة •

والسجناء في سجون سيبريا وجزيرة الشيطان وأمثالها من سجون أمريكا الشمالية والجنوبية ينامون على أسرة خشبية ، ولا ينامون على الأرض كما ينام جميع السجناء المصريين ما عدا المرضى والمحكوم عليهم في المحاكم المختلطة • فلماذا يجبر السجين المصري على الرقاد فوق « البرش » والأسفلت وهو ولا شك فراش لا تحتمله بنية الهزيل المهدد بالأمراض ولا تؤمن غوائله في الشتاء ؟ ان الرقاد على لوح من الخشب ليس من الترف في شيء ، ولكنه أصح وآمن وأدنى الى الكرامة والتهذيب ، فما نحن بحاجة الى تعليم الفقراء المصريين فضيلة النوم على التراب !

هذه التحسينات كلها ميسورة لمصلحة السجون المصرية ، ولها أن تظل على يقين أنها تستطيع توفيرها جميعا ثم يبقى السجن بعد ذلك سجنا يخيف من يخاف ويهذب من يتهذب ، بل يبقى سجنا ومدرسة ومستشفى ! وهي الأماكن الثلاثة التي تعودنا أن نهرب منها ونحن صغار ونحن كبار !!

عباس محمود
العقاد

سارة

دار الكتاب اللبناني - بيروت

أهو أنت ؟...

مضت خمسة أشهر قبل أن يجرؤ علـى عبور ذلك الشارع مشيا على قدميه .

وليس الشارع مقفرا أو مخيفا ، لانـه محاط بالعمار مزدحم في جوانبه بالسابلة والسكان .

وليس هو بالبعيد عن طريقه ، لانـه يوشك أن يحتاج اليـه في ذهابه وايابه الى حيث يقيم في ضاحية المدينة .

ولكنه كان شارعا يلتقيان فيه عند ذهابهما الى دار الصور المتحركة ، ثم يلتقيان فيه عند خروجهما منها .

وكانا يجلسان اذا دخلا تلك الدار في مكانين متجاورين ولكنهما لا يدخلان اليها ولا يخرجان منها متجاورين . بـل يرسل هـو الى نافذة التذاكر من يبتاع التذكرتين لكرسيين في مكان قلما يتغير . ثم يلقاها في ذلك الشارع ، فتأخذ احدى التذكرتين وتسبقه الى الدار ، ويظل هو بضع دقائق في بعض الاندية العامة ، ثم يلحق بها الى المكان المعروف .

وكان من عادتها أن تقارن بينها وبين بطلة الرواية اذا أحست منـه

اعجابا بهـا أو ثناء عليها ، وتسأله في ذلك أسئلة ذكية خبيثة لا تسهل المغالطة في جوابها ، الا على سبيل المزاح والمداعبة .

سألته مرة وقد لمحت منه اهتماما بالروايات التي تظهر فيها احدى الممثلات :

ـ اذا سمحت لك هذه الممثلة بقبلة .. أتقبلها منها ؟

فعلم أن الجواب الجد عن هذا السؤال غير سليم العواقب ، وعمد الى العبث والمراوغة .

قال :

ـ وهل من الادب أن أرفض قبلة تعرضها سيدة ؟

قالت :

ـ دعنا من حديث الادب فما عن هذا أسأل ... أنا أسألك عـن دخيلة نفسك ، أسألك عن رغبتك .. فهل ترحب بتلك القبلة اذا وجدتها ؟

فعاد ثانية الى العبث والمراوغة . وطفق يقول : أما ان كنت أمثل معها على الستار الابيض فأنت تعلمين أن القبلة لا غنى عنها .. تلـك واجبات الفن يا صديقتي ، ولا تتم الفنون الا ببعض التضحية !

قالت :

ـ أو تضحية هي ؟

قال :

ـ نعم كل قبلة غير قبلة المرأة التي يحبها الرجل هي تضحية . بل هي ـ ان شئت ـ سخرة !

فرضيت وهي تعلم أنه يغالط ويراوغ في الجواب ، وأحبت أن تشعر أنه لا يقبل تلك الممثلة الجميلة اذا أتيح له تقبيلها .. وهي تعلم أنه لا

يقول صدقا ولا يعمد الى الصراحة ! •• وقالت وهي تضحك : لقد نجوت ! ان قبلة تتمناها لهي خيانة في الضمير ، ولا فرق بين خيانة الضمير وخيانة الواقع الا التنفيذ •

واذا خرجا للرياضة بعد الفراغ من الصور المتحركة فكثيرا ما كانت تمد يدها الى مفكرته في جيبه فتكتب فيها كلمة تناسب رواية الليلة ، أو تناسب الرياضة التي خرجا لها ان كانت لها مناسبة ملحوظة •

فكتبت مرة وقد شهدا رواية المرأة المترجلة : « هل أعجبتك رواية المرأة المترجلة ؟ أما أنا فسأكون لك امرأتك فقط » •

وكتبت مرة أخرى وقد شهدا رواية المرأة المحتالة : « أرجو ألا ترى المرأة المحتالة الا في السينما • أما في الحياة فحسبك المخلصة •• فلانة » •

وربما مضت سنة أو سنتان على مشاهدة الرواية وهي تذكر كل كلمة قالها في التعليق عليها أو في انتقادها • فاتفق يوما أنهما حضرا الصور المتحركة في احدى الضواحي الصيفية ، حيث تعرض المشاهد القديمة بعد سنة أو سنتين من عرضها في المسارح الكبيرة ، وشهدا هناك رواية هزلية عن صياد فاشل يستعيض من فشله في الصيد بالمبالغة في الوصف والحكاية • فكان يرفع البندقية ويطلق الطلقة الواحدة في اتجاه واحد فيقع الطير على يمينه وشماله من جميع الجوانب ، ويظل يتساقط من هنا وهناك الى ما بعد اطلاق البندقية بلحظة غير قصيرة •

فقال لها :

ــ أليس الاحسن والابرع أن يسقط هذا الطير مشويا على الاطباق ؟

فضحكت طويلا وقالت :

ــ أتذكر ؟ أنك قلت هذه الكلمة بعينها عندما شهدنا هذه الرواية في البلد للمرة الاولى !

ولا يندر أن يسمع منها أثناء التمثيل كلمات سريعة وتعليقات مبتدرة تكشف بها ــ على غير قصد منها ــ عن أعمق أعماق المرأة ، وتهزأ فيها بالرياء الانثوي الذي يبدو في خجل المرأة وامتناعها .

من ذلك أنهما شهدا رواية من روايات الثورات يبدو فيها طريد جريح مهدد الحياة بجراحه ومهدد الحياة بمطاردة أعدائه ، وقد لاذ بأحد البيوت فأكرمه أهل البيت وكتموا أمره وتعهدته بالعلاج فتاة فيما دون العشرين من العمر سليمة القلب وسيمة الطلعة ممشوقة القوام . فمالت اليه شفقة ثم مالت اليه حبا ، ثم تمالك نفسه بعد طول العلاج ، حتى انفردا في بعض الجلسات فبلغ من سرورها به وسروره بها أن نظر اليها ونظرت اليه ، وعيونهما تومض بالمحبة ، ثم اعتنقا في قبلة طويلة جارفة...

وكان بين المتفرجين على مقربة منهما سيدة نصف في نحو الاربعين ، وفتيات ناهدات في مثل سن الفتاة . فصاحت السيدة : انظرن الى الخائن ! .. إنه خدعها !

فمالت صاحبتنا وهمست ساخرة .. أتقول خدعها ؟ إنه كافأها أحسن مكافأة يستطيعها !

■ □ ■

وهكذا كانت دار الصور المتحركة عندهما شيئا أكثر من ملهى الفراغ وموعد اللقاء : كانت محور حياتهما الغرامية ، وهل كانت لهما من حياة في ذلك الحين غير الحياة الغرامية؟ وكانت ملتقى الذكريات والعواطف ووسيلة التقارب والتفاهم فيما يشعران به وما يلاحظانه من أحوال المحبين

والمحبات ، وكانت ذخيرة من المناظر التي يقترن كل منظر منها بكلمة ، أو بخاطرة ، أو بمناقشة ، أو بأمنية يملكان تحقيقها أو بأمنية يكتفيان منها بالحلم والخيال •

فلما وقعت الجفوة بينهما وانقطع طريقهما الى تلك الدار كانت كل خطوة في تلك الطريق كأنما تثقل النفس بآكام فوق آكام من الذكريات والآلام ، وكانت كل زاوية من الزوايا كأنما تخفي فيها رصدا من الشياطين الثائرة والعقبان الكاسرة ، وكان اجتناب تلك الطريق أسلم الامور وأهون المحذورات •

ثم مضت الاشهر وخيل الى صاحبنا أنه لم يعد يخشى أو يذكر ، فاجترأ على العبور بالطريق مرة بعد مرة ، وعبر بها ثلاث مرات أو أربعا على الاكثر ، وكانت الرابعة هي التي فوجىء بها هذه المفاجأة التي لم تكن في الحسبان •

انه لم ير صاحبته بعد اللقاء الاخير في أثناء تلك الاشهر الموحشة • لانه اجتنب الاماكن التي عساه أن يراها فيها ، ولزم بيته في معظم الايام وقد علم أنه ما من مرتاد أو متنزه يقصد اليـه الا وهو خليق أن يعاوده ببعض الذكريات ، ان لم يعاوده ببعض ما يسوءه أن يراه •

فلما عبر الشارع المهجور تلك الليلة مطرقا كعادته حين يسير على غير قصد الى مكان معلوم ــ سمع من جانبه صوتا يناديه : صوتا يعرفه بين ألف صوت ، بل بين جميع ما خلق الله من الاصوات والاصداء : صوتها هي بعينها يهتف به :

ــ أهو أنت ؟

أهو أنت ؟ سمع هاتين الكلمتين فأحس لهما صدى كانفغار الهاوية

تحت السفينة في البحر اللجي من أثر عاصفة أو زلزال وقبل أن يجيب على السؤال الذي لا يحتاج الى جواب ، وفي أقل من رجع الصدى بل في أقل من اللمحة الخاطفة التي انقضت بين ارتفاع رأسه اليها والتقاء نظره بنظرها ــ هجم على نفسه طوفان من الدوافع والهواجس التي لا يوجد لها اسم في اللغات الانسانية ، لان اللغات الانسانية لا تستطيع أن تضع اسما لالوف من النقائض والمفاجآت التي يجتمع فيها الرعب والسرور والشوق والنفور والهيام والاشمئزاز ، وتريد فيها النفس أن تقف ، وتريد فيها القدم أن تسير ، بل تريد فيها النفس أن تقف ، لانها لا تقوى على أن تريد .

ولو أنه رآها عند أول الطريق قبل أن يفاجئه مـن صوتها ذلك الهاتف الطارىء ــ لعله كان يعرف ما هو مقبل عليه ويستعيد في نفسه شيئا من ذلك العزم الذي أعانه على القطيعة ، وأمده بدواعي الاصرار عليها ، كلما جنح الى اللين والاغضاء والمغالطة .

ولكنه أخذ على حين غرة .

فوقف هنيهة لا يدري ما يقول .

ووقفت هي أيضا لا تدري ما تقول ، وكأنما ندمت على الكلمة لانها لم تسمع لها جوابا سريعا ، ولم تزل تخشى ما يجيء به ذلك الجواب . فأومأت الى مركبة قريبة واقفة بين مركبات كثيرة ، واذا بهما يسيران معا الى تلك المركبة ، فتجلس فيها ويجلس هو الى جانبها وهي تقول :

ــ هذا خير من أن يرانا الناس مشدوهين كالصنمين !

والواقع أن الناس التفتوا فعـلا وجعل بعضهم ينظر الـى بعض ويتهامسون .

فقال لها : صدقت ... هو خير !

ثم صاح الحوذي : الى أين يا بك ؟

فلما لم يسمع ردا من « البك » عاد يسأل :

ـ الى أين يا سيدتي ؟

فهمست صاحبتنا : ألا تقول للحوذي الى أين ؟

فأجابها وهو يوجه خطابه الى الحوذي :

ـ الى حيث تشاء !

وكأنما ندمت مرة أخرى على الركوب ، وعلى اللقاء ، وعلى السؤال . لانها كانت تنتظر من صاحبها لهفة على مكان من أماكن الرياضة المعهودة التي ألفا أن يترددا عليها .. فجلست صامتة .

وجلس كذلك صامتا .

وطال الصمت .. لا لانه كان يريده ، أو لانه كان يأبى الكلام ، ولكن لانه كان يفتش عن كل كلام في الدنيا فاذا هو يهرب ... او يستعصى ولا ينقاد .

كان الكلام الذي يريده هو التواعد الى غد حيث يلتقيان في المنزل ، وحيث يقولان ويعيدان ويتأهبان للعذر ويتأهبان للملام .

ولكن هذا هو بعينه الكلام الذي كان لا يريده !

يمنعه أن يفوه به مانع الكبرياء ، ومانع الخوف من تجديد ما فات ، ومانع الشك فيمن تصاحب وفيما تضمر وفيما عسى أن تلقى به كلامه في دخيلة نفسها من الزراية والاستخفاف .

وطال الصمت ، وقالت وكأنما تناجي نفسها : يحسن بنا أن نقف هنا للنزول .

واعترف هو في طوية ضميره أنه لا يريد أن تنزل قبل أن يقول لها شيئا أو يسمع منها شيئا •

واعترفت هي في طوية ضميرها أنها لا تريد أن تنجز تهديدها ولا تريد أن تبرزه في صورة التهديد • لانها تعلم أن جواب صاحبها الوحيد على التهديد هو التحدي ••• أو هو تركها تنزل وحدها ، وان كان يود استبقاءها في الحقيقة •

ولعلها أخطأت في حسابها هذه المرة ، فان صاحبها بعد أن جلس الى جانبها ، وبعد أن أحس حرارة جسمها ، وبعد أن لمس بضاضة معاطفها ، وبعد أن تلقى أنفاسها على صفحة خده وهي تميل اليه تنتظر كلامه ، وبعد أن غاص في تلك الغيبوبة التي استنام اليها كما يستنيم الساهر البعيد العهد بالنوم الى أول ضجعة على الفراش ، وبعد أن أصبح هو وعزيمته شيئين منعزلين بينهما من البعد ما لا ينجع فيه دعاء ولا استحضار ••• بعد هذا كله لعلها كانت لا تخاطر كثيرا اذا هددته بالنزول من المركبة واقتضاب ذلك الصمت العقيم •

ولكنها لم تهدد ولم تنزل •• بل صاحت غاضبة :

ما بالك لا تنطق ؟ أمعقود اللسان وأنت لك لسان كالثعبان ؟

وربما أحب أن ينفي عنه تهمة الاضطراب والحصر والضيق بالكلام في مفاجأة اللقاء •

فقال لها وهو يتعلثم : أين كنت ؟

قالت : في السينما !

قال من حيث لا يشعر بمعنى ما يقول :

ـــ مع من ؟

فأجفلت مقطبة وأجابته بلهجة فاترة ولكنها مفعمة بالتهكم والتأنيب :

ــ أولا اذهب الى السينما الا مع أحد ؟ ألا تزال في ضلالك القديم ؟

قال : وماذا بدا لي من الهدى الجديد فأعدل عن الضلال القديم ؟ ولماذا صرفت كلامي الى ما فهمت ؟ ألا يجوز أن تذهبي الى السينما مع سيدة ؟ فلماذا تستغربين السؤال ؟

قالت : لانك غريب في هذه الليلة . ماذا أقول ؟ لانك غريب في كل حين !

ثم اقتضبت على غير انتظار وهي تشيح بوجهها وتهمس بصوت مسموع : هذا شرح يطول ، ونحن نهيم في الشوارع على غير مقصد ، فأولى بنا أن نرجىء الحديث الى وقت آخر . ألا ألقاك غدا في المنزل ؟... غدا في الساعة الخامسة أسمعت ؟

قالت ذلك وهي تستوقف الحوذي وتهم بالنزول عند محطة الترام .

وانها لتنزل من المركبة اذ تعمدت أن تدنو بوجهها من وجهه وتزم شفتيها وتغمض جفونها قليلا وهي تنظر اليه أو تنظر الى غير وجهة .

فقبلها كأنه أداة كهربائية ديس على مفتاحها وشعر بالندم وشفتاه لا تزالان على شفتيها ، ولكنه شعر به وشعر بنفسه في تلك اللحظة غريقا بعيدا كما يشعر بالجسد الغريق الهامد يراه في أعماق الاوقيانوس الهدار . وقال وهو أيضا نادم :

ــ غدا في المنزل !

قالت في الساعة الخامسة موعدنا القديم .

وافترقا على موعد اللقاء .

مَوعِدٌ

فارقته على موعد اللقاء في الساعة الخامسة « موعدنا القديم ! »

وكأنما كانت كلمة الموعد « القديم » وحدها طلسما ساحرا نقله من حالة الى حالة ، وأخرجه من الحذر والتردد الى الراحة والاستبشار ... فاحتجبت عنه صفحة الشكوك والآلام والمنغصات ولم يـر أمامه الا « الموعد القديم » بل « المواعيد القديمة » في كل يوم ، وما كانت تحتويه من سرور ومتعة وصفاء ، وذكريات لا تزال مرتسمة في الذهن ، سارية في الجوارح كأنها وظيفة من وظائف الاعضاء .

وانطلق من المركبة خفيف الخطى موفور النشاط يكاد لا يعرف احدا ، ويكاد لا يعرفه من كان يراه قبل ذلك بساعة أو أقل من ساعة .

وأول ما خطر له أن يدخل في ذلك المساء دار « الصور المتحركة » التي كانا يلتقيان فيها معظم الاوقات ، كأنها باب كان موصدا أمامه ففتح على مصراعيه ، أو فاكهة ممنوعة رفع عنها المنع والحرمان .

ومن عجائب العاطفة الانسانية أنها أبدا مولعة بالمراسم والشعائر ، فلا تستولي على النفس حتى ترسم لها « طقوسا » وعادات تذكر الانسان بطقوس العقائد والعبادات .

فلما خطر له أن يقصد الى دار « الصور المتحركة » أو الى ذلك « الحرم » الذي كان ممنوعا حتى ذلك المساء ، لم يكتف بتذكرة واحدة، بل طلب له تذكرتين اثنتين ، وهو لا ينوي أن يصطحب أحدا ، ولو جاءه أحد يصطحبه لفر منه كما يفر المرء من غريم •

وقضى الوقت الباقي الى الساعة التاسعة في قلـق واشتياق كأن موعد التمثيل هو موعد اللقاء المنظور •

ثم بدأ عرض الصور وهو يزعم لنفسه أنه يشهد الرواية ويتتبع الممثلين والممثلات ، وليس في خلده من ذلك شيء الا كما يرى الناعس المهوم ما حوله من الاشباح ، أو يسمع ما حوله من الاصداء •• كل ما يثبت في خلده منها أنها أشباح وأنها أصداء !

ثم جاءت فترة الاستراحة فاذا بالفتى الذي يبيع هناك بعض الحلوى والمرطبات مقبل عليه في دهشة واستفهام يسأله :

ــ أكنت مسافرا يا بك ؟

وقبل أن يسمع الجواب أسرع فقال :

ــ إن السيدة كانت هنا في حفلة الغروب ؟

واذا بصاحبنا يسأله وهو لا يقصد السؤال ، ولو فكر في سؤاله قبل أن يلفظ به لكتمه وأخفاه :

ــ أكانت وحدها ؟

وخيل اليه أنه يلاحظ في نظرات البائع ولهجته تلميحا خبيثا يقول له ما لا يريد أن يعرفه ، ولا يريد أن يجهله في الوقت نفسه • فسلبته تلك الملاحظة كل طمأنينة الى ما سيقوله البائع من خبر مقبول أو خبر مرفوض ، وود لو أنه يسكت فلا يجيب بشيء •

ولكن البائع لم يزد على أن هز رأسه وقال :

ـــ لا أدري •• كانت الى جانبها سيدة ••• ولعلها كانت معها •

فاندفع من صاحبنا سؤال آخر كما اندفع السؤال الاول وهو يغالط نفسه ، ويحسب أنه يتهكم أو يريد من البائع أن يحسبه متهكما غير جاد في مطاولة الحديث :

ـــ جانبها ؟ أي جانب ؟ إن للانسان جانبين لا جانبا واحدا كما تعلم •

وهنا ظهر من البائع الخبيث أنه فهم كل ما هنالك من الشك والاستطلاع • فقد عودته صناعته أمثال هذه المواقف وأمثال هذه الاسئلة وأمثال هذه الشكوك • فلم يفته أن « البك » يستطلع ويرتاب ••• ومن يدري ؟ فلعله كان يرى بعينه ما يدله على أن البك جدير بالاستطلاع والارتياب !

فتمهل قليلا وقال : « كان الى جانبها الآخر هذا الممر •• » وأشار بيده الى أحد الممرات التي بين الصفوف •

فارتفع كابوس ثقيل عن صدر صاحبنا ، وأحب أن يعتقد أن كلام البائع خليق أن يزيل من نفسه جميع الشكوك ، لا مجرد الشك الذي خامره عن زيارة السيدة لدار الصور المتحركة في ذلك اليوم •

الا أنها طمأنينة عاجلة لم تلبث أن ذهبت كما جاءت في طرفة عين ، واذا بصاحبنا يناجي نفسه ذلك النجاء الذي كان غائبا عن خاطره منذ فترة وجيزة • يا عجبا ! اني لاجتنب هذه الدار كأنها تجمع شياطين الارض كلها في حيز واحد ، وهي تزورها ولا ترى فيما كان بيننا من القطيعة موجبا لاجتنابها •• لو كان قلبها خاليا من هوى آخر لما استطاعت

ذلك ولفعلت كما كنت أفعل أنا الى هذا المساء .. والاغلب الارجح أن هذا البائع يعلم من خفية الامر أكثر مما يبوح به أو يريد أن يبوح . ألا ترى الى غمزات عينيه وحركات وجهه ونغمات كلامه ؟ فماذا على المنحوس لو أفضى بما عنده وأراحنا من هذا العناء .

وعاد صاحبنا يتساءل في ضميره : ما عنده ؟ أهكذا جزمت سريعا بأن « عنده » سرا وأنه يستطيع أن يبوح بأكثر مما قال ! الا يجوز أنه لم يعرف سرا على الاطلاق ، وأن مـا حسبته غمزات ونغمات مريبة في صوته انما هي عادة هذه الطبقة عندما تتحدث لرجل عن امرأة ، أو عندما تتحدث في كل شأن بين رجال ونساء .

ـ يجوز !

ـ لا يجوز !

وهكذا انطلقت في مخيلة صاحبنا أوهام وأشباح لا عداد لها في تلك الساعة القصيرة ، ولا يقاس عليها كل ما شهدته تلك الدار مـن الأوهام والاشباح ومن المبكيات والمضحكات .

ولم ينقذه مما استغرق فيه الا انتهاء التمثيل وزحام الخروج ولقاء بعض الاصحاب وسهرة كثرت فيها الشواغل وطال الحديث .

ونام تلك الليلة على أثر انفضاض السهرة وكان يقدر أنه لن ينام .

ولكنه لو قضى الليل كله ساهرا لما عمل في اليقظة الا الذي عمله وهو نائم . حلم وتفكير وهواجس وخيالات تضطرب وتصطخب ويتبع بعضها بعضا ، ولا تميل الى جانب الرضا لحظة حتى تعود الـى جانب الوسواس والمنغصات .

ثم استيقظ في الصباح وهو يسأل نفسه كأنما يسأل مخلوقا غريبا يجهل ما عنده من نية وشعور .

ــ أتنوي أن تنتظرها في الموعد ؟

فما هو الا أن وضح السؤال في خاطره حتى شعر بأنه سؤال غريب يدل على ما وراءه ، وحتى بدت له الدهشة من أن تكون هناك نية معقولة غير الانتظار .

وهنا دارت في سريرة هذا الرجل ــ هذا الرجل الواحد ــ مناقشة عنيفة طويلة كأعنف ما تدور المناقشة بين رجلين مختلفين ، كلاهما مصر على عزمه وكلاهما يحاول جهده أن يخدع الآخر ويستميله الى رأيه ، وكلاهما يبذل كل ما هو قادر عليه في هذا الحوار من أساليب الاقناع والاغراء والرياء والتصريح :

ــ كيف لا تنتظرها ؟ أتعطي سيدة موعدا ولا تنتظرها فيه ؟ أهذا يليق برجل ؟

ــ ولكنها ليست سيدة كسائر السيدات ولا زائرة من زائرات المجالس العامة اللواتي تقع بيننا وبينهن هذه التكاليف .. ان هــذه المجاملات أو هذه القيود لا حساب لها في العلاقات التي انطلقت مــن جميع القيود .

ــ ولكن مم عساك أن تخاف ؟ انتظرها وقل لها انك لا تريد أن تراها بعد هذا الموعد !

ــ عجبا .. أتجهل ما أخافه ؟ أتجهل تلك الآلام التي لا حيلة فيها لمخلوق ولا تزال تبتدىء من حيث تنتهي ، وتنتهي مــن حيث تبتدىء ، لانها تبتدىء وتنتهي من الشكوك ، وليس للشكوك قرار حاسم ، ولا مقطع بيقين ؟

أتجهل تلك الاشباح اللئيمة التي تطل عليك في أطيب أوقاتك فتنغص

عليك كل لذة وتكدر عليك كل صفاء ؟

ـ لكن علام كل هذه الشكوك التي ليس لها من أول ولا آخر .. اصرفها عنك مرة واحدة وافرض أسوأ الفروض ـ وقدر أنها تخونك وأنك تلهو بها في ساعات فراغك ، ولا يعنيك من شأنها بعد ذلك اخلاص ولا خداع .

ـ أأنت مخلص فيما تقول ؟ وكيف تنقلب هذه المرأة التي كانت كل نساء الارض عندي ، وكل ما يخفق له قلبي ، فتصبح بين مساء وصباح وهي لهو ساعة ومتعة فراغ ؟ أهذا خداع يجوز على انسان ؟ أو تضمن اذا أنا اتخذتها لهوا ومتاعا ألا يتمكن اللهو ويطيب المتاع ، واننا لا ننكفىء بعد أيام أو بعد أسابيع الى استغراقنا القديم وشكوكنا القديمة وعذابنا الاليم ؟ لا لا هذا محال باطل ، واستدراج لا يستر ما وراءه وتزوير لا أرضاه .

ـ لكن الفتاة مليحة مع ذاك .. تصور بضاضتها وهي جالسة الى جانبك في المركبة ، وأنفاسها وهي تهب على خدك فتسري في جميع أوصالك ، وقبلتها وهي ترتعش على شفتيك ، وحلاوتها وقد زادها النحول في هذه الاشهر حلاوة على حلاوة ، ونحولها نفسه وما ينبىء عنه ويكشفه لك من المودة والحنين ، وتصور ذلك كله بين يديك في مدى بضع ساعات وأنت مع هذا تفكر ... تفكر في ماذا؟ في نبذ هذه النعمة التي تسعى اليك ، وفي الخوف والجبن والفرار !

ـ هذا حق كله . ان الفتاة لمليحة ولا نكران ... ولكن !

ـ ولكن ماذا يا أخي .. ! انتظرها والهُ بها ولا تدعها لغيرك ينال منها ما لا تنال ... ولا تستضعف عزيمتك هذا الاستضعاف المهين وأنت

رجل ذو عزيمة ومضاء .. فاذا عاودتك الشكوك فأنت قادر على قطع العلاقة بينك وبينها كما قطعتها من قبل ، والا فأنت رابح ما استرجعت من متعة وسرور .

ــ عزيمتي ؟ وأين هي عزيمتي ان كانت لا تنجدني في هذا النزاع العنيف ؟

ــ انها تنجدك في كل حين ولكنك أنت لا تريدها الآن ... لا تريد عزيمة الجفاء والقطيعة ، ومتى أردتها غدا فهي حاضرة لديك ، وهي في كل ساعة طوع يديك .. ومع هذا ألا يشوقك أن تستمع الى حديثها عن أيام القطيعة بينكما ؟ ألا يجوز أن تفسر لك بعض الغوامض ، وتريك من البواطن ما ينقض الظواهر وتصف لك من حالها في غيابها عنك ما يهمك ولو من باب الدراسة والاستقصاء ؟

وتعاقبت الساعات ساعة بعد ساعة في هذا الحوار الحثيث ولا قرار .

وتناول صاحبنا غداءه ولا قرار .

وجاءت الساعة الرابعة ولا قرار .

نعم لا قرار فيما يشعر به صاحبنا أو صاحبانا المتحاوران على أصح التعبيرين . غير أن الذي حدث بعد ذلك يدل دلالة لا شك فيها على أن الانسان يقرر ما ينويه وهو لا يشعر ولا يعترف بشعوره ، بل يدل على أن صاحبينا المتحاورين لم ينفردا بالميدان فيما شجر بينهما من عراك عنيف ، وانما كان معهما ثالث لا يدريان به وهما ماضيان في الاقناع والانكار .

ففي الساعة الرابعة وبضع دقائق ــ والحوار على أشده بغير قرار ــ

وجد صاحبنا أنه يلبس ملابس الخروج ويفتح باب حجرته وينحدر على الدرج الى حيث لا يعلم الا أنه خارج من المنزل وكفى . ومضى في طريقه مهرولا كمن يمضي الى غايــة معلومة يخشى آن يفوته لحاقها ، وركب سيارة لم يعرف الى اين تحمله الا بعــد أن استقر فيها ، واستطاع أن يمكث حيث ذهب ساعات ثلاثا لا ساعة واحدة ولا نصف ساعة كما كان يتمنى وهو يعالج أن ينجو من الموعد المحدود .

ثم ساوره القلق ودلف الى منزله بالسرعة التي فارقه بها، واستحالت كل حيرته قبل الخروج الى حيرة أخرى ، أو شوق آخر : وهو أن يعرف ما حدث في غيابه بجميع تفصيلاته . هل حضرت في الساعة الخامسة ؟ أو حضرت قبلها أو بعدها ؟ وماذا قالت حين علمت بخروجه ؟ وما بدا على وجهها وهي تصدم بهذه « المقابلة » ؟ واذا كانت لم تحضر فما الذي عاقها عن موعدها ؟ ولماذا ضربت ذلك الموعد باختيارها ؟ هل ضربته وهي تنوي أن تخلفه من اللحظة الاولى ، أو طرأ الحائل بعد ذلك على الرغم منها ؟

وأنه ليفتح الباب بالمفتاح الذي في جيبه ولا ينتظر أن يدق الجرس كعادته في الاوقات الاخرى ، اذا بالخادم يصادفه وراء الباب ، وهو يظن ــ بل يرجو ــ أن يخبره على الفور أن سيدة حضرت في غيبته ولا تزال في انتظاره ، ويغلو بــه هذا الوهم حتى يعجل بالالتفات الــى حجرة الاستقبال ليلقى السيدة التي تنتظره فيها .

ولم تمض في ذلك الا لمحة خاطفة والخادم شاخص لا ينبس بحركة ولا يلوح عليه أنه يحمل خبرا من الاخبار يستحق أن يقال ، ويساوي تلك اللهفة التي تعتلج في صدر صاحبنا .

فأسرع صاحبنا سائلا :

ــ ألم تحضر الى هنا السيدة ؟ ألم تقل شيئا ؟

فقال الخادم في فتور غريب : لا أعلم !

فانفجر صاحبنا غاضبا : كيف لا تعلم ؟ ألم تكن هنا ؟ هل هي أوصتك بأن تقول ذلك ؟

قال الخادم وفي صوته احتجاج من يستغرب ولا يفقه معنى هذا الاتهام : يا سيدي قلت لك لا أعلم ، لانك نزلت من هنا وأنا نزلت وراءك حسب المعتاد في سائر الايام .

فاشتعل صاحبنا غيظا ، وهم أن ينقض عليه لولا أن هرب الرجل من أمامه فتبعه الى باب الخدم ، وهو يعلنه بالطرد وألا يعود ليريه وجهه مرة أخرى . ولم يصفح عنه الا بعد ثلاثة أيام ، وبعد أن شفع له أن الرجل معذور لانه لم يأمره بالبقاء في المنزل ، وقد أنساه أن يأمره بالبقاء فيه ما كان مشغولا به من حوار .

الشكوك

من النادر جدا أن يتواعد محبان على اللقاء بعد فراق طويل ثم لا يسرعان الى موعد اللقاء بلهفة شديدة واشتياق عظيم ، ان لم يكن حبا أو حنينا أو رغبة في المتعة والسرور ، فعلى الاقل من قبيل الفضول والاستطلاع والرغبة الملحة عند كل منهما في الوقوف على أخبار صاحبه وأحواله أيام الغياب الطويل : هل أحبت غيره ؟ وهل أحب غيرها ؟ وهل سلت ؟ وهل سلا ؟ وبماذا يشعران في الحب الجديد ؟ أو ماذا بقي عندهما من الحب القديم ؟ وماذا تقول له حين تخلو به ؟ وماذا يبدر من كلامه حين يخلو بها ؟ وأشباه ذلك من الاسئلة التي يلقيها كلاهما على نفسه ويحسب أنه في أشد الحاجة الى الوقوف على جوابها . فربما كان هذا الفضول من أقوى مظاهر الحب ، ومن أوثق روابط الاتصال بين كثير من الناس محبين كانوا أو غير محبين .

فاذا حدث غير ذلك واجتهد أحد العاشقين أو كلاهما في اجتناب الموعد المنتظر بعد طول العزلة والجفاء ، فلا بد أن يكون بينهما شبح قائم من الآلام والاكدار يغطي على جميع المشوقات والمرغبات ، ويعكس

الفضول والاستطلاع فيستحيل الى صمم ونفور ، ويصبح كل شيء أهون من تجديد تلك الحالة المكروهة والعودة الى ذلك الشبح المرهوب .

وهكذا كانت الشكوك التي تمثلت لصاحبنا فانساق بغير وعي ولا ارادة الى اجتناب الموعد ، والفرار من المنزل ، والهزء بكل اغراء وتشويق ينبعث في أعماق حسه من شيطان ذلك الشغف القديم .

كانت شكوكا مريرة لا تغسل مرارتها كل أنهار الارض وكل حلاوات الحياة : كانت كأنها جدران سجن مظلم ينطبق رويدا رويدا ولا يزال ينطبق وينطبق وينطبق حتى لا منفس ولا مهرب ولا قرار ، وكثيرا ما ينتزع ذلك السجن المظلم طبيعة الهرة اللئيمة في مداعبة الفريسة قبل التهامها ، فينفرج وينفرج وينفرج حتى يتسع اتساع الفضاء بين الارض والسماء ، ثم ينطبق دفعة واحدة حتى لا يمتد فيه طول ولا عرض ولا مكان للتحول والانحراف : بطل المكان فلا مكان ولا أمل في المكان ، ووجب البقاء حيث أنت في ذلك الضيق والظلام فلا انتقال ولا رجاء في الانتقال .

وكان صاحبنا كالمشدود بين حبلين يجذبه كلاهما جذبا عنيفا بمقدار واحد وقوة واحدة ، فلا الى اليمين ولا الى اليسار ، ولا الى البراءة ولا الى الاتهام .. بل يتساوى جانب البراءة وجانب الاتهام فلا تنهض الحجة هنا حتى تنهض الحجة هناك ، ولا تبطل التهمة في هذا الجانب حتى تبطل التبرئة من ذلك الجانب . وهكذا الى غير نهاية والى غير راحة ولا استقرار .

وضاعف هذه الحالة ذكاؤها من ناحية ، وطبيعة ذهنه وتفكيره من ناحية أخرى . فهي من الذكاء بحيث لا تقدم على عمل واحد أو حركة

واحدة لا يختلف فيها وجهان ولا تقبل التضليل والنكران ، وهــو في تفكيره وطبيعة ذهنه يخلق الاحتمالات الكثيرة ، فلا يجوز عنده احتمال راجح الا جــاز عنده في اللحظة نفسها احتمال راجح في قوتــه ووزنه وجوازه ، ولا يدفع هذا أو ذاك الا بدافع حاسم لا تردد فيه .

ألم لا نظير له في آلام النفوس والعقول ، وحيرة لا تضارعها حيرة في الاحساس والتخمين ، وأقرب ما كان يشبه به هذه الحيرة حالة الاب المستريب الذي يشك أفجع الشك في وليد منسوب اليه : هل هو ابنه أو هو ابن غيره ؟ ومن هو ذلك الطفل الصغير الذي يتقاضاه حقوق البنوة على الآباء ؟ هل هو رمز الحب والعطف والصدق والوفاء ، أو هو رمز الخداع والخيانة والاستغفال والاحتقار ؟ هل هو مخدوع في عطفه عليه ، أو هو مخدوع في نفوره منه ؟ وكيف يفصل في هذين الخداعين ؟ وكيف يطيق الصبر على واحد منهما ، وكلاهما لا يطاق .

بذلك كان يشبه حيرته وهو يحاول الاستمتاع بعاطفته التي هــو مستغرق فيها ، ويحاول في اللحظة بعينها أن يبترها وينساها ولا يعود اليها . ثم لا يدري في أي المحاولتين هو مصيب . ولا بــد أن يدري ، وهيهات لا سبيل الى الدراية بحال !

واذا كان بعض الشكوك في العشق من وساوس الاوهام ، فمما لا نزاع فيه أن العاشق أصدق الناس في شكوكه حينما يبنيها على أسباب صحيحة وحقائق ملموسة ، لانه يعرف صاحبته معرفة لا يخفي معها عارض من عوارض التغير ، ولا لمحة من لمحات العين ، ولا همسة من همسات الضمير : يعرف نظراتها ويعرف كلماتها ، ويعرف ما تقوله عن سجية وما تقوله بتكلف واصطناع ، ويعرف أن بعض الخشونة أدل علــى الحب

والاخلاص من بعض المجاملة ، ويعرف نفسها وكيف تستتر فيها الخفايا ، ويعرف جسدها وكيف تختلج فيه النوازع والشهوات •

وقد يسأله من يسأله كيف خامرتك الشكوك فيضحك من نفسه أن يجيبه بما يلوح له أو يطلعه على بعض تلك الاسباب ، وقد يؤثر في معظم الاحيان أن يكتمها ويموهها على أن يفضي بها الى انسان كائنا ما كان •

وبعد فهل الغدر في الحب مستحيل ؟

كلا ! ليس هو بمستحيل ولا مما يقارب المستحيل • وليس صاحبنا بالذي يصدق ولا صاحبتنا بالتي تصدقه وتدعيه •

لقد اعترفت له بعلاقتين سابقتين : احداهما متينة مستحكمة طويلة والاخرى هوجاء حامية سريعة ، واحداهما مع كهل يقارب الاربعين والاخرى مع فتى في نحو الخامسة والعشرين • واحداهما صيدت فيها ولكن على غير كره منها ، والاخرى كانت هي فيها الصائدة وهي التي نصبت الشباك ، فوقع الصيد على عجل وأسرع الحراس الحانقون فأطاروه !

اعترفت له بما كانت تحتال به من الحيل البارعة لتلقى عشيقها الاول ، وبما كانت تعمي به على من حولها حتى لا يرتابوا في أمرها ، واذا استرابوا لم يجدوا عليها ما يثبت الريبة ويقطع اللسان •

واعترفت له بالردود المفحمة التي كانت تدبرها لترغم المتهمين على السكوت •

واعترفت له بما تخجل منه المرأة المعتزة بجمالها ومكانتها ، فقالت له انها لم تكن على يقين من حب عاشقها الاول ، ولم تكن تبالي أن يحبها اكتفاء بعلمها أنها هي تحبه • وذهبت في امتهان كرامتها — وهي مغرورة

بفتنتها وامتيازها ــ الى حــد مــن الخضوع لا يحمــد الا في التدين والايمان • فقالت انها لمحت منه مرة أنه يطيل النظر في مجلسها الى امرأة أخرى من صديقاتها ••• فخطر لها أن تناجي نفسها سائلة : هل يجسر على أن يطلب منها الوساطة بينه وبين تلك المرأة في التقريب والتمهيد ؟!•• قالت : « فراعني هذا السؤال ، ولكني ، عدت فشعرت أني سأفرح بأن أسره وان جاء سروره من هذا الطريق المهين ! » •

ثم انقطعت هذه العلاقة على الرغم منها وعلى الرغم منه ، وتمادت بها الوحدة وهي في دهشة مخيفة ، فجعلت تلتفت الى شاب وسيم مــن الجيران ، ثم تمعن في الالتفات اليه حتى أصبح انتظاره وهو عائد الــى منزله في الهزيع الاخير من الليل شغلا لها شاغلا في اليقظة والمنام ، وأخذت تحاسبه في طويتها على هــذه السهرات وتتخيل مــع من تكون وكيف تكون •• ! ويزيدها ذلك لجاجة في الولع ولجاجة في الانتظار ، ولم يلبث هذا الالتفات منها أن أدى الى الالتفات منه ثم الى التحية ثــم الى لقاء جنوني في المنزل الذي يحيطها فيه الآل والاقربون ، وكانت هذه المغامرة العجيبة هي العلاج الباتر لذلك الجنون العجيب !

وراح صاحبنا يذكر كيف اجتمع بها أول مرة ، ويذكر ما تحدثت به اليه في أول خلوة • لــم يطل بهما الجلوس يومئذ حتى استأذنت في الانصراف لانها ذاهبة الى موعد مــع صديق ، وأرته خطابا من ذلــك الصديق يقول لها فيه انه يشتري في ذلك اليوم سيارة ويحب أن يستأنس برأيها وبذوقها في اختيار اللون والطراز • فأذن لها صاحبنا وهو يقول مازحا : « هذا موعد يرشحك لصناعة مفيدة ••• فلا تهمليه ••• » •

قالت له في أول لقاء بعدها : « لشد ما كنت أترقب منك أن تستبقيني

وتؤخرني عن ذلك الموعد . ولو قلت لي : لا تذهبي ! لما ذهبت .. ولو مزقت الخطاب أو خطفته من يدي لجزيتك على صنيعك أحسن الجزاء ! » .

وكانت تحب الضحك وتفطن الى الفكاهة وتضحك أحيانا حتى تشرق عيناها الواسعتان بالدموع ، ولكن صاحبنا لا يذكر أنها ضحكت يوما كما ضحكت أمامه وهي تمثل الصديق صاحب السيارة وتروي ما جرى بينها وبينه حين اجترأ أول مرة على اقتراح خطير ، بعد تمهيد وتحضير ، وحذر وتحذير .

وما هو الاقتراح الخطير ؟

قبلة ... !

نعم قبلة ، وأكدت الكلمة وهي تروي الحكاية مرتين .

قالت : « انه كان ينتظرني في طريق الزمالك ، فلمحت أول ما وقع نظري عليه انه مهموم قلق يخفي على أطراف شفتيه نية من النيات ، وكان ذلك بعد أن التقينا عدة مرات وانفردنا في الخلوات ساعات . فلم يعسر علي أن استشف تلك النية ، وراقني أن استدرجه الى الافصاح عنها لارى كيف يتدرج في الكلام ، فأضجرني كثيرا قبل أن يستجمع في قلبه القدرة على أن يقول :

ـ يافلانة !

قلت : نعم يا فلان .

قال : إن لي أمنية أحب أن أفاتحك فيها وأرجو ألا ترفضيها ولا تسيئي تأويلها .

قلت : انني أحب أن أرى أمانيك كلها تتحقق ، ولا سيما الاماني

التي فيها لك الخير والنجاح .

قال : أشكرك ... لكن هذه الامنية في يديك أنت ؟

قلت كالمستغربة : في يدي أنا ؟ ما علمت قبل الآن انني رئيسة عليك ، ولا انني قادرة على نفعك وتوفير ما تتمناه !

فأحجم قليلا ، وخشيت أن يعدل عن مجرى حديثه فعدت أقول :

ـ ومع هذا أسمع منك هذه الامنية فلعلي أشير عليك بما يفيد .

وبعد جهد جهيد صرح وهو يستغفر ويتلعثم بأنه يتمنى على الله أن أسمح له بقبلة ! !

فسكت هنيهة لا أدري هل أضحك أو أتغاضب . وظن انني أتجهم وأقطب وانني أهم أن ألومه وأخاطبه بما يسوءه ، فأسرع الى الاعتذار ، وأسرعت أنا الى الكلام لئلا أضحك ، قائلة :

ـ أو هذا مما يحسن بك يا فلان ؟ لكأني بـك غدا تتمادى الى أكثر من ذاك ..

فصاح كمن مسته نار : أنا ؟ أتظنين يا فلانة انني من هؤلاء ؟ معاذ الله يا فلانة . معاذ الله .

■ □ ■

لم ينس صاحبنا كيف كانت تضحك وهي تحكي له هذه الحكاية ، واستدل من ضحكها أكثر مما استدل من كلامها على مبلغ استخفافها بما يسمونه الصداقة بين النساء والرجال . فما الذي يمنعه أن يصدق أنها تستخف بالوفاء وتمضي مع أيسر الاهواء ؟

لا بل هي قد اعترفت له بما هو أدعى الى الشك والريبة من جميع مـا تقدم .. فقد غضب منها وغضبت منه قبل الغضبة الاخيرة مرات

عديدات ، بعضها يعقبـه الصلح في يومها وبعضها يتجاوز الايام وقـد يتجاوز الاسابيع ، ففي احدى هذه المرات افترقا بعد عراك عنيف بالغ في العنف والتهجم فوق ما تعودا من عراك وصدام . وسافر الـى مصيفه وسافرت الى مصيفها ، ولا مطمع لهما في لقاء ، وبلغ من يقينه بالفراق الفاصل أنه عاد من سفره وهو لا يترقب منها سلاما ولو سلام المجاملة والتكليف ، ولكنه بعد أيام قليلة تلقى غلافا فيه صور شمسية تمثلها الى جانب بعض المشاهد الخارجية التي يرحل اليها المصطافون والسائحون ، ومضت أيام معدودات واذا بجرس التلفون يـدق واذا بالمتكلم ذلـك الصوت الذي لا يلتبس عليه بين ألوف الاصوات :

ــ الحمد لله على السلامة !

ــ سلمك الله وعافاك !

ــ هل لي أن ألقاك اليوم ؟

ــ نعم ، تفضلي !

ــ أتفضل ؟ لا . لست أتفضل ، ولكني أزورك لالتمس الغفران .. هل في وسعك أن تمثل دور الكاهن في الديانة المسيحية ؟

قال : أخشى أن يكون دورك اذن هو دور الخاطئة ؟

قالت : هوذاك . فالى اللقاء ... فالتلفون لا يتسع لمثل هذا الحديث

لم يشعر ذلك اليوم وهو ينتظرها بخداع ولا باستغفال ولا احتقار . ولكنه شعر بخسارة وأسف ، وانتظرها كما ينتظر الطبيب مريضا يلجأ اليه، واستقبلها عاطفا عليها متطلعا الى ما وراء حديثها مستعـدا للتسامح في الاصغاء اليها . فدخلت وهي تقول في غير احتجاز ولا امتناع :

ــ لا قبلات ولا تحيات حتى تعرف قصتي وأعرف رأيك.

« اسمع يا فلان . انني لا أؤمن بصداقة المرأة للمرأة ولا عزاء لي في معاشرة الصديقات المزعومات على الاطلاق ، فان لم يكن الى جانبي رجل أهابه واحبه واعتمد على سنده فأنا في وحشة الهالكين ، وأنا ضعيفة ضعيفة ضعيفة لا طاقة لي على دفع الغواية . وقد افترقنا يائسين ليس لك حق عندي وليس لي حق عندك ، وأنا لا احاسبك على شطحاتك في مصيفك ان كانت لك شطحات ، ولكني اسمح لك أن تحاسبني على الصغيرة والكبيرة وأبوح لك بأنني زللت في المصيف وانغمست في صلة غرامية ليس فيها غرام في الحقيقة ، ولم أحضر اليك اليوم بل لم ارسل اليك الصور الا وقد قطعت تلك الصلة وهيأت نفسي لاستئناف مودتنا القديمة . هأنذا الساعة بين يديك فماذا أنت قائل ؟ هل تقبلني ؟ »

فاستزادها من خبر تلك الصلة التي لا غرام فيها كما تقول، واسترسلت هي في تفصيلات لم تستر فيها سرا ولم تصبغ فيها أمرا بغير لونه ، ولم تقف دون معرة أو نقيصة كأنها تفرغ قلبها بين يدي الكاهن على حسب « انذارها » في حديث التليفون .

قال بعد أن أصغى اليها في صمت وابهام :

ــ انني يا فلانة لا أملك أن اجيبك هذه الليلة ، ان أنا قبلتك فلست آمن أن أندم وان أنا رفضتك فلست آمن كذلك أن أندم . ولكن دعيني بضعة ايام ريثما أروض سريرتي على عزم وثيق وأخبرك بما صحت نيتي عليه ، غير خائف من عواقب العجلة .

وما انقضت تلك الايام حتى استقبلها صافحا ، وسألها أن تذكر أبدا أنه قد يفهم عذرها من الضعف ولن يفهم لها عذرا من الختل والخداع ، وحمد لها صراحتها ولكنه في الواقع لم يسلم من الاحتراس والتوجس منذ

تلك الساعة ، ولم يزل على تفاهم دخيل بينه وبين طواياه انه لا يأوي الى حصن حصين ، وانه مع ذلك هو حصنه الذي لا بد أن يأوي اليه !

فلما ساورته شبهات الشك توالت أمامه الدلائل من فلتات اللسان وشوارد الخاطر وعلامات الزينة والحلي والملابس وما الى ذلك من علامات هي لمن يعهدها أثبت من البراهين واصدق من الشهود ، ورانت السآمة على كل لقاء ، وتغلغلت اللواعج والاشجان في كل فراق ، وغلبت الاكدار على كل صفاء وكل رجاء ، ولم يبق الا أن يقبلها على أن يستغرق هو في حبهـا ويسمح لها هي أن تفرغ لغيره وهذا مستحيل ، أو يقبلها على أن يلهو بهـا وتلهو بـه وهذا أيضا مستحيل ، أو يسوم نفسه قطيعتها وهذا مـا قـد عول عليه ، وظن أنه استطاعه وقدر عليه خمسة أشهر .

وانه لفي حسبانه هذا يوشك أن يودع القلق والاسر ويقبل على الطمأنينة والحرية ، اذا به يهاجم في الصميم ، واذا بالظواهر والبواطن كلها تضمن له وهي تتدفق عليه أنه عائد لا محالة الى مـا ودع من شقاء وألم ، وليس بين تلك الظواهر والبواطن كلها ما يضمن له أقل ضمان أن يعود الى ما ودع من ثقة ونعيم . فماذا عساه أن يصنع ؟ لا تسل فكره ولا تسل قلبه ولا تسل ضميره ، بل سل كل وشيجة من وشائج لحمه ودمه وأعصابه التي عزمت عزمها بغـير اكتراث لفكره أو لقلبـه أو لضميره ، واستقلت بارادتها وهي لا تترجم عن تلك الارادة الا بالعمل الواقع دون التفكير ودون التعليل ودون التفسير ، فطلبت النجـاة بالبداهة المرتجلة وحملت الجسد الذي هي قوامه الى خارج المنزل وهي لا تعي ولا تفقه الى أين تسير ، ولا لوم على من يطلب النجاة ، فانما هكذا تطلب النجاة !!

عِـلاجُ الشكّ

مواجهة الحقيقة من أصعب المصاعب في هذه الدنيا .

«أولا» لاننا في الغالب لا نعرف ما هي الحقيقة .

و «ثانيا» لاننا في الغالب لا نحب أن نعرفها الا مضطرين ، حين نيأس من قدرتنا على جهلها ونشك ثم نشك ثم نرى آخر الامر أن الشك أصعب وأقسى من مواجهة الحقيقة والصبر عليها .

و «ثالثا» لاننا اذا عرفناها ففي الغالب ــ أيضا ــ انها تكلفنا تغيير عادة من العادات ، وليس أصعب على النفس من تغيير مـا اعتادت ...

فالموت نفسه لا صعوبة فيه لولا أنه يغير مـا تعودناه ، وفراق الموتى لا يحزننا لولا أنه تغيير عادة أو عادات كثيرة .

وقد كانت الحقيقة انهما ــ أي صاحبنا وصاحبتنا ــ قد تغيرا كثيرا بعد أن مضت على صحبتهما برهة من الزمن ، ولكنهما لبثا برهة أخرى من الزمن وهما لا يريدان أن يعترفا بهذا التغيير .

تغيرا فلا سرور لهما في اللقاء ، وقد كان اللقاء عندهما أكبر سرور يشعر به الانسان .

ولكنهما لم يزالا يتلاقيان .

■ □ ■

تغيرا واشتد بهما التغيير وهما لا يجسران على مواجهة الحقيقة ... فلو سأل نفسه هل يريد اللقاء حقا أو يريد الفراق لما استطاع الجواب ، أو القال في نفس واحد أنه يريد اللقاء ويريد الفراق .

ولو سألت هي نفسها هذا السؤال لكان جوابها أنهـا لا تعلم لماذا تحضر في الموعد كل يوم ، ولماذا لا تفضل الانقطاع على الحضور .

هو لم يجزم بخياناتها كل الجزم فلماذا يتركها ؟ ... ولكنه لا يسر بلقائها فلماذا يلقاها ؟

وهي لم تيأس من صلاح شأنه معها ، أو لعلها لم تيأس من قدرتها على خداعه ويعز عليها ان تتهم نفسها بهذا العجز وهـي تفخر بذكائها ، فلماذا تفقد الثقـة بحيلتها وبراعتها واقتدارها ؟ ولماذا لا تجرب كياستها مرة بعد مرة حتى تنجح أو يستوي لديها الفشل والنجاح ؟

وهكذا ظلا أشهرا عديدة يمثلان سعادتهما الاولى ويخرجان من مسرح التمثيل كل يوم راضيين أو ساخطين ، وخير ما وصلا اليه في تلك الفترة الطويلة أن يظفرا بالتصفيق مـن المتفرجين ... وهمـا وحدهما المتفرجان والممثلان !

وكلما حان موعد اللقاء ذهبا اليه كما يذهب الممثل الى حضور تجربة جديدة بعد أن فشلت تجربته السابقة ، ولا بد له من الذهاب ، ولا سرور له في القعود والاحجام والتسليم بينه وبين ضميره أن الذهاب لا يفيد .

لقد كانا يحضران الى الموعد بحكم العادة التي لم يجسرا بعد على تغييرها ، لانهما كانا يخافان من التفكير في التغيير ، ويخافان من التفكير

في ذلك الخواء الموحش الذي يستولي عليهما لا محالة بعد ذلك التغيير •

فهما يحضران لانهما خائفان مــن الغياب ، لا لانهمــا راغبان في الحضور •

أما قبل ذلك فما أبعد الفرق وما أهول الاختلاف وما أحب اللقاء بعد طول الانتظار ، وان أطول أمد لهذا الانتظار ما كان ليزيد على يوم واحد ، أو بعض يوم في معظم الاوقات •

كانت الساعة الخامسة كأنها علامة موسومة في مدار الفلك بالشهب والكواكب والهالات ، وكان صاحبنا يتعجل الوقت قبــل حلولها بربع ساعة فيلتزم مكانه وراء النافذة لينظر من ثقوبها الى منعطف الطريق حيث يلوح القادم أول ما يقبل على الدار ، وكثيرا مــا كانت الغيوم تكفهر والغيوث تنهمر والهواء يعصف باردا قارسا في صبارة الشتاء ، وصاحبنا واقف وراء النافذة قبل الموعد بربع ساعة يوشك وهو وجل منقبض الصدر غائم الخاطر أن ييأس من وصول صاحبتنا في موعدها ، ولها العذر كــل العذر اذا هي تأخرت ساعات أو عدلت عن الخروج طوال ذلك اليوم ، ولا يزال في مرقبه نهبا لهذا الوسواس لمحة بعد لمحة كأن الزمن قد استحال الى أجزاء تعد بالملايين وملايين الملايين لا بستين دقيقة في الساعة وستين ثانية في الدقيقة ! ! وكلما تقدم جزء من هذه الملايين تضاعف الوجل وتفاقم الحذر واختلجت الهواجس المثيرة كما تختلج الذرات في قارورة يرجها الشلال الدافق اعنف ارتجاج • وبعد مليون جزء من أجزاء الزمن تقترب الساعة الخامسة فاذا هي الساعة الخامسة الا عشر دقائق ! وبعد مليون آخر ثم مليون ثــم مليون تقترب ثم تقترب فاذا هــي الساعة الخامسة والدقيقة الثانـية ••• والويل له اذا تجاوزت هذا الحد ولو الى دقائق

معدودات ، لان الدقائق المعدودات لا بـد أن تترجم في لغـة الانتظار والهواجس بالملايين بعد الملايين التي لا يجمعها الحصر والاحصاء ، وانـه ليطيل النظر الى الطريق حتى يعتريه شبه غيبوبة لا يحقق الناظر فيها ما يراه تحت عينيه ، فما رآها مرة بعد هذا الانتظار تهل من مطلع الطريق الا كما يرجع الى النائم صحوه أو كما يرجع الى المذهول رشاده ، وتتقدم وهي تتهادى في خطواتها التي كأنما تتهيأ كل خطوة منها لعناق مشوق ، وينفتح الباب وينقسم العالم الى قسمين اثنين لا ثالث لهما في الذهن ولا في الخيال : قسم فيه كل شيء وقسم ليس فيـه من شيء ••• أو قسم موجود وقسم ليس له وجود ، والبيت هو القسم العامر الزاخر الحافل الوهاج ، والدنيا هي القسم المهجور الذي لا تتسع قاراته وبحاره ومن فيها وما فيها من السكان لاوسع من مكانها في خرائط الاطفال •

والذي يحدث في الشتاء قد كان يحدث مثله في الصيف أيام السموم والحرور • فلا تأخير ولا اعتذار ، ولا سلامة مع ذلك من قلق الانتظار ، حتى يحين الموعد ويستقر القرار •

في تلك الايام كانت كل هنيهة لها شعورها المحبوب المتجدد البهيج : اذا انفتح الباب للقاء فذلك شعور القائد الذي يفتح باب حصنه ليتلقى نجدة الامان والاطمئنان الى زمن طويل وليطرد المخاوف من وراء ذلك الباب الى مهرب سحيق ، واذا انفتح الباب للوداع فذلك شعور الشارب الذي استوفى نصيبه من العقار وبقي له نصيبه من النشوة والتذكار ، ونصيبه من الشوق في الغد الى مثل هذا اللقاء ومثل هذا الوداع ومثل هذا الانتظار ، وبين لقاء كل يوم ووداعه ألف لقاء ووداع وألف انتقال من حال الى حال ، وألف سكينة وألف ابتدار •

تلك أيام !

ثم جاءت بعدها أيام .

وشتان أيام وأيام .

نعم شتان حقيقة وتمثيل ... وأي تمثيل ؟ ! تمثيل اللاعب الذي يساق الى دوره سوقا لانه يخشى الفشل لا لانه يأمل النجاح .

واستمرت المواعيد ، واستمر اللقاء ، واستمرت السآمة ، واستمر الشقاق ، واستمرت مع كل ذلك محاولات عقيمة مستميتة أن يعود ما لا سبيل الى أن يعود .

وكانت هي تقلد نفسها في أيام الصفاء فتمد يدها الى جيبه بعد عاصفة من اللوم الجارح والملاحاة الموجعة كما كانت تمدها الى جيبه بعد ساعات الرضى والدلال لتخرج منه المفكرة المعهودة وتكتب فيها أسطرا أو كلمات تسجل بها ما كان في ذلك اليوم ، فكتبت يوما بعد مقابلة لم يسمع فيها الا جدال ومحال أو سكوت هو أثقل من الجدال والمحال : « نزهة رسمية في عربة . ثم مناقشة جدية . ثم مصافحة وتقبيل ، ولا عجب في ذلك ... فان الحب يسهر ! » .

نعم يسهر من الأرق لا من العناية !

وسهر الحب الى اليوم التالي فالتقيا وتراضيا وتناولت هي المفكرة وكتبت فيها خمس كلمات : « سامحت من غير سبب . أحبك » .

ولكنها كانت آخر ما كتبت في مفكرة ذلك العام ، وفيما بعده من أعوام .

ومن الناس من يستطيب أمثال هذه المقابلات ولو لم يكن فيها الا تمثيل ناجح أو تمثيل فاشل ، وصاحبنا خليق أن يكون واحدا من هؤلاء

الناس لـــو اقتصر الامر على الفتور والتكلف والمناقشة والملال ، ولكن الشيء الذي لا يطاق هو أن تشك ثم لا تستطيع أن تصل الى الحقيقة ، ولا أن تكف عن الشك ولا أن تستقر عليه ، فانها حالة لا يطاق لها دوام ولا بد لها من انتهاء •

فكيف هذا الانتهاء ؟

أول ما اتفقا عليه أن يتفاهما على الفراق أسبوعا أو أسبوعين ريثما يعرفان كيف يكون صبرهما على هذا الفراق القصير ، ويعرفان من ثـــم كيف يكون صبرهما على الفراق الحاسم الذي لا لقاء بعده • فإن هان عليهما بعد هذه المحاولة أن ينفصلا بسلام فلينفصلا اذن بغـــير ندم ولا خصام ، وان عزت عليهما القطيعة فعسى أن يكون الاشتياق الـــى اللقاء فاتحة الرغبة الصادقة من جديد ، وعسى أن يفهم كلاهما من مكان صاحبه عنده ما ينهاه عن مطاوعة الهواجس ومجاراة الشكوك •

وقد استفادا من هذه المحاولة العسيرة فائدة لا يحتقرانها بعد طول السآمة وطول النزاع ، فان اللهفة الصادقة التي طغت عليهما يوم عادا الى اللقاء قد عادت بهما الى حنين شبيه بالحنين القديم ، ونعما في ذلك اليوم بمتعة هنيئة لم ينعما بها منذ عهد طويل •

ولما شيعها الى الباب وهو يقول الى اللقاء في الغد قالت : لا ••• ان اللقاء بعد يومين أو ثلاثة أمتع وأشهى ••• وسأخبرك أو تخبرني عن الموعد متى طلبناه ••• ولا نتفق عليه الآن !

واستحسن منها هذا التسويف كما كان من قبل يستحسن منهـــا نشاطها في تعجيل المواعيد ، وود في خلده لو يتأجل اللقاء خمسة أيام أو ستة لا يوما أو يومين • ففي ذلك فطام للهوى وشحذ للشوق والرغبة ،

وامتحان لقوى النفس يسبر غورها ويلذ فيه حب الاستطلاع .
الا أنها محاولة قصيرة لم يكتب لها العمر المديد .

فما هو الا موعد أو موعدان حتى أحس كما يحس كل رجل يفهم طباع المرأة التي يهواها أنها لم تحافظ على وفائها ولم تعصم جسدها أيام الغياب ، وأنها أصبحت ترحب بالتسويف لانها تريده وتستريح اليه ... ورجع الى ذاكرته يفتش لعله يذكر هل هي التي اقترحت في باديء الامر أن يعالج الشك بالتسويف والمباعدة بين المواعيد أو هو الذي بدأ بالاقتراح ، فتذكر أنها كانت تحوم حول الاقتراح وتوحيه اليه وتهتم بأن توقع في ذهنه أنه هو صاحبه وموحيه ... فقال لها متهكما :

أرى أن الحل الاخير الذي اهتدينا اليه يرضي أكثر من اثنين ! !

قالت : ماذا تعني ؟

قال : أعني أنه ربما أرضى ثلاثة بدلا من اثنين ، وربما أربعة ... من يدري ؟

قالت متهكمة : وربما خمسة أو ستة ... زيادة خير ... ولماذا تكره الرضى لعباد الله ! ؟

وتلا هذه المحاورة منظر من مناظر المسابقة في الايلام والتبكيت والغضب والاغضاب . قال فيه وقالت ، وتمادى فيه وتمادت ، وباح فيه وباحت ، وخرجت من المنزل حانقة لا تودع ولا تسلم ولا تعد بلقاء مؤجل ولا بلقاء سريع .

■ □ ■

وانقضت مدة لا يسمع منها ولا تسمع منه ولا يسعى اليها ولا تسعى اليه . ونازعته أهواؤه مرات في أثناء هذه المدة أن يراها وأن يتحدث اليها

فنفر أشد نفور وكظم هذه الرغبة بجهد أليم • وبينما هو يحسب نفسه غاضبا نافرا اذا به يتحول رويدا رويدا الى مشفق حزين ، واذا باشفاقه الحزين أقرب الى اشفاق الابوة الرحيمة منه الى اشفاق الغرام اللجوج ، واذا به في ساعة من الساعات يكتب اليها هذا الخطاب :

أيتها الصديقة :

أيا كان رأيي فيك أو رأيك في فلا ضير في ارسال هذه الكلمة اليك ، ولا خسارة علي ان ضاعت عندك أو صادفت نصيبا من الاصغاء •••••• ان مسحة من الالم ألمحها على وجهك تخيل الي أنني أخاطبك منك مستمعا ، وأن موضعا حيا في ضميرك لا يزال مفتوحا لهذا الخطاب •

لا حاجة الى البحث في تفاصيل حياتك القديم منهـا أو الجديد ، فحسبي ما سمعته من لسانك ، وحسبي أنكُ تعترفين لي أنا بعلاقات ماضية مع أكثر من رجل واحد • وفي هذا كفاية وفوق الكفاية !

فلو قيل لي انني سأسمع هذا الخبر من انسان لما خطر لي قط انني أسمعه منك أنت باختيارك ، ولو جاز أن تبوحي به لكل اذن لكانت أذني هي الاذن الوحيدة التي يجمل بك أن تكتمي السر عنها ، لانني أنا الرجل الوحيد الذي يرى لك كرامة غير كرامة جسدك ويحب أن يعرف لك قيمة أكبر من هذه القيمة •

ومع هذا بأي بساطة كنت تتحدثين عن علاقاتك بالرجال وخلوتهم بك هنا وهناك ••• لكأنما كنت تفخرين •• أو كأنما كنت تشفقين من كتمان هذا الحظ السعيد ••• فيا صديقتي لشد ما ضللك الشقاء حتى جهلت ما تعرفه المرأة بالفطرة بغير حاجة الى تعليم وتلقين ، وحتى نسيت أن المرأة تستطيع أن تكون لهذا ولذاك ولكنها لا تستطيع أن تفخر بشيء

لم تعجز عنه امرأة بين النساء . فهل أصدق حقا انك أنت تلك المرأة التي لم يبق لها الا هذا الفخر المخجل الاليم ؟ وهل أنت حقا تلك المرأة التي تجد سعادتها في هذا المجال ؟ !

أظن ـ وأرجو أن يكون ظني صحيحا ـ انك تخدعين نفسك يا صديقتي الخادعة المخدوعة .

لست أنت التي تشعر بالسعادة في هذه العيشة الاسيفة .

غيرك من النساء تنعم بها وتستطيبها ولكن شقاءك أنت بها لا يعدله شقاء .

انظري الى وجهك في المرآة . انظري الى ألم ضميرك الذي يبكيك كثيرا ولا ريب في ساعات الوحدة والانفراد .

ثم اسألي نفسك : ما نهاية كل هذا وما العاقبة وما المصير ؟ لو بقيت على هذه الحالة سنة واحدة لفقدت جمالك في عنفوان شبابك وفقدت كل ثقتك بنفسك واحترامك لشعور الانوثة الذي لا سعادة لامرأة بغيره . وماذا في الحياة بعد فقد الثقة وفقد احترام الشعور ؟ أنت في تلك الحالة بين اثنتين : اما أن تألفي العيشة التي تؤلمك الآن وهذا هو موت النفس الذي يموت به كل سرور صحيح .

واما أن تتعذبي بها أبدا بغير عزاء يهون عليك فقد الصحة والنضارة ، وأنت انما تفرين من العذاب وتطلبين الراحة والاطمئنان .

أنت تتألمين ولكنك تجهلين ما يدفع عنك هـذا الالم المخيف ... فاذكري نوبات الحيرة وتبكيت الضمير التي كانت تساورك حين تحضرين الي ، واذكري كيف كنا نفترق وقد هدأت نفسك بعض الهدوء واستراح ضميرك بعض الراحة ... كان اهتمامي بك حتى بالغضب عليك يفرج

شيئا من الضيق الذي يسد عليك منافذ الامل ، لانه يعطيك فكرة عالية في نفسك ، فيعزيك ويقويك ويرفع عنك ذلك الصغار الذي يسمم كل شعور وينغص كل نعيم •

اذكري كيف كان وجهك يشرق بالبشاشة من عهد قريب وكيف ظهر ذلك على صحتك وملامحك فسألتني في يوم من الايام بين الجد والمزاح : أصحيح : أصحيح أن وجهي يمتلىء ويحلو ؟ كان ذلك وأنت تشعرين الى جانبك بنفس انسانية تحنو عليك وتفكر فيك وتجتهد في عذرك ما استطاعت ، وترعاك في الغيبة والحضور ، وهذا أحوج ما تحتاج اليه المرأة خاصة في هذه الحياة •

فكل امرأة — كل امرأة بلا استثناء — في وسعها أن تجد رجلا يأخذها جسدا ويطرحها سائما بعد حين بلا أسف ولا شكر ولا احترام •

ولكن ليست كل امرأة واجدة تلك النفس العطوف التي تفهم الدنيا وتفهمها وتحب لها الخير لغير غاية وتهتم بها وحدها بين جميع الناس وتراها أهلا للرضى والغضب والشكر والملام •

أنت أم فاذكري ذلك جيدا •

أنت فتاة ذكية متعلمة حساسة يقل بين الفتيات مثلك في هذه الصفات ، فلا تنسي عزتك التي تليق بك ولا تنزلي قدرك منزلا لا ترضاه لقدرها كل فتاة ، واسألي نفسك مرة أخرى : هل وصلت امرأة الى العاقبة المخيفة — الى المرض والهوان — من غير هذه البداية ؟ وهل وصلت امرأة الى تلك العاقبة وهي تظن أنها واصلة اليها أو أنها قريبة منها ؟ كلا ! •••
كلهن يا صديقتي يحسبن أن النهاية بعيدة وأن الاحتراس كاف للامان الدائم والنجاة من عاقبة غيرهن • والعاقبة واحدة على كل حال !

ولست أنت لسوء حظك كأولئك النساء اللواتي تحوطهن حمايات كثيرة وقرابات مشتبكة تستر العيوب وتضلل الشبهات •

فأنت في حياة التجرد والانفراد عرضة لكل شيء وفريسة رخيصة لكل واش أثيم ، وكم جنى عليك حرمانك من أنس القرابة الشفيقة وحنان الام الرؤم ومعيشة الزوجية الهائنة ، فخسرت السعادة وأفسد عليك اليأس عاطفة الرحمة والاخلاص •

ولكن هل من الضروري لك أن تجني أنت أيضا على نفسك بيديك فتسلبيها حتى سلوة الالم الشريف واباء الحرمان العفيف ؟ وهـل يبقى حرمان فوق حرمان المرأة التـي لا تعرف السعادة ولا تعرف الالم الذي تحترمه هي ويحترمه الناس ؟

أنا لا أيأس على الرغم من كل شيء ••• بي من عطف عليك وعلم بحقيقة نفسك الضعيفة الطيبة و « ظروفك » السيئة ما يمنعني أن أنظر اليك نظرة قاسية •

وما تمنيت ولا أتمنى شيئا كما أتمنى أن أراك بعين الاعجاب والفخر والمحبة • ولكنني أقول لك وأنا آسف : ان فقدك لـم يكن هينا علي في وقت من الاوقات كما هو هين علي الآن • فاذا كتبت اليك هذه الكلمة فانما هي كلمة صديق يريح ضميره وواجب أخير لا بد من أدائه ، واذا أبيت الا أن تفهمي لها معنى من معاني الانانية فافهمي اذن أنهـا كلمة انسان يذكر برهة من حياته ويود أن يحتفظ بهذه الذكرى نظيفة شريفة الى آخر أيام الحياة •

والوداع ، والسلام •

الرقابة

لماذا كتب ذلك الخطاب ؟

انه لم يستوضح نفسه سببا لكتابة ذلك الخطاب وهو يفكر في كتابته ، ولا استوضحها السبب وهو يكتبه ويسلمه الى الرسول الذي تعود أن يسفر بينهما بالرسائل . ولكنه جلس بعد كتابته يسأل ويعجب : أي خاطر ذلك الخاطر الذي ورد على باله وهو يحسب أنه واصل الى نتيجة ترضيه من كتابة هذه المواعظ ؟ أيظن أن خطابا كهذا قد يثوب بها الى الوفاء والاخلاص ان كانت تخون وتخدع ؟ أيزعم ولو على سبيل الوهم البعيد أنها تتمظ وتندم لانها تقرأ كلاما كهذا الكلام وتروي النظر في مصير كذلك المصير ؟

آخر ما يطمع فيه العاقل أن يظفر بهذه النتيجة من امرأة يميل بها الهوى ويوسوس لها شيطان الخداع ! فكيف بصاحبتنا التي يعرفها حق عرفانها ويعرف أن الكلام لا يستحق عندها الهزؤ والتحدي بمزية أفضل من مزية الوعظ والتذكير ... انها تريد أن تثور وتجمح ، ولا شيء أقمن باشباع شهوة الثورة والجماح من مخاطبة الانسان بكلام يصدر عن العقل ويلبس ثوب النصيحة والهداية ! وان الرجل من رجال الدين ليستحق

عندها كل اكبار وتبجيل لانه يخالف في حياته الخاصة ما يعظ به الناس في حياته العامة ، وقد خاضا في حديث بعض « الائمة النساك » مرة فقال لها : لست على يقين أن مولانا هذا يحب السماء والآخرة . ولكني على يقين من حبه الارض والدنيا ... ألا تعلمين ذلك ؟ ... قالت أعلم كل العلم . بل أعلم أنه يحب فلانة وفلانة وفلانة وفلانة ... غلطان أنت يـا صديقي ان حسبت أنك تغض من « مولانا » بما اتهمته . ان خفاياه تلك لهي التي تعجبني منه وتكبره في نظري وتحملني على تقبيل يديه ، وانني ما سمعت عظاته يوما الا استعظمت منه أنه قادر على مخالفتها . ثم راحت تقول مازحة ــ وكانت كلمة غلطان يا صديقي من لوازمها في الحديث ــ : غلطان أنت يا صديقي ان حسبت أن المرأة تنقم على رجل الدين أنه يدع السماء من أجلها !

قال : وما رأيك في الراهبة التي تترك السماء من أجل رجل ؟ ألها عندك مثل هذا المكان من الاعجاب ؟

قالت : ان الراهبات لا يعظن أحدا ، واللعبة تفقد كثيرا من بهجتها بهذا الدور البسيط الذي تمثله الراهبة الغاوية : وأعني بـه دور الوجه الوحيد ! !

اذن ما أضيع الوعظ عند صاحبتنا التي لا تعجب مـن الوعاظ الا بقدرتهم على الوعظ وقدرتهم بعد ذلك على نقض المواعظ .

نعم انهـا تتذوق الكلام وتعطيه « درجته » العادلة مـن التقريظ والتأثر ، ولا يبعد أن تبكي اذا كان فيه ما يحرك الشجن ويستدر الدمع ، ولكنها لن تزيد على ذلك ، ولن تخلط بين التقدير الفني والنتائج العملية ! ولو كانت في موضع السلطان العثماني « سليم الاول » لبكت من قصيدة

الشاعر الذي تشفع لديه بالشعر البليغ ليعفو عنـه ، ثم أمرت كما أمر بسوقه الى ساحة الموت عقيب انشاده القصيدة : لان الفن شيء والسياسة شيء آخر ! !

أم ان صاحبنا ــ وليكن اسمه « هماما » وليكن اسمها منذ الآن « سارة » لتيسير الكلام عنهما ...

أم أن صاحبنا « هماما » قد شاقته الفتاة بعد الفراق القصير ولم يشأ أن يعترف بشوقه ولا أن يستدعيها اليه صراحة فعمد الى كتابة الخطاب ليفتح باب الحديث فاللقاء ... ؟ !

لا . ولا كل هذا .

ان «هماما» لم يكن من دأبه أن يقصر في مراجعة نياته ودسائس طبعه، ولقد يغلو في ذلك حتى يعزو الى نفسه من المقاصد ما ليس في حسبانه ، ولكنه ــ غلا أو لم يغل ــ مـا كان في وسعه أن يزعم أنه بحاجة الـى تلك الحيلة لتدبير اللقاء دون استدعاء . فاللقاء لم يكن بالشيء العسير ، ولم يكن بينهما بعد من القطيعة مـا يلجىء الى الحيلة والمناورة ، ولعل انتظاره الهداية من توجيه ذلك الخطاب أقرب الى التصديق من التذرع به الى تدبير لقاء .

السبب في الحقيقة أنه لا سبب هناك .

السبب هو الحيرة الملحاح التي تستحثنا الى كل عمل مستطاع دون أن نستوضح أنفسنا عن علة معقولة أو نتيجة مأمولة . وكل من حار هذه الحيرة يوما يذكر أنه فعل شيئا لا علة له ، ولا هو يقبل التعليل :

كذلك يفعل الاب الذي يرى بين يديه ولدا مريضا ميؤسا من شفائه وهو لا يستقر الى التسليم ، وكذلك يفعل المحرج الذي يرى أن العمل

واجب لانه خير من سكون لا صبر له عليه ، وكذلك يفعل الذي لا بد أن يفعل ، لانه بالفعل يستريح . أما بالسكون فلا راحة ولا أمل في الراحة .

وأتبع وصول الخطاب حديث بالتليفون .

لم يكن هذا الحديث بالمقصود ، ولكنه لم يكن كذلك بالمكروه ولا بالمرفوض .

وأتبع الحديث موعد وزيارة .

وجاءت في الموعد وهي تبدو بتلك الطلعة التي يعهدها منها بعد كل مغاضبة وقبل كل مصالحة : طلعة السفير الذي يدخل المملكة الغريبة ولا يدري أحرب أم سلام ، فهو لا يبرز القوة ولكنه يتقي أن يبرز الضعف ، ولا يحمل غصن الزيتون ولكنه مستعد به في الحقيبة المغلقة ، ولا يتجهم ولكنه لا يتطلق ويتبسط ... فلم تتهيأ للموعد بزينتها التي تعلم أنها تروقه وتستجلب هواه ، ولكنها لم تهمل زينتها اهمال المعرض قليل الاكتراث ، فهي زينة صالحة مع قليل من الاعتذار ، واذا وصل الامر الى هذا فأي اعتذار لا يغني غناه ولو جاء عفو الساعة ؟ !

وكان من دأبها أن تختلس رضاه وتحطم الحواجز بينها وبينه بسلاح من سلاحين : بالدعابة والتهكم ، أو بالاسى والتضعضع . فأما في هذه المرة فسلاح الاسى والتماس الشفقة لن يلائم مظهر السفارة التي تتردد بين الحرب والسلام . فدخلت من الباب وهي تشهر سلاح التهكم والمناوشة ، والتفتت وهي داخلة كمن ضل الطريق وأفضى به السير الى غير المكان المتوقع ، فقالت وهي تلقي بقبعتها :

من أكبر العجب انني وصلت الى هنا ولم أصل الى المعبد !

قال «همام» في سره : ويحك ! هذه تحية وعظك ! ثم أجابها من نمط تحيتها قائلا :

معبد ؟ استغفري الله يا أمة الله ! ! وهل تستطيع قدماك أن تحملاك الى المعبد ولو قادك اليه ألف دليل ؟

قالت ولم تتريث : انه لتقريظ حسن لبيتك أن يكون هو المكان الوحيد الذي تحملني اليه قدماي ! !

قال : وهل تحسبينني أغتبط بهذا التقريظ ؟

قالت : معاذ الله ، ولا سيما وأنت بخطابك صاحب دعوى في الهداية والارشاد لا تقل عن دعوى أهل الصناعة ... ومع ذلك لا أظنك آسفا لهذه الغلطة .

وبدأ في نغمة الدلال بعدما أنست من لهجة الحوار ان الساعة ساعة غصن الزيتون لا ساعة السيف . ثم دنت منه تقبله فقبلها وضمها وأجلسها وجلس الى جانبها وهو يغمغم متخاذلا : لو أنها غلطة قدمين يا «سارة» ؟ !

قالت غلطة قدمين أو غلطة يدين ، ألا تستطيع أن تتعلم «الربوبية» ساعة وتغفر الزلات ؟

وضحكت ضحكة حلوة خبيثة مسترسلة ليس لها معنى الا أنها تقول فيها : أنا أعرف كيف أرضيك ؟ أليس كذلك ؟

فجاراها في الضحك وقال لها بلهجة المستظرف والعاشق معا : وهل احرص عليك يا ملعونة الا لهذه الحذلقة ؟ متى علمت أن ربا من أرباب الاساطير غفر الزلات لشريكة قلبه ! انما يغفرون للمخلوقات التي تخون المخلوقات من أمثالها ، اما « الخيانة العظمى » فأين هم الارباب الذين يغفرونها ؟

■ □ ■

وأطمأنت الى مكانها ، وشعرت أنها في بيتها ... نعم في بيتها لا في

« سفارة » تقبل عليها غريبة وتخرج منها مقبولة أو مريبة ، فوثبت من جانبه كما يثب الطائر بلا تنبيه ولا انتباه . الى أين ؟ الى « الرشاش » كعادتها في كل زيارة بلا اختلاف بين صبح ومساء وصيف وشتاء ، لانها لا تميز الفصول كما تقول الا بالتقويم وجريدة الازياء !

أفي هذه تريد التفريط يا همام وهي في قبضة يديك ؟ لا يا صاح ! لست معك في هذا ... انما التفريط فيما يعوض ويستبدل فأما الذي لا عوض عنه ولا بديل له فان احتمال الاذى فيه لخير من احتمال ضياعه واللهفة عليه .

وانه لفي هذه المناجاة اذا هي تتهادى وتنفض شعرها كما تنفض الفرس الكريمة عرفها ، واذا هي أمام المرآة مصقولة ندية كالثمرة الناضجة في شعاع الفجر البليل ... وكالشيطان !

منذ الازل وقفت هذه الفتنة الى جانب ووقف الى الجانب المقابل لها حكماء الارض وهداتها مشترعوها وأصحاب النظم والدساتير فيها ، وقالت هذه الفتنة كلمتها وقال الحكماء والهداة كلمتهم ، ونظرت ونظروا ، ووعدت وأوعدت ووعدوا وأوعدوا . وأمامك الناس جميعا فاسألهم واحدا واحدا : كم مرة سمعتم هذه وكم مرة سمعتم هؤلاء ، وأنا الضمين لك ان في تاريخ كل انسان مرة واحدة على الاقل سمع فيها لهذه الفتنة ولم يسمع معها لحكمة الحكماء ولا لشيء من الاشياء .

ليست هي المرأة المسموعة هنا ولكنها هي الطبيعة .

والمرأة والرجل والحكماء والحكمة ألعوبة الطبيعة التي لا تسأم اللعب ، ولا تعرف الجد لانها لا تعرف التعب . وربما كانت المرأة أضعف هذه الالاعيب كما يكون الطعم أضعف من السمكة التي تأكله ، وان كان

الطعم ليقودن السمكة الى الهلاك •

ومن القاضي الفاصل بين الطبيعة والحكمة ؟ انما القضاء لمن ينتظر منهما الحجة الاخيرة والنتيجة الخاتمة •

ولكن ليس للطبيعة انتهاء •

فهي في جميع الازمان صاحبة القول الاخير •

في ملحمة الصراع بين الفتنة والحجى ينسى الانسان ما لا ينسى ، ويخطر له الاغضاء عما يشهده بعينيه ويثبته ببرهانه ، ولقد خطر هـذا لهمام في تلك اللحظة ووسوس له الهوى أن ينزل بتلك المرأة الماثلة أمامه الى حيث ينسى خياتنها ولا يذكر الا متعتها • فتمنى في تلك اللحظة أمنية غريبة : تمنى لو كان حبه لها أمل ، وماضيه معها أقصر ، وشرطه عليها أقرب وأيسر • اذن لاكتفى منها بما تعطيه ، واستبقاها على شرطها ومرامها لا على شرطه ومرامه •

اذ الرجل الذي يهب للمرأة ساعة من يومه يكتفي منها بساعة مـن يومها ، ولكن هل يكتفي منها بتلك الساعة وهو يهب لها ساعاته وأيامه وينسج حولها ماضيه وحاضره ، ويحجب بيديه ضياء المستقبل الذي يطلع عليهما مفترقين كأنه يطمع من الدنيا في غرام بغير فراق ؟

ان الابن لن يكون ابنا أو نصف ابن • وان التحفة النفيسة لن تكون صحيحة أو نصف زائفة ، فهي امـا صنعة الفنان المنسوبة اليه والفترة المردودة اليها أو هي ليست بصنعته على الاطلاق •

فلا تقريب ولا توسط في هذه الامور •

وهذه المرأة ، بل هذا العالم الحاشد من النساء لأن كل لحظة مـن لحظاته معها تمده بنسخة منها قلما تختلط بأخواتها ، هذه المرأة التي لا مرأة غيرها كيف يرضاها ولديها رجل غيره في ابان هواها ؟

ليست الحكمة هي التي تتكلم هنا ولكنها هي الطبيعة ، ومن ذا يقاوم الطبيعة في غوايتها غير الطبيعة في ثورتها ؟؟ ان الصراع هنا بين ندين متكافئين ، والويل للفريسة المطرودة بين الندين .

لا ! سأحتفظ بهذه التحفة وأصونها جهد ما في وسعي من احتفاظ وصيانة ، ولكنني لن أحتفظ بها الا تحفة نفيسة .... فاذا بعتها فلن أبيعها الا وقد ايقنت أنني غير مغبون فيها اولا نادم عليها تحفة بين يدي لا شك فيها .

أقول حينا انها تحفة نفيسة فليس في كنوز الارض ما يعدلها ويقوم بثمنها

وأقول حينا أنها تحفة زائفة فلو بعتها بدرهم لما كنت بخاسر

وهذه هي الحيرة . فقولي يا حكمة الحكماء ويا هداية الهداة ، وقولوا لي يا صيارفة هذه الجواهر ويا دهاقين هذه المعادن ، ويا من يستطيعون أن يضعوا المنظار لحظة واحدة وراء هذه العين اللامعة فيلمحوا هنالك الفارق الهائل بين ما يباع بدرهم وما ليس يباع بكنوز الارض وذخائر البحار

لا ! لن أبيعها الا بدرهم . فان كانت الاخرى فلا بيع ولا شراء :

« لما غلا ثمنى عدمت المشترى »

نعم وعدمت البائع أيضا ...

هذه هي الحيرة فكيف الخروج منها ؟ لا حاجة الى اكثر من نظرة واحدة لتسويم هذه الجوهرة . فمن ذاك الذي تتاح له تلك النظرة ؟

كان همام في تلك الايام يقرأ رواية « سيدة الاكاذيب » للكاتب الفرنسي الكبير بول بورييه ، ولعله قرأها لعنوانها وما يرجو ان يطلع عليه من أكاذيب سيدتها ... وفي الرواية امرأة لعوب من نساء الاسر المترفات ، وزوج متغافل وعاشق كهل يبذل المال والحلى والهدايا ، وعاشق ناشيء يبذل شبابه وجماله وطرافة هواه ، وكل من هؤلاء راض بنصيبه

الا العاشق الفتى الذي يتنطس ويتوجس ويلح في كشف الاسرار فيعمد الى الرقابة ولا يلبث أن يخلص الى الحقيقة

فما الرأي إذن في الرقابة ؟

ان نظرة من رقيب أمين لتغني عن كل صيارفة الجواهر الذين يسومون معادن الوفاء وليس لهم معيار واحد يبطل فيه الخلاف ... فان لم يكن من الرقابة فلتكن الرقابة ، ولكل شيء من جنسه آفة !

وأثلجت تلك الخاطرة صدر همام وان كانت قد غضت من سروره باللحظة التي هو فيها ، ومن أين يخلص السرور وبينك وبينه رقيب ؟

تتابعت الخواطر عدوا دراكا في رأس همام وهو يتأمل الفتنة الماثلة أمام المرآة ويتنامى شغفه بها كلما تمادى في تفتيشها واستقصائها ، ولم تستغرق كل هاتيك الخواطر منه الا ريثما فرغت « سارة » من تسريح شعرها وتجفيف اهابها ، لانه كان يستعرض هاتيك الخواطر كما يستعرض صفحة مفتوحة بين يديه يحيط بها في نظرة واحدة ، ولم تكن خواطره لتشغله عن كلمة من هنا وتعليق من هناك جوابا لما كانت تعابثه به من الملاحظات والمناوشات غير أنها فطنت لما يجول في خلده وادركت انه ليس معها بجميع قلبه ولسانه ، واشفقت أن يستطرد ويستطرد فتتسع المسافة بينهما . فاستدارت اليه من المرآة متفترة متكسرة ، ومدت جيدها وثنت أعطافها وقالت : اراني متعبة .أريد ان اذهب أو أريد ان انام

■ □ ■

وانقضى اليوم بسلام ، ونسيا او تناسيا خطاب « الوعظ » بعد ما كان من عبث التحية الاولى ، ونزلت سارة وهي مستريحة مستبشرة خفيفة القلب والطوية لا يبدو عليها أثر من التكلف والرياء ، ومن داب المرأة اذا انتعشت حواسها أن تخف وتنشط ولا يثقل على ضميرها عبء من الاعباء ، وهذا الذي يلوح للرجل في صورة البراءة فينخدع ، أو

هذا الذي يسمونه احيانا بعمق المرأة وقدرتها على اجادة الرياء واخفاء ما في الطوية ، وانما هي خفتها كالطفل الذي تأخذه حماسة اللعب فلا تحضره الشواغل ولا تثقله الدخائل ، وقدود « همام » لو يستطيع ان يخلط بين هذه الخفة وخفة البراءة ، وما هو بمستطيع . فليرجع الى الرقابة فهي مرجع الانصاف ومقطع الخلاف ، وفيها وحدها تسويم لتلك المتعة بكنوز الارض وذخائر البحار ، او بدرهم لا يندم عليه ملقيه في التراب

■ □ ■

وكيف الرّقابة ؟

صحت النية على الرقابة فلا مناص منها

وبقى امر الرقيب والعثور عليه

فمن يكون هذا الرقيب ؟

لم يشرع همام في بحث هذه المسألة حتى وضح له أنها مشكلة كثيرة الشعاب

فخطر له في بداية الامر ان يستعين برجل يؤدي هذه المهمة وينقده على ذلك اجرا يرضيه

ثم قلب الامر على وجوهه فرأى ان هذا الرجل المستأجر يحتاج الى رقيب عليه لضمان اخلاصه وجده وحسن التبصر في عمله . فاذا بغير رقيب فأغلب الظن انه يأتي في آخر كل نهار ومعه كشف طويل عريض بأجور السيارات والجلوس على القهوات ورشوة الخدم والبوابين ، ولا فائدة من جميع ذلك غير التضليل والمراوغة والتشويق لاستطالة الرقابة واغتنام الاجور

ثم تنقضي الايام وهو لم يعرف شيئا ولا أعان على معرفة شيء

وهبه عرف بعض الحقيقة او عرف الحقيقة كلها فهذا أخطر واخسر ... لانه يستغل معرفته كلما احتاج الى المال لابتزاز الاتاوات والانذار

بكشف الاسرار ، فيوما يهدد السيدة ويوما يهدد السيد ويوما يقارب الاقرباء والاولياء ويلوح لهم بما وراء الغطاء . ولعله يختصر الطريق من اوله فيطلع السيدة على مهمته ويفسد الامر فسادا لاصلاح بعده

رقيب اجير لا ينفع في هذه المواقف

ولن ينفع فيها الا الصديق الصدوق

نعم لا ينفع فيها الا رجل يعنيه ان يعرف الحقيقة ويؤمن قبل ذلك بأنها حقيقة تستحق عناءها ! فكم عندك يا همام من أمثال هذا الصديق ؟ مئات ؟؟ عشرات ؟؟ آحاد ؟؟

ان الناس يحسبون « الضيق » محك الصداقة الذي لا يكذب ولا يخيب

والناس في ذلك مخطئون

لأن الصديق الذي ينجد صديقه في الضيق قد يتخلى عنه وينقلب عليه في أعماق السريرة

وليست المعونة الصادقة هي المعونة التي تدخل في رقابة العرف او في رقابتك انت بينك وبين صديقك ، ولكنها المعونة التي لا حسيب عليها غير الضمير ، ولا باعث لها غير اتفاق الهوى وامتزاج الشعور

كثير من الاصدقاء يعينون أصدقاءهم في الضيق لان العرف يحمد لهم هذه المعونة ويتخذهم مثالا للامانة والوفاء وجميل الفداء

وكثير من الاصدقاء يعينون المرء على الشئون التي يشعر هو بمعونتهم او بتقصيرهم فيها ، لانه يحمد لهم ما صنعوا ويجزيهم بما أسلفوا ويرد لهم ما اقرضوا

اما الشؤن التي لا رقابة عليها للمرء ولا للعرف فالمعينون عليها أقل من القليل ، وهمام ـــ أو غير همام ـــ سعداء ان ظفروا من كل ألف صاحب بواحد فذ من هؤلاء الاعوان

في هذه الشؤن يستطيع الصديق ان يقصر وانت لا تشعر بتقصيره ،

وربما قصر ولم يؤمن هو بأنه مقصر ملوم ، لانه لا يؤمن بجنون العاطفة ونزوات الهوى .. فكيف يتقى مغبة التقصير ويصير في سبيل ذلك على الجهد العسير او اليسير ؟

واذا انكشف تقصيره فمن ذا الذي يلومه ؟ لعله يلقى يومئذ من المعذرة والثناء اضعاف ما يخشاه من العذل والمذمة

ذلك كله على أهون الفروض .

أما اصعب الفروض فهو ان تنقلب الرقابة الى مطاردة والمطاردة الى اقتناص .. وليس اصعب الفروض دائما بأبعدها واندرها في الوقوع !

حيرة جديدة « نجا » اليها همام من الحيرة الاولى .. والحيرة الاولى باقية كما كانت في موضعها القديم

وان هماما ليضرب اخماسه واسداسه ويبرح في ضربه وايجاعه اذا بالقدر يحل المشكلة العصية اسهل حل مستطاع ، واذا بالسماء تنفتح على حين غرة ويهبط منها الرقيب المنشود !!

ــ ماذا جاء بك يا أمين ؟

ــ جاءت بي اجازة ايام

ــ ويحك ! أنت طول عمرك تفصل من اعمالك بغير داع . أفما كان في وسعك هذه النوبة ان تنفصل فصلا نهائيا يا لئيم !

قال أمين وقد فوجىء : لماذا هذا الاستعجال على الفصل ؟ ما الخبر ؟

قال همام : الخبر أنك لازم لنا مدة طويلة .. أطول من ايام ... ولعلها اطول من اسابيع

وسرد له المسألة بأقصى مارآه صالحا من التفصيل والاسهاب ، فلم يكذبه حدسه ، واسرع امين بالاجابة والموافقة ، واوشك ان يسرع بالشكر والتهلل كأنه كان يتمنى ما اقترح عليه ، ووعد أن يأتي بقصارى جهده في هذه الايام القليلة ولا حاجة الى الفصل المألوف !

لم يكن همام قدنسي أمينا في مشكلة الرقابة ، وليس أمين بالصديق الذي ينسى في مشكلة من قبيلها ، لانه يؤمن بالواجبات الشعرية اشد من ايمانه بجميع الواجبات الانسانية ، وهو ذو اريحية ومروءة وصدق لسان وصراحة شيمة ، ويحسب ان خيانة الصديق في العشق لا تقل عن الخيانة في اقدس الحرمات ، وبينه وبين المطاردة والاقتناص هذا الخلق المستقيم الجميل وشيء آخر غير مستقيم ولا جميل ! وهو اسنان عوجاء مثرمة ووجه كثير التجاعيد والغضون .. فالى ان يمسخ طبعه وتتصلح اسنانه ووجهه هو ولا ريب وفاق الشرائط من وجوه كثيرة ، واحق من الصحب قاطبة بالتذكر والاعتماد

الا ان هماما تخطاه بادىء الامر لسببين أحدهما ان أمينا كان يومئذ يعمل بقرية بينها وبين القاهرة مسيرة ساعات على جميع وسائل المواصلات: على القدم وعلى المطية وعلى السفينة وعلى القطار او السيارة

وثانيهما ــ واخطرهما ــ سهوات الذكاء التي اشتهر بها أمين ويا لها من سهوات ! فهي كعيب ذلك الزنجي الذي يكذب في السنة أكذوبة واحدة ... وفي هذه الاكذوبة الواحدة قاصمة الظهور

فيجوز ان يكون اخلاصه هو كل المطلوب في هذه المواقف ، ويجوز أيضا ان يكون هو المحذور ، وهمام وحظه ونصيبه بين الجوزاين ! واليك المثال :

كان السيد امين في احدى اجازاته القصيرة ينزل بمنزل همام ، ودق التليفون عصارى يوم في مسألة عاجلة فخف همام الى الخارج واوصى امينا ان ينتظره ريثما يعود بعد نصف ساعة ، وان يستقبل ضيوفا قادمين في هذه الآونة ويعتذر اليهم بعذر همام المفاجيء ، ويبلغهم انه سيرجع بعد هنيهة ليقضي معهم الاصيل حسب الموعد.وقد عاد همام بعد نصف الساعة المقدور فلا امينا ولا ضيوفا وجد في المنزل !! وكل ما وجده بطاقات الضيوف في عقب الباب عليها كلمات موجزة تشف عن الاسف والاستغراب

ولبث همام يقدر في ذهنه ما توهمه الضيوف من اسباب مغيبه المتعمد ولامراء • فانه لا يخرج في هذه الساعة ، وليس للضيوف الا ان يعتقدوا كل الاعتقاد انه راغ عن الموعد او اخفى نفسه وتركهم يرجعون على اعقابهم مسافة ليست بالهينة ولا بالقصيرة

وبينا همام يستغرب خروج امين ولا يدري ماذا اخرجه خاصة في هذا اليوم الذي سئل فيه الانتظار ـ اقبل السيد امين يحمل في يديه قازوزتين وقليلا من الفاكهة والحلوى وهو راض عن نفسه رضى الرجل الضليع بمهام الامور

قال امين وهو يخفي اعتزازه واغتباطه بحسن تدبيره وعرفانه بالواجبات التي ينساها الغافلون :

انك يا صاح قد نسيت ان الثلاجة خالية وان الضيوف قادمون ، وقد ذهبت احضر لهم بعض الشيء فعسى ان يستطيبوه !

فضحك همام غيظا وعجبا من اهتداء صديقه الى العمل الوحيد الذي لا ينبغي ان يعمل واعتقاده مع ذلك انه هو الواجب الذي ينبغي دون سواه • وربت على كتف الصديق قائلا : احسنت احسنت يا مولانا ، وما عليك الآن الا ان تعدو بالقازوزة والفاكهة في اثر الضيوف فلا شك انهم منتظروها في الطريق ! واراه البطاقات وما هو مكتوب عليها فما زاد على ان فغرفاه ونطق بحكمته المأثورة كلما ادرك خطأه : « مدهش ! حضروا وعادوا ؟ ليس لهم حق ! ••• ما كان يصح ان ينتظروا ؟ »

نعم كان يصح ان ينتظروا • اما هو فلا يصح ان ينتظرهم في البيت •

وكان امين وبعض صحابه يجلسون الى منتدى على مقربة من مكتب « جماعة المؤاساة » وكلهم من شراة نصيبها المكثرين ، فارتفعت الجلبة والصياح من جانب المكتب ونهض امين يستطلع الخبر ، وعاد بعد دقائق فجلس وعلى سيماه قلة الاكتراث وهو يقول : انما هي النمر الاربع الكبيرة !

فانفجر الصحاب ضاحكين واطالوا في الضحك ، وامين لا يدري مم يضحكون • حتى سأله احدهم : او اطلعت على النمر ؟

فأخذ يفطن لسهوته البارعة • وحاول ان يصلحها كعادته فقال : او كنتم تريدون الوقوف عليها ؟

فزادوا ضحكا وركبوه بالعبث من جميع نواحيه ، وجعل هـذا يقول له : « لا • معاذ الله • وهل يليق ان نربح الا الجنيه والجنيهين ؟ » وذاك يجذبه من كسائه ويصيح به : « يمينا لو ربحنا النمـرة الكبيـرة لنقذفن بها في التراب • وهل ثمانية عشر الف جنيـه ممـا يساوي عنـاء السؤال ؟ » ••• وذلك يناديه : اقعد ياشيخ أقعد • لا كانت النمر الكبيرة ولا كان من يسأل عنها • انما القناعة كنز لا يفنى وانما المعول علـى الدراهم والملاليم ! » •••• وآخر يصطنع الجد ويقول وصاحبنا يتوقع منه الانصاف : « لا • لا يا اخوان • أنا اعرف ما ينتظر امين •••• انـه ينتظر كشف الخسائر والغرامات ! »

فلم يجد الرجل مخلصا من هذه الحملة المتداركة الا ان يلوذ هربـا بمكتب المواساة ويرجع اليهم بارقام النمر الكبيرة ويقتحم في سبيل ذلـك زحام المزدحمين الذين تلاحقوا من كل صوب في تلك اللحظة ، وتكوفوا حتى اغلقوا مسالك المكتب ••• وعناء على كل حال اخف من عناء

وافلح الرجل ، ووصل الى الكشف ، وكتب الارقـام الاربعـة ،

ورجع بها ليقرأها على اولئك المشاغبين الذين لا يرحمون ، ولم يبق الا شيء يسير جدا هو الذي فاته يحسب حسابه ، وهو قراءة الارقام

فان الارقام الملعونة تآمرت عليه مع المتآمرين وابت ان تنقريء لا من اليمين ولا من الشمال ولا من الاعلى ولا من الاسفل وراح المسكين يجاهد ويعالج وراحت هي تأبى وتصر على الاباء ••• ويحمر وجهه ولا فائدة ! ويحملق ولا فائدة ! ويحاول ان يفسر عجزه ولا فائدة ! حتى رحمه احد الصحاب فانتزع منه الورقة فاذا هي تذكرة ترام ، واذا بالارقام مكتوبـة

على صفحة التذكرة التي تمتلىء بالكتابة ، ومن ورائها صفحة اخرى يوشك ان تكون فارغة لم يلتفت اليها امين لانها ــ لامر ما لا يعلمه هــو ولا يعلمه احد ــ غير جديرة بالالتفات !

لقد كانت الحملة الاولى رحمة سماوية بالقياس الى الحملة الاخيرة : فاينما تحول ببصره فثمة لسان بارز او تحية ساخرة او تبويخة حاضرة ، وهو صامت يغوص في اعماق القريحة عن المعاذير والمسوغات ولا تطمئــن عزيمته الماضية الى التسليم والاعتراف

ومـن عادتـه اذا اعتـذر ان يجـيء بطـرفـة اطـرف مـن الاضحوكـة الاصيلة التي اثارت الضحك والمشاغبة ، وعرف اصحابه ذلك منه فطفقوا يحرضونه على الكلام كلما بدرت منه تحفة من تحفه المأثورات ، وبالغوا في الالحاح يومئذ لينظروا بماذا يتجلى عليه السهو المبارك بعد تلــك السهوات الالمعيات ، فلم يخلف ظنونهم آخر الامر فتكلم ، وكان ما قال بيت القصيد وآية الآيات في ذلك اليوم الخصيب

انقلب من الدفاع الى الهجوم وقال لهم مستجمعا سكينته واعتداده : تترقبون الوف الجنيهات ! تريدون ان تكسبوا .. ! وهل انتم وجه مكسب الله لا يكسبكم !! انني تعمدت ان اجيئكم بالارقام ، واكتفيت بما اذكر من ارقام الاستاذ همام وارقامي ولم احفل بما عدا ذلك ! وهل كنتم مــن البلاهة والغفلة حيث تحسبون انني اراجع لكم ارقامكم ومكاسبكم لا كسب منكم هذا الهراء الذي لا تفلحون في غيره !

ويلاحظ انه لم يختلق هذه المعذرة الا بعد ما حصل الصحاب علــى الكشف وراجعوا الارقام ويئسوا جميعا من الارباح ، ولم يختلقها قبــل ذلك مخافة ان يكذبه الواقع عند مراجعة الكشف فيسقط في يديه

الا انهم لم يتركوه ينعم بأكذوبته المهلهلة التي ساقه اليها الحرج والنكاية والمزاح وراحوا يقولون له بعد ما اوسعوه سخرا واشبعوه هذرا : يـــا مكابر ! اتذكر سبعين نمرة بين كبيرة وصغيرة قرأتها منذ ايام ولا تذكــر

نمرا اربعا قرأتها منذ دقائق ؟ ! طيب ... ها نحن اولا معك . اعد علينا النمر الاربع ولك عن كل واحدة جنيه !

فحار وابلس ابتأس وعبس ، والقى يد السلم واستسلم ، وزادت تجعيدة حديثة الى جانب كل تجعيدة قديمة في ذلك الوجه المشدوه

■ □ ■

تلك نماذج غير منتقاه من سهوات السيد امين حديثها وقديمها ، نضعها الى جانب اخلاصه واستقامة طبعه فنفهم المركب الذي ركبه همام من تفويض الرقابة اليه ، واصدق ما يوصف به انه كالسفينة التي لهـا شق متين يكافح الامواج والرياح وشق هزيل محلول الدسر والالواح ، ولا مناص من السفر عليها ولا امان في البقاء على الساحل

فأما الرقابة فلا حيلة غيرها

وأما الرقيب فغير أمين لا يوجد

وكل ما يملك همام من اختيار فهو الاكثار من التوصية والالحاف في التحذير والمعاودة بالتنبيه . وقد فعل جهده ثم اغمض عينه ، واوى الى السفينة وهو يترقب الغور كما يترقب ساحل النجاة

مضحكات الرّقابة.

ترى لو شهدنا حوادث الحياة كلها دفعة واحدة هل تصعب او تهون؟ وهل يقع أثرها في النفس فاجعا او مضحكا سخيفا مغريا بالهزء والابتسام ؟

تشغلنا الحادثة اياما وشهورا فلا نفكر الا فيها ولا نحسب ان في الدنيا امرا جديرا بالتفكير والاهتمام غيرها ، ولا نظن اننا نطيق العيش ونصبر على البقاء لو تحقق ما نحذره منها ، ولا نرضى من احد ان يستخف بها ويستكثر ما نعيره اياها من الهم والقلق والاهبة ، ثم تمضي الحادثة وتتبعها العاقبة بعد العاقبة فتصبح عندنا ــ نحن لا غيرنا ــ تسلية نرويها ونضحك منها وتتفرج بها كما تتفرج برؤية المشاهد الفنية التي تقع لشخوص المسارح الخيالية !

ترى لو رأينا الحادثة وعاقبتها او الحوادث وعواقبها دفعة واحدة هل تكون كلها فاجعة كما نراها في حينها ؟ او تكون كلها خفيفة مسلية كما نراها بعد فواتها ؟ وهل يكون اجتماع الحوادث بمثابة الفاجعة تضيفها الى الفاجعة فلا تقوى النفس على احتمالها ؟ او تكون بمثابة الشيء يلغيه ما بعده فيطفىء بردها حرها ، ويذهب قيظها بشتائها ؟

سواء كان هذا او ذاك يخطيء من يظن ان عبرة الايام تعلمنا الاستخفاف بالحاضر كما نستخف بالماضي • فانما هي تعلمنا الاستخفاف

بالماضي ولا زيادة ولو علمتنا ان ننظر الى حوادث اليوم كما ننظر الى حوادث الامس لحلت نسج الحياة وفكت خيوطها ومسحت اصباغها وتركتنا امام حياة لا لون لها ولا مادة ! كما تجتمع الوان الصورة الزيتية مرة واحدة بدلا من تتفرق في مواضعها ، فلا ملامح اذا اجتمعت ولا اشكال ولا الوان !

ان خير ما يتاح لابناء الفناء ان يقلقوا ويضحكوا من القلق بعد فواته فيأخذوا الدنيا طبيعية فنية على هذا المنوال : طبيعية حين يعيشونها ويقلقون بشواغلها ، وفنية حين ينظرون اليها على البعد بعد ذلك كما ينظرون الى روايات الخيال

بدأت الرقابة وفاقا لما كان منظورا منها بغير اختلال : امانة بالغة وشدة لا هوادة فيها ، ثم مضحكا تلا تنقطع يوما الا ريثما تنقضي عليها ثلاثة او اربعة اعوام ، اما في اوانها فايسر ما فيها يغيظ غيظ الجنون ؛

ومن اليوم التالي ظهرت امانة الرقيب حرفا حرفا في كل جليلة ودقيقة، فطابقت رواياته كل ما كان يعلمه همام من اخبار سارة التي تحكيها له طواعية او التي يتحرى سؤالها عنها في ثنايا الحديث ، وما كان همام يطلع أمينا على مواعيده مع سارة ولا على الساعة ولا على الجهة التي ينويان اللقاء فيها ، فكانت مطابقة الاخبار لهذه المواعيد وما يلحق بها من الحواشي والملابسات مؤكدة لهمام ما كان يعتقده من صدق أمين وصواب الاعتماد عليه

وجاء أثناء الرقابة يوم شات من ايام الزمهرير عاصف قارس مطير ، فاشفق همام ان يتصرف امين فيستبيح لنفسه اهمال الرقابة في ذلك اليوم ولا لوم عليه . اذ اين هي السيدة الرشيقة الانيقة التي تغادر دارها بين او حال الارض وسيول السماء ؟

ان امينا لمعذور اذا هو استباح الاغضاء والهوادة في مثل ذلك اليوم المكفهر العبوس ، ولكن الذي يعرف سارة لا يعرف يوما هو احق بتشديد

الرقابة من ذلك اليوم ، لان هذه الاوقات هي اوقاتها المختارة للتسلل والروغان ، وفرق عشرين درجة في ميزان الحرارة الجوية لا يقابله فرق مثله في حرارة جسمها الفتي المنيع ، لانها لم تعرف قط ما هو مدلول كلمة الزكام في الاناف والاجسام

اشفق همام من ذلك فهبط ملتفا في دثاره ، وركب ساعة ليبلغ الى المكان الذي يتربص فيه امين . فالفاه متربصا حيث يقيم كل يوم

لا خوف اذن من هذه الناحية

ولا غبار على نتيجة الرقابة في اليوم كله . فقد خرجت سارة فعلا قبيل العصر وعادت الى منزلها قبيل المغرب ، ولم تذهب فيما بين ذلك الا الى منزل صديقة عزيزة لها كانت تناجيها باشجانها وتطلعها على اسرارها ، فلم يشأ همام ان يكون مفرطا في التوجس والافتراض . ولم يلاحظ الا ان الخروج في اليوم المطير لزيارة صديقة امر غريب مريب ، واكتفى بتفسير هذه الغرابة بأنها واحدة من غرابات « سارة » وبدواتها التي لا تتقيد بالعرف والاصطلاح .... ولو اتيح له ان يعلم يومئذ ـ كما علم بعد شهور ـ ان الصديقة العزيزة لم تكن اذ ذاك في المنزل ولا في القاهرة لما كبح ظنونه عن الافراط في التوجس والافتراض

■ □ ■

واخلص امين لطبعه كما اخلص لصديقه . فلم ينس حق السهوات عليه وبالغ في افانينها ومعجزاتها بمقدار ما كان يبالغ في اجتنابها والاحتراس منها

وكان الرسم المتفق عليه بين همام وأمين أن يقص أمين كل ما يراه ويسمعه منذ خروج سارة من منزلها الى عودتها كائنا ما كان شأنه من التفاهة وقلة الدلالة في نظره . فلا يسقط شيئا ولا يستهين بشيء وان هان ،وضرب همام مثلا لذلك لون الرداء وزى الملابس فهو شيء لا يختلف

مدلوله في رأي أمين ولكنه يدل على الكثير في رأي همام ، وضرب مثلا آخر أن تركب السيدة الترام فتتخطى مقصورة السيدات الى مقصورة الرجال ، أو تتخطى هذه وتلك الى كراسي الدرجة الثانية . فلا يمكن ان يكون ذلك بغير دلالة تقترن بدلالة اخرى فتعين على جلاء الحقيقة ، وهكذا من أمثال هذه الطفائف والقرائن التي لا غنى عنها للوصول الى نتيجة من وراء الملاحقة والرقابة .

ولم يكن في سرد هذه المشاهدات صعوبة على أمين لأنه كان مطبوعا على التقاط ما يبصر ويسمع ومحاكاة ما يلتفت اليه من اللهجات والحركات والاشارات . فجاء يوما بعد مراقبة نهار كامل بحكاية ماشك همام وهو يسمع أو ائلها انه لن ينتهي الى او اخرها حتى يضع يده على لباب الحقيقة ويتطرق منها الى النبأ اليقين .

قال : لقد خرجت السيدة عصرا تلبس رداء عنابيا ومعها طفل صغير، فذهبت الى بيت صعدت الى دوره الاعلى ثم نزلت ومعها سيدة تكبرها بعدة سنوات ، ومضتا الى دار من دور الصور المتحركة في شارع عماد الدين فجلست انتظرها على القهوة الملحقة بالدار ، ولم يمض نصف ساعة حتى خرجت وحدها وليس معها الطفل ولا السيدة ! ...

ما شك همام حين وصل أمين الى هذه المرحلة من حكايته ان في الامر شيئا وأنه يتعقب الاثر الصحيح الى النتيجة الصحيحة .

نعم ان أمينا أخطأ اذ لم يدخل معها الى قاعة الصور المتحركة ولكن خروجها بعد ذلك قد اصلح ذلك الخطأ وعفى عليه ... وما يراه بعد الخروج هو المهم ، وليس ما يراه في القاعة ان رأي هناك ما يستحق الالتفات ... والا فلماذا تخرج بعد نصف ساعة ؟ ولماذا تخرج وحدها ؟

وذلك الثوب العنابي أليس هو الثوب الذي تحب أن تتزين به لخلوتها وتحسبه أجمل عليها من سائر ثيابها ؟؟

فالحقيقة اذن على مدى خطوتين ، ويستر الله فلا يعثر امين باحدى سهواته في احدى هاتين الخطوتين • وماذا عسى ان يعثره بعد هذا المدى ؟ وكيف يعثر يا ترى ؟ ذلك بعيد •••• وأغلب الظن ان الامر سينكشف وان الغاشية ستنجلي ، وان ليل الشكوك والهواجس المضطربة سيسفر بعد لحظة عن فجر صادق بين •

ــ ثم ماذا ياأمين ؟

ثم سهوة من تلك السهوات التي تنقض في صدمة المباغتة ، والتي لا ترد على البال ولا تقع في الاوهام ، والتي يخيل اليك ان أمينا لم يعثر بها الا لانه تعمد ان يعثر بها واصر على تدبيرها ، لان ما صنعه هو الشيء الوحيد الذي لاينتظر ان يكون •

اعتدل امين في مجلسه واتكأ على عصاه ، وقال في راحة الذي لم يضيع اقل فرصة واقصى احتمال :

ــ ان السيدة لم تعد بعد خروجها من دار الصور المتحركة !

ــ ويحك ! والى اين ذهبت

ــ لا أدري

ــ كيف لا تدري ؟ ألم تتبعها ؟

ــ لا • لأنني ما شككت في انها خرجت لحاجة لها ثم تعود •••• ولا يليق ان أتبعها •

فانتقض همام وهو يغالب غيظه وسخطه وصاح به : يا أخرق ! أليس في دار الصور ما يغني سيدة مهذبة عن الخروج الى منعطفات الطريق ؟

ففطن أمين ساعتئذ لسهوته « الجبارة » •• واخذ في تمحل الاعذار

والمسوغات ، وهو ـ على صدقه ـ لا يتورع في هذه الازمات المحرجات عن اكذوبة صغيرة يتقي بها التهزئة والتسخيف اشد من اتقائـه الملامـة والتعنيف ، وقال : الواقع انني صادفت والدي عابرا فحياني وجلس معي وخشيت ان انا تبعت السيدة فجأة ان يستريب ويتكدر . فلبثت في مكاني على رجاء ان تعود .

ومن الجائز حقا ان تكون السيدة قد ذهبت ولم تعد لأنها واعدت صاحبتها ان تلقاها في مكان اتفقنا عليه . ولكن الى اين ذهبت ؟ ولماذا ذهبت ؟

هنا الحيرة التي لا تدع للذهن ان يتجه خطوة الى اليمين حتى يرجع فيتجه خطوة مثلها الى الشمال . ثم يتبلد حائرا في موقفه لا الى هنا ولا الى هناك .

في الحي الذي قصدت اليه بيوت فيها مخادع محجوزة لطلاب الغواية وفيه اسرتان بينهما وبين سارة ولاء وثيق ، وبعض الاطفال في احـدى الاسرتين مريض . ويجوز ان تكون سارة قد ذهبت الى مخدع من مخادع الغواية كما يجوز انها ذهبت لسؤال عن الطفل ولم تصطحب طفلها خوفا عليه من العدوى ، وما عدا ذلك من الاحتمالات يتقابل ويتوازن بحيث لا ترجح كفة على كفة ، وان رجحت احدى الكفتين فانما ترجح بالتخمين والتقدير ، وليست الرقابة للتخمين بل لليقين القاطع المفصل الذي لا لبس فيـه .

ويجيء أمين في يوم آخر بنبأ من هذه الانباء التي تدنو بهمام الى مدى خطوتين من الشاطىء ثم تقذف به في لمحة عين كما يقذف الموج الغريق الى مدى آباد لا تعبر ، وقد حدث نفسه بالنجاة .

ذهبت السيدة الى دار الصور المتحركة ولقيها شاب مديد القامة ،

فحمل الطفل وقبله ودخل معها الى الدار وودعها بعد الانصراف الى ان ركبت الترام الذي يصل بها الى المنزل • فتبعها أمين ولم يتبع الشاب الذي هو موضع البحث والسؤال !!

وتضاربت الظنون في وهم همام حتى كانا بعد يومين يسيران هو وأمين في الطريق فاوشك أمين ان يقفز من جانبه ويعدو وراء شاب مقبع (١) طويل وقد صاح في صوت مسموع : هذا هو الشاب !

فلم يمنعه همام ان يستمر في صياحه وعدوه الا بمشقة ، وادرك الشاب وتبينه فمن ذا رأى امامه ؟ ••• اخاها !

ولا ذنب لسهوات امين في هذه القصة الا في غفلته عن متابعة الشاب وايثاره ان يتابع السيدة بعد ركوبها الترام •• كأنما المقصود ان يعرف منزلها لا ان يعرف من كان معها ، اما البقية فالذنب فيها ذنب همام لانه كتم عن صاحبه كل مايتعلق بسارة غير شخصها ومسكنها • حذرا من سهواته لا حذرا من نياته •

■ □ ■

ولزمت سارة مسكنها يوما لا تريمه الى زيارة ولا الى مسرح ، وتلك نادرة لم تتكرر فيما عدا ايام حفلاتها وولائمها غير مرات معدودات • فليس لسارة عالم تعيش فيه غير عالم الدنيا الواسعة وعالم الحب والمحبين •

اما عالم الضمير الذي يروده الانسان وحده ويأنس فيه الى التفرد والوحشة فذلك ابغض العوالم اليها واثقلها وطأة عليها • لاتمكث فيه هنيهة الا باغراء كتاب ، وقلما يكون الكتاب عندها الا منفذا الى الدنيا الواسعة ، ودنيا الحب والمحبين •

---

(١) يلبس القبعة .

فسنحت لهمام خاطرة ان يجرب الرقابة داخل المنزل لعل هناك احدا تحوم حوله شبهة ويصلح لاتجاه المظنة ، ولما سأل أمينا عن النور في جناح سارة من اين كان مصدره في ذلك اليوم علم انه كان يصدر فيما بين الساعة السابعة والساعة الثامنة من الحجرة التي يعلم همام انها حجرة النوم ، وهي حجرة لا تأوي اليها سارة الا لتنام ، ولم تتعود ان تستقبل زوارها ولا ان تقرأ في غير حجرة الاستقبال ، ولم تختل تلك الوتيرة سنوات كان همام يجاورها فيها ويلم بجميع عاداتها وحركاتها في منزلها . فلماذا تختل في ذلك الموعد من المساء ؟ لماذا تختل القاعدة في الموعد الذي تكون فيه على انفراد بعد نوم الطفل وانصراف الخادمة ؟

ربما كانت الرقابة داخل المنزل الزم واجدى من الرقابة خارجه ولو يوما من الايام . وقد ادى امين رسالته في هذه الرقابة الجديدة وخاب كما خاب في غيرها ، لولا ان الخيبة هنا كانت مشفوعة بخطر الضرب المبرح والفضيحة الشنيعة ، فما سلم منه الا باعجوبة من اعاجيب السياسة!

ذلك انه ولج المنزل متسللا وصعد السلم متلكئا ليقرأ الاسماء التي على الابواب . ولمحه فتى يهبط من اعلى المنزل فظن انه يتلصص او يتجسس ، وليس التجسس ببدع في ذلك الحين .

فانتهره الفتى مزدريا ، وناداه متافقا : مالك تتسكع على الابواب يا هذا ؟ ماذا تريد ؟

ولم يكن امين بالذي يتراجع اذا هو جم ، ولا بالذي يلين اذا خوشن. وقد تملكه الربكة اذا خوطب في رفق وادب واضطر الى تدبير الجواب وتحضير المعاذير . فأما اذا قوبل بالتوقح والاهانة فلا ربكة ولا عناء ... انما هي دقة بدقة وصيحة بصيحة ، وصفعة بصفعة ، اذا استطرد اللجاج الى هذه النهاية .

فما حفل امين بالفتى ولا زاد على ان نظر اليه متجهما متجعدا وقال : امض في سبيلك . فليس هذا من شأنك !!

ولقد دهش الفتى والتفت اليه مذهولا وهو يتمتم : ليس من شأني كيف ؟ انني اسكن هنا ... ان في المنزل آلي وحرمي ! يا لها من اعاجيب يا لها من صفاقة ؟

ولكنه مع ذلك نزل . وسمعه امين ينادي على البواب من اقصى الطريق ويقول له : اين انت ؟ وماذا عساك ان تصنع اذا كنت تسمح لهذا الجاسوس ان يقتحم البيت ويتسمع على الابواب ؟

جاسوس ؟

لقد سلم امين بفضل الجاسوسية والخوف من الجاسوسية ، ومـــن ذا يضرب الجواسيس ووراءهم قوة الشرطة وقوة الدولة وكل قوة تخاف في تلك الايام ؟

سلم امين من الضرب وهبط السلم يتهادى غير هياب ولاوجل !! وألهمه الله ان يتشمخ بانفه ويزجر البواب قائلا : انتم تأكلون بغير عمل . أنتم لا تستحقون اجوركم ... لقد صفقت وناديت فما اجابني احد . ولقد حاولت ان اراك لاسالك عن جناح فما اهتديت لك الى شبح ، ولو سكنت في هذا البيت لما ابقيت عليك !

فقبع البواب واستخذى ، ولاح له انه غانم سالم اذا انجاب هـــذا الرجل السليط سواء كان جاسوسا او باحثا عن مسكن ، وتركه ينفتل لطيته وهو يتبعه بقوله : معذرة يا بك ! لا بأس يا بك ! حقك علينا يـــا بـــك !

وافترقا وكلاهما يحمد الله على النجاة

الا ان امينا قضى منذ تلك الساعة على مستقبله في الرقابة مضروبا وناجيا او غير ناج !! فما كان في وسعه ان يتراءى وهو آمن على جلده « حول مكان الواقعة » كما يقولون في لغة الشرطة قبل ان تنصرم ايـام وايام ••• وشاعت المصادفات الا تكون الخسارة عظيمة • فان عنـاء الرقابة قد ضاع بغير جدوى ، وان الاجازة قد قاربت الانتهاء •

■ □ ■

القطيعة

حصلت القطيعة ولما تسفر الرقابة عن نتيجة

حصلت ولم يردها احد ، ولم يغتبط بها احد ، كأنها مخلوق قائم بمعزل عن ابويه : تريد له بنيته المستقلة ما تريد ولا يريد لنفسه او يريد له ابواه : يمرض وينحل ويموت وهو لا يريد الموت ولا يريده له القوامون عليه : بل كانه الجنين الذي استوفى حمله فلا بد له من الظهور ولو ماتت امه وانفطر قلب ابيه .

او لم يقل همام انه لن يفرط في هوى سارة ولن ينفصل عنها الا وهو واثق كل الوثوق من خيانتها ، وعاجز كل العجز عن صيانتها .

او لم يقل انها حلية موثقة ان غلت سومت بكنوز الارض وذخائر البحار ، وان رخصت هانت عن السوام والصيان .

او لم يقل ذلك ويعتزم العزم كله ويستجمع النية كلها على ان لافراق ولا قطيعة الا وقد عرف ما تساويه من قيمة وما تستحقه من غيرة وضنانة .

بلى ! قال كل ذلك ، ونوى كل ذلك ، ولكن الحب الذي اوحى اليه كل ذلك قد فسد وانحل ومات ، ولم يبق الا ان يدفن ! وان يحمله الى الدفن ابواه ! وهما آخر من يود له الموت ، ويخف به الى ذلك المصير

لو كانت المسألة قضية تنظر وحكما يصدر بعد نظرها لكان عجيبا ان تثبت القطيعة قبل ثبوت الخيانة ، وان تقع العقوبة قبل وضوح الجناية.

ولكن من هو القاضي هنا ؟ ومن الجاني ؟ ومن الفريسة ! ومن صاحب الفصل وشارع القانون ؟

هنا قضية لا تلمح فيها قاضيا حتى تراه جانيا وتراه فريسة وتراه مقضيا عليه ، فلا حكم ولا براهين ولا شريعة ! بل حادث من حوادث القدر ينقض كما تنقض الصاعقة او يشتعل كما تشتعل النار .

هنا عناصر طبيعية لا تسأل فيها ماذا تنوي وماذا تريد ؟ بل تسأل فيها ماذا عملت بعد ان تعمل . كالذي يهرب من السيل ليقع في الهاوية ، وكالذي يهرب من البركان ليقع في اللجة الزاخرة ، وكالذي يهرب من النمر ليبتلعه التمساح ، وكالذي يهرب من الرصاص لتنوشه الرماح . كل ما انت قادر ان تجزم به هنا انه لن يستطيع البقاء حيث كان .. وهل يستطيع البقاء حيث صار ؟ كلا ! ولا هنالك يستطيع البقاء .

فاذا سألت لماذا اعتزم همام القطيعة بعد ان كان يعتزم التربص والمطاولة ـ فليس سبيلك ان تعلم انه آثر القطيعة وحمد مغبتها واستمرأ مذاقها ، وانما سبيلك ان تعلم انه لاقرار على ما كان فيه ، وانه مدفوع الى الهرب منه كماينفع الهارب من النمر الى التمساح .

■ □ ■

في ايام الرقابة وبعدها باسابيع قليلة تكررت الزيارات وتسابق همام وسارة في الاستزادة منها وهما يتكلفان ، ولا يجهلان انهما يتكلفان .

اجل ما كانا يتمليانه من سويعات الهوى في تلك الايام انما كان بالقياس الى هواهما الخصيب المطواع كالثمار المحفوظة في العلب بالقياس الى الثمار على اشجارها بين غياضها وانهارها .

ولم يكن همام يصور لحدسه كيف تشعر سارة بتلك السويعات المصطنعة . ولكنه هو كان يشعر شعورا لا يزال يعاوده ويبرز امامه كلما جهد في تبديله والاشاحة عنه بخياله : كان يشعر كمن يلهو ويتلاهى على مقربة من جنازة وفي جوار مقبرة ، فمن حيثما اقبل او اعرض فهنالك ظلال الموت ، وكآبة الفناء ، وسوانح الاحزان .

ومن اعجب ما كان يتمثله وهو يداعبها ويعانقها ذات يوم سرير شيخ محتضر يتابع التدخين ولا يلقي بلفيفة الا اومأ الى من حوله في طلب لفيفة اخرى .

وما كان الشيخ يصنع ذلك قبل ان يثقل عليه السقام ويتدانى منه شبح الحمام . ولكنه كان يدخن مرة فدخل عليه همام عائدا ، واستبشر قائلا : بركة يا عماه ! ان الذي يتطعم الدخان يتطعم العافية ، واراك تتقدم الى الشفاء ان شاء الله .

ومن تلك الساعة لم تعد للشيخ من وسيلة يحاذر بها وهم الموت غير التدخين كلما شارف اليقين . فهو يتبع اللفيفة بأختها ليقنع نفسه بأنه يشتهيها ، وانه ما دام يشتهيها فهو على رجاء في العافية والبقاء .

لقد كان يدخن ويبالغ في طلب التبغ خوفا من خيال الموت لاسرورا بموالاة التدخين . وما اقرب هذه الصورة الفاجعة مما كانت فيه سارة وهمام .

لقد كانا يحرقان من لفائف الحب اضعاف ما احرقا في عنفوانه وانطلاق طوفانه . ولكنهما يفرطان في الحب ويتكلفان الافراط لشعورهما بقنوطه لا لشعورهما برجائه ، ولاقبالهما على شتائه الاجدب لا لاقبالهما على ربيع بهجته وروائه

وكانا في عنفوان الهوى يتشاجران ولا يباليان الشجار ، ويتغاضبان

ولا يجفلان من الغضب ، ويختلفان ويلحان في الخلاف ولا يتحرزان من الخلاف والالحاح : جسم فتى قوى فماذا تضيره هبة من عاصفة او لفحة مـــن هجيـــر •

فلما شاخ الحب اجفلا من الغضب والخلاف ، كما يجفل الشيخ الهرم من غضبة تنذر بالقضاء عليه • فلا هما هانئان بوئام ولا هما قادران علـــى خصـــام •

سرور مشكوك فيه ، وان غاب عنه الشك فهو هزيل

وألم حق لا شك فيه ، ثم يتلو اللقاء فيزيد هماما علامة مـــن علامات الخيانة التي ليس بعدها من اقناع عنده غير يقين اللمس والعيان •

وانهما ليدافعان الغضب والخلاف ويطاولان المغالطـــة والمـــراء اذا بالغضب يدفعهما في شلاله بين صخوره واوحاله فيندفعان ويندفعان كابشع ما يكون الهياج والثوران ، وكأنما هما نادمان على ما كان من مصانعـــة وبهتـــان •

كلا ! لا جدوى من المراء • لابقاء لهذه الحال • لا مناص من الفراق ان كان لا مناص منه •• ولا مناص !

■ □ ■

كانا يتلاقيان ــ اذا لم يتلاقيا في المنزل ــ عند مفتـــرق طريـــق في الضاحية ينشعب يمينا الى ناحية الصحراء ، ويسارا الى ناحية الانديـــة ودور الصور المتحركة ، وكانت تلمحه مقبلا فتسبقه خطوات الى حيث تواعدا من قبل : فاما في الصحراء او في بعض الاندية يدخلانها على انفراد

وقد تواعدا ــ بعد اسبوع من تلك الغضبة الثائرة ــ على اللقاء عند ذلك المفترق من الطريق • ليعطيها اوراقها وصورها وذكرياتها ويسترد

منها اوراقه وصوره وذكرياته ، ثم يفترق كل منهما في طريقه الى حيث يختفي من حياتها وتختفي من حياته •

وقبل الموعد بساعة اخذ في جمع تلك الاوراق ومراجعتها ليعلم منها ما هو مطلوب وذو بال وما هو مهمل ومطروح • فيالله كم تبلغ الورقة الخفيفة من وقر وفداحة ! وكم تختلف المعايير والاحجام في موازين الاكف والاذهان : لقد كانت الرسائل والصور والهدايا كلها لا تملأ حقيبة صغيرة تحملها اليد الواحدة ، ولكنه كان يحمل الورقة منها وكانما يزحزح جبلا راسخا يشل السواعد والاقدام دون صخرة واحدة من صخوره •

ومشى الى الموعد مشية لا اختيار فيها ولا اكراه امشية الرجل الذي يسعى بقدميه الى غرفة الجراحة ليبتر عضوا من اعضائه غير آمن ان يكون في بتره الموت ، أو مشية الامهات اللواتي كن فيما مضى يحملن فلذات أكبادهن الى مذبح الارباب قربانا غير رخيص و لامزهود فيه •

وسبقها الى الموعد فانتظرها دقائق معدودات لاحت له كأنها آباد ، ولكنه في الواقع كان يتمنى لها الفوات •

ثم اقبلت في ثوبها العنابي وطرتها المشتهاة ! ونظرت اليه وهمت ان تنحرف الى ناحية الصحراء ••• ثم ؟ انهما اتفقا على اللقاء لحظة في مفترق الطريق يأخذ منها ويعطيها ولا حاجة بهما الى مراجعة • وكانت الطريق في تلك الساعة خالية الا من عابر بعيد او عابرة بعيدة • ففيم انحرفت الى ناحية الصحراء ولو شاء المراجعة هنالك لما اعانهما غبش المساء؟ انه حكم العادة على ما يظهر • اما هو فكل ما ساوره في تلك اللحظة خشية الانفراد والامن من الانظار ، وخشية ما يزجيه الموقف المنفرد من كلمة او عبرة او نظرة وجيعة ، وخشية الوهن والتردد والارجاء ، وخشية العودة من البداية الى التيه المفزع الذي اشرف في تلك اللحظة على النهاية • وتلك

جرعات لا يطيب للفم ان يترشف منها كل يوم .

أخذ منها واعطاها . وسلم ولم تجبه او سلمت ولم يجبها ، او نسيا السلام والوداع معا . لا يذكر ، وافترقا في طريقين متدابرين .

لو كان همام في غيرذلك الموقف لتذكر وقال وتدبر : تذكر مفترق الطريق بالامس وتذكر مفترق الطريق في هذا المساء، وقارن بين لقاء قلما يضن فيه بشيء ولقاء قلما يجاد فيه بسلام الوداع الاخير . ولكنه كان مغمور الفؤاد في جو من الغم واليأس كجو الضباب الكثيف : لا تسترسل فيه العين الى مدى بعيد ولا ترى ما حولها الا في غلاف من نسيج الاطياف ، وكل ما يذكره بعد ما افترقا ان جسما غاب عن النظر ولم يشيعه وهو يغيب .

وسار في وجهة المنزل وكأنه يريد ان يبتعد منه لا ان يدنو اليه بخطاه، وفي يده حقيبة صغيرة لا يدري ماذا يصنع بها ، ويزعم انه يود لو القاها في عرض الصحراء لولا ما فيها من حديث يصونه عن الافشاء ... يزعم ذلك ويفهم من حيث لا يشعر ان ساطيا لو سطا على الحقيبة في تلك اللحظة ليمزقها ويحرقها لذاده عنها كما يذود الشحيح عن بقية ما لديه من حطام .

ثم دخل المنزل وتهافت على اقرب كرسي في اقرب حجرة ، فلو شهده شاهد يجهل ما كان فيه لخاله قادما من مسيرة ايام لا مسيرة لحظات ...

وكان في المنزل عشير قديم يعلم اين ذهب ومن أين عاد . فلما طال سكوت همام وعزوفه قال له صاحبه يمازحه ويسليه : علام أنت آسف يا صاح ؟؟ هل تركت فيها من بقية وطرتشتهيها ؟ هل عندها من متعة لم تستوف شبعك منها ؟ فما بالك تأسى وتكتئب وقد اراحك الله من رفاتها بعد ان نعمت بروحها ولبابها ؟

عزاء حسن حين تكون المرأة التي تفقدها مائدة تفرغ منها وقد اتيت على آخر لقمة فيها • اما حين تكون جزءا من الحياة لا تنفصل الا فصلت معها من لحمها ودمها وظاهرها وباطنها فذلك اضعف العزاء ، بل هو نقيض العزاء •

انما يعزيك الزميل الذي تحسه قريبا بشعور مثل شعورك ، ولقد يغنيك من عزائه احساسك بقربه ساعتئذ وهو صامت واجم ، دون كـلام ولا ايمـاء •

اما الكلام الذي سمعه همام من صاحبه وهو في جواره فقد تركه يصغي اليه كأنه يتسمع الفاظا مغلقة من هاتف لا يراه •

■ □ ■

مَنْ هيَ ؟

من هي سارة ؟

من هي الفتاة التي مشينا معها هذا الشوط ولا نعرفها ، والتي رأينا منها خطوطا ولم نر منها صورة ، والتي قرأنا عنها كلمات كثيرة ولكنها كلمات بينها كثير من الفواصل ، وحروفا كثيرة ولكنها حروف يعوزها كثير من الاعجام (١) .

هي شيء يعرف ولا يعرف ..

اتتكلم بلسان الصوفية ؟ كلا . بل بلسان العرف المقرر والمشاهدات اليومية ، فان سارة بنت من بنات الواقع الحي الملموس ... وبنات الواقع هن اللواتي نعرفهن جيدا ولا نعرفهن جيدا ، ولو كانت من بنات الخيال لما بقى منها شيء مجهول .

وليس بالنافع ان نصفها كما كان يراها همام في ايام صفوه وهيامه ، أو نصفها كما كان يراها في ايام نفوره واشمئزازه ، او نصفها كما كان يراها وهو على القرب سائم ، او كما كان يراها وهو على البعد مشوق ،

---

(١) اعجم الكتابة وضع نقطها وحركاتها .

ولكننا قد نصفها مزيجا من جميع هؤلاء فنخلص من وصفها الى صورة تشبه « سارة » التي خلقها الله ، وتشبه سارة التي يذكرها همام بعد زوال الغاشية وانقضاء السنوات

هي جميلة : جميلة لامراء ، ليست اجمل من رأى همام فى حياته ولا اجمل من رأي في ايام فتنته وشغفه ، ولكنها جميلة جمالا لا يختلط بغيره في ملامح النساء . فلو عمدت الى ترتيب الف امراة هي منهن لنظمتهن واحدة بعد واحدة في مراتب الجمال المألوف ، ونحيت سارة عن الصف وحدها ... وان كنت لا تنكر — ولا تبالي ان تنكر — انها تأتي بعد مئات .

لونها كلون الشهد المصفى يأخذ من محاسن الالوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء في مسحة واحدة .

وعيناها نجلاوان وطفاوان ، تخفيان الاسرار ولا تخفيان النزعات: فيهما خطفة الصقر ودعة الحمامة .

وفمها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد في تناسق وانتظام ، ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة في لمحة الناظر . وبين وجهها النضير وجسمها الغضير جيد كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينهما وفاقا لتمام الحسن من كليهما . فليس هو جيدا كأي جيد ولكنه الجيد الذي يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام .

يتخطاها من يراها على عجل ، ثم يعود مدركا انه قد تخطى شيئا لايفات ، فليست من الروعة بحيث تقسرك على التحديق اليها ، وليست من سهولة المرأى بحيث ترسلك ناجيا في سبيلك ... قوام بين هذا وذاك، او طراز آخر غير هذا وذاك .

لو تكفل بها مديرمعهد من معاهد التجميل الحديث لخفف شيئا من قوامها الرداح بين الربعة والطويل ، قبل ان يبرزها في معرض الرقص والرشاقة .

ولو تكفل بها قهرمان القصر عند كسرى او عبد الحميد لما ضاره ان يزيد فيها حيث ينقص زميله الحديث ، قبل ان يزفها الى الشاهنشاه .

حزمة من اعصاب تسمى امرأة

وهيهات ان تسمى شيئا غير امراة .

استغرقتها الانوثةفليس الا انوثة . ولعلها انثى ونصف انثى ، لانها اكثر من امراة واحدة في فضائل الجنس وعيوبه ، لا لانها اضعف من امراة واحدة .

ولقد يخيل الى الانسان في احايين ان يتمم مخلوقا ببضعة من مخلوق وان يسوي تكوينا بتكوين ، ويمزج عنصرا من الابدان بعنصر ، فامرأة يتممها رجل ، وآدمي يتممه حيوان ، وطلعة فتاة يتممها قوام وأبوة احرى ان تنتقل الى امومة ، واشباه ذلك من اخيلة المزج والتركيب .

اما هذه المخلوقة فلو انتقل عصب منها الى تكوين ليث غضنفر ليبقى هنالك عصب انثى بين جميع ما حوله من الواح وامشاج . ولو بقى الف سنة .

ولو انها تفرقت بين اجسام شتى لكانت فيها خميرة انوثة يوشك ان تطغي على جميع تلك الاجسام .

شغلتها جواذب الجسد قبل ان تفقه معناها وتسمع باسمها ومسماها . فلما كانت بنية دراجة في المدرسة ذهبت يوما الى كرسي الاعتراف تستغفر الكاهن عن مخالفة وصية من الوصايا العشر التي حفظتها ، وتتوب من مقارفة الخطيئة التي دعوها في المدرسة « ترفا » على سبيل الكناية ! فذعر

الكاهن ولم يصدق ما يسمع • واستعادها مرة بعد مرة وهي آخذة في ذعر كذعر الكاهن من مس العدوى ورهبة الصوت ••• ماذا ؟ فيما دون العاشرة وبين جدران مدرسة ليس فيها الا البنات تزل بنية لم يكعب ثدياها وتقترف ام الخطايا التي يقترفها النساء والرجال •

وما سكنت بلابل الكاهن المذعور حتى بداله من لهجتها انها لاتفقه ما تقول ، وانها بمحاكاة المعترفات لانها احبت ان تصنع مثل ما يصنعن، وبحثت عما تعترف به فلم تجد غير هذه الخطيئة التي تجهلها • وقد نجت الخاطئة الصغيرة بعركة اذن وجيعة ، ثم ذهبت تسائل الزميلات ما هذا الذي ذعر منه الكاهن ذلك الذعر الشديد ؟ فلا تفوز بغير ضحكات وغمزات •

قال لها همام وهي تحكي له حكايتها : لقد حسب لك اعترافك قبل اوانه •• ولئن اعترفت بالامس وما اخطات فلانت اليوم تخطئين وما تعترفين •

وعاشت بعد ذلك تنظر الى خطايا الاديان نظرة المرأة الوثنية التي نشأت قبل ان ينشأ الانبياء • فهي ليست كالمتدينة التي خامرها الشك في دينها ، ولكنها كالمرأة التي لم تتدين قط ولا قبل لها بالتدين ، عن نزعة طبيعية فيها لا عن بحث ونقاش واطلاع ، ومثلها كمثل الطفل يأكل الحلوى خلسة ان لم يأكلها جهرة ، وآباؤه مع ذلك هم الملومون لانهم منعوه ، وليس بالملوم لانه اختلس مالا بدّله من اختلاسه !

ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف ، ولا كضجر المدمن يخدره العقار ، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرح الجموح يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الاعياء والبكاء •

لها فراسة نفاذة في كل ما بين الجنسين من علاقة ، لو حصلتها بالتعليم

والتلقين لاستغرقت اعمارا الى جانب عمرها في القراءة • ولكنها تفطن لما في نفس المراة لانها امرأة ، وتفطن لما في نفس الرجل لانها امرأة ، وبعينهـا ذكاء موصول بالفطرة وتعبير يتضح في ذهنها وان يتضح بعض الاحايين علـى لسانهـا •

والحق ان هذه الفتاة كانت في معرفتها بطبيعتها الانثوية اعجوبة ، وكان همام يسمع منها ماقل ان تفهمه امرأة وان شعرت به ، وقل ان تقوله وان فهمته ، وقل ان تحسن التعبير عنه وان ارادت ان تقوله • اذ المعهود في المرأة انها تشعر ولا تفهم شعورها ، أو أنها تفهمه ولا تعمد الى الصراحة فيه ، أو أنهاتعمدالى الصراحة فيه ولكن لا تحسن التعبير • أما هذه الفتاة فعلم الانوثة عندها كعلم الحساب عند بعض الاطفال الذيـن يجمعـون ويضربون عشرات الارقام بغير تدوين ولا مراجعة : مسألة بداهة سهلة لا اجهاد فيها للفكر ولا اعتساف ولا تعليم !

في سهرة من سهرات الصور المتحركة شاهدا رواية من روايات الغرام بين الكهول بطلها « ادولف منجو » الممثل المشهور بتمثيل هذه الادوار ، أو المشهور بقدرته على غزو قلوب النساء الناضجات •

وكان « منجو » بغيضا الى همام كما هو بغيض الى كثير من النظارة في دور الصور • فأراد همام أن يناويء صاحبته وقال لها : اما والله ان النساء لسخيفات ان كان لمثل هذا الرجل هذه الحظوة وعندهن •

فاجابته متحدية : ولم لا تكون له هذه الحظوة عند النساء ؟ الا تعجب المراة الا بفتى صبوح او بفتى متين الاركان ؟ هذا خطؤكم معشر الرجال • ان الفتيان الحسان الاشداء قد يفتنون المرأة ، وقد يخلبونهـا ، وقد يهيجون نفسها ولكنهم لا يقربونها اليهم ولا الى نفسها • ان احدهم لينظر اليها كأنه غريب يمشي في بلد غريب يخشى ان يتقدم او يتأخر ،

متهيبا يعديها بالتهيب فتقوم بينهما الحواجز والسدود ولا يسهل التقريب بينهما بعد ذلك .

أو ينظر اليها نظرة القانص الفاتك فيربكها ويزعزع شعورها ويوقع الهزيمة في سريرتها .

اما الرجل الخبير بالنساء من أمثال « أدولف منجو » فانه ينظر اليها بعد ان نظر الى مئات من قبلها فاذا به يعرفها مكشوفة معراة من كل ستر ومن كل طلاء ، واذا بها تحس كل الاحساس انه يعرفها كما تعرف نفسها في مخدعها ، واذا هي قريبة منه لا تحتاج الى تقريب ، بل قريبة منه بوحي لا تدركه ولا تلتفت اليه ، قريبة منه كما يكون الرجل والمرأة في الخلوة بعد عشرة اعوام .

والرجل الخبير بالنساء يشبع منهن فيزهد فيهن ولا يتهالك عليهن ، فاذا احست المرأة بالفتور منه في الطلب والمغازلة خشيت ان تكون هي المعيبة المجفوة في نظره بالقياس الى من عرف من النساء ، ولم تتهمه في ذوقه بل اتهمت نفسها في جمالها و « جاذبيتها » كما هو دأب المرأة من سوء الظن بنفسها امام هؤلاء الرجال ، ونشأت عندها الرغبة في اجتذابه واستطلاع رايه ، واستسلمت له في سهولة وطواعية ، لعلمها ان الحيلة معه لا تخفى عليه . بعدما شهد الكثير من حيل النساء .

هل بحثت سارة هذا الموضوع بحث الفلاسفة ؟ هل قرأته في كتاب من كتب الصور المتحركة ؟ يجوز ! ولكن فطنتها وحسن روايتها لما قرأت لا تزالان عجيبتين بين شبيهاتها من الفتيات .

وتمييزها للملامح الرجولة ومظاهرها تمييز لا يخطىء لانه اشبه بالغريزة التي لم تعرف غير الصواب لانها لم تعرف غير صواب واحد : كصواب النحلة في بناء الخلايا .

فالرجال الذين يشبهون النساء لا يستحقون منها حتى نظرة الزراية لانها لا تشعر لهم بوجود ، وما عدا هؤلاء من رجال فهم نماذج عدة تبلغ المئات ولكنهم مشمولون جميعا في رجولة واحدة خلاصتها القوة والثقة والبروز ، والطغيان القابل للرحمة والحنان ، وقبس من اريحية الخيال ، ونفحة من حماسة الروح تحسبان في الزينة عرضا ولا تضمنان الرجحان في الميزان .

ولهذا تضل بعض الطريق الذي تسلكه مع من تهواه ولو سلكته مرات في النهار ، لانها تلقى كل اعتمادها على صاحبها حتى لتكاد تنظر بعينيه وتمشي بقدميه ، وابغض من تبغض — وهي قارئة حصيفة — اولئك النسوة الثائرات على الرجال المطالبات بما يسمينه حقوق الحرية ، فهي تقول انها لو سئلت ان تكون رجلا ما قبلت ، وانها لو كانت تثور لثارت على الرجال لانهم يستمعون الى ذلك الهراء .

ومن لوازمها التي لا تفارقها انها ما حضرت قط رواية فيها نزاع بين رجل وامرأة وعاشق وعاشقة الا كان عطفها في جانب الرجل وان غدر وان خان ويشق عليها منظر العاشق الموله المغموم فتهتف من قلبها لا من لسانها وحده : ما من امرأة تستحق هذا العذاب !

تحب التدليل كما تحبه كل بنت من بنات حواء ، ولكنها تكره التدليل السخي الفياض كما تكره التدليل المعسول الناصع الحلاوة ، وانما تحب ان يقطر لها التدليل تقطيرا وان يشاب ابدا ببعض التوابل والافاويه .

سألت صديقها وقد صفت واستسلمت لعطفه عليها :

أتحزن علي اذا مت ؟

فلم يدر كيف يجيبها ، ولكنه قال : هذا سؤال سابق لاوانه يا بنية ؟

قالت : ستبكي ولا شك لا أسألك في ذلك ... ولكن كم عبرة يا ترى تميزني بها على من بكيتهم ؟

قال وهو لايظهر المزح ولا يحاول أن يكتمه : اراجع ما عندي من « رصيد » العبرات وأجيبك قبل الوقت المناسب بقليل !!

قالت : أنت لا تريح !

قال : ولكنني أراك مرتاحة ... أأنت تموتين ! ومن الذي يأذن لك أن تموتي !

وكانت مرتاحة حقا لما سمعت ، ولو انه اسمعها غير ذلك من حسرات التفجع والتعوذ ومواعيد الحزن القاتل وعهود الوفاء الدائم لفترت وملت وانقلبت عليه ، ولكنه اذا ضمها وربت عليها وضن بعد ذلك بالكلام فقد وفاها من التدليل غاية مناها ، وضمن الا تفسد عليه صفاء الساعة التي هي فيها .

وكان همام يمتحن معارفها الغرامية كل يوم او كل اسبوع او كل شهر مرة على ابعد تقدير ، ويرشحها على اثر كل امتحان لوظيفة من الوظائف التي « تؤهلها » لها تلك المعارف الكثيرة ... الا انه استقر آخر الامر على أنها أصلح ما تكون مديرة للاضاءة في مسرح تمثيل .

لأنها تعلم مواقع الرؤية علما لاخطأ فيه ، وربما وقفت في المكان المكشوف والنوافذ مطلة عليه من جوانب شتى ، ثم لا تبالي ان تمازح صاحبها وتغريه بمزاحها وتجميشها . فاذا أحجم وتردد ضحكت منه ساخرة ، وأولعت بتعييره والتهكم عليه ، لانه لم يفهم لاول وهلة كما فهمت هي أن الاشعة المردودة عن زجاج النوافذ هناك تحجب النظر من ورائها !!

تعلمت وهامت بأوربا فأوربا عندها نبي معصوم : كل شيء فيها خير

من كل شيء في غيرها ، وهذه التي تغفل عن الاديان حتى يخيل اليك انهـا لم تسمع قط بمكة وبيت المقدس وطور سيناء ـ هذه الوثنية في عالم الدين تراها في عالم الازياء فتعلم لاول وهلة انها لا تغفل لحظة واحدة عن وحي باريس ومناسك الازياء في العالم الاوربي بأسره ، لانها تتحرج مـن وضع شريط في غير موضعه او لبس زي في غير موعده تحـرج الزاهد الصالح من ذنب ينفيه عن رحمة الله ويخلده في جحيم عذابه .

وكان صاحبها همام على نقيضها يهزأ بالعرف وقد يتعمد الخروج عليه ولو في المجامع العامة . لحق بها ليلة بدار الاوبرا وهو في ملابسه الصباحية فكادت حين رأته الى جانبها تجن من الغيظ وتتجاهل معرفتهـا به ومصاحبتها اياه ، وجعلت تنظر اليه نظـرات فيهـا مـن الاستغراب والاستهوال والا كبار لهذه الجرأة او لهذا التهور بمقدار ما فيها مـن الاسف والحنق والاستنكار ، ومالت اليه تقول : ماذا يظن هؤلاء الناس ؟ انهم لن يقولوا الا ان هذه الفتاة مسكينة مع هذا الرجل ! قال متظاهرا بالاعتذار وقد علم ان المعابثة انفع اساليب الاعتذار معها في هذه الحالـة : لا عليك ايتها الفتاة المسكينة . في المرة التالية سأحمل في يدي كسوة انسهرة لادفع عنك هذه المسبة ... الا انهما ـ حين خرجا من الدار ـ غلب عليها حب التحدي على الرغم من رغبتها في التستر والمداراة ، فخرجت وهي آخذة بذراعه كأنما تغيظه هو او تغيظ المتفرجين !

وتقرأ أوربا كما تعبد أزياءها ولكن ماذا تقرأ ؟ ان شئت فلا مانع من بيرون وشوبنهور ، على شريطة ان يوصيها بقراءتهما رجل يفهمها وتفهمه ، وان تقرأ في ديوان بيرون قصة دون جوان ، وان تقرأ في القصة أنباء خلاعته وعيثه بين مخادع الجواري الحسان في قصر السلطان ، اما شوبنهور فيجب

ان يكون كله على وتيرة مقاله في الحب والشهوة بين الذكـر والانثـى وليتشاءم بعد ذلك ما استطاع !!

عاطفتها حية غير انها مشغولة بشاغل واحد ، فلا تهمها الشفقة على المظلومين والمنكوبين ولا تهمها المظالم والنكبات ، لا لانها قاسية ولا لانها مغلقة جاسية ، ولكن لان مكان الشفقة مشغول مستغرق ، فلو خلا جانب منه برهة لما استعصى على الشفقة ان تنفذ اليه او تطغى عليه .

وكأنها الطيارة المحلقة وكأن نزواتها هي القوة الدافعة لها في الفضاء فاذا دفعتها فهي ناهيك من حركة وصعود وهبوط وان وقفت لحظة فهـي حجر ملقى على التراب،ولسان حالها في العواطف الانسانية ان تقول لرجلها: اشفق انت وتمرد على الظالم واعن بما تشاء ، وانا وراءك الى حيث تقودك قدماك .

وهي وثنية في مقاييس الاخلاق كما هي وثنية في التدين ، لا تؤمـن بالعصمة الانسانية في احد ولا في صفة ،وشديدة الايمان بضعف الانسان مع أضعف المغريات ... استطرد الحديث يوما الى جان دارك فقالت هازئة : كم رجلا يا ترى عرف انها عذراء ؟!

فقال لها همام : انها عذراء بشهادة الطب وشهادة الخواتين الموقرات

فقالت : لقد شهد لها اضعاف هؤلاء بالمعجـزات ، فهـل تصدق معجزاتهـا ؟

وكان من دأبها ان تحب الغلبة في المناقشة على طريقة كل أنثى مـع تنوع الاسلوب والعبارة ، فاذا عز عليها الجواب راغت منه وغيرت مجرى الحديث ، او تقول حينا : اسكتني وما اقنعتني ! وحينا آخر : ناقشني يا أخي ناقشني ولكن بحق السماء والارض عليك لا تكتفني دع لـي

يا أخي حرية الكلام !! ••• فهي تريد جوابا يروقها ويترك لها باب الكلام مفتوحا بغير انتهاء •

فلما سألته : هل تصدق معجزاتها ؟ قال نعم ••• اصدق انها صنعت المعجزات ، وجاءت بخوارق العادات ، ولكنها معجزات انسانية لها اسباب انسانية ، وان تضاربت فيها اقوال المفسرين من المؤمنين وغير المؤمنين •

ثم قال : والفرق بعيد مع هذا بين شاهد يقص ما تراه العين وشاهد يقص ما يخيله له الايمان ••• فشاهد العين مصدق ، وشاهد الايمان لا يلزمنا تصديقه الا اذا جاريناه في ايمانه •

قالت : هذا قميص الكتاف يا أخي ! هذا قميص الكتاف !

■ □ ■

ومن الصعب ان تفهم ما يرضيها اذا اتهمت امامك اخلاق الناس جميعا وراحت تقدح في دعاوي الصداقة والوفاء والفداء ، فليس يرضيها ان تكون على رأيها لانها تحب الرجل اريحياذا نخوة وحماسة وطموح الى عظائم الآمال والرغائب ، وتصديق بالوفاء والفداء •

وليس يرضيها ان تناقضها وتضطرها الى التسليم ، لان الاكراه مكروه على كل حال •

ولكنها اذا كانت تجاري طبيعة المرأة في حب الجدل والثرثرة والعناد فهي تجاري طبيعة المرأة ايضا في اعجابها بطموح الرجل وصلابته واحلامه، وربما استراحت الى الشعور بقوة عقله كما تستريح الى الشعور بكل بأس ، فيه فما كان يدري همام هل يناقضها او يجاريها فيما تقول ••• وتلك حيرة يعالجها كل من عالج النساء •

قصت عليه مرة قصة صديق لزوجها أرسله اليها « وسطاء الخير » ليسفر في الصلح بينها وبينه •

قالت : فهل تدري ما صنع ؟ انه جاء يغازلني ينفخ في جمرة الغضب بيني وبين زوجي !

ثم قالت : ما أكذب الصداقة في هذه الدنيا !

قال همام وقد اراد ان يعابثها ويسليها : ان صاحبنا لمعذور • وان الاغراء بالخيانة لعظيم •• فليت جميع الاصدقاء لا يخونون الا باغراء كهذا الاغــراء •

ثم ضحك ، وضحكت ، وتماجنت في الضحك وراحت تقــول له : أراك ضننت علي بقميص الكتاف اليوم ؟ لا • لا • انني اريد اليوم قميص الكتاف ••• قل • قل أليست كل صداقة في هذه الدنيا لغرض ؟ هل يصادق الناس احدا الا لمال او جمال او سلطان او نحو ذلك من الذرائــع واللبانــات ؟

قال همام : ومن لم يكن له مال ولا جمال ولا سلطان ولا مزية مــن المزايا فهل هو انسان يستحق صداقة انسان ؟

فوثبت وصفقت كما يصفق الطفل الارعن قد ظفر بالأمنية الممنوعة، وجعلت تقول :ها هو ذا قيمص الكتاف • ها أنت اذا اخيرا يا بني اواقبلت عليه تقبله وتناوشه ، وتبذل له ذخيرة من السرور ، كأنها فاكهة مترعــة برحيقها ليس لها قشر ولا بذور •

وهي على ولعها بحديث الاكاذيب الشائعة في اخلاق الناس وعودتها اليه آونة بعد آونة لم تنع على الناس اكاذيبهم قط بمرارة الناقم واستخفاف المتشائم ، وانما تتحدث بها كما تتحدث بصفحة من الطعام الشهي لــم يتقنها الطاهي •• ولا حرج ان تمضي في حديث انتقادها بعد ازدرادها •

فهي لهذا يصح ان تسمى « وثنية » في تقويم مقاييس الاخلاق ولا

يصح ان تسمى متشائمة او ناقمة على الناس ٠

■ □ ■

أما مذهبها في « الكرامة » فمذهب خليق ان يخيف من يحب لها الكرامة ، ويود ان يأوي من كرامتها الى حصن منيع على الطراق ٠

وأحسن ما توصف به الكرامة على مذهبها انها « كسوة اجتماعية » لا يخلعها المرء في المجالس ولا يلبسها ممزقة او مرقعة او موصومة ٠ فعيوب الكرامة وعيوب الكساء سواء في هذا القياس !

اذا قيل امامها ان فلانة اباحت نفسها لخادمها قالت — وهي تزعم المناقشة حبا للمناقشة — ان المرأة قد تهفو هذه الهفوة وهي لا تنظر الى مثل ذلك الرجل الا كما تنظر الى حذاء ٠ وليس كل رجل يصل الى فراش المرأة يسودها ٠ بل هو قد يكون خادمها في ذلك الفراش ٠

واذا قيل لها ان فلانا ضرب حبيبته قالت : وهل ضربها الا لانه يحبها ؟ ان المرء ليضرب نفسه في الحائط اذا بلغ به الغيظ ذلك المبلغ ، لو كان ضرب النفس يشفي غلة المغيظ !

واذا قيل لها ان امرأة في التاريخ او في قيد الحياة تهالكت على اللذات قالت ان المرأة لا تتهالك على اللذات الا ان تفقد الرجل الذي يفوق اللذة في روعها فتحب الرجل لاجل اللذة بدلا من ان تحب اللذة لاجل الرجل الذي تهواه وتستكين اليه ٠

وما نفرت قط من مذمة خبيثة عن مبدأ وعقيدة ، وانما تنفر من جميع الاشياء التي تأباها كما ينفر المرء من طعام يعافه : فهي مسألة ذوق ورغبة وليست مسألة شرف واعتقاد ٠

ومثل هذه الكرامة لن تعصم صاحبها ان يقارف اخبث المنكرات ،

كلما حلت له وغفلت عنه عين الرقيب .

ويحار طبيب الاخلاق كما يحار طبيب الابدان في ايواء هذا المزاج الى مأواه من الصحة والداء . أفمن كانت كذلك في نزغاتها وخلجاتها أتكون في رأي الطب امرأة سليمة مستقيمة علــى سواء الطبيعــة ؟ ان الاغراق يستلزم الزيغ والاختلال في التركيب .. ولكن أي اختلال عسى ان يكون في تركيب الجسم الذي يندمل جرحه بعد يوم ويقضي النهار والليل في صبارة الشتاء بلباس الصيف ولا يدري ما الزكام ؟ كل اختلال يجاور هذه المناعة هو اختلال عجيب الجوار عميق القرار .

أكبر الظن ان الفتاة على مابها من جموح وشطط كانت وشيكة ان تستقيم وتتزن لو رزقت زوجا يوائم شوقها الى الرجولة ويغلق عليها منافذ الغواية . ولكنها خابت في الزواج فشقيت ، ولجت بها الشقاوة حين كفرت بصداقة الصديقات ومؤاساة الشقيقات ، فعاشت في عالم قد اقفر مــن جنس حواء الا ان تكون منافسة مريبة او عاذلة رقيبة ، ولم يبق فيــه الا رجــال !

وُجُـــوهٌ

ذو الوجهين منافق ، وذو الوجه الواحد ميت !

يعيب الانسان ان يصنع له نفسا غير نفسه ووجها غير وجهه ، وان يبدو للناس بوجهين يلعن احدهما الآخر ، ويعلم انهما ــ كليهما ــ ملعونان

ولا يعيبه ان يكون له مائة وجه ينم كل منها على سمة من سماتــه ومعنى من معانيه ويعرض لنا من ذهنه وسليقته وقلبه في ساعة ماليس يعرضه في ساعة اخرى • لان كل وجه من هذه الوجوه حق وليس بكذب، وجوهر وليس بطلاء • وصفحة من كتاب لا تتم قراءته الا باستعراض جميــع الصفحــات •

ذو الوجهين في كل وجه من وجهيه كذب وطلاء •

وذو الوجوه المنوعة السمات ، المعددة الملامح ، المفرقة المعانــي ، راوية صادق الخبر يرينا كل يوم بينة جديدة على صدقه ، ولونا جديدا من تمامه ونقصه ، ونفسا جديدة في تعبير جديد •

والرجل الذي لا تختلف له صورة من صورة ولا تمثال من تمثال هو جماد يختلس عنوان الحياة •

والوجه الذي يصوره مائة مصور فيخرجون جميعا بطابع واحد لا يتبدل هو جدار في هيئة انسان ، ولكنه جدار لا تختلف عليه الظلال والالوان •

لنابليون بونابرت مئات من الصور الشمسية والزيتية ، ولا نذكر الا صورة واحدة لنا حين نبصرها لاول وهلة : هذا وجه ايطالي لامراء •• ! فلولا اننا نعلم ان نابليون ايطالي من شعبة ايطالية لقلنا ان الصورة كاذبة، او ان فراستنا هي التي كذبتنا ما رأيناه ، ولكننا نعلم انه ايطالي من شعبة أيطالية فالصورةاذن اصدق من جميع الصورة التي خفيت فيها ملامحه الايطالية ولم تبرز لنا البروز •

وجمال الدين الافغاني يختلف المترجمون فيه هل هو من الفرس او من الافغان ؟ ولكن صورة من صوره التي ترتسم فيها عيناه القلقتان الوامضتان وصدغاه الناتئتان وشفتاه العصبيتان تفض الجدال وتقول فيه اصدق مقال ان هذا الوجه لافغاني ولو ولد في البلاد الفارسية • وانه لافغاني ولو نماه اليهم قوم من الفرس ، ونفاه عنهم قوم من الافغان •

وليس منا الا من يعرف صاحبا يحاول ان يخفي بعض مثالبه او بعض سيئاته ثم يلتقطه المصور التقاطا فاذا هو حاسر الطبيعة بغير نقاب ، على كره منه وعلى كره من المصور • ولعله هو نفسه يرى الصورة فلا يفطن لما كشفت من امره ، لانه يفهم افشاء الكلام ولا يفهم افشاء السمات والقسمات •

وليس من اللازم اللازب ان يطول الزمن بين الصورتين المختلفتين للوجه الواحد ، فأني لاذكر اني رأيت صورا ثلاثا لطفل واحد في السنة الاولى من عمره أخذت في ساعة واحدة في مكان واحد تذكارا ليوم ميلاده : ترى احداها فلا تملك ان تقول : ما اشبه هذا الطفل بأبيه ، وترى

الثانية فلا تملك ان تقول : ما اشبه هذا الطفل بأمه ، وترى الثالثة فتستطيع ان تقول انه ليشبهأمه كما تستطيع ان تقول انه ليشبه اباه .

ويصدق هذا على كبار السن كما يصدق على صغارها فلا يندر ان يلتفت الانسان التفاتة خاطفة على غير قصد منه امام المرآة فيلوح له شبه من عمومته او شبه من خؤلته لم يكن قبل ذلك يلمحه في صفحة وجهه وقد تنصرم السنون ولا يلمحه مرة اخرى الا في مثل تلك اللفتة الخاطفة

وأعرف أبا مشهورا له خمسة من الابناء الذكور يجلس كل منهم الى جانبه فلا تخفى المشابهة بينهما اقل خفاء ، ولا يحتاج الناظر الى فراسة ثاقبة ليعلم من فوره انهما ابن وأبوه . ثم يجتمع الاخوة الخمسة فلا يبدو بينهم هذا التشابه الا بفراسة المتأمل ، لتقارب الاصل وفروعه وتباعد الفروع متفرقات .

ومما لا ريب فيه ان سمات الاخلاق والافهام شيء يستكن في النفس قبل ان يبدو على اسارير الوجوه ، وانها شيء لا يزول من النفس وان زال اثره الظاهر في بعض الاحيان ، وانه على قدر معاني النفس يكون تعدد الملامح وتعدد الوجوه ، وعلى قدر تعدد الوجوه يكون الانس بالمنظر المتجدد والمحضر المتعدد ، ويقل السأم ويعظم الشوق والنشاط الى اللقاء.

وسارة كانت من ذوات الملامح والوجوه اللواتي لا يطالعنك بمنظر واحد في محضرين متواليين : تراها مرة فأنت مع طفلة لا هية تفتح عينيها البريئتين في دهشة الطفولة وسذاجة الفطرة بغير كلفة ولا رياء ، وتراها بعد حين — وقد تراها في يومها — فانت مع عجوز ماكرة افنت حياتها في مراس كيد النساء ودهاء الرجال . وتضحك ضحكة فتعرض لك وجها لا يصلح لغير الشهوات ، وضحكة اخرى — وقد تكون على اثر الاولى —

فذاك عقل يضحك ولب يسخر ، كما تسخر عقول الفلاسفة وألباب الشيوخ المحنكــين .

هي تارة ام رؤم تفيض بحنان الامهات حتى ليوشك ان تسع به اطفال العالمين ، وحسبك ان ترسمها هكذا ولا تضع في احضانها طفلا يرضع ولا الى جانبها طفلا يدرج ، لتستحق الصورة عنوان الامومة .

وهي تارة أخرى شريدة بوهيمية لم تستقر قط في دار ولا وطن ، وما استقــرت قط مــع عشيــق .

لها صورة الى جانب سرير لو نحيت عنها السرير جانبا لمثلت لــك راهبة خاشعة تهم بالصلاة ، او ضحية من ضحايا الآلهة تساق الى محراب القــربــان .

ولها صورة على سفح الهرم لو اخفيت منها الهرم لخلتها حوريــة مخمورة في ارض يونان القديمة تهم بالرقص في كروم باخوس .

وكان همام يراقب هذه الشخوص ويتصفح هذه الوجوه وهو مغتبط تارة ومشفق تارة اخرى ، ويعزو تقلبها واطرادها الى الفتوة الحية التــي لم تحبس في محابس الافكار والعادات والتقاليد ، فهي ابدا في ايــدي العواطف والنوازع كعجينة الخلق المهيأة للصوغ والتركيب في كل ساعة .

وخطر له ان ينشىء حولها رواية مسرحية هي جميع ابطالها وهــي البطل الوحيد فيها ، تدور محاوراتها على المثال الآتي :

سارة : اني لا ارضى ان اصاحبك في الطريق وانت في هذه الثيــاب الفاضحــة .

سارة : وهل تحسبين انني اسر بمصاحبتك وانت بهــذه السحنة العابسة وهذه المسوح المحزنة وهذا الزي الذي يشبه زي الحداد .

سارة : على رسلكما ايتها الصديقتان ، لا تتخاصما ولا تشرعا فــي

تمزيق ما عليكما من ثياب . انها تستركما على كل حال ، وانتما ضيفتاى غدا ...فهل تحضران الى وليمتي وقد شحذت كل منكما أظافرها لصاحبتها؟ لا عليكما من المصاحبة في الطريق ... احضرا من طريقين مختلفين ولتكن كل منكما في الثياب التي تروقها ، فأنتما تعلمان اني احبكما ، ولا انكر منك يا سارة شفوف الخلاعة ، ولا منك يا سارة مسوح الرهبانية !

سارة : وهل عندك وليمة غدا ؟ من دعوت اليها غيرنا من السيدات ؟

سارة : دعـــوت سارة و ..

سارة : سارة ! اخشى ان تكون تلك الفتاة التي لا تتحدث ابدا الا عن زينتها وجواهرها وحلاقها ومواشطها .

سارة : لا بل هي سارة التي لا تتحدث ابدا الا عن وليدها .

سارة : ها اناذا قد حضرت في غير الموعد الملائم على ما يظهر ... وآسف لاني قطعت عليكن لذة الاغتياب فالغيبة لذيذة . ولا سيما غيبـــة الصديقـــات .

سارة : لم تقل عنك شيئا . وانما اردنا تعريفك فقلنا انها هي سارة التي تحب وليدها العزيز ولا تفتأ تتحدث عنه .

سارة : وأي عجب في ذلك . الا تحب الام وليدها ؟ وهل للمرأة فخر اشرف واشهى من الامومة .

سارة : اخطأت يا صديقتي . ان فخر المرأة جمالها .

سارة : بل فخر المرأة ذكاؤهـــا .

سارة : بل فخر المرأة من تحبه ويحبها .. ويحي ويحي ! ...

لقد كانت المشاجرة بين اثنتين فما زلنا حتى جعلناها بين اربع

سارة : وان شئتن فلتكن بين خمس .. علام تختلفن ؟ الا تسمحن لي بنصيب في هذا الخلاف .

سارة أهلا بك سارة ... ! أخشى ان تكون لك فرصة باقية لخلاف. لقد استنفدنا جميع الفرص بين قائلة ان فخر المرأة امومتها وقائلة ان فخر المرأة جمالها وقائلة بل فخرها ذكاؤها ، وقائلة لا هذا ولا ذاك ولا ذلك . بل فخرها حبها وغرامها .. فماذا انت قائلة بعد ما قيل . لقد ضيعت الفرصة يا مسكينة .

سارة : كلا يا صاحبتي ! لا تتعجلي بالرثاء لحالي . فقد نسيتن فخرا للمراة لا ينقطع عن الامومة ولا الذكاء ولا الجمال ولا الغرام . ولا ادري كيف نسيتنه هذا النسيان ؟ فخر المرأة عذابها يا اخوات .

سارة : صدقت يا صديقة !

سارة : ماذا تقولين ؟ صدقت ؟ يا للعار . هذا كلام العجائز هذا حديث خرافة . هذا مذهب عتيق اقدم من حواء والحية . انما خلقنا للسرور نأخذه ونعطيه . فمن نذر المرأة للعذاب لا اصاب في الدنيا غير العذاب !

سارة : ليسقط التمرد !

سارة : ليحي التمرد .

■ □ ■

ثم يتقاربن ويتلاحمن ويتسربن كلهن في شخص واحد ، يبقى على المسرح في ثياب الشرطة ! ويصيح : أين المشاجرة وأين المتشاجرات ..

■ □ ■

وقد تلا همام على سارة هذا الفصيل الصغير فاستملحت الفكرة وصفقت لها طويلا .

قال همام : كفاية . لقد ظفرنا بتصفيق الممثلة الوحيدة للرواية .

■ □ ■

ولم تكن هي في باديء الامر تفطن لهذا الذي يلاحظه همام من غرائب شخصها وطرائف ملامحها : انما كانت تعرف كيف تبدي بضاضتها في الثياب البيضاء ، وكيف تخيل لك النحافة في الثياب الدكناء او السوداء، وكيف تصفف طرتها بما يظهر من وجهها سمات الطفولة ، وكيف تصففها بما يكشف منها جانب الذكاء ويزين القسمات باشراف جبينها الوضاء ، وتلك صناعة تحذقها كل امرأة تلتفت الى محاسنها وتسمع رأي الرجال والنساء فيما يعجبهم من مرآها . لكنها لم تكن تلتفت الى ما وراء ذلك من تقلب المعاني وتعدد الشخوص .

فانهما لفي يوم رائق صاف جميل الاصيل وهمام يتأمل وجهها الذي تبدل الاشعة والظلال من معانيه كل لحظة ، وتبدل العواطف والخلجات من ملامحه كل فترة ، اذا به يهتف فجأة بكلمات لا مقدمة لها ولا سابقة لتفسيرها .

كم لك من وجوه يا سارة ؟

فانتفضت في ذراعه ، وحسبت انها مقدمة لاتهام وملاحاة ، وهما يستمرآن نعيم ذلك اليوم الرائق الصافي الجميل ، وقالت . ماذا تعني ؟

قال : هدئي من روعك . انما ثناء اردت لا ملامة ، وأخذ يشرح لها ما يعنيه كأنه يحدثها عن امرأة غائبة او عن شخص من شخوص الروايات ، وهي تصغي اليه ، ثم مستريحة ، ثم مبتسمة ثم طروبا متهللة ، وهو يرى فيما يرى مصداق ما يلاحظه عليها ويحدثها عنه ، حتى كان ختام الحديث اقتراب الشفاه بداهة وطواعية . .ثم نكتة من نكاتها التي لا تخذلها في أمثال هذه المواقف ، القتها اليه وهي تتناءى عنه مرحة ضاحكة :

احمد ربك . عندك من سارة المظلومة حريم كامل ، فلا تشكر نفسك كثيرا على الوفاء !

كيف عرفها

ترتيب الحوادث ان تنتهي ثم نكر راجعين للسؤال عن بدايتها وسبيل التواريخ ان تنطوي السير وتنصرم الدول ثم نتقصى مناشئها وأسباب ظهـــورهـــا .

فنحن لا نحيد عن مجرى الزمان حين نعرف الساعة كيف تلاقت سارة وهمام ، بعد ان عرفنا منذ برهة كيف كانت القطيعة وكيف كان اللقـــاء الاخـــير .

لم يقصد همام ان يلتقي بسارة ولم تقصد سارة ان تلتقي بهمام وانما جاء اللقاء كما تجيء معظم الحوادث الكبرى في معظم التواريخ والسير : من زواج وفراق ورحلة واختيار مساع واقتحام غيوب ، مصادفة لا يسبقها عمد ، وعرضا لا يمهد له بتفكير .

خرج همام يتمشى في الخلاء ضحوة من ضحوات الخريف التـــي تبتهج فيها الشمس في هدوء ، ويرقص فيها الهواء في حنين ، ويرق فيهـــا الجـــو في تشوق وارتقاب ، وتطرح فيها النفس اعبـــاءهـــا كما تطرح القافلة احمالها عند مشارفة الواحة المبشرة بالماء الغزير والظل الظليل : ريثما تنهض بالعبء من جديد .

ماذا عسى أن يكون العبء المنظور ؟

لا تقول الشمس ، ولا يجيب الهواء ، ولا يشف عنه الجو ، ولا تحفل النفس ما يكون ، حتى يكون ... ان كان !

ويعود همام من رحلته وقد علق جميع همومه وأجل جميع نياته ، وأصبح جزءا من الشمس والهواء والجو ، ولم يعد جزءا من عالم الانسان .

وألفى نفسه وهو عائد الى منزله على مقربة من مسكن صاحبه الاستاذ زاهر ، وهو رجل ظريف طيب النحيزة من أولئك الذين يرضون فيسلون ويطربون ، ويسخطون فيكونون أدنى الى التسلية والطرب ، لطرافة ما يرتجله في هذه الحالة من مفارقات اللذع والتنديد .

وكان يومئذ يسكن في بيت من بيوت الحجرات المفروشة تديره خائطة فرنسية ليكن اسمها « ماريانا » ... فدلف همام الى المنزل يزور صاحبه ويقضي معه فترة يقفزان فيها بين معارض الحديث التي لا وصلة بينهما ، ويضحكان ضحكا كثيرا ، ان لم تكن فيه فكاهة عالية ففيه ولا شك تمرين نافع للرئتين .

ووجد « ماريانا » في فناء الدار تطعم الديكة الرومية التي عندها صفحة من « المكرونة » البائتة ، وعندها فتاة مليحة يصعب تقدير سنها ، لانها تصلح للعشرين كما تصلح للخامسة والعشرين ، وتسمى آنسة كما تسمى سيدة ، وهي مشغولة بكساء تقلبه وتمعن النظر فيه .

قال همام : أسعد الله الصباح . أين زاهر يا مدام ؟

فردت تحيته بمثلها ، وقالت : أو لا نراك الا زائرا لزاهر ؟ ؟ انه خرج منذ هنيهة على أن يعود بعد قليل .

والتفت همام الى صفحة المكرونة قائلا : أرى أن الديكة اليوم ايطالية وليست رومية !

فلم تجب ماريانا بغير ابتسامة عريضة ، وانما أجابت الفتاة قائلة : ان كان الجنس بالطعام فالديكة هنا عالمية لا تدين بجنس من الاجناس : مصرية ان أكلت الفول المدمس ، وانجليزية ان أكلت البطاطس ، وهندية ان صبرت على الصيام الطويل •

فنظرت اليها « ماريانا » نظرة العتب المصطنع ، واستظرف همام جوابها واستغرب مشاركتها في الحديث في وقت واحد ، ورحب مع ذلك بهذه المشاركة التي أحس لتوها أنها وافقت هواه ، وأنه كان يسوق الحديث اليها ان أبطأ المساق •

قال همام : ان الآنسة تعرف كل شيء عن ديكة البيت وتذبذبها في الوطنية ، ولكني لا أذكر أنني رأيتك هنا يا آنسة قبل الآن •

ماذا يقول ؟ أيقول لا أذكر أنني رأيتك ؟ أكان من الجائز اذن أن يراها ويهملها وينسى أنه رآها ؟

أحس همام أيضا أن الكلمة لم توافق هواها ، وسمعها تجيب بشيء من الامتعاض المكتوم كأنها تخاطب نفسها :

ولماذا تدعوني يا آنسة ! أتستصغرني ؟ انني ربة بيت ، وأم !

■ □ ■

يا للمرأة ! أتريد أن يفهم أنها غضبت لانه دعاها يا آنسة ؟ لا والله ! لقد كان بريق الرضى بهذه التسمية يومض في عينيها ••• انما عز عليها أنه جعلها شيئا مهملا يجوز أن يراه مرة أو مرات ثم ينساه ، فأسفرت عن الغضب وسترت السبب ، وتوارت وراء حجاب المجاملات والالقاب •

فأحب أن يغيظها قليلا وعاد يقول : ولكن السيدات يـا آنسة .. يلبسن في أصابعهن علامة تسمى خاتم الزواج . فأين هذه العلامة ؟

قالت : لذلك شرح يطول .

قال : عسى أن أسمعه في وقت قريب .

ثـم اقتضب الحديث والتفت الى شيخ متهدم يعبر الفناء ، فسأل الخائطة : أهذا ضيف جديد عندك يا مدام ؟

فزمت شفتيها لا يدري أهـي مشمئزة من الرجل أم راثية لحاله ، وقالت : ضيف ولكن لا أظنه طويل المقام . ألا تراه يتعثر بقدميه ؟ وفي أقل من دقائق لا تتجاوز الخمس عرف همام والفتاة كل ما تعرفه « ماريانا » عن الرجل وعاداته وأطواره ، وثروته التي تربى على الالوف ، ولا وارث له ولا قريب ولا قريبة تلوذ به في شيخوخته الكئيبة .

قال همام : وما حاجته الى البحث عن وارث ؟ ان الورثة يبحثون عنه ولا يقصرون « عند اللزوم » .

قالت : ألا يحتاج الى من يعوله ويواسيه ويحف بـه وهو يودع دنيـاه ؟

قال همام : ان كنت يا ماريانا حريصة على خروجه مـن حجراتك فانصحي له بكتابة اعلان في الصحف السيارة ، يقول فيه أنه يملك كذا من الالوف ويحتاج الى كذا من الاخوان وأولاد الاعمام وأولاد الاخوال ، وانظري كيف يضيق بيتك عن الطالبين والطالبات ممن « آنسوا في نفوسهم الوفاء بالشروط » .

فنسيت الفتاة غضبتها الصغيرة واندفعت ضاحكة ، وما زالت حتى أجبرت هماما ــ وهو في غنى عـن الاجبار ــ أن يحول الحديث اليها . فسألها قائلا :

وأنت يا سيدة . نعم أنت يا سيدة في هذه المرة : لاية قرابة ترشحين نفسك اذا أعلن الرجل اعلانه ؟

فهزت رأسها تفكر . ثم قالت : أوفرها نصيبا في الميراث ؟

قال : لا تكونين اذن الا زوجة ؟

قالت ما معناه : فأل الله ولا فألك . أي غرام غرامك هذا بذكر الزواج والزوجات والازواج ؟ .. ثم رفعت رأسها متأففة كأنها تطوي حديثا لا تحب أن يجري لها على لسان ، وهي في الواقع تود لو أفرغت كل مـــا في جعبتها من ذلك الحديث ، أول ما تسعف المناسبة وتبدر من همام بادرة اغـــراء .

قال همام : لا تؤاخذيني ان ذكرت الزواج مرة أو مرتين ، فانني لم أتزوج قط ولا خبرة لي بهذا الجانب من مزعجات الدنيا ..

قالت : أصحيح ؟ .. لقد أراحك الله . فبأي جانب مـــن مزعجات الدنيا أنت خبير ؟

فأسرع همام قائلا : لذلك شرح يطول !

قالت : يـــا لك من منتقم .. علـــى أنك تستطيع أن تطمئن كـــل الاطمئنان ، فانني لا أكلفك عناء هذا الشرح ولا أستطلع دخائل شأنك .. لست فضولية بحمد الله .

قال : واذا كنت أنا فضوليا ؟

قالت : اذن يختلف الامر .

قال : كيف يختلف ؟

قالت : يلوح لي أنك كما وصفت نفسك : أنت فضولي ولا فخر .

قال : ليس مع كل الناس .

قالت : تحيات وغزل .. ! وعما قريب : عيناك ووجنتاك وأهواك ولا أنساك ، الى آخر هذا الموال المحفوظ .

قال : ولماذا عما قريب ! .. الآن !

قالت : أنت عجول ، وأنت جريء أيضا .

قال : ان وعدتني أن أجني للصبر ثمرة ، فأنا أصبر من أيوب ، قوليها كلمة واحدة وأنا لا أتعجلك شيئا ، وأنصرف الآن !

قالت : وصاحبك الذي تسأل عنه ؟

قال : ها ... يلوح لي أنني أعجبتك ! وأنك تسبقينني !

قالت : لولا أنــك تمزح لقلت أنــك مغرور غروركم كلكم معشر الرجال . لا تتكلم الواحدة كلمتين مع واحد منكم حتى يحسبها مجنونة بهــواه .

قال : أو يحسب أنه مجنون بهواها !

قالت : طيب والله لقد قطعنا شوطا بعيدا جــدا في نصف ساعة ولا أدري ما خطب « ماريانا » سامحها الله ؟ أين ذهبت وتركتنا ؟ ألعلك على اتفاق معها أن تهيىء هذا اللقاء ؟ .. ما في ذلك من عجب ، فهكذا تصنع الخائطات فيما يقال .

وسمعت « ماريانا » اسمها فعادت تهرول وتتساءل : ماذا تقولين عني يا سارة ؟

قال همام : انها تتهمك بأنك تدبرين عن عمد خلوة غرامية بين هذه الديكة وهذه الدجاج !

قالت ماريانا : أنا أعلم على الاقل أن الدجاج لا تحتاج الى من يدبر لها الخلوة مع الديكة !

قالت الفتاة : قاتلك الله يا عجوز السوء . لماذا تنصلين من التهمة ؟ أما كان الاولى أن تتمهلي لمحة لعلي كنت أنوي أن أشكرك على ما صنعت ؟

فطاش الفرح بهمام ، وأوشك قلبه أن يفلت من نياطه ، وانتشى نشوة خمسين كأسا في رشفة واحدة ، وقال وهو يهجم على « ماريانا » : بل دعى لي أنا أن أشكرها . انني أقبل وجنتيها ، .. انني ألثم فاها .. وصنع ما يقوله قبل أن تفيق « ماريانا » من دهشتها وقهقهتها . ومال الى الفتاة قبل أن تدري ما هو صانع قائلا وأقبلك أنت أيضا اكراما ... لماريانا . وقبلها !

ثم جلس مأخوذا بما حدث يتوقع ماذا تكون الكلمة الاولى التي تلفظها الفتاة : أتشتم ؟ أتصطنع الغضب ؟ أتنطلق من المنزل ؟

وكأنما كان التوقع هو شغله الشاغل في حينها دون ما يتبعه من ثورة أو مسامحة ، فاستطال الامد وما انقضت غير ثوان في توقع ما يكون . وزاده فرحا على فرح أن شيئا مما توقعه لم يحدث ، وان كل ما حدث أن الفتاة بهتت وراحت تقول شيئا لا بد أن يقال ، فقالت في صوت خافت : لقد آذاني شاربك الطويل !

■ □ ■

وتم التعارف بالاسماء .

واسترسل الحديث أصداء لا يقصدها القائل ولا يصغي اليها السامع، لحظة يسيرة ثم انقلب الفرح غما ثقيلا بغير منفذ وبغير دلالة . فان الفتاة لبثت تتكلم ويبدو من عينيها أنها تفكر في غير ما تتكلم . ثم خرجت ساهمة بغير استئذان الا حين قاربت الباب ، فقد انثنت تحيي هماما تحية من يؤدي « واجب اللياقة » لا تحية من يجامل في وداع .

قال همام : ما معنى هذا ؟

قالت « ماريانا » : لا عليك منها . انها ستعود يوما ما لا محالة .

قال : لست عن هذا أسأل ؟ فهل هي غاضبة ؟

قالت : مم تغضب ؟ أمن القبلة ؟ فلم لم أغضب أنا ! ؟

قال : خيبة الله عليك يا عزيزتي ماريانا ... دعينا من غضبك أنت ورضاك ، فانها هي القبلة الاولى والاخيرة بغير مراء ! ولئن رضيت عنها فما أنا براض ... ولكن الذي يعنيني ألا تكون قبلتها هي القبلة الاولى والاخيرة . فما رأيك ؟

قالت : ابغ لك مستشارا غيري . انني أعرف كيف أوفق بين الكسوة وصاحبتها . ولا معرفة لي بالتوفيق بين رجل وامرأة !

فلم يشأ همام أن يطيل الكلام ، ولم ينتظر صاحبه الذي لم يعد ولم يكن يبالي في تلك الساعة أن يعود . وخرج منقبضا متحاملا يلوم نفسه على خروج الفتاة ولا يلوم نفسه على تقبيلها . كأنما كان يستطيع الفصل بين الامرين ! .. وعادت القبلة الى شفتيه كأنها طيف يرف على مهاده الاول . حتى لقد أوشك أن يضم شفتيه ليلامس ذلك الثغر الذي لاح له أنه ينضغط وينضغط من لينه وطراوته الى غير نهاية ، وسرت لذعته الباردة كلذعة النعناع الذي هدأت سورته وبقيت ذكراه ، فازداد غما على غم . ولعن ذلك الشيطان الكامن في أعماق كل نفس يثير لواعجها وينكأ جراحها ، في حيثما احتاجت الى التهوين والنسيان .

وذهب الى المكتب فتلقاه الخادم قائلا : ان سيدة سألت عنك بالتليفون .

فلم يعره كبير التفات .

وعاد الخادم بعد فترة يقول : ان سيدة على التليفون تسأل عنك ، وأظنها السيدة الاولى •

فنهض همام الى التليفون وآخر مـا في ذهنه أن المتكلمة هي فتاة ذلك الصباح ، وقال بغير اكتراث : من المتكلم ؟

قال صوت كصوت الفتاة بعد التحريف المعهود في أداة التليفون : ألا تعرفني ؟

قال : عرفتك الآن • أنت سارة ولا ريب !

ولم يلاحظ هو ولا لاحظت هي أنـه حذف اللقب وخاطبها باسمها كما يتخاطب الاصدقاء الاقدمون !

قالت : أو كنت تنتظر هذه المحادثة ؟

قال : لا أزعم انني كنت أنتظرها ، ولكني أحسب أنني كنت أتمناها !

قالت : اذن هل تحب أن أراك الليلة في دار الصور المتحركة ••

قال : بل أحب أن نلتقي على انفراد • فذلك أروح وأسلم •

قالت : انما عنيت أن تشهد الرواية لانها تشبه قصتي تمام المشابهة • ويجوز أن تكون القصة مما يعنيك •

قال : لان أسمعها من لسانك خير من أن أشهدها مع مئات •

قالت : فأين اذن ؟

قال : ما رأيك في حديقة الاهرام ؟ انها مكان قلما يغشاه أحد في هذه الآونة ، وسنلتقي في زاوية من الطريق ونستقل سيارة مـن هناك الـى الحديقة ، وأسمع منك أو أقول لك كل ما تحبين •

■ □ ■

كان أول ما فاهت به وهي تجلس الى جانبه في السيارة أن قالت :

لا بد انك حسبتني مجنونة وقلت في خلدك : ما هذه الرعناء التي تقبل التقبيل ، ثم تخرج مغضبة ، ثم تتكلم بالتليفون ، ثـم تحضر الى الموعد طائعة ، فماذا حسبتني بربك ؟ قل لي ولا تكذب !

قال : على كل حال لست بآسف لجنونك ٠

قالت وأنت يا حضرة العاقل اللبيب الرشيد أما حاولت أن تفهم لماذا كان خروجي بهذه المفاجأة قبل أن ترميني بالجنون ؟

قال : مستفهما : أللامر علاقة بماريانا ؟

قالت : هـــو ذاك ٠ فلو أنني أطلت المكث لباخ الغضب بعد ذلك ٠ ولو أننا تواعدنا أمامها لوقعت في براثنها بلا رحمة ، فاما أن أطيعها في كل ما يعن لها ، واما التهديد والانذار ٠

فربت على خدها كأنها طفلة أجادت درسها ٠ وقال : انك لحصيفة يا هذه التي تنطلع مني الى تهمة الجنون ٠ ولكنها حصافة مخيفة ٠

ثم حكى لها ما قالته مريانا بعد انصرافها ، وكيف أنها تغضب حين قبلهـــا ! فكيف تغضب الفتيات الماجنات ؟ ٠٠٠ فأخـــذت تضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع ٠ وثابت الى الحصافة فأوصته أن يزور «مريانا» في اليوم التالي ويثابر على سؤالها بضعة أيام ٠ ثم ينسى المسألة كأنه ألقى بها في ذمة المصادفات ٠

وانطوت المسافة الى حديقة الاهرام بمثل لمح البصر ، وزعم همام وهو يناول السائق أجره أن سيارته أسرع ما أنجبته المصانع الحديثة ، وأنه حرام عليه أن يشترك بها في سباق السيارات ٠

وخف كل شيء في الدنيا حتى أشفقا أن يذهل قانون الجاذبية عـــن واجبه المرسوم ، وشعرا بهذه الخفة من حولهما ولا سيما حين بصرا بالمكان

خاليا من كل انسان . فانطلق الكلام كأنه ثرثرة الاطفال ، وانبعثا معا في خلق جديد .

وطلبا الطعام فظهر لهمام أن صاحبته من صاحبات النظام المتحذرات من كل ما يجلب السمنة في طعام وشراب . فصدفت عن كل ما اقترحه عليها الا صفحة شواء لا تشبع : فأراد أن يحذرها من القسوة على جسدها ، وقال لها ان بعض الاجسام اذا خف لـم تكن خفته على استواء واحد . فيخف هنا ويسمن هناك ويشوه من حيث يراد له حسن الهندام ، ولا ينال أصحابه الا الجوع والندم !

فنظرت اليه بعيني طفلة تخاف ، وسألته مستوثقة : أحق ما تقول ؟

قال : حق كل الحق . وسأريك اذا زرتني في المنزل صور التماثيل التي يعدونها في العالم بأسره نماذج لجمال الانوثة ، فـان تماثيل الزهرة التي صنعها اليونان — وهم أساتذة الذوق السليم — ليست على نحافة ولا ودقة في الخصور والاطراف ، ولكنها مثال الجسم المتين المنسوق . وسيفسد علينا سماسرة البدع الحديثة تنويع الجمال في بنات حواء . فأين نرى البضاضة والسموق اذ أصبح النساء وكلهن نحيفات هزيلات ؟ وكيف تتعدد القوالب اذا كانت المرأة لا تخلق لنا الا في قالب واحد ؟

وسرها ما سمعت فسألته عفوا :

أيعجبك اذن هندام جسمي على ما هو عليه ؟

قال متماجنا : ومن أين لي أن أحكم ؟

ثم أحجم عن التمادي في هذه النغمة ، وأيقن أنهما في هذه الخفة التي يشعران بها ليستطيعان أن يتحدثا عن الموت كما يتحدثان عن الرقص واللهو والمجانة ، وأحب أن يتحول الحديث الى قصة الزواج التـي وعدته أن

تقصها عليه ، والتي يتوقف على فهمه اياها أن يفهم مدى العلاقة التـي ستجمعه بهذه الفتاة الجالسة في تلك الساعة أمامه • فقال وهو لا يحذر من تنغيصها باستطراده :

ان كنت لا ترضين زوجا بالتماس النحافة فعلام كـل هذا العناء ؟ آهناك رجل آخر ؟

وصح ما قدره همام ، فكان جوابها على نغمة الخفة التي شملت في تلك الساعة كل شيء ، وقالت : أو تحسب أن المرأة لا تتزين الا لزوج أو حبيب ؟ انها لتتزين لنفسها • وانها لتتزين للرجل الذي في عالم الخيال ، ولو لم يكن له في عالم الواقع وجود •

واسترسلت تتهكم كأنما سألت نفسها وهي تسأله : أأرضي زوجا ؟ ألا ليت هذا كل ما يعنيني ! ••• اذن لاكلت قنطارا من الارز والزبدة كل يـوم !

واجتازت النقلة بين ارضاء الزوج وقصة الزواج في جملة أو جملتين• ثم انقضى نصف ساعة علم فيه همام صفوة ما أرادت أن يعلم • فلو سأله سائل : أصدقها في جميع قولها ؟ أعذرها في جميع فعلها ؟ لكان من الصعب عليه أن يجيب بالايجاب •

بيد أنه أدرك مما سمع أنها طفلة فقدت رحمة الامومة • ونمت وهي لا تعرف الا جماح الحيوية العارمة لا تمسكها هداية أم ولا تقوى على حبسها التقاليد الضعاف ، مع ذلك الذكاء الوقاد الذي لا تخفي عليه خافية الموانع والمحظورات ، وأنها لو سيقت الى زوج « يملأ عينها » ويحقق معنى الرجولة في رأيها وعاطفتها لاستقرت بعض الاستقرار وقنعت بعض القنوع• ولكنها أخطأت حظها من الزواج وبرمت بفراغ قلبها فلم تعذر الدنيا ،

والتمست لقلبها وحده جميع الاعذار .

قالت وقد سردت له قصتها :

أصغرت الآن في نظرك ؟

قال : أمني تطلبين الحكم ؟ أنا حاكم مغرض فــلا تنفعك الشهادة مني ، غير أني أقول ان الذين ينصفونك في الدنيا قليلون .

قالت : لا حاجة بي الى انصاف الدنيا . فلتحفظه لمن يطلبونه .

■ □ ■

ولقد رجعا من الحديقة الى الجيزة مشيا على الاقدام ، لم يتعبا ولم يشكوا طول الطريق . وجاء الترام فركبت في مقصورة النساء وركب مع الرجال .

وكان الموعد الثاني في بيت همام .

■ □ ■



آجل هي فتاتي لا مراء فيها .

ولئن خشيت حبا فانما هذه الفتاة التي يحق لـي أن أخشى حبهـا وأخشاها .

سنحت هذه الخاطرة في حدس همام مع سنوح سارة في أول الطريق طفرة واحدة .

وكان همام ممن يقيسون ارتقاء المرأة بسلوكها في مسألة المواعيد . فأبغض النساء اليـه المرأة التي تحسب سرور الرجل بلقياها سببا كافيا لتنكيده بالانتظار وتكديره بالابطاء في الحضور الى الموعد ، ولو كان في وسعها أن تسبقه اليه ... وعندها أنه ما دام راغبا في لقائها فلا يصح أن يهنأ بهذه الرغبة خالصة ويسعد بهذه المتعة صافية ، وعليه أن يبذل ثمنها نكدا لا ضرورة له وغصة لا حاجة اليها ، وهو صاغر راغم يحرق الارم ولا يعرف له حيلة غير الانابة والتسليم . والا فماذا هو صانع ؟

وجواب « ماذا هو صانع ؟ » هذه يختلف باختلاف الرجال واختلاف أنواع الهوى . أما جوابها عند همام فهو الانتظار خمس عشرة دقيقة على

الاكثر ريثما ينقضي أقصى المدى المفروض لاختلاف الساعات في التقديم والتقدير • ثم ينصرف ولا يسأل عن العاقبة ، الا اذا اتضح له بعد ذلك أن العذر مقبول •

فلما رأى سارة — وهو يراقب الطريق من وراء النافذة — قد أقبلت في أول الطريق قبل الموعد بدقيقتين أو ثلاث ، ولاحظ للمرة الثانية أنها تتحرى الدقة في رعاية المواعيد ، فرح بمعرفتها ورحب بالعلاقة بينه وبينها • وأوجس في حينها أن تنشب هذه العلاقة جذورها في فؤاده فيتبعها ما لا بد أن يتبعها من لواعج ونكبات وفواجع ، وأيقن أن هذه الفتاة تفهم كثيرا جدا • لان الفتاة التي تفهم أن لها قيمة غير قيمة الدلال المصطنع ، وأن العاطفة أنفس من أن تشاب بالتنكيد والتكدير لغير داع ، لهي صاحبة ذكاء مطبوع يفقه قيمة الزمن وقيمة الشعور وقيمة السرور ، ولا يقتصر ذكاؤها على النظر الى عقربي الساعة لادراك الميعاد !

وفي الحق أن سارة قد بهرت هماما بأشياء كثيرة في أول زياراتها لمنزله غير رعايتها للمواعيد •

فلو كانت تعرف ما يروقه ويستهويه من النساء معرفة تفصيل وتدقيق لحسب أنها تجوز امتحانا عسيرا وتتعمد أن تخرج منه بالتزكية التي ليس بعدها تزكية ، والشهادة التي ليس فوقها شهادة •

هـو قليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ولا مبالغة ، ويسمى المرح الذي يزين المرأة ويشوق الرجل مرحا « موقعا » تشبيها لـه بالغناء الذي ينطلق انطلاقا وينبعث انبعاثا ولكنه يقف حينما يحسن به الوقوف • ويسكن حينما يطيب منه السكون : يقف ويسكن لا على اقتضاب موحش وانقطاع ناشز ، ولكن على نغمة تفصل اللحن من

اللحن أو على قافية تختم البيت بعد البيت ، فهو الوقوف الذي يريح ويشوق ويزيد لذة الايقاع وطرافة السماع .

وهو يحب من المرأة الزينة التي تغري من يبصرها اغراء لا يخفى ، ولكنها لو أنكرته وزعمت أنها لم تتعمده ولم تفكر فيه لما استطاع أحد تكذيبها ببرهان .

وهو يحب المرأة التي تدرك الفكاهة ويكره التي تتخذ من فكاهتها صناعة أو معرضا مفتوحا في كل ساعة ، وأقرب دليل عنده على اتفاق المزاجين هو دليل « نيتشه » الذي يقول ان الضحك من نكتة واحدة هو العنوان الواضح على تقارب الضاحكين في المزاج والتفكير ، وما انفصل اثنان بفاصل هو أبعد من ابتعادهما في تمييز النكات .

وهو يحب ربة البيت التي تكون أول خادمة فيه لانها سيدته الوحيدة ، ويحتقر المرأة التي تأنف من تلويث يديها في مطبخها كما يحتقر الرجل الذي يأنف من تلويث يديه في حقله أو حديقة داره .

وهو يحب المرأة التي تستطيع أن تكون « انسانا » في بعض الاوقات بمعزل عن الانوثة والذكورة ، فلا تكون الانوثة الحيوانية هي كل وظيفتها في الحياة .

ولقد تجلى له كل أولئك من سارة في أقل من ساعة ، يوم جاءته في أول زيارة .

جاءته في زينة تلفت العين الى كل مزية في جسدها ، ولا تلفت النظر الى عيب في نفسها .

ولم يكد يستقر بها المجلس حتى نهضت الى أثاث الحجرة تضعه في مواضعه التي تهواها ، والى جوانب البيت تعيد تنظيمه على النحو الذي

تود أن تراه ، والى المطبخ تجول فيه بنظرة فاحصة تدرك لاول وهلة كيف طهيت كل صفحة ، وكيف أعدت كل طبخة وكيف لوحظت النظافة في التحضير والغسل والتجفيف •

وحان وقت المائدة فقدم لها « الديك » قائلا : هذا اعتراف بفضل الديك في تعارفنا ، وتمهيد محادثتنا الاولى •

فما أسرع ما قالها حتى بادرته متهانفة : لا أحب يا صاحبي أن تعرف لي فضلا على هذه الطريقة !

فطرب للنكتة ووجم في وقت واحد ، ولو كان يتوقع عند فتاة صغيرة هذه الفكاهة الماضية لاحترس بعض الاحتراس ، ولكنها فاجأته بها فوجم ولم يسعه الا أن ينقذ نفسه وهو يردد في شيء من التلعثم : ان كنت لا تأبين أن أمزجك بدمي ولحمي وأن أجعلك جزءا مني فالطريقة لا تهم ، وأنت أكلة شهية تطيب لي بغير حاجة الى السكاكين والقدور !

وكان حديثها على المائدة ــ وقد استغرقت ساعتين ــ على هذه الوتيرة من أمتع وأفكه ما تكون أحاديث الموائد •

لاحظت أنه لا يأكل من صدر الديك ويقصر اختياره على الجناحين والوركين • فقالت : كان من حقنا أن نتزوج ، فنحن زوجان طبيعيان : أنت لا تأكل الصدر وأنا لا آكل غيره ، فلا يشجر بيننا نزاع •

قال عفو الخاطر غير عامد لما يقول : هذا مذهب شوبنهور منقولا الى المطبخ !

وأحس أنه أقحم شوبنهور في غير مقحم : أعلى المائدة ومع فتاة يدار ذكر هذا الفيلسوف المتشائم عدو النساء ؟

وإنه ليهم بتوبيخ لسانه والتراجع الى موضوع غير هذا الموضوع

الذي أثاره ، وإنه ليريد أن يأخذ عليها سبيل السؤال عن شوبنهور ومذهب شوبنهور اذا هي تلاحقه قائلة :

نعم ، القصير يطلب الطويلة والابيض يطلب السمراء ، والبدين يطلب النحيفة ، ومن يأكل جناح الدجاجة يطلب من لا تأكل الجناح ... هذا تطبيق صحيح لمذهب الفيلسوف .

فراعه تعقيبها وسرعة التفاتها الى « محل الشاهد » كما يقولون أضعاف ما راعته نكاتها ، ولمحت هي دهشته فاستطردت تقول : على رسلك ! لا تخف ولا تعجل ! فلست بحمد الله فيلسوفة ، وما قرأت شوبنهور الا لان « أحدا » أرادني على قراءته ، ولان تفهيمه اياي كان ذريعة اللقاء بيننا ، وما كان بالجائز أن يحضر الي ليفهمني رواية أو مقالة ممتعة ... فلم يعد لنا بد من الفلسفة وأمرنا الى الله ! ! فأغرب همام في الضحك ، لانه تخيل شوبنهور العظيم بوجهه العبوس وعينيه الظريفتين تبرقان من الحرد والسخرية وهو يسمع بأذنيه كيف انتقمت منه امرأة وهزئت به ، وسخرت فلسفته لغرامها .

وأثنى همام على صراحة سارة وقلة دعواها ، واطمأن الى سياق الفلاسفة والشعراء فقال : الآن أمنت مرة أخرى أن صديقي «هيني» خبير بالنساء في جده ومزاجه ...

قالت : ومن صديقك هذا هيني ؟

قال : لا تنهيبي ، فليس هو بفيلسوف مغلق ، ولا هو بالكاتب الذي يحوجك الى ترجمان أو مفسر ، ان حلا لك أن تقرأيه وحدك فهو شاعر سلس سائغ ، وما أحسب له نظيرا في الدعابة وخفة الروح .

قالت : أصحيح ؟ وماذا قال عنا معشر النساء هذا الشاعر الظريف ؟

قال : انه ضجر من سيدة دعية لهــا عين واحدة تتطفل على الادب فكتب عنها يقول : كل امرأة تكتب فانما تتجه باحدى عينيها الى القرطاس وبالعين الثانية الى رجل ••• ما عدا فلانة طبعا ••• فان لها عينا واحدة كما يعلم القراء !

فراقتها غمزة الشاعر للمرأة الدعية ، وقالت : أما من جهتي أنا فاني لاقر وأقسم بين يديك وبين يدي الله أن هيني لظريف وانه لصادق ، فما تقرأ المرأة الا عن رجل أو بسبب رجل ، وكل ما عدا ذلك كذب وادعاء •

وتشعب الحديث ، وتفتحت مغاليق الاسرار من الجانبين ، وفي غير مناسبة ظاهرة سألته وفي عينيها خبث كخبث الاطفال المناوئين :

كم عمرك يا همام ؟

قال همام : دعي هذه المحرجات يــا بنية • فان أبيت الا الالحاح فسأخبرك على شريطة واحدة ، وهي أن تخبريني أنت ــ بداءة ــ لمــاذا تسألين ؟

قالت : ولم ؟ أيتغير عمرك بتغير أسباب السؤال ؟ على أنني لا أنوي أن أدعك تطيل التخمين ، وأريد أن أفرض لك اثنتين وثلاثين سنة اذا كنا متفقين في نسبة السن كما اتفقنا في غيرها من المقارنات •• فانني أنــا في الثالثة والعشرين ، وينبغي أن يكون عمر المرأة نصف عمر الرجل مضافا اليه سبع سنوات •

قال : بل تسمحين أن يكون عمرك خمسا وعشرين ليتفق الحساب من الطرفين ، وأقسم لك أنني ما أسقطت يوما واحدا ، وانك أسقطت السنتين الناقصتين ! !

■ □ ■

من الواجب أن نعرف لايام النعيم وداعا غير وداع الاسى والانين الذي اصطلح عليه شعراء الاصطلاح في بعض العصور العربية .

فمن الخيانة للسرور عند هؤلاء الناس أن تلوح له ساعة وداعه بمنديل غير مبلول ، وأن تفرغ منه شبعان راضيا عن الشبع شاكرا للزاد ، خاليا بذكرياته للتملي به والتأمل فيه .

وشعراء الاصطلاح جهلاء بالانسان لا يدرون ما الاسى ولا يدرون ما السرور . فالواقع أن الانسان ليرحب بالشبع من النعيم وهو شاكر كما يرحب بالشبع من المائدة وهو شاكر ، وترتفع المائدة فلا يحزنه أن ترتفع بعدما استوفى صنوفها وروى أحشاءه من آكالها وأشرباتها وهنأ حواسه جميعا بما استطاع أن يلتهم من دسمها وحلواها ، ومن شبع من الروضة زهرا ولونا وأريجا وظلا فلا بد أن يشوقه أن يغمض عينيه ليشبع منها خيالا ومراجعة ويضع لها صورة مجملة يتأملها ويستبقيها ، ويفسح لها مكانا من متحف النفس تأوي اليه أبد الآبدين بنجوة عن الواقع وطوارق الاحداث : انتهى السرور الظاهر فليبدأ السرور الباطن ، وذهب السرور العابر فليبق السرور الدائم ، وتم السرور الذي يملكنا ويؤثر فينا فلننظر في السرور الذي نملكه ونؤثر فيه .

وهكذا ودع همام يومه شبعان جد الشبع ، قانعا أوفى ما يكون القنوع في تركيب أبناء الفناء ، مستريحا الى الوداع كما يستريح الشاكر المكتفي لا كما يستريح السائم الملول ، وأغمض عينيه على فراشه تلك الليلة يستعيد ويستجمع ويستمرىء ويتحدى النوم وهو مقبل اليه :

أيها النوم أتحدى أحلامك أن تعطيني فوق ما أخذت اليوم في صحو اليقظة ... وأنا كاسب الرهان على الحالين ...

■ □ ■

وتوالت المواعيد بعد الزيارة الاولى على تباعد بينهما في مبدأ الامر ، ثم على تقارب يوشك أن يكون بلا انقطاع ٠

الا انهما اتفقا على أن ينذرا سحابة يـوم الجمعة لخلوة كاملة لا مشاركة فيها ولا يعوقهما عنها عائق ٠

فيوما على رمال الهرم ، لانها تريد أن توقظ الفراعنة !

ويوما على القناطر الخيرية ، لانها تريد أن تحاسب النيل العتيق على عرائسه الغريقات ٠

ويوما على زورق بـين روض الفرج والروضة ، ويوما في حلوان ويوما عند آثار صقارة ، ويوما في صحراء الماظة ، ويوما في جوار عـين شمس والمطرية ٠ فان لم تكن رياضة خلاء فعكوف في المنزل من الصباح الى المساء ، وذلك أمتع الايام ٠

يخلو المنزل نهارها فلا طاهي فيه ولا خادم ولا نزيل غير ساره وهمام، وقد جعلا خدمة المنزل في ذلك اليوم شعائر مقدسة كالشعائر التي يتولاها الكهان ، فهما يتبركان بها ولا يخجلان منها وهي في يدها المكنسة وهو في يده سكينة التخريط ٠٠٠ أو هـي تمزج الحلوى وهو يقلب الآنية على النار ٠٠٠ أو هي تملأ الاطباق وهو ينقلها الى المائدة ٠ حتى اذا حان وقت الطعام مثلت الـى جانب المائدة في وقـار وخشوع وقالت : انتهى دور الخدمة ٠فتفضلوا أيها السادة ٠

وتتسرب الى المنزل أنباء الاصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة في معظم الايام ، فيقرآن أو يسمعان بعض الاغاني ، أو يلعبان « الدومينة » قليلا وهي لعبة تحذقها سارة ويعتقد همام أنها أصح الالعاب وأشدها مطابقة للحيـاة ٠

فالشطرنج والضامة يعولان على الحيله وكل شيء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والنرد يعول على المصادفة والذكاء وكل شيء فيه مكشوف بعد ذلك . والورق اما مصادفة واما صراع قلما يشبه صراع الحياة .

أما « الدومينة » ففيها حساب للمصادفة وفيها حساب للتدبير وفيها حساب لليقين وفيها حساب للظنون ، وفيها حساب للغيب الذي تجهله أنت وخصمك وللغيب الذي تجهله أنت ويعرفه خصمك أو يجهله هو وتعرف أنت ، وللعيان الذي يعرفه كل من يشاء ، ولها قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما في يديك .

قالت سارة يوما بعدما استعادته شرح « فلسفة الدومينة » للمرة الخامسة أو السادسة أو السابعة : أولا تستمتع بشيء الا أن تكون له فلسفة ؟

قال : لا . بل أنا أستمتع بالشيء ثم أبحث عن فلسفته ، وانني لابحث عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس في جميع جوانب فمه ولهواته ، كي لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه . فأحسه وأعمله وأذكره وأفكر فيه وأستقصي معناه !

وأمثال هذه الاسئلة كانت تصدر منها كما يسأل الصبي أباه الشيخ في دالة ومحبة ، أو كما يفتش المالك منزلا دخله واستولى عليه فراح يسأل عن كل صغيرة وكبيرة فيه ، فما كان في تلك الاسئلة فضول غريب ولا تهجم واغل ، ولكن السائل والمسؤول عنه هما جزء من مكان واحد تدور عليهما أسواره وتحتويهما جدرانه ، ويتفقد فيه من يشاء ما يشاء ، ولا فضول ولا اقتحام .

لماذا هام بها ؟

حواء أخرجت من جنة ، وبناتها كل يوم يخرجن من جنات ••• فهل المرأة ضرة الجنة تغار منها غيرة الضرائر ؟ لا ندري • ولكنها هي المرأة أبدا لا تريد للرجل أن ينعم بغير نعيمها، أو يسعد بغير سعادتها ، وليس يعنيها أن تفرح معه كما يعنيها أن تكون سبب فرحه وينبوع سعادته دون كل ينبوع • وربما أرضاها أن تكون سبب ألمه وألمها ، ولم يرضها أن تشاركه السعادة الوافية ، ان كان للسعادة سبب سواها •

كان همام قانعا بالمودة الهنيئة الوادعة بينه وبين سارة : ان حضرت سره حضورها وان غابت لم يغضبه غيابها ، لا يفرض عليها حقا ولا يحسب أنها تفرض حقا عليه ، ويتصلان وينفصلان ولا قلق في الامر ولا استطلاع ولا استكراه : لها وقتها كله وله وقته كله ، الا ما يشتركان فيه من الوقت فهو لهما على السواء ، بلا اقتسام ولا جور ولا اعتداء •

غير أن « سارة » لم يعجبها هذا الجدول المترقرق المنساب وأبت الا أن تراه شلالا يعج ويثور ، ويضطرب ويمور ، فنصبت فيه الحواجز وأقامت فيه الصخور •

كان يسألها في مبدأ العلاقة بينهما عن الموعد المقبل فتذكر له يوما ويذكر هو أن ذلك اليوم يوم زيارة صديق أو يوم شهود احتفال أو يوم عمل مـن الاعمال التي تشغله عـن اللقاء ، ويرجوها أن تنظر في تأجيل الموعد ، فلا يعجبها ذلك .

وكانت تستعجل الانصراف في بعض زياراتها وتعتذر اليه بموعد أو بمصلحة أو بما شابه هذه المعاذير ، فيأذن لها ولا يمسكها ، فلا يعجبها ذلـك !

وقالت له يوما بعبارة صريحة انه لو « أمرها » بالبقاء لبقيت وهي مسرورة .

وقالت له أياما أنه لو فضل موعدها على كل موعد غيره لفهمت أنها أثيرة عنده وأن لقاءها محبب اليه مفضل لديه ، فلما قال لها انـه يفضل لقاءها على غيره اذا كان حرا في الارتباط بهذا أو بذاك ـ قالت هذه حجج يحتج بها الرجال حين لا يريدون وينبذونها حين لا يريدون ، وانه لو ترك من أجلها ميعادا لتركت من أجله مواعيد .

واستباحت لنفسها رويدا رويدا أن تفتش في أوراقه الخاصة وهو لا يمنعها . فعثرت فيها مرة بصورة فتاة هيفاء ممشوقة القوام في غلالة تنم على محاسن بدنها وانسجام أوصالها . فصاحت به عابسة ما هذه ؟

وكان همام قد نسي الصورة ونسي أنها هناك . فنظر اليها وقال بغير اكتراث : فتاة راقصة .

غير أنه لاحظ أن سارة لـم تؤخذ بجمال الفتاة كما أخذت بنوع جمالها ، فلو كانت أجمل مما هي مائة مرة وكانت تشبه سارة في بضاضتها لما راعها أن تعثر بصورتها هناك تلك الروعة التي بدرت منها في صيحتها

العابسة • لكن الفتاة هيفاء ، وجميلة الهيف ، وليس فيها ما يعيب بعض النحيفات من هزال وقلة اعتدال ، وطلعتها مع ذلك طلعة راقصة كسائر أوصالها تكاد تنضح بالخفة والنغم •

وقد كانت نوبة النحافة والتنحيف يومئذ في بدايتها وفي ابانها ، وكانت سارة تروض بدنها رياضة قاسية لتخف وتستوي على طراز لجمال الحديث ، فكان هذا جميعه مما ضاعف اهتمامها بالفتاة وألهب فضولها •

قالت :وفيم تحتفظ بها ؟

قال : صورة فنية جميلة ، كأنها تمثال ، كأنها تحفة •

قالت وهي تنظر الى توقيع الفتاة وخطها الركيك • ولماذا هذا التوقيع ؟ ولماذا لم تقرنها بثانية وثالثة ورابعة ؟ أهي الراقصة الوحيدة التي راقك جمالها ؟

قال : ان كان لا يقنعك الا مجموعة كاملة من صور الراقصات فليس في الامر صعوبة ••• ثم قال : لو علمت يا خبيثة مقدار ما وهبك الله من حدة الذكاء لانفت أن تغاري من صاحبة هذه الصورة وأنت ترين «أميتها» ماثلة في خطها •

قالت : أو تظن أنني أبتهج بأن تحبني لحدة ذكائي وتحب هذه الراقصة لما ••• لما لست أدري ما أنت واجد فيها ؟

قال : أنا لا أحبها •

قالت : أصحيح ؟ اذن هل أنا في حل من تمزيق الصورة ؟

قال : لا أمنعك ولكنها خسارة •

قالت : أهي خسارة أم تخشى أن تسألك عنها صاحبتها ! انني لا أنافس الراقصات يا سيدي ! فاحتفظ بالصورة كما تهوى ، ولكن أرجوك

أن ترد الي صورتي • فلست أختار لها أن تقيم هنا وأمثال هذه الصور في مكان واحد •

فكبر الامر على همام ، وأحس لاول مرة أن فراق سارة يثقل عليه ، فقال لها : ان كان لا يريحك الا أن تمزقي الصورة فمزقيها •••

فما أمهلته أن يتم الجملة حتى قبضت على الصورة تمزقها كل ممزق كأنهما تضمر لصاحبتها ضغينة وهي لم ترها ولم تسمع باسمها ، ولا يذكر همام أنه بصر بامرأة تفرح هذا الفرح بتمزيق ورقة الا امرأة جاهلة أسلمها الساحر المشعوذ لفة من الورق زعم أنها هي الرقية التي كتبتها لها الضرائر ليبتلينها بالسقم في جسمها والنكد في عيشها • فمزقتها وكأنها تود أن يصير جسمها كله أيديا تشترك في تمزيقها •

وهكذا أخذت تحاسبه وأخذ يحاسبها ، وشعر بالتضييق عليه ولكنه لم يضجر منه ولم يتبرم بالباعث اليه ، وأنشأ يتعود أن يفكر فيما تصنعه وفيمن تلقاه أثنـــاء غيابها ، ويتعود أن يسألها وأن يتحرى حركاتها ••• وفرغ لها فوقع في روعه ألا يقنع منها بما دون الاستئثار والتفرد ، وانقلب الجدول الهادىء المنساب رويدا رويدا فغاب فيه الحمل الوديع وبرز منه الاسد المتحفز ، ولو ظـــل كما كان جدولا وديعا لصفا واسترسل • أو لانتهى كما ينتهي النهر الى مصبه في رفق وسخاوة •

■ □ ■

ذلك سبب من أسباب الهيام وقلما يكون الهيام لسبب واحد •

ومن أسبابه الكثيرة لذة الاستكشاف الدائم المصحوب بالتجديد والتنويع ، فان الرجل ليسره أن يستكشف المرأة ويسره ألا يزال واجدا فيها كل حين ميدانا جديدا للاستكشاف ، ويسره أن يراقب المرأة وهي

تستكشفه وتتخذ لها مسربا الى عواطفه ، وترفع من دخائله حجابا وراء حجاب ، ويسره أن يستكشفا الدنيا معا والناس معا والطبيعة معا بروح مركبة من روحين وجسد مؤلف من جسدين ، وضياء كله شفوف وتجديد وآفاق تنساح الى آفاق .

فان وقف الاستكشاف ولم يتجدد من جانب الرجل ومن جانب المرأة فقد يكون سببا للسآمة والعزوف لا سببا للشغف والهيام .

ان المرأة في استكشافها الرجل لكمن يجوس خلال الغابة المرهوبة ليهتدي أولا وآخرا الى موطن الرهبة منها ووسيلة الطمأنينة الى تلك الرهبة ، ثم يرتع في صيدها وثمرها ويشبع من مظاهر العظمة والفخامة فيها .

وان الرجل في استكشافه المرأة لكمن يجوس خلال الروضة الاريضة ليهتدي الى مجتمع الظل والراحة والمتعة والحلاوة بين ألفافها وثناياها . فهو يستكشفها ليعرف أحلى ما فيها وهي تستكشفه لتعرف أرهب ما فيه . ثم تصبح الروضة روضة وغابة ، وتصبح الغابة غابة وروضة ، ويقوم حواليهما سور واحد يشعران به اذا خرجا الى الدنيا ، ولا يشعران به وهما بنجوة منها .

وكان همام وسارة يتكاشفان كل يوم ولا يخفيان أنهما يتكاشفان ، بل يتحدثان بما يعن لهما من شأنها وشأنه كأنهما رحالتان في نزهة طويلة ، يشتركان في مراجعة عمل النهار كلما سكنا الى ظلال الخيمة في ظلام المساء .

كان يراقبها في نفسها ويراقبها في نفسه : كان يرى المرأة المرحة الطروب وهي تلهو وتعبث ، ويرى المرأة الكسيرة المطواع وهي تلتمس الامان والعزاء ، ويرى الانسانة الفطرية وهي تطيع الغريزة وتلبس

« دورها » على مسرح الطبيعة بين نباتها وحيوانها ومكانها وأهوائهـا ، ويرى المرأة الذكية وهي تقرأ النثر والشعر وتنتقد الصور المتحركـة ، ويرى المرأة العصرية وهي تتغلب على امرأة الجيل الغابر في ميدان ،وتخضع لها وتنهزم أمامها في ميدان ، ويرى من واء ذلك جميعة وفي خلال جميعه المرأة الخالدة التي لا تتحول ولا تتبدل ، والانثى السرمدية التي يهمها من « الذكر » الحماية والجاه قبل كل شيء وبعد كل شيء ، ولا يهمهـا العقل والرجحان والفضائل والمناقب الا لانها وجه من وجوه الحمايـة والجاه .

لقد أكبرته كثيرا وهي تسمع الثناء عليه في مجالس اناس من عليـة الناس لا يعلمون ما بينهما من صلة ، ولا يستريحون اليها لو علموها .

ولقد أكبرته كثيرا وهي تقرأ له اسفار النوابغ من اساطين الاقدمين وفحول المحدثين الغربيين ، وهو يعقب على ما يسمع بكلمة هنا وكلمـة هناك ، ويناقش لها ما يبدو انه حقيق بالمناقشة . وليست هي من الجهل بحيث يخفي عليها سداد مناقشاته ، وليست هي من قلة الثقة به بحيث تغلق المنافذ على ذهنها مكابرة وتقليدا كما يفعل العامة الجامدون ، وليست هي من العلم بحيث تفهم ان نوابغ الغرب كائنة ما كانت اقدارهم وبالغا ما بلغ صيتهم واشتهارهم خاضعون للنقد قابلون للتشريح والتصحيح ، بل هي نشأت نشأتها الاولى على تقديس هؤلاء النوابغ والعلو بهم الـى مرتبة العصمة والتأليه ، فاذا بدهتها الملاحظة ولم تجهل سدادها فغرت فاها الصغير وحملقت بعينيها الواسعتين كما تفعل الطفلة وهي تتفرج على منظر طريف . وجال في قلبها اكبار تعبر عنه بكل ما تستطيع من علامات التحبب والتدليل .

الا ان شيئا من ذلك ــ في مدى السنوات الطوال ــ لم ينعشهـا ولم يلمس كوامن انوثتها ولم يقدح[1] من سرورها به وحنينها الى جواره مثل مانعشها وسرى فيها وتجلى عليها في حادثة عرضية حدثت ذات مساء في مركبة من مركبات الاجرة بين الزمالك والجزيرة :

كانت المركبة تسير على مهل والحوذي قد غفل عن اشعال مصابيحها بعد مغيب الشمس ، فصدمت واحدا من ثلاثة او اربعة من رجال الضبط كانوا يتمشون على ساحل النيل في محاذاة العوامات والذهبيات ، وذلك جرم من الحوذي تضيق عنه رحمة الله ! فان كل شيء ليجوز للحوذي الغافل الا ان يصدم السادة « رجال الضبط » وهم هم اصحاب الحـول والطول والقول الفصل في الخيل والمركبات والسيارات والحوذية والساقة وما يحملون ومن يحملون !... فاذا كان ذلك في أثناء « تأدية وظيفة » كما يسهل القول والاثبات فويل يومئذ للمسكين ... انه لذاهب من الدار الى النار وماله من شفيع .

وقد كان اصاب الغافل الاثيم جزاءه اليسير في سرعة لا تليق بمركبات الخيل ولو كان لها مئة حصان ، فجذبه « رجال الامن » من مقعده الرفيع وصافحوا صدغيه بكل ما وسعته الكفوف من مران على هذا الضرب من المصافحات ، وجعل الرجل يستغيث ويعتذر ويتوسل ولا جواب له الا ضربات متداركات تتبارى فيها الالسنة والكفوف .

وطال الخصام ولاح لهمام أنه لا يؤذن بختام ... فلم يجد مناصامن النزول والسعي في الاصلاح . ولم يغب عن باله ان اللجاجة قد تفضي برجل الضبط « المعتدى عليه » الى كتابة محضر واستدعاء شهود ، وانه

---

(١) قدحه أخرج ناره .

سيكون لا محالة واحدا منهؤلاء الشهود • فاذا افضى الامر الى ذلك فقد كان ينوي ان يعطيهم عنوانه ان قنعوا به او يصاحبهم بعد ان يحتال في صرف سارة وابعادهاعن القضية ما استطاع •

على أن المسألة لم تلجىء الى شيء من ذاك ، ولم تستغرق اكثر من دقيقة او دقيقتين ، فقد كان « رجال الضبط » ظرفاء رقاق الحاشية يغرفون هماما بالرؤية والسماع وان لم تجمعهم به صداقة فتلطف اكبرهم وحيا هماما بلقبه دون اسمه ، واتجه الى الحوذى بعد ان صفعه الصفعة الاخيرة وأسلمه الرخصة المنزوعة ••• وهو يهنئه بالسلامة •اكراما للرجل الذي معه لا اكراما لامه وابيه اللذين من صفاتهما كيت كيت ، كما علم قبل ذلك على مـا يظهـر •

ولم تكن سارة من السذاجة بحيث تفرق من محذور هذه الحادثة ، ولم تكن من قلة الحيلة بحيث تعي بتدبيرها ان ساءت الجريرة وقد افهمها همام قبل نزوله من المركبة ان اتقاء المحذور سهل من « الوجهة الرسمية »• وقد سبق لهما ان تعرضا معا لمهاجمة بعض العاطلين الذين يأخذون الطرقات على المارة فيالضواحي البعيدة رجاءالمساومة على ما يحسبونه من الفضائح الغرامية • فنظرت اليهم غير حافلة وتركت هماما يزجرهم وينهرهم ليعلموا الا رجاء في مساومة ولا خوف من فضيحة • فلم يكن سرورها بصاحبها تلك الليلة سرور النجاة من مازق مخيف والفزع من عاقبة محذورة ، وانما كان سرور المرأة بالحماية والثقة والاستسلام وهي مغمضة العينين •

فلما عاد همام الى المركبة واستوى في مكانه فيها لم تزد علـى ان زحفت الى جانبه واستكانت الى جواره وتطامنت في حضنه تطامن الفرخ في حضن ابيه ، وهمست تحت اذنه وهي تمسح خدها بخده ما اسعدني

بجوارك سيدي ومولاى ••• وكانت تلك اول مرة دعته فيها تلك الدعوة وكان ذلك كل ما فاهت به من تعبير عن سرورها وما كانت في حاجة الى ان تزيد ••• فقد كان شعور همام بسرورها الناعم المرفرف الشكور غنيا عن كل كلام •

وعرف همام انها استكشفته وطبعته في صفحة المحاكاة عندها بعد فترة وجيزة تحكيه وتمثله في ضحكه وحديثه وتأمينه الصامت ، واعتراضه بالاشارة ، وردوده وهو مشغول ، وردوده وهو حاضر القريحة ، وتعقد احيانا محادثة طويلة بينها وبين نفسها تتكلم فيها مرة بصوتها واسلوبها ومرة بصوت همام واسلوبه ، فتجيد المحاكاة في اللهجة والتفكير اجادة لا يعيبها الفرق بين الصوتين والجسمين والهيئتين ، بل يزيدها ملاحة على ملاحة

وانها لقد عرفت منه بزكانة المرأة في شهر واحد ما لم يعرفه اصدقاؤه وخلطاؤه في اعوام • فتقول له ان الزوبعة منك لا تخيف ولا تطول بمقدار ما يخيف الاستقرار الذي بطل فيه التردد وخلا من كل هياج وكل ثورة ، وتقول له : انني اذا اردت ان اهزمك لم ابرز لك بسلاح ولم البس لك شكة الحرب ،فأقودك من اذنيك •

■ □ ■

وما زالا يتكاشفا نويتكاشفان حتىعلما انهما مكشوفان لا يتواريان في جنة لا ينبت فيها ورق التين • فكان هذا التكاشف سببا ثانيا من أسباب هيام همام ، وقلما ينحصر لهيام في سببين اثنين !

نعم • فقد كانت لهيامه بها اسباب مختلفات ، بعضها محدود واضح المعالم وبعضها مزيج من شتى اسباب لا تتضح لها حدود •

فمن تلك الاسباب الواضحة انه كان يحس احساسا شديدا ان توديع هذه العاطفة قد يرادف في معناه توديع الحياة .

لانه تعلق بها وهو في العقد الرابع من عمره . فاذا انقطع ما بينه وبينها فمن بفتاة تخلفها في مثل ذكائها ونضارتها وموافقتها ؟ واذا وجد الفتاة فمن له بالقلب الذي يلبي دواعي الصبا وينزع منازع الفتوة ويتقد ويخبو على حسب المشيئة ، ويغامر اليوم في عاطفة مرجوة وقد كان بالامس في عاطفة يائسة مضيعة ؟

ان خبت هذه العاطفة فهي جذوة الغرام الاخيرة ، وعليه ان يذكيها ويرعاها كما كان الاقدمون يرعون الشعلة المقدسة مخافة ان تنطفي فلا يستعيدوها ، قبل ان يحذقوا صناعة الزناد والثقاب .

■ □ ■

ومن اسباب هيامه بها الفة متغلغلة في أنحاء النفس والجسد كألفة المدمن للعقار المخدر : من شاء أن يسميها حبا فهو صادق ، ومن شاء أن يسميها بغضا فهو صادق ، ولمن شاء أن يزعم أن المدمن يتعاطى عقاره وهو راغب فيه . ولمن شاء ان يزعم انه يتعاطاه وهو ساخط عليه فقصارى القول انه يتعاطاه ، وان الاقلاع عنه يكلفه جهد الطاقة وغاية المشقة .

ومن الحق ان نذكر هنا ان الرجل يعشق الانثى في مبدأ الامر لانها امرأة بعينها : امرأة بصفاتها الشخصية وخلالها التي تتميز بها بين سائر النساء ، ولكنه اذا اوغل في عشقها وانغمس فيه احبها لانها « المرأة » كلها او المرأة التي تتمثل فيها الانوثة بحذافيرها وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها ، فهي تثير فيه كل ما تثيره الانوثة من شعور الحياة . وأي شعور هو بعيدمن نفس الانسان في هذه الحالة ؟ ان الانوثة لتثير فيه

شعور القوة ، وشعور الجمال ،وشعور الالم ،وشعور الجموح والانطلاق من قيود المنطق والحكمة ، وشعور الانسان كله ، وشعور الحيوان كله ، بل تثير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من أسرار مرهوبة ومن اغوار لا يسبر مداها في النوروالظلام ، لان المرأة حين تمثل الانوثة هي مناط الخلق والتكوين ، واداة التوليد والدوام والخلود ، وهي مظهر القوة التي بيديها كل شيء في الوجود وكل شيء في الانسان •

■ □ ■

وكذلك تجمعت أسباب الهيام من الفة الى متعة الى تفاهم الى اتفاق في امور غيرها ، حتى استحكمت اواصر الملازمة ، وتلاحمت وشائج الفتنة • فلما انشأيحاسبها على حقوق الوفاء ، ويتقاضاها امانة الاخلاص، لم يكن ذلك غلوا منه في تنزيه العصمة الانسانية ولا غلوا فيتنزيه عصمتها، ولكنه حاسبها ذلك الحساب لانه حتم لا مندوحة له عنه ، ولان السكوت عنها كان اشق عليه من حسابها •

والا فماذا هو صانع ! أيفارقها ؟ ذلك عسير !

أيستبقيها على ان يكون لها وحدها ولا تكون له وحده ؟ ليس ذلك بيسير !

وهكذا يتفق ان يحاسب الرجل المرأة بميزان الملائكة ، وهو لا يستبعد منها غدر الشياطين •

حبّان

اذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء ، فذلك هو الحب

اذا اصبح النساء جميعا لا يغنين الرجل ما تغنيه امراة واحدة ، فذلك هـو الحب .

اذا ميز الرجل المرأة لا لانها اجمل النساء ، ولا لانها اذكى النساء ، ولا لانها اوفى النساء ولا لانها اولى النساء بالحب ، ولكن لأنها هـي هي بمحاسنها وعيوبها ، فذلك هو الحب .

وقد يميز الرجل امراتين في وقت واحد . لكن لا بد من اختلاف بين الحبين في النوع ،او الدرجة ، او في الرجاء .

فيكون احد الحبين خالصا للروح والوجدان ، ويكون الحب الآخر مستغرقا شاملا للروحين والجسدين .

او يكون احد الحبين مقبلا صاعدا ، والحب الآخر آخذا في الادبار والهبوط .

او يكون احد الحبين مغريا بالرجاء ، والحب الآخر مشوبا باليأس والريبة .

اما ان يجتمع حبان قويان من نوع واحد في وقت واحد فذلك ازدواج غير معهود في الطباع . لان العاطفة لا تقف دون المدى ولا تعرف الحدود ، واذا بلغت مداها العاطفة جبت ما سواها !

وقد كان همام يحب امرأة اخرى حين التقى بسارة في بيت ماريانا : يحبها الحب الذي جعله ينتظر الرسالة او حديث التليفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء ، وكانا كثيراً ما يتراسلان او يتحدثان ، وكثيرا ما يتباعدان ويلتزمان الصمت الطويل ايثارا للتقية واجتنابا للقال والقيل وتهدئة من جماح العاطفة اذا خافا عليها الانقطاع . ولكنهما في جميع ذلك كانا اشبه بالشجرتين منها بالانسانين ، يتلاقيان وكلاهما على جذوره ، ويتلامسان باهداب الاغصان ، او بنفحات النسيم العابر من هذه الاوراق الى تلك الاوراق ...

كانا يتناولان من الحب كل ما يتناوله العاشقان على مسرح التمثيل، ولا يزيدان .

وكان يغازلها فتومي اليه بأصبعها كالمنذرة المتوعدة ، فاذا نظر الى عينيها لم يدر أتستزيده ام تنهاه ، ولكنه يدري ان الزيادة ترتفع بالنغمة الى مقام النشوز .

وكان يكتب اليها فيفيض ويسترسل ، ويذكر الشوق والوجد والامل فاذا لقيها بعد ذلك لم ير منهاماينم على استياء ولم يسمع منها يدل على وصول الخطاب ،وانما يسمع الجواب باللحن والايماء دون الاعراب والافصاح .

وربما تواعدا الى جلسة من جلسات الصور المتحركة في مكان لا غبار عليه ، فيتحدثان بلسان بطل الرواية وبطلتها ، ويسهبان ما احتملت الكناية الاسهاب . ثم يغيران سياق الحديث في غير اقتضاب ولا ابتسار

وكانا اشبه بالنجمين السيارين في المنظومة الواحـدة ، لا يزالان يحومان في نطاق واحد ، ويتجاذبان حول محور واحد ، ولكنهما يحذران التقارب ••• لانه اصطدام !

ولم تكن هند ــ وليكن اسمها هندا ــ لتعتقد الرهبانية في همام ، ولا لتزعم بينها وبين وجدانها انه معزول عن عالم النساء • غير انها لم تكن تحفل اتصاله بالنساء ما دام اسمهن نساء لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة ، وشبح غرام واحد • فان اسم النساء في هذه الحالة لا يدل على معنى ، ولا انتقاص فيه لما بينهما من رعاية واستئثار •

فلما شعرت بأن النساء تحولن عنده الى امرأة لها شأن غير شؤون أخواتها من بنات حواء زارته على حين غرة في مكتب عمله ، وهي الزيارة الاولى والاخيرة من قبيلها ، ولم يكن لها مسوغ من طول الغيبة ولا امتناع الحديث في التليفون • فما شك لحظة في غرض الزيارة ولا في باعثهـا ، وتوقع منها عتبا عنيفا على اسلوبها في التعبير الصامت المبين ، ولكنه علم سلفا انها غير منصفة في عتبها ، لانه لم يختلس منها شيئا هو من حقهـا عليه • فرحب بها وابدى لها استغرابه لزيارتها وابتهاجه بسؤالها عنـه ، وانصت مترقبا ••• فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج :

ــ لست زائرة ولا سائلة !

قال اذن ••••

ولم يتمها لانها نظرت اليه كمن يستحلفه الا يتكلم • وانحدرت من عينيها دمعتـان •

فما تمالك نفسه ان تناول يدها ورفعها الى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها، فمانعته ولم تكفف عن النظر اليه • ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة:

وهي تتمتم هامسة : دع يدي ودعني ! ثم انصرفت بعد ان سكن جأشها وزال من صفحة وجهها أثر الدموع •

لو جاءت هذه الزيارة وهسام في بداية العلاقة بسارة لما كان بعيدا ان تقضي على تلك العلاقة ، وان ترد سارة اسما مغمورا في عامة عنـوان النساء •

بيد انها جاءت وقد اوغلت العلاقة بينهما إيغالهـا الذي لا تراجع فيه ، وصمدت على طريقها تعدو مع الايام عدوا لا تنظر فيه الى الوراء • وفسح لها الطريق ان هماما لم يكن يوغل فيها مثقلا بتبكيت ضمير • لانه لم يخن هندا ولم يقصر في حقها عليه ، ولا وهم انها تغضب من امر لا عهـد بينه وبينها فيه •

■ □ ■

ولقد كانت سارة وهند على مثالين من الانوثة متناقضين : كلتاهما انثى لا تخرج عن نطاق جنسها ، غير انهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى احداهما ان تحل محل الثانية ، ويوشك ان تزدريها •

ماذا اقول ؟ بل لعلهما من التباين والتنافر بحيث تتمنى كلتاهما قبسا من طبيعة الاخرى ، ولولا انها تنكر الاعتراف بذلك بينها وبين نفسها ، فتسمح للتمني ان يستحيل الى نفور

فاذا كانت سارة قد خلقت وثنية في ساحة الطبيعة فهند قد خلقت راهبة في دير ، من غير حاجة الى الدير !!

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود اكثر ما استطاعت ، وهذه مشغولة بان تصوغ حولها اكثر ما استطاعت من قيود ، ثم توشيها بطلاء الذهب وترصعها بفرائد الجوهر •

الحزن الرفيع والإلم العزيز شفاعة عند هند مقبولة اذا لم تكن هي وحدها الشفاعة المقبولة . اما عند سارة فالشفاعة الاولى بل الشفاعة العليا هي النعيم والسرور .

تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم .

تلك تشكو ويخيل اليك انها ذات ارب في بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشكوى ، وهذه تشكو كما يبكي الطفل لينال نصيبا فوق نصيبه من الحلوى .

تلك مولعة بمداراة نقائصها لتبدو كما تتمنى ان تكون ، وهذه مولعة بكشف نقائصها لتمسح عنها وضر الخجل والمسبة ، وتعرضها في معرض الزينة والمباهاة .

تلك لها عدة المتانة والمجاملة ، وهذه لها عدة الرخاصة والبساطة لو عملت تلك عمل الرجال لانتظمت في السلك السياسي ، ولو عملت هذه عمل الرجال لانتظمت نديما في حاشية امير مفراح

كلتاهما جميلة ، ولكن الجمال في هند كالحصن الذي يحيط بــه الخندق . أما الجمال في سارة فكالبستان الذي يحيط به جدول من الماء النمير ، هو جزء من البستان لا حاجزدون البستان ، وهو للعبور اكثر مما يكون للصد والنفور .

تلك ذات طموح وهمم ، وهذه تحسب الواقع الذي يوائمها خيرا واشهى من كل مطمع ومن كل همة .

تلك تعطيك خير ما أعطت على البعد والحيطة ، وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب والسرف .

كلتاهما ذات ثقافة والمعية ، لكن ثقافة هند الى المعرفة ، وثقافة سارة الى الفطرة .

ولو نسينا العرف والاصطلاح لحار الانسان ايهما اقوم في السجايا والاخلاق . ولكن الذي لا ريب فيه ولا حيرة فيه ان سارة ارجح واصلح قبل ان ينزل التكليف على ابناء آدم وحواء ، وان هندا ارجح واصلح حيثما نزل تكليف ... أي تكليف !

■ □ ■

وما زالت الصور النسائية تتوارى وتتهافت في بديهة همـام حتى احتجبت كل صورة الا هاتين الصورتين المتقابلتين : احداهما قائمة فـي محراب ، والاخرى باثقة كالزهرة من زبد العبـاب .! وتعاقب الايـام فأصبحت صورة فنية نفيسة لا تقوم بمال ومثلت الاخرى كما كانت تمثالا مـن لحـم ودم .

■ □ ■

وكانت سارة لا تعلم من شأن هند الا ان هماما يعرفها ويكبرهـا ويزورها حينا بعد حين . فكانت تبرم بهذه الزيارات ، ثم كانت تتوخى ان تغويه وتشغله في اليوم الذي يختاره لزيارة هند .. فيؤجل الموعد لانه لم يكن في الحقيقة بموعد ،ولأن البعد يمنع الاتصال بسارة ومـا عندها من سرور ، ولكنه لا يمنع الاتصال بهند في ذلك اليوم ، وفي كل يوم

وراح همام ينسرق من نفسه وهو يدري تارة ولا يدري تارة اخرى، حتى ابتلعته اللجة وشغلته سارة عن كل شاغل ، او اصبحت على الاصح ممزوجة بكل شاغل . فبعد ان كانت في بداية التعارف بينهما واحدة من ألوف وملايين يشملهن عنوان النساء مفضلة ان حضرت ، وتغيب فيغني عنها من حضر ـ عادت وهي الواحدة وحدها لا يغني عنها سواها . وعاد همام ينظر الى النساء في الطرقات ويوشك ان يسأل جدا وصدقا : مـا بال هؤلاء ؟ ولماذا خلقن ؟ ومن ذا الذي ينظر اليهن ؟

لماذا أشك فيها ؟

اثنان لا يشكان في المرأة التي يحبانها ، وباب الشك فيها مغلق عندهما :

شاب في مقتبل ايامه ، مخدوع في احلامه ، مؤمن بقداسة الحبيبة على منوال عصور الفروسية يرتفع بها الى سماء الطهر ، ويكبرها ان تخون ويكبر نفسه في الحقيقة ان يخان ! ويسمع منها انها تمحضه الحب وتخلص له الولاء فلا يدور بخلده انه يسمع كلاما يحتمل الصدق والكذب ، ويجوز فيه الغلو والتزويق . ويتعاهدان على دوام الصفاء بقية العمر كله فلا يخيل اليه انهما يتعاهدان على مستحيل . لانه يتمنى ، ولا يفرق بين ما سيكون وبين ما يتمنى ان يكون .

والآخر رجل مطموس البصيرة مملوء الخياشيم بالغرور والدعوى، يؤتى اليه انه حسب المرأة من أمنية ومطمع ، فلا منصرف لها عنه ، ولا معدى لها الى غيره . والا فماذا عساها ان تبغي عند غيره ؟ انه رضى النساء من جمال واعتدال وقوة ومال . فاذا قنعت به فما هي بمظلومة ، وان تقنع به انها اذن لظالمة !

حسن !ولكن الا يحدث في الدنيا أن تكون المرأة ظالمة ؟

كلا !! لان ذلك لا يسره !! وكفى الا يسره شيء من الاشياء حتى لا يكون ولا يجوز ان يكون !

ولم يكن همام بهذا ولا بذاك

لم يكن شابا في مقتبل ايامه ، لانه جاوز الثلاثين واوشك ان يصعد الى الاربعين .

ولم يكن مخدوعا بهذا الضرب من الغرور ، لانه موكول الى ضروب اخرى من غرور النفوس ، مطبوع على ان لا يعلق قيمته في معارض الفخر والمباهاة على رأي انسان من النساء ، او من الرجال .

وكان قد خبر من احوال المرأة والرجل ما اقنعه ان الخيانة بينهما ليست من الصعوبة والامتناع بحيث يتوهمان . فما من رجل كبر او صغر الا والمرأة واجدة بديلا منه يغنيها عنه في جميع نواحيه او بعض نواحيه : ان كان محبوبا ففي الرجال من هو احب ، وان كان مهيبا ففي الرجال من هو أهيب ،وان كان جميلا او سريا او قويا ففي الرجال من هو اجمل واسرى واقوى . ولقد تستبدل الذي هو ادنى بالذي هو خير ، فليس من الضروري ان تفاضل المرأة بين الحسن والصالح والاصلح ، وليس من الضروري — ان هي فاضلت — ان تكون مختارة مفتوحة العينين فيما تدع وفيما تأخذ : فقد تكون مخدوعة مسوقة ثم تستنيم الى الخديعة ، وقد تؤثر الرجل على الرجل شهوة طريق ، كما يذهب الانسان الى غدائه فيلقاه مطعم يفعم انفه ببعض روائحه فيميل اليه وقد يعافه في غير تلك الساعة .

وكان همام يعتقد ان الغش عند المرأة كالعظمة عند فصائل الكلاب يعضضها الكلب المدلل ويدخرها حيث يعود اليها وان شبع جوفه من اللبن

واللحم والاغذية المشتهاة • لان الوفا من السنين قد ربت اسنانه وفكيه على قضم العظام وعرقها ، فهو يطلبها ليجهد اسنانه وفكيه في القضم والعرق ولو لم تكن به حاجة الى اكلها

والوف من السنين قد غبرت على المرأة وهي تخاف، وتحتال وتراوغ وترائي وتلعب بمواطن الضعف في الرجل حتى اصبح بعض النساء ممن قويت فيهن عناصر الوراثة وبرزت في طباعهن عقابيل الرجعة ينشدن الغش التذاذا به وشحذا للاسنان القديمة التي نبتت عليه • ويسرهن ان يصنعن الشيء ويخفينه ولو لم تكن بهن حاجة الى صنعه ولا اخفائه • لان المرأة من هؤلاء تشتهي العظمة بجوع عشرين الف سنة ، وتشتهي اللحم واللبن بجوع ساعات •

ولقد عرف همام سارة فلماذا لا يعرفها غيره ؟ ولم يصعب عليه ان ينال عطفها فلماذا يصعب على غيره ان يناله ؟

انه لم يكن يستبعد الغش والخيانة ، وليس بين الشيء الذي لا يستبعد والشيء الذي يتوقع الا خطوة وعلامة محسوسة على ان الانسان قد يتوقع الغش لفرط اشفاقه من الفقد والخسارة لا لفرط اتهامه وسوء ظنه •

فالخزانة التي تتركها فارغة هي بعينها الخزانة التي تملأها بالذهب والفضة والجواهر الثمينة ، لكنك تخشى على متانتها وهي حافلة عامرة ولا تخشى على متانتها وهي فارغة منسية •

وربما خرج الرجل الواحد من المنزل تنتظره فيه ام حنون وزوجة قالية ، فاذا تأخر عن موعد الاياب فأول ما يخطر على بال الام ان ابنها قد اصابه مكروه ، واول ما يخطر على بال الزوجة ان زوجها يعبث ويعربد،

ولا يمكن ان يكون الرجل الواحد رجلين في الرشد والحصافة والقدرة على دفع الاخطار ، وانما اختلف التوقـع باختلاف الشعور والخشية • فتتوقع الام المكروه لانها تخشى المكروه ولا تبالي سواه ، وتتوقع الزوجة العربدة تخشى العربدة ولا تبالي سواها ، ولا يسوءها ان يصاب زوجها البغيض كما يسوءها ان يصيبها في غيرتها وكرامتها الزوجية •

لهذا اصبح همام يحذر الخيانة حين اصبحت هذه الخيانة شيئا يهمه ويشغل باله ، ولم يتأهب لنفيها كما تأهب لقبولها ، ولم يكبح خواطره عن التمادي في الظلم لانه علم ان ضمان العدل موجود لا يغفل !! وضمان العدل ان سارة عزيزة عليه ، فما هو بمستعد للتفريط فيها تجنيا عليها ومطاوعة لوهم عارض او شبهة طفيفة ، وما هو بقادر على التفريط الا وقد اصبح وامسى وليس له عن التفريط محيد

■ □ ■

خذوا اسرارهم من صغارهم ••• وسر « سارة » انما طرق مسامع همام ــ اول ما طرقها ــ من لسان طفلها الصغير •

كانا يتنزهان يوما في ارباض القاهرة ومعها طفلها الصغير ، فلعب الطفل ومرح وعدا وطفر ما شاء له مرح الطفولة ومرح المكان ••• ثـم اتجه ــ طفرة ايضا ــ نحو امه وهو لا يدري ماذا يصنع ، فاتخذ منهـا موقف العاشق المدله وجعل يفوه بالفاظ من عبـارات المناجـاة والغزل والتحبب والتدليل لا تسمع الا بين عاشقين في خلوة غرام ، وانطلق يرصها رصا كأنما يتلقاها من ملقن او يتلوها من كتاب ، فصحا همام من حلمه الذي كان سادرا فيه على مهل وتكاسل كأنه لم يتبين بعد معنى ما يسمع• واسرعت هي فانتهرت الطفل انتهارا شديدا وعنفت عليه وهي تبالغ في نهيه

ان يسترسل في تمثيل دوره ، وارادت ان توقع في روع همام بغيرا كتراث ظاهر انها انما تزجر الطفل لبذاءة الكلام الذي يسرده لا لانها تكتم سرا يوشك ان يفضحه بثرثرته وهذره . فقالت : تلك مصيبة العشرة السيئة والقدوة المرذولة... ما ادري والله ماذا اصنع بهذا الطفل في سنه الصغيرة فلا هو يصلح للمدرسة ولا هو يطيق الحبس والعزلة عن انداده واترابه ولا هو يسلم من معاشرة هؤلاء الانداد والاتراب !

قال همام : ولكنك تعرفين انداده واترابه ، فمن منهم تحسبينه خليقا ان يعيد على مسمعه تلك العبارات ؟

قالت : ومن أين لي ان اعلم ؟ فقد يسمعونه من خادمة او خادم في أكنان الحدائق وزوايا الطريق .

قال : او هذا كلام خدم ؟ ان الخدم لا يصطنعون التدليل والغزل على هذا المنوال !

فسكتت وسكت ، وما في ذهنه ذرة من الشك في ان بعضا من ذلك الكلام الذي لغط به الطفل قد صدر من امه ... لانه كلامها ، فكيف تسرب اليه ؟ ومن اين ؟

ان هماما ليذكر جد الذكر انهما لا يتخاطبان في محضر الطفل الا كما يتخاطب الرجل والمرأة في المجلس المشهود ، وليس لسارة زوج يعيش معها ، وليس من عادة الازواج مع هذا ان يتغازلوا على هذا المنوال بمسمع الاطفال الصغار ، فمن اين تسربت اليه المناجاة بطرفيها ؟ من اين ؟ نعم مـــن ايـــن ؟ !

واقترنت تلك الظاهرة في حينها بظواهر مريبة مثلها ... « فماريانا » التي كانت لا تؤتمن على سر المعرفة بينهما ما بالها اليوم قد اصبحت مأمونة

الجانب مغشية الدار حتى لاحذر من التواعد لديها على غير ضرورة ؟ وتلك الزينة المعهودة بعطرها وشياتها ما بال سارة تحتفل بها في غير ايامها؟ ونوازع الغرائز التي لا سلطان عليها للمراة ما بالها تتبدل ؟ ووسائل الحيطة الخفية ما بالها تتعدد ؟ وذلك التلطف المريب تلطف الآثم الذي يمسح حوبته بفرط المجاملة ويكفرعن خيانته الباطنة بفرط المصالحة الظاهرة ماذا وراءها وماذا في اطوائها ؟

علامات وقرائن لا يأخذ بها القاضي في قضائه بالادانة ولكنها كافية للتشكيك في خلوص النية .

والقضاء بعد مطالب باقناع غيره محظور عليه ان يكتفي باقناع نفسه ... اما الرجل الذي ينشد الطمأنينة مع المرأة فلمن يحكم ان لم يحكم لنفسه ؟ وبأي اقتناع يدين ان لم يدن باقتناعه ؟

وراء الاكمة ماوراءها ... تلك حقيقة لا ريب فيها ، ولكن ماذا وراءها ؟ قد يجهل الرجل ذلك على التحقيق والتفصيل ، ولكن الا يكفي ان تكون هناك اكمة وان يكون هناك شيء مجهول وراءها ليقوم الحائل بين القلبين ، ويكدر الجو بين الصفيين ؟

وجائز عند همام ان تنصرف عنه سارة الى غيره . ولكن ليس بالجائز عنده ان تستغفله لانها تتوهم في دهائها القدرة على الجمع بينه وبين غيره !

جائز ان يكون هو وهي العوبة واحدة في يد الطبيعة التي تسوقه وتسوقها ، ولكن ليس بالجائز ان يكون هو العوبة في يدها وان تكون هي اللاعبة بلبه وولائه !

وقد نصب لقلبها الميزان الذي نصبه لقلبه في السر والعلانية ، واخذ عليها شبهات كثيرة ولم تأخذ عليه شبهة واحدة ، واتهمها فلم يشاهد عليها

عذاب المرأة التي تفجع في حب تقابله بحب مثله ، بل كان كل ما شاهده عليها مجال المتهم الذي يجهد في تفنيد تهمة ، ويود لو فاز بالغلبة ووقع على الادلة الدامغة .

هــل ظلمهــا ؟

يجــوز ... !

وكلما اعاد همام هذا السؤال واعاد معه هذا الجواب لمس به اغوار فتنتها واعتقد انه يخدع عقله باختياره ، ويساعدها علــى تضليل حسه ورأيه ، وانه لم يظلمها ولا افترى عليها ! ولولا ذلك لقد كــانت شبهــة اهون من هاتيك الشبهات كافية كل الكفاية للبت في امرها وطي السؤال والجــواب عنهــا .

وخير له ان يفارقها بغير جريرة قادرا على آلام فراقها صائما عــن مسراتها ، من ان يعاشرها عاجزا عن فراقها ، باذلا كل ما عنده من اهتمام مستحقا كل ما عندها من احتقار واستغفال .

لقد سلبته الطمأنينة وكفى !

جلاء الحقيقة

انتهت مهمتي !

إي نعم . انتهت المهمة ، وبطلت الرقابة ، واستراح الرقيب !

وكـان «امين» موفقـا في هذه المرة كل التوفيق ، لانه زود همامـا بالحجة القاطعة التي يواجه بها غوايته ويقمع بها نكسات ضعفه ، كلمـا ساوره الندم وعزت عليه السلوى .

ولم تأت هذه الحجة الا بعد استئناف الرقابة بزمن غير قصير ، وجهد غير قليل .

ولكن علام الرقابة بعد القطيعة ؟ الم ينحسم كل ما بين ذلك الرجل وتلك المرأة من علاقة ؟ الم يقصر همام عن ذكر سارة ووفاء سارة وخداع سارة ؟ الم يعول كل التعويل على ان يظن اسوأ الظنون ويفرض اشنع الفروض ، ويوطن عزيمته على خيانتها ولا يغالط وهمه في شأنها ولـو تفتحت له ابواب المغالطة ؟

بلى كان ذلـك !

غير انها كانت احلاما ، ولم تصح الاحلام الا بضعة ايام وقد صحت

الاحلام في الايام الاولى بعد القطيعة حتى ظن همام انه قد سلا ، واستقر على السلوى ، فما يبالي بعدها من خان ووفى ومن ضل وغوي .

على انها كانت راحة موقوتة اشبه براحة اللديغ حين ينقلب من جنب الى جنب ، وما به من نوم ولا غفوة على هذا الجنب ولا على ذاك .

ثم خرج همام من هذه الراحة الموقوتة الى شيء آخر : الى شيء غير الراحة وغير السلوى ، الى الشعور القاصم بالفراغ ، وبالحرج والضيق ونفاد الحيلة كلها في ذلك الفراغ

كل حاسة من حواسه فقدت شيئا ، وكل لحظة من لحظاته فقدت شيئا ، وكل مكان يغشاه فقد شيئا ، وكل سرور من مسراته او كل الم من آلامه فقد معناه وغايته ولبابه ، وماذا عوضها جميعا ؟ ... عوضها نقيضها الذي يلغيها عنها ، فأما غم محبوس كظيم ، واما حيرة عمياء ليس لها اتجاه واما سكون موحش بعد حركة وجيعة ، وكل اولئك في فراغ فارغ لا مبدأ له ولا نهاية ولا مهرب فيه ولا قرار .

خوى الجحيم الحي وهبط في مكانه الزمهرير الميت ، وبئس هذا الموت وبئست تلك الحياة .

زمهرير لا يعيش فيه الاحياء ، ولكنما هو زمهرير خاص للتعذيب لا لمأرب غير التعذيب ، فلهذا يعيش فيه من يعيش من الاحياء !

وجرب السلوى ، وما خامره الشك في انها علاج مطلوب ، وانها علاج مستطاع .

ولم لا يكون مستطاعا ان يسلو الرجل امرأة بامراة مثلها او افضل منها ؟ الا يسلو الجائع عن صفحة من الطعام بصفحة مثلها او اشهى منها؟ فلماذا يعييه ان يسلو عن المرأة بغيرها من بنات حواء ؟

ونسي همام انه ليس بجائع وانما هو عليل مسلوب الاشتهاء ... فمن حاجته قبل ان ينظر في انتقاء طعامه ان يعيد ذوقه الى اعتداله وان يجد هذه اللذة فيما يشتهيه ، ويستوي عنده قبل ذلك اطيب الطعام واخبث الطعام ، كما يستوي الاكل والصيام .

بل نسي ان الرجل حين يحب المرأة فانما يريدها ولا يريد ما هو اجمل منها ، وانما يحسها ويحس بها لانها هي هي لا لانها امراة لا فارق بينها وبين سائر النساء .

وكالنظارة التي تجلو العين لانها نظارتها تكون المعشوقة للعاشق الذي عاشرها والف محاسنها وعيوبها ، وتمثل كل صفة من صفاتها كأنها شخص مستقل « مخصوص » لا مشابهة بينه وبين الصفات عامة . فلا النظارة التي هي ابعد امدا وانفس زجاجا تغني العين التي تنظر بما دونها، ولا المراة التي هي اجمل طلعة واكرم سليقة تغني القلب الذي تعود ان يخفق لها او يخفق معها .

لا بل تكون التسلية هنا احجى بأن تنكأ الجرح وتضاعف الحسرة وتضرم لوعة الفقد والغيبة ، فالمراة المجهولة تغني عن المراة المجهولة لانك لا تعرف لها صفة تنكرها عند اختها ... اما التي « تشخصت » في حسك كل صفة من صفاتها فكيف ترى امرأة غيرها دون ان تشعر في كل لمحة وكل لمسة ان لها وجها غير وجه فلانة ، وعينا غير عينها ، وصوتا غير صوتها ، وقواما غير قوامها ، واعطافا غير اعطافها ، وروحا غير روحها وكلاما غير كلامها ؟

وكيف تشعر بذلك دون ان تنقلب التسلية غصة ، ودون ان ينقلب العوض المنشود ذريعة من ذرائع الفقد الدائم والحرمان المتجدد ؟

كلا ! لا تسلية عن « النظارة » المضبوطة بنظارة انفس منها واقدر على التقريب والتوضيح ٠

ولا تسلية عن الابن الضائع بابن من صلب غيرك ولا من صلبك ، ولو كان ابر الابناء الذين ولد الآباء ، ولا تسلية عن المراة المعشوقة بامراة تفوقها ملاحة وتبرعها ذكاء ، وتبذها عندك وعند غيرك في بعض الخصال ولا في جميع الخصال ٠

وفي الحب كثير من بقايا الطفولة وتراث الغريزة ، فلا بد للقلب من فترة طويلة او قصيرة يعاف فيها كل هوى غير هواه ، كما يعاف الطفل كل ثدى غير ثديه ، او يعاف الطير كل اليف غير اليفه ، او يعاف الحيوان كل سكن غير سكنه بين امه وابيه ٠

■ □ ■

في هذه الفترة عاد « امين » الى القاهرة في اجازة طويلة ٠ وراى من الامسية الاولى التي قضاها مع همام اين تقف الامور كما يقول ، بغير حاجة الى افاضة شرح واطالة سؤال ٠

الحقيقة غير معروفة والسلوى غير ميسورة ، والوقت ثقيل كسيح لا يخف ولا يتحرك ! وكل وسيلة يقطعانه بها لا تلبث ان تمسه قليلا حتى تتثلم وتكل وترتد عن صفحته الكثيفة وجلده الصفيق ، فالقراءة لا تنفع واللعب لا يمنع الذهن ان يشرد ويتيه ، والسماع لا يطاق ، والرياضة مطلوبة مستحبة على ان تكون في غير الاماكن التي كان يطرقها همام وسارة ٠ وهل من مكان لم يطرقاه ؟

وكثر التحدث عن الجنون والمجانين وبوادر الهوى التي تصيب العقلاء من حيث لا يعلمون ولا يعلم اصحابهم المقربون ٠ فكان همام

يقول : ما احسب الا أنني سأكون بين الناس في بعض الايام فأخلط بالحديث عن سارة وظنون سارة ! ثم يسأل امينا : ترى كيف تقع هذه المفاجاة في فلان وفلان ؟ وكيف يكون هذا الخلط لو كان ؟؟

ثم يأخذان في التمثيل والمحاكاة كأنهما يتلهيان ويتفكهان ،وانهما لفى مرارة سقيمة تفسد جميع الطعوم !

هذا او يعمد امين الى فنون من الالاعيب الصبيانية ينفي بها الملل ويموه بها الكآبة • فيدق التليفون ويجيبه الرجل المقصود او غير المقصود، فيجري بينهما حديث كهذا الحديث :

ــ هل انت فلان ؟

ــ نعم انا هو

ــ اواثق انت مما تقول ؟

ــ عجبا • ما معنى هذا السؤال ؟

ــ عفوا يا سيدي عفوا ••• انما اردت ان اتحقق من صواب عاملات التليفون •فهل عندك الرقم المطلوب بعينه ؟

ــ نعم يا سيدي • هل من خدمة ؟

ــ بل سؤال صغير ان سمحت !

ــ تفضل

ــ أرجو ان تجيبني ولا تستغرب • هل قرأت صهاريج اللؤلؤ ؟

ــ صهاريج اللؤلؤ ما هذا ؟

ــ أي نعم صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكري • ظننتك قد سمعت به ••• اما سمعت به ؟ اما قرأته ؟

ــ بلى قرأته • فما هذه الاسئلة العجيبة ؟

ـــ اذن تقرأه مرة ثانية !

ثم يلقي السماعة ، ويمضي في تخيل فلان هذا وهو يغضب ويصخب ، وينعى على مصر والمصريين هــذه الفصول التي لا تحدث في باريس ولا لندن ولا برلين !

صبيانيات من هذا القبيل تشغل الوقت ويندر جدا أن تغصب هماما على ضحكة أو ابتسامة ، الى أن كانت ليلة من هذه الليالي المتشابهات طال فيها السأم ونزر فيهــا الكلام ورانت فيها الكآبة ، فقال أمين : مــا الرأي في استئناف الرقابة !

ولعله قالها لفتح باب من أبواب السمر ، أو لعله قالها لدفع السآمة ، أو لعلــه قالها شوقا الى اتمام عمل بــدأ فيه وكبر عليه أن يتركه بغــير نتيجة ... الا أن هماما رحب باقتراحه وحاول أن يجد في معارضته كي يمهد لامين طريق التراجع ان كان قــد تعجل أو بدر منه ذلك الاقتراح تزجية للوقت وجذبا لاطراف الحديث ، فلم تسعفه أسباب المعارضة ولم يسعه الا الموافقة ، وهو لا يدري من فائدة لاستئناف الرقابة الا أنه عمل لن يزيده تعبا على تعبه ، وقد يريح .

وبدأت الرقابة بكرة وقد تدرب عليها أمين من جهة ، وتهيأت دواعيها من جهة أخرى ، وعاونتها المصادفات من جهة ثالثة فنجحت بعد محاولة طويلة نجاحا كان جديرا بعناء المحاولة ، لانــه أراح هماما وأراح أمينا وصوب الضربة الى رأس الاوهام واللواعج والمعاذير فقضى عليها .

عاد أمين من رحلته ذات يوم متهللا مسرعا يتكلف الحزن والاسف تكلف الناعي الذي ينقل أخبار الوفاة الــى وارث مدين يتنازعه الحزن والسرور .

قال همام : خير .

قال أمين : خير ، كل الخير .

ولولا احتراسه أن يصدم صديقه بالنبأ السعيد المشؤوم لصاح صيحة « ارخميد » ... : وجدتها . وجدتها ! ! .. وحق له أن يصيح ، فقد كان يمتحن زيفا دقيقا لا يقل عن الزيف الذي امتحنه الرياضي العظيم !

وسرد القصة بتفصيلاتها عملا بالوصية الاولى ، وان لم يكن همام بالحريص في هذه المرة على التفصيلات ، بعد أن نجحت الرقابة وظهرت النتيجة .

وفحوى القصة أنه تبع سارة من منزلها حتى نزلت في ميدان باب الحديد . فمشت أمام ومشى وراء ، ودارت بعينيها فيما حولها تروز الطريق وتتوقى الانظار ، فأطل رجل من سيارة وكانت واقفة بالانتظار وأشار اليها . فانفتلت الى السيارة في سرعة البرق ، وتبين أمين الرجل بثيابه وسيماه .

قال همام : وهل تبعت السيارة ؟

قال أمين : لا . فقد غابت عن النظر قبل أن أدركها بسيارة أخرى .

قال أمين مستضحكا جذلا ليصرف عنه أسفه المصطنع ويسري عنه ندامة هذا الفشل الصغير ، ويسره بنتيجة تعبه :

أحسنت يا سيد أمين ، أحسنت ! قد وصلنا . وصلنا وان لم نصل الى باب الدار . فاستمر على بركة كوبيد .

■ □ ■

وانقضت أيام في مثل حالة المفجوعين الذين اطمأنوا الى موت فقيدهم

في ديار الغربة ولم يبق الا أن تصل الجثة الى مقرها الاخير بعد سنوات من وقوع المصاب : لا حدة ولا حداد ولا حرارة في الانتظار • بل مسايرة للايام والحوادث الى أن تنتهي حيث يروقها الانتهاء •

ففي بعض هذه الايام كان همام يركب الترام قبل الموعد بنحو الساعة الى حيث يلقى أمينا ــ عشاء كل يوم ــ بعد رحلته اليومية المعهودة • فاذا بأمين يقفز الى جانبه والترام سائر على أقصى سرعة •

فنسي همام ما كانا فيه ولم يذكر الا نوادر أمين في الخوف من ركوب الترام والنزول منه وهو سائر • فليس أظرف من سهواته المحفوظة الا نوادره في خوف الترام والمركبات والزوارق وكل ما يسير ويخشى من سيره الهلاك • فقد ولع به أصحابه من جراء ذلك وتعقبوه بالمناوأة والمحاورة عسى أن يقلع عن خوفه فما أقلع ••• وآخر نوادره في هذا الباب كان في خلال ذلك الاسبوع ، وكان هو وأصحابه يغادرون حديقة الحيوان وهم يوهمونه أنهم سيركبون الترام الذي يهم المسير ، ويتباطأون لقلة اكتراثهم أن يركبوه وهو سائر • فأسرع قبلهم ليدركه قبل أن يتحرك• فتركوه ووقفوا ينظرون اليه وينظر اليهم وهو لا يجسر على النزول !

وأبى أمين أن يقنع بهذا في أضاحيك يوم ، فزاد عليه أضحوكة أخرى من سهواته وبدواته : مضى مع الترام الى آخر الخط ثم قضى في البحث عن أصحابه بقية الظهيرة ، وقد كان في وسعه أن ينزل في المحطة التالية ويركب معهم القطار الذي ركبوه •• ولكن الرجل سخي بسهواته ومخاوفه لا ينفق منها بحساب !

ذكر همام هذا حين رأى المعجزة التي ما رآها قط ولا توقعها ••• وعلم أن أمرا خطيرا لا بد قد جرى في الدنيا وقفز بأمين تلك القفزة

النادرة ، بـل تلك القفزة المقطوعة النظير ! ولا شك أن الضحك الذي سرى تلك الساعة الى خاطر همام قد كان بطانة ناعمة وثيرة نسجتها المقادير ليتلقى عليها الخبر المشئوم الميمون ، المترقب بنافد الصبر ونافد الحيلة منذ شهور ، وقد كان لـه شأن أي شأن في تهوين المسألة كلها وتلطيفها وافراغها في مرحلتها الاخيرة في قالب السخر والفكاهة .

فلما جلس أمين الى جانب همام لم ينتظر سؤالا ولم يأبه للضحك الذي كان يلوح على عيني همام ، وقال في رصانة وتؤدة : انتهت مهمتي .

قال همام : لا ريب في ذلك . فان قفزتك وحدها لدليل أقوى من كل دليل . فأوجز يا صاح . أوجز ولا ضرورة للتفصيل .

قال أمين : الآن هي في مخدع مريب في بيت قريب ، تبعتها اليـه وعرفته وعرفت اسم صاحبه الذي يستأجره ، وعرفت أنها تغشاه من حين الى حين .

فلم يزد همام على أن أغمض عينيه هنيهة . أغمضهما كأنه يتحاشى النظر الى سبة شائنة ، أو كأنه يتهيأ للراحة بعد سهاد طويل في ارتقاب خبر مكتوم مضنون به عليه . ثم أسرع فصافح أمينا وهز يده هزة الشكر والرضى والابتهاج ، وقال له : صدقت صدقت ، لقد انتهت المهمة ، فهلم نحتفل بتشييعها !

ونشط كلاهما نشاطا لم يدريا ماذا يصنعان بـه وكيف يجريانه في مجراه ، فانطلقا الى أطراف المدينة يمشيان بل يغذان السير على غير هدى ، وطفقا يطوفان ويعودان الى حيث كانا حتى صادفا اثنين مـن أصحابهما الادباء يلتمسان السهر ولا يتفقان على مكان ، فانساقوا جميعا الى نـاد متطرف على هامش الصحراء ، وكانت الليلة مقمرة والجو رائقا والسيارات ذاهبة آيبة في خفة وطرب واشتياق .

ويتم التوفيق فيكون أحد الاديبين صاحبنا الذي كان أمين يختلق له الاسئلة في التليفون ، ويتم التوفيق مرة أخرى فيجري الحديث في الادب وفي النثر البليغ وفي صهاريج اللؤلؤ ••• أي نعم في صهاريج اللؤلؤ بعينها، ويقول صاحبنا : لقد قرأته مرتين ! ويوشك أمين وهمام أن يسألا : أكان ذلك بعد نصيحة التليفون ؟ ولكنهما يكتفيان بالايماء ويحبسان الضحك ، ويضيفانه الى حساب السرور الخفي الذي يحتويانه منفردين •

فيم كان ذلك السرور ؟

لعله كان سرورا بتقليم مخالب العذاب التي كانت تنوشه من كل جانب وهو ملقى بينها عاجز عن النجاة منها •

ولعله كان سرور الرضى بتحقيق الظنون وانقطاع الشكوك •

ولعله كان سرور القدرة على التفريط في سارة بغير لاعجة من حسرة ولا خالجة من ندم ••• أو لم تعد مرأة من النساء بعد أن كانت ، المرأة « المخصوصة » بعاشق واحد دون سائر الرجال ؟ ألم تنقشع عنها سرابيل الحب الاثير التي كانت تغليها وتعلو بها في ضمير همام ؟ ألم يسقط عنها « سحر » الانفراد الذي جعلها محبوبة لا تغني عنها واحدة ممن يحملن عنوان النساء ؟

بلى ! كان ذلك أكبر ما سر هماما في تلك الليلة بما سمع من «بشارة» أمين ، وظل على سروره هذا أياما يترشفه ويكرع منه ولا يروي منه بالجرعة والجرعتين ، وصفا له شعور الراحة والسكينة برهة لا ينساها بقية أيامه ، فلم يرتقها عليه كدر ولا ألم من نكسات الداء القديم ، ولم يكد يشعر أن للداء القديم رسيسا باقيا الا حين انقضت اجازة أمين وودعه صباح يوم للذهاب الى عمله ، فقد كانا معا كالسائحين في طريق واحد

معروف المعالم والانحاء لهما على السواء ، فلما افترقا أحس همام كأنه قد ضل الطريق ، وألح عليه هذا الاحساس المبهم بضعة أيام ، ثم تراجع رويدا رويدا الى رضوان صحيح ، أو رضوان يقنع نفسه بأنه صحيح •

الا أن كوبيد شيطان مريد له لؤم الشياطين ونزعاتهم ومكائدهم وكراهتهم أن يتركوا الناس هادئين وادعين ، فمن حين الى حين كان همام يسمعه يهجس له ويوسوس في صدره ليسلبه ارتياحه الى فراق سارة وقدرته على تناسيها ، فلا يفتأ يعاوده أبدا بهذا السؤال :

أليس من الجائز أنها وفت لك في أيام عشرتها واستحقت وفاءك لها وصيانتك اياها وغيرتك عليها ؟ أليس من الجائز أنها يئست منك فزلت بعد الفراق ؟ ! •• ! !

■ □ ■

عباس محمود
العقاد

في بيتي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

المقدّمة

جميل ما يفعله ورثة العقاد العظيم واصدقاؤه في التوفر على تتبع انتاج الراحل الكريم ومحاولة حصره وجمعه وطبعه طباعة أنيقة ، ثم جلاء بعض النواحي من حياة الكاتب التي كانت خافية على الكثير من عشاق الأدب ودارسيه .

والحق ان الكثير من ناشئة الأدب وطلائعه قد افادوا من صحبة العقاد ما لم يفيدوه من صحبة اساتذتهم في معاهدهم وكلياتهم الجامعية . لأن العقاد كان إنساناً قوي الحضور ، يؤثر فيمن حوله من المتطلعين الى المعرفة والمستشرفين الى المجد الأدبي ، كما كان شديد اليقظة الذهنية يجمع لجلسائه ومريديه أجبالاً من الفكر والمعرفة ، وكان واسع الثقافة عميقها ، كما يعرف عنه كل متمعن في كتاباته وشخصه . وكانت معرفته متقدة في ذهنه لا تفتر ولا تهدأ . ويتمثل لنا ذلك في الحشد الهائل من القضايا والأفكار التي تشتمل عليها كتاباته من دون تكرار أو تقليد . معرفته لا يأخذها عن الكتب ظهراً عن قلب حمّاً أو استظهاراً ، وإنما هو يأخذها لتكون في رأسه شغله الشاغل وهمه الكبير لا يتمثلها فحسب بل يعيها ، بمعنى أنه يدركها إدراكاً حضوريّاً . ومن هنا كانت أحكام العقاد من القدرة المنطقية بحيث يكاد يجعل قارئه يسلم له بكل ما يقدم من هذه الأحكام بصرف النظر عن اتفاقه أو اختلافه معه . وفي ظني ، أن على من يريد أن يفهم العقاد حق فهمه ، ويحيط بأبعاده الشاسعة وآفاقه البعيدة أن يقدر فيه ابتداء ثلاثة جوانب :

١ ـ أن العقاد أكبر كاتب عربي عقلاني في عصره من غير ما جدال .

٢ ـ أنه متفتح الذهن لكل ما يدخل تحت باب المعرفة أو الثقافة أو العلم لذلك كانت ثقافته واسعة . . واسعة . كان يقرأ كتاب العلم بنفس المتعة والحماس اللذين كان يقرأ بهما كتاباً في الشعر أو الأدب .

٣ ـ شخصيته العنيفة التي لم تكن تعرف حدّاً وسطاً لتقبل المهادنة على حساب رأيه الفرد ، سواء كان ذلك في حياته المعيشية أم في حياته الاجتماعية : في طبعه وخلقه ، وفي حياته العملية والأدبية .

يقول في دفع تهمة الكبرياء والجفاء في طبعه ، وكأنه يقدم أدلة على تبرير هذه التهمة أيضاً :

(إلا أن الناس معذورون بعض العذر في شبهة الكبرياء هذه ، وإن كانوا لا يطالبون أنفسهم بأقل مجهود في تصحيح هذه الشبهات .

فقد أراد الله ـ وله الحمد ـ أن يخلقني على الرغم مني متحدياً « تحدياً خصوصيّاً » لكل تقليد من التقاليد السخيفة التي كانت ولا تزال شائعة في البلاد المصرية والبلاد الشرقية على العموم .

أنا أطلب الكرامة من طريق الأدب والثقافة ، واعتبر الأدب والثقافة رسالة مقدسة يحق لصاحبها أن يصان شرفه بين أعلى الطبقات الاجتماعية ، بل بين أرفع المقامات الانسانية بغير استثناء . أفي ذلك عار ؟ أفي ذلك موجب للحقد والضغينة ؟)

وحين خرج من السجن على أثر الحكم عليه بالعيب في الذات الملكية سنة ١٩٣٠ نراه يتوجه الى ضريح سعد زغلول فينشد هناك :

لبثت جنين السجن تسعة أشهر	وها أنذا في ساحة الخلد أولَدُ
ففي كل يوم يولد المرء ذو الحجا	وفي كل يوم ذو الجهالة يلحَد
وما أقعدت لي ظلمة السجن عزمةً	ففي كل ليلٍ حين يغشاك مرقدُ
وما غيَّبتني ظلمة السجن عن سنىً	من الرأي يتلو فرقداً منه فرقدُ
عُداتي وصحبي لا اختلاف عليهما	سيعهد في كل كما كان يعهد

وفي الصداقة والعداوة يقول :

(ومن هذه الصفات التي أعهدها في نفسي أنني لا أميل الى التوسط في الصداقة ولا في العداوة ، فلا أعرف إنساناً نصفه صديق ونصفه عدو وإنما أعرفه صديقاً مئة في المئة ، أو عدواً مئة في المئة ، ولا تهمني مع ذلك عداوته إذا حفظها لنفسه . . . ولكنه إذا تعقبني بها وأبى إلا أن يكشف عنها فهي الحرب التي لا توسط فيها كذلك . إما كاسر أو مكسور إلا أن يريحني احتقاره من عناء هذا وذاك . .) .

هذا هو العقاد يجلو لنا نفسه في صراحة ووضوح تامين من غير مداراة أو رياء - رأينا أن نقدم بهذا الجلاء كتابه الذي بين يدي القارىء والموسوم بـ « في بيتي » علَّ ذلك يفيد في تقريب شخصية كاتبنا الكبير ممن يجهل حقيقته وطبعه وخلقه . . . !

والعقاد ، رجل اكتسب قيمته بالكد والسهر والعرق والنضال . . . حياته أشبه بملحمة بطولية من الفداء في سبيل الأفضل والأعلى والأصح دائماً ، وإلا فمن كان يتوقع لشاب فقير ولد في بلد ناءٍ من صعيد مصر أن يلمّ بكل هذه المعارف والثقافات التي صاول بها أعلى الرجال مقاماً وأكثرهم ثقافة وأشدهم اطلاعاً على معالم الحياة المعاصرة واتصالاً بها ، حتى ذاع عنه أنه لا تكاد تفوته معلومة من معالم العصر من غير أن يكون ملماً بها .

وفي محاولة لتحليل هذه الشخصية الجبارة ومؤثراتها أو مكوناتها أيضاً ، نستطيع أن نجمل ذلك في أسباب ثلاثة :

١ - ما ترسب في قرارة نفسه من وراثة الوالدين من انطواء على الذات وميل الى العزلة :

(أعترف لك أني مطبوع على الانطواء ، ولكني مع هذا خالٍ بحمد الله من العقد النفسية الشائعة بين الكثير من أندادي في السن ، ونظرائي في العمل وشركائي في العصر الذي نعيش فيه .

لقد ورثت طبيعة الانطواء عن أبي وأمي ، فلا أملّ الوحدة وإن طالت ،

ولا أزال أقضي الأيام في بيتي على حدة حيث يتعذر على الآخرين قضاء الساعات بل اللحظات ، ولكنني أشغل وحدتي بالقراءة والكتابة وإذا كنت في عزلة عن الجماعات والحفلات فاني لست في عزلة عن أصدقائي وإخواني . .) .

وليس من شك في أن اهتمامه بالترجمة للعبقريات والشخصيات الفذة في التاريخ والأدب والسياسة ينبع من إيمانه بالبطل الفرد الممتاز المستغني بنفسه المؤثر في غيره . . ولعل ذلك ليس بعيداً عن المعنى الكامن في انطوائه وعزلته ثم اعتداده بذاته وشخصه ، وفي طريق سوي من هذا إيمانه بالابطال والامتياز الفردي في تسيير دفة الحياة وحكمها على مسيرة التاريخ .

عرف العقاد في نفسه ، معرفة أكيدة ، القدرة الصارخة الخلاقة فلم يهنها ، وأدرك أنه ممتاز متفوق ، فقوي فيه إحساسه الصادق بتفوقه ، فعمل ، صادقاً على أن يدّخر كل طاقته حتى يتيح لهذا :لامتياز أن يؤتي ثماره . ومع هذا ، فهو يقول إنه لم يحقق مما كان يحلم به في صدر شبابه إلا نحو ٢٠٪ .

والتزم بالنظام الدقيق في معاشه وعمله وفكره ، لأنه أدرك بفطرته السليمة منذ نعومة أظفاره ، وبعقله المنظم ، وذكائه المتقد ، وبصيرته النفاذة ، ثم تطلعه الى المستقبل ، أن النظام أساس البناء لكل إرادة تريد أن تحقق أمراً جليلاً وأن من كان غير منظم ، يعمل كثيراً فلا ينتج إلا قليلاً . وأن النظام أقصر الطرق للوصول الى الهدف المنشود .

وأدرك أن الوظيفة قبر ، فتأبّى عليها ، بل لقد كان خروجه من الوظيفة المرة تلو الأخرى ، ليس إلا ضيقه بقيودها التي لا تنسجم مع استقلاله الشخصي وطموحه وتحديه لتقاليد الوظيفة السخيفة .فقد كان متيقناً أن رسالته لا تتحقق في وزارة أو وظيفة كبيرة ، فأولئك وهؤلاء زوائل وزوائد تقع على هامش حياته الحقيقية :

ولننظر بماذا كان يحلم وهو طفل صغير :

(كل ما كنت أريده وأطلبه من الحياة لم أبلغه ولا أرى أن أحداً بلغ كل ما

طلب . وأما هدفي في الحياة فكان في الصبا أن أتولى القيادة العسكرية ثم تحولت أو خُيِّل إلي أنني أتحول الى طلب العلوم الزراعية ، وأن التحق بمدرسة الزراعة في ذلك الحين ثم تبين لي من مراجعة نفسي مراجعة دقيقة أن وراء الطموح الى القيادة العسكرية وإلى العلوم باعثاً واحداً هو « حب الأدب » .

وهكذا استطاع العقاد في مرحلة مبكرة من حياته أن يختصر سنين طويلة من الضياع والضلال ، حين أجاب بصراحة ووضوح وشجاعة عن سؤال حكيم اليونان القديم : سقراط ، اعرف نفسك ؟

٢ ـ الظروف الشخصية له ، بالاضافة الى حبه للانطواء ، كعاملين مؤثرين ، لوّن هذه الشخصية الفذة بلون صارم حاد ، فالذي يتتبع حياة هذا الرجل العظيم ، يحس أنه خلق للنضال والمصاولة وأنه رسم لنفسه طريقاً وعراً حتى يبلغ أعلى القمم . . . وكان صعباً عليه أن يظل في السفح يريح نفسه من هموم الحياة وأوصابها ، كان يدافع عن رأيه بنفس القدرة التي يدافع بها عن شخصه ، بل إنه لم يكن يرى نفسه إلا مثالاً فذاً رسمه أو بناه من حبات الدموع وهو يقضي أيامه في دياجير الظلماء ووحشتها ، وحيداً من غير أنيس أو رفيق . وإذا كانت حدوده المادية ظلت لا تعدو حدود نفسه البشرية في مضطربها الحيوي ، فقد كانت آفاقه المعنوية ، تمتد من خلال نوافذ البيت العتيق الى أبعد الآماد والمسافات الشاسعة . والحق ان الحياة لم تكن حرباً عليه بقدر ما كان يخلق هو نفسه من صعوبات تعترض الطريق الى القمة .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

فالذي خلص لهذا الرجل من خارجه ومن داخله ، من الموضوع والخارج الموضوعي أنه بخطته . . وبرؤياه . . وأنه بالبواعث الصادقة ، والأهداف العالية . . . كل متكامل لا يتجزأ . ! هو بنفسه ونضاله . . وبحلمه الكبير ، وجفوته وتجهمه ، ثم إصراره والطريق موحش طويل مقفر ، وما حوله ، بكل معوقاته وأسبابه السلبية ، وعفويته ومخاطراته من بين هذا كله ، كان يقف

الرجل مواجهاً السيل العرمرم ، ليهتك حجب الظلام حتى ينبثق النور ، ملوحاً بذراعه العالية . . ليرى إن كان الطريق لما يزل طويلا . . والذبالة تعطو بلمحة من خاطرة أو بصيص من حشاشة نور متهالك . . يلوح من بعيد . . بعيد . . بعيد .

ومع هذا ، ظل يسير . . ويسير . . ويسير . . حتى يصل ، ولكن ذلك كان نهاية الشوط .

يذكرون عن برناردشو انه رفض جائزة نوبل ، لأنها كانت على مدخول الكاتب الكبير ، أشبه بطوق النجاة يعطى لرجل أوشك على الغرق ، بعد أن وصل الى شط الأمان .

٣ ـ الثقافة العميقة الواسعة المتنوعة :

أما إنها عميقة فان الرجل قد التزم بنظام الدارس المحقق الواعي . ويتجلى هذا في كتاباته الكثيرة المتصلة على مدى عشرات السنين . . والتي تحتشد بالفكر والذهن الخالص . . على مثال لا نجده في كتابات كاتب آخر على الاطلاق . وهي واسعة جداً لأنه عالج في كتاباته أيضاً معظم شؤون المعرفة الانسانية من أدب وفلسفة وعلوم واجتماع وفنون ، على مثال نادر فريد لا في عصره أو بيئته فحسب ، بل في غير عصره وفي غير بيئته . . . !

ولعلَّ قراء صحف القاهرة خاصة دار أخبار اليوم يذكرون جيداً أن عباس العقاد كان الكاتب الوحيد الذي يلجأ إليه القراء ، كل القراء في كل المسائل التي تعرض أو تخطر لهم .

***

فاذا تركنا هذا لننظر في كتابه الموسوم بـ « في بيتي » فانه لو كان إليَّ الخيار لأسميت هذا الكتاب « في مكتبتي » ذلك أن مكتبة العقاد هي بيته ، وبيته هو مكتبته . وهل من المعقول أن لا يبرح رجل بيته لمدة اسبوع كامل إذا كان هذا

البيت مجرد منزل للطعام والراحة والنوم . . . ؟!. . أما إذا كانت البيت على شاكلة بيت العقاد يحتوي على الآلاف من نفائس الكتب العربية والأجنبية ، فالأمر جد مختلف . وذلك هو ما عمدت إليه دار الهلال حين أصدرت عدداً خاصاً من كتاب الهلال عن العقاد تحت اسم : « أنا » وأشارت فيه الى هذا الكتاب ، إذ قسم الكاتب فصوله إلى ثلاثة بهذه العناوين : في مكتبتي ـ بين كتبي - في بيتي .

على أن عشرة الكتب هذه لم تكن من السهولة واليسر بحيث يظن الانسان الساذج أنها متعة خالية من الجهد والمتاعب والصعوبات . يقول في معرض الرد على سؤال وجّه اليه إن كان ظفر بما كان يصبو الى تحقيقه :

(كل ما كنت أريده وأطلبه من الحياة لم أبلغه ، ولا أرى أن احداً بلغ كل ما طلب . . ولم أبلغ الغاية التي رسمتها أمامي ، في مقتبل حياتي ولا قريباً من الغاية ، وإذا قدرت ما صبوت إليه مئة في المئة فالذي بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين . .

ويقول في مكان آخر : (ولقد تعبت كثيراً في تحصيل الأدب والثقافة ، ولكنني أعترف بعد هذا التعب كله بقصوري عن الغاية التي رسمتها أمامي في مقتبل صباي . فلم أبلغ بعد غاية الطريق ولا قريباً من غايته .) .

ولقد ظفر الشعر العربي من صحبة العقاد لهذه الكتب بقصيدة ما أظن أن لها نظيراً في شعرنا المعاصر ، على حد علمي ، لخص فيها العقاد نظرته الى هذه الكتب في مرحلتين من حياته . وأرجو ان يكون في إثبات هذه القصيدة ، مع هذه المقدمة ما يساعد على فهم العقاد لا في كتابه هذا فحسب ، وإنما في جميع ما ألف وما كتب :

ورد هذا القسم من القصيدة في ختام الجزء الأول من الأجزاء الأربعة لديوان العقاد :

« يا كتبي »

يا كتبي أشكو ولا أغضبُ ما أنتِ من يسمعُ أو يُعتبُ

يا كتبي أورثتني حسرةً هيهات لا تُنسى ولا تذهبُ

يا كتبي ألبستِ جلدي الضّنى لم يُغنِ عني جلدك المُذهبُ

كم ليلة سوداء قضّيتُها سهرانَ حتى أدبرَ الكوكبُ

كأنني ألمحُ تحت الدُّجى جماجم الموتى بدت تخطبُ

والناس إما غارق في الكرى أو غارق في كأسه يشربُ

أو عاشق وافاهُ معشوقُه فنال من دنياه ما يرغبُ

أو سادر يحلم في ليله بيومه الماضي وما يعقب

ينتفع المرء بما يقتني وأنتِ لا جدوى ولا مأربُ

إلا الأحاديثَ وإلا المنى وخيرةً صاحبها مُتعبُ

إذا أراني النور قبحاً فيا حسن الذي يضمره الغيهبُ

يا كتبي أين تُرى المنتأى عن أسر أرواحك والمهربُ

أنفقت مني ما يغِنُّ الورَى به على الله ولم يُذنبوا

من ضوء عينيّ ومن صحتي سُدىً ومن وقتي وما أكسب

ومن شباب فيك ضيّعتهُ فما أنا إلا الفتى الأشيبُ

لو كنتُ كالجبار في نِقمتي لكان في النار لها مَعطبُ

في ذمة الطرس وفي حفظه عُمْرٌ تقضّى شطره الأطيب

لا رحم الرحمن فيمن مضى من علّم العالم أن يكتبوا

***

ثم اضاف عليها الأبياتَ التالية مقدماً لها :

(والقصيدة الجديدة في هذا الديوان تشير الى تلك الأبيات بما ورد فيها من المقابلة ، وهذه هي) :

شكوتُها والعمر في فَجره فكيف بي لما دنا المغرب ؟

لما دنـا المغـرب صالحتها   تلك التـي تُشـكى ولا تغضب
تلك التـي قلـت لهـا مرة   والقلـب دام والحشـا مُلهبُ
« يا كتبـي أورثتنـي حسرةً   هيهـات لا تُنسى ولا تذهـبُ
يا كتبـي ألبسـت جلـدي الضنى   لم يغـن عن جلـدك المذهب
فالآن يا كتبـي تعـالي لمن   أخبـث شيء عنـده طيبُ
ما أنـتِ شرٌّ من عَنـاء المنى   وهـي التـي في صِدقهـا تكذبُ
ما أنـت أقصى من شَقـاءِ الهوى   وهـو الـذي في لهـوه يُتعب
ما أنـت أغلى ثمنـاً إن غلا   من جوهـرٍ يُكنـزُ او يُعطب
ما أنـت في سكر وفي متعة   أحلى من السُّم الـذي يُشرب
ويحـك إنـا نحـنُ من معشرٍ   يسبِـق فينـا الـدور أو يعقب
غداً سنمسي كلنـا ما لنا   في العيش إلا ذمـك المتربُ
فليت لي إذ أنـا تحـت الثرى   جمجمـةً ثرثـارة تخطب
رهطـاً من القـراء يرضونني   رضـاي عن بلـواكِ إذ أغضبُ
يا كتبـي ما شِئـت فلتحسبي   أو شاء قرائـي فليحسبوا

فاذا عدنا إلى الكتـاب : « في بيتـي » أو في مكتبتـي كما اصطلحنـا أن نسميه ، فانه عبارة عن جولة بين رفوف كتبه في معظمه ، وقليل منه فيما عدا ذلك من شؤون الحياة المعيشية وهمومها . يقول في وصف هذا البيت ، في الصفحة الأخيرة من كتابه عن هذا البيت :

(فهذا البيت قد كتبت فيه خير كتبي وأحبها إلي ، وقد عشت فيه تلك الكتب عيشاً حيّاً باقي الآثار قبل أن أنقلها من عالم النفس إلى عالم الأوراق ، وهذا المسكن قد صعدت سلالمه ثلاثاً ثم صعدتها اثنتين اثنتين ، ثم أصعـده درجـة درجة على غير عجلة ولا اكتراث . وهذا المسكن قد نزلت به والشعرات البيض يتوارين في السواد ، وما زلت أنزل به والشعرات السود يتوارين في البياض . . .

وقد استقبلت فيه آمالاً واستحييت فيه ذكريات ، ومن غار على ذخيرة آماله

وبواطن ذكرياته فقد يغار على مواطنها أن تستباح بعده لكل من يشاء . يبدأ العقاد كتابه بحديث مجرد متأمل عن عشقه النور ، وحبه الشمس ، مصدر النور ، ومدينة النور أو مدينة الشمس كما يسمي أسوان . وطبيعي أن يكون كاتبنا من عشاق الوضوح والصراحة والقوة التي تمنحها إيانا الشمس . فان عقل العقاد قوي في مثل وقدة الشمس ، وصارم مثل سطوعها ، وواضح مثل لمعانها وإشراقها ، ولذلك كانت حملة العقاد في أكثر من مكان من كتاباته وأحاديثه على المذاهب المستغربة أو الغامضة المبهمة في الفكر والفن والأدب مؤثراً عليها الوضوح والصراحة والمنطق :

(قلت يا صاحبي لا عجب أن يكون أظهر الأشياء ، هو المظهر للخفاء في كل معانيه ، ولا أحسب أن حجاباً من الحجب الكونية سيرتفع في مجال العلم أو مجال الحكمة من طريق غير طريق النور مهما يطل الزمان) . أي الانتقال من المعلوم الى المجهول . . . وهو طريق العلم والحكمة والمنطق ، وهذه المجالات كانت شاغل العقاد في مطارحاته الفكرية ، واهتماماته الأدبية . . !

وبعد هذا التقديم الموجز نرى العقاد يثير مسألة العلاقة بين الروح والجسد ، مشيراً الى ما نادى به الفيلسوف السياسي البريطاني « أرثر بلفور » من نفي الصلة بين عالم المادة وعالم الروح ، ولكن العقاد ينتهي من هذه القضية الى التوفيق بين النقيضين أو الطرفين : الروح والجسم : الروح التي تخالف الجسم في تكوينه ، فكيف تعمل الروح في الجسم ؟ وكيف ينظر الى الجسم باعتبار ما فيه من حركة أو طاقة أو إشعاع . . ؟ يختم هذا الحوار الفلسفي مع صاحبه فيقول :

(قلْ إن الكون حركة لا مادة فيه ، ذلك أيسر من أن تقول : إن الكون جرم لا روح فيه .

قل إن الكون نور . قلْ إنَّ الله نور السموات والأرض ، فاذا قصر بك الحس عن نور الله فثق أن هذا الضياء الذي يملأ الفضاء هو النور الالهي الذي

كتب لابن الفناء أن يراه) .

وبعبارة موجزة ، إن العقاد ، استطاع أن يفسر لنا بمنطق قوي ، وحجة دامغة ، أشتات هذا العالم ، بمظاهره وظواهره ، بأسراره وممكناته ، استطاع .. أن يفسره بما يجمعه من انتظامه في وحدة متكاملة .. هي وحدة الوجود .

بعد هذا ، يمضي العقاد مع صاحبه في عالمه الصغير بحدوده المكانية ، الكبير بآفاقه وأبعاده المعنوية ، فهذه الكتب كأنها (أرواح في انتظار الطلسم ، أو مردة في قماقم سليمان . وأين برج بابل من لهجات رف واحد ها هنا لو تحركت له ألسنة وتفتحت له أفواه ؟ وأين الجحيم كلها لو انبعثت المردة من أرصادها وتمددت على الطلسم الأعظم الذي يحبسها في قماقمها) .

فها هنا مارد يحملنا الى قطب الشمال وآخر إلى قطب الجنوب وثالث يتعدّى بنا أقطاب الأرض الى الشعرى اليمانية وما وراء السديم .. ومنها ما يحملنا إلى القرن الأول للهجرة أو القرن الأول للميلاد ... وغيرها يحملنا إلى ما قبل الهجرة وقبل الميلاد من أزمنة يضل فيها التاريخ وقلما يهتدي فيها الخيال .

وها هنا هوميروس ، وهناك امرؤ القيس .. الى آخر هذا العالم الذي لا يحد بزمان ولا بمكان ، ولكنه عالم تجاوز كل حدود الإمكان وعبر الزمان ، حتى تجمع منه لدى هذا الراهب القديم أشتات ... وأشتات كانت له من خلالها رحلات وجولات إلى كل غير منظور ولا معروف ولا مألوف ..!

(ولا بد للقارىء الواحد من مطلبين مختلفين : أحدهما للصناعة والعمل والآخر للمتعة والتسلية) . أما إذاكانت الصناعة هي الكتابة ، كما كانت صناعة العقاد (فقد تعدد ما يقرأ للعمل والصناعة وتعدد ما يقرأ للمتعة والتسلية) .

ونحن ، في الحقيقة لا نستطيع أن نقف عند جميع ما يثير العقاد في هذا الكتيب من أفكار ونظريات وقضايا ، فالرجل كما أسلفت في صدر هذه

المقدمة ، كاتب من طراز فريد ، كتابته حشد من القضايا الفكرية المتشابكة ، وهو إذا عالج أمراً من الأمور أوفى به على الغاية سعة وشمولاً أو تعمقاً واستقصاء ، ولذلك ، فسنحاول أن نترك للقارىء الكريم أن يقف من هذه الأراء والقضايا التي يشتمل عليها الكتاب الموقف الذي يناسبه أو يرتئيه ، ذلك أن الإلمام بهذه القضايا ، وهي فكرية بصورة عامة ، أو ثقافية تعتمد على الاطلاع الواسع والاستعداد الممتاز ، أقول إن الالمام بهذه القضايا وإعطاء رأي أخير فيها ، يقتضي أول ما يقتضي أن نقرأ العقاد في جميع كتاباته : كتبه خاصة .. وإذا أمكن محاضراته ومقالاته ، لأن الكثير من هذه القضايا التي يعرض لها في هذا الكتاب « في بيتي » سبقت الإشارة اليها ، أو الحديث عنها في تلكم المؤلفات والكتابات السابقة أو اللاحقة لهذا الكتاب على أن ذلك أرجو أن لا يمنعنا عن محاولة التنبيه أو على الأصح الاشارة الى أهم هذه القضايا ...

وفي هذا الكتاب ، نجد العقاد ما زال عند رأيه القديم في القصة ، مؤثراً عليها الشعر أو المقالة يقول :

(لا أقرأ قصة حيث يسعني أن أقرأ كتاباً أو ديوان شعر ...) ووجه المفاضلة عنده الأداة :

(وكلما زادت الأداة وقل المحصول مال الى النزول والاسفاف) والعكس عنده صحيح . ويقول أيضاً :

(ان خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذي يعطيكه بيت كهذا البيت :

وتلفتت عيني فمذ بعدت ... عني الطلول تلفت القلب

ثم يتلو ذلك مجموعة من الأبيات المختارة .

ويعلل ذلك بقوله :

(لأن الأداة هنا موجزة سريعة والمحصول مسهب باق ، ولكنك لا تصل في القصة الى مثل هذا المحصول إلا بعد مرحلة طويلة في التمهيد والتشعيب ،

وكأنها الخرنوب الذي قال التركي عنه ـ فيما زعم الرواة ـ إنه قنطار خشب ودرهم حلاوة) .

وهذا كلام إن أُخذ على علاته هكذا بدا لنا ، فيما يزعم صاحبه ، أنه قريب من الصحيح ، والحقيقة ، أن الامتياز في الأدب ، سواء كان قصة أم شعراً أم مقالة . . إلخ يظل هو المقياس الصحيح . . والإيجاز والاختصار ليس فضيلة إذا عد الاسهاب فيما لا داعي له رذيلة ، ولكن الاسهاب أو الاطناب والتفاصيل تصبح ضرورة حيث لا يجوز الاختصار أو قلة الأداة على حدٍّ ما يذكر كاتبنا الكبير . ثم إن القصة نوع أدبي ، غير الشعر ، ولكل مجاله وقدرته وأداته ، فالمقارنة غير جائزة أساساً . . . !

من أخطر الآراء التي ظل يرددها العقاد طيلة حياته محاربة الشيوعية والديكتاتورية مع الجمع بينهما في كونهما إهانة للانسان أو تقييداً لحريته .

يقول في معرض المقارنة بينهما من الناحية الخلقية :

(إن جشع المستغلين شر ولكن الشيوعية ليست بخير ، وإن رأس المال محنة للأخلاق ولكن الشيوعية محو للأخلاق لا تقوم لها فيه قائمة . وسيأتي يوم يزدري فيه الناس المستغلين في المجتمع الانساني كما كانوا يزدرون قطاع الطريق بعد أن كانوا في بعض الأزمان عنوان الشرف ومناط الحمد والثناء ، فاذا بلغوا تلك المرتبة كان بلوغهم إياها نمواً ورشداً يستحقان كل ثمن تفرضه عليهم سنة الارتقاء ، ولم يكن ضرورة من ضرورات العجز والحرمان .

أما الشيوعية فما سبيلها الى إبطال السرقة وإبطال القسوة في تجميع المال ؟ إن بلغت ما تريده وصح لها ما تزعم وامتنعت السرقة في ظلها على ما ترجوه فانما تمتنع لأن الناس لا ينتفعون بالمال اذا سرقوه فلا يملكون به أرضاً ولا يودعونه في مصرف ولا يتركونه لوريث . . . الخ)

ويمضي العقاد في حججه ومآخذه على الشيوعية . . حتى يستوقفه صاحبه عند كتاب يضم خطب هتلر . ومعروف أن العقاد ألف كتاباً عن هتلر والنازية

كما كتب في الشيوعية ، وفي مكتبة العقاد كانت خطب هتلر تجاور رسائل لينين ، فاستغرب صاحبه هذا الجوار ، ولكن العقاد العجيب لا يرى في هذا الجوار غرابة على ما بين الشيوعية والنازية من تناقض ظاهر . يقول :

(أما الجوار بين الشيوعية والنازية فيا له من جوار . . . . هو جوار لو انتقل إلى عالم المحسوس لانبعثت من هذه الرفوف القليلة فرقعة لا تسمعها من ألف طربيد ولا من ألف غيمة تومض بالبروق والرعود ، ولكنها لو انتقلت الى عالم المعنى لكان الجوار بينها أقرب جوار وأوفق جوار) .

ولكن كيف . . . ؟! يقول كاتبنا الكبير في تعليله ، إن المذاهب السياسية على كثرتها وتعددها إنما هما مذهبان اثنان :

(مذهب يقدس الحرية الفردية . ومذهب يستخف بها تقديساً لسلطان الدولة أو سيادة الزعيم . ولا عبرة باختلاف الأسماء والعناوين) .

وأما النازية : (ففي لبابها قائمة على خليقة الغرور ، لأنها لن تقوم إن لم يقم معها غرور الزعيم بتفوقه على سائر الناس ، وغرور العنصر بتفوقه على سائر العناصر ، وغرور الأتباع بما يتاح لهم من مظاهر الزهو والخيلاء) .

وأما الشيوعية (ففي لبابها قائمة على خليقة الحسد ، لأنك لا ترى شيوعيّاً إلا رأيته حاسداً للممتازين من خلق الله كيفما كان سبيل الامتياز ، وليسد منهم من يشعر بالعطف على الضعيف أو الفقير ، ولكنهم جميعاً يحقدون على القوي والغني وعلى كل صاحب فضل يشيد به الآخرون . . .)

أما البديل عند العقاد من الشيوعية ومن النازية ، أو غيرهما من المذاهب الهدامة فالتعاون : (فلا خلاص للعالم بعد اليوم الا بهذا الترياق الوحيد حيثما اعضلت عليه مشكلة في السياسة أو في المعيشة أو في الحكومة أو في الأخلاق) .

ثم ينتقل إلى موضوع فلسفي بحت طالما كانت له جولات فيه ومطارحات خصيبة ألا وهو البحث فيما وراء الطبيعة ، والانسان والوجود والعدم وغاية الحياة

ووسيلتها والشر والخير ، وكلها من الموضوعات التي استهوت العقاد منذ صباه حتى أصبح لا يجارى في هذه الميادين . ومعلوم أن للعقاد كتاباً بعنوان : « الله » يبحث في العقيدة الالهية منذ أقدم العصور ، كما كتب عن عقائد المفكرين في العصر الحاضر . . . الى آخر القضايا الفلسفية التي تناولها في كتبه . يسأله صاحبه عما وصل إليه من فلسفة حياته ، فيقول : إن الله موجود .

والحق إن إيمان العقاد راسخ قوي ، إيمانه ليس عفويّاً أو تقليديّاً كايمان العجائز وإنما هو إيمان قائم على المنطق والحجاج ووضوح المعرفة . وحين يسأله صاحبه إن كان باسم الفلسفة او باسم الدين يقول إن الله موجود . يرد العقاد :

(باسم الفلسفة أتكلم الآن ، والفلسفة تعلمنا أن العدم معدوم فالموجود موجود . موجود بلا أول ولا آخر ، لأنك لا تستطيع أن تقول : كان العدم قبله أو يكون العدم بعده ! وموجود بلا نقص . لأن النقص يعتري الوجود من جانب عدم ولا عدم هناك . . . . موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص ولا قصور . . . والوجود الكامل الأمثل هو الله) .

وإذا تركنا الفلسفة وتعقيداتها مكتفين بالالماحة السابقة منها ، رأينا العقاد ينتقل بنا إلى موضوع جديد طريف لا يقل أهمية عن الموضوع السابق من عناية العقاد ومعاناته له ، هو موضوع الفن الجميل أو الفنون عامة ، ونكتفي مما أفاض العقاد في تبيانه وشرحه بالعبارة التالية لنرى كيف أن كاتبنا ينظر الى الحياة على أنها كل لا يتجزأ ؟ كل له عناصر متآلفة متكاملة تؤلف هذا العالم أو هذه الحياة . يقول مبيناً مكان الفنون من مكان غيرها من علم وصناعة وعمل ، وما هي فائدتها أيضاً :

(. . . فالأمة بغير علم أمة جاهلة ولكنها قد تكون على جهلها وافية الخلق والشعور ، والأمة بغير صناعة أمة تعوزها أداة العمل ولكنها على هذا قد تكون صحيحة الحس صحيحة التفكير ، والأمة بغير تعبير أمة مهزولة أو مشرفة على الموت ، وكذلك تكون الأمم التي خلت من الفنون ، لأن الفنون هي تعبير الأمم عن الحياة . . .)

ومن خلال رؤية صادقة واضحة ، يرى العقاد الأشتات متآلفة على نسق سوي ، تتعدد عناصره لتتآلف ، وتتمايز من غير أن تتناقض ولذلك يحدد لنا صلة المنطق بالحياة . فما من شيء في هذه الحياة يناقض المنطق بحال ، فان فهمناه فهو مفسر بأسبابه ومقدماته ، وإن لم نفهمه فليس لنا أن نناقض بينه وبين المنطق أو القياس . .

ولعل موضوع الشعر يكون من أهم ما ناقش العقاد في كتابه ، باعتباره شاعراً فذاً ، والحق إن كتب الشعر والشعراء كانت تشكل ربع مكتبة العقاد ومن انفس ما قال في موضوع الشعر ، ارتباط العمل بالقول ، ذلك الرباط الوثيق الجامع بينهما وإلا كان التناقض واضحاً ، والالتقاء مستحيلاً ، وذلك أخطر ما يمكن أن يُواجه أمة في تاريخها وحاضرها ومستقبلها :

(فالشعر الأصيل والعمل الأصيل يرجعان معاً إلى فرد مقياسي وهو الوعي الأصيل)

حتى الصور المختلفة للشخصيات المتباينة في الأعمال والمواهب والجنسيات ، والتي التقت صدفة على مدى عشرين سنة في بيت العقاد او في مكتبته ، رأى الكاتب بمنطقه الفذ العجيب ، ونظرته الشاملة للأشياء حين سأله صاحبه عن الجامع بينها أجاب : (الجد والكفاح ونبل السليقة وقلة الاستخفاف) . العقاد يرى في أي موقف ، وأية مناسبة ، وكل حال ، منفذاً لقضية فكرية ، أو علة في مشكلة يصعب حلها أو تفسيرها .

وأما حديثه عن الموسيقى ، شرقيها وغربيها ، قديمها وحديثها وأنواعها فحديث العالم المتمكن من أسرار مهنته . والحقيقة إن العقاد كان جماع ثقافة العصر . كلام نقوله من غير ما تزيُّد أو ادِّعاء . حتى المطبخ والطعام كان للعقاد فيهما قضية فكرية :

(. . فإن المطبخ المثالي هو المطبخ الذي يستخدم للغذاء وليس بالمطبخ الذي يستخدم للذة الطعام أو لذة النوم . وقد يكون الطعام اللذيذ سمّاً في باب

الغذاء ، ويكون الطعام وافر التغذية وهو قليل اللذة أو لا لذة فيه . .) .

والحق إن هذه العجالة السريعة لم يكن القصد منها أن نُلمَّ بكل ما في هذا الكتيب من أفكار وآراء ونظريات ، وقد كانت النية أن نكتفي بعرض أوجز أو أقل مما فعلنا حتى الآن ،كأن نقف عند واحدة من القضايا الكثيرة التي اشتمل عليها الكتاب ونتوسع فيها لولا أن الأمانة اقتضت أن نحاول تعريف القارىء العربي بشيء من أدب هذا الرجل النادر المثال الذي شق طريقه في قلب الصخر والوعر ، ثم قادنا الحديث إلى عرض سريع لبعض أفكاره بأمانة وإخلاص دون الاحاطة الشاملة .

وهذا الكتاب ، مع قلة أداته ، على حد ما يذكر صاحبه ، قد كثر محصوله فعلاً وزاد زاده ، لأنه جمع بين دفتيه اشتاتاً عديدة من الآراء والمذاهب والموضوعات قلَّ اجتماعها في كتاب واحد . على أنه مثل غيره من كتب العقاد في أصالته الفكرية ، وقوة العارضة ، وسداد الحجاج ، والمنطق القوي والذهن الثاقب ، وهو بعد خير مثل يهدي الناشئة إلى مكانة العقاد في جيله وفي عصره ، وخير دليل إلى طريقه الشاق الذي سلكه . . نعم إنه من هذه الناحية يعتبر وسيلة تربوية إلى جانب كونه أداة تثقيفية ، يعلم ويربي ويُعرِّفُ ويُهذِّبُ . . أو لنقلْ يهدي . . ويمتع . . !

وبعد ، فاذا كان ابن العميد قد قال كلمته الشهيرة في كتب الجاحظ :

« كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً »

فان كتب العقاد ، وعلى رأسها هذا الكتيب القليل الأداة الغزير المحصول ، تعلم العقل : . أولاً . . . وثانياً . . . وثالثاً .

والله اسأل التوفيق والسداد .

الجيزة ـ ديسمبر سنة ١٩٧١

حسين رشيد خريس

المستشار بجامعة الدول العربية



« في بيته »

نظـرة إلى تمثالـين للبومة التـي كان العقـاد يتحدى عن طريقها التشاؤم .

في بيتي

قلت لك يا صاحبي إنني أحب مدينة الشمس لأنني أحب النور .

أحبه صافياً وأحبه مزيجاً . وأحبه مجتمعاً وأحبه موزعاً ، وأحبه مخزوناً كما يخزن في الجواهر وأحبه مباحاً كما يباح إلى العيون على الأزاهر ، وأحبه في العيون وأحبه من العيون وأحبه إلى العيون .

ويوم سكنت في هذا المكان ، ونظرت من هذه النافذة ، أعجبني أنني أفتحها فلا أرى منها إلا النور . . والفضاء .

والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور .

وكيف يكون فضاء ، ما يملأ العينين ، ويملأ الروح ويصل الأرض بالسماء ؟

قلت لك يا صاحبي انني أحببت النور فسكنت في مدينة النور !

وأود أن تفهمني حين أقول لك إنني أحب النور .

فانني لا أحبه لأنه يريني الدنيا وما فيها ، أو لأنه هو واسطة الرؤية وأداتها ، ولكنني أحبه لأراه ولو لم أر شيئاً من الأشياء .

وقديما كنت أقول إن الأرواح تخف في النور كما تخف الأجساد في الماء ، كأنما هي تسبح فيه وتطفو عليه .

وكنت أقول :



« في حجرة المكتبة »
العقاد في جلسة أمام قسم الادب الأنجليزي
في بيته .

النـور سر الحياة النـور سر النجاة
ألمحـه بالـروح لا لمح العيون الخواة
ما تبصر العـين من معنـاه إلا أداة

وكنت أحسبه « روحانية » ترى بالعين و . . .

أرى الأرض روحـانية في جمالها وإلا فما بال النفـوس بهـا تسمو
إذا فاض منهـا النـور هزت قلوبنا سعـادة روح ليس يعرفهـا الجسم
ولـو أنهـا من لذة الحس عفتها كما قد يعاف اللمح والسمع والشمّ
كرهت من الدهر الكثير ولـم يزل بقلبـي من شمس النهـار هوىً جم
ترى كل يوم وهـي عنـدي كأنها غريب عرا لمْ يُدْرَ وصف لهُ واسمُ
عجبت لأرض تخطر الشـمس فوقها وتشرق فيهـا ، كيف يطرقهـا الغم

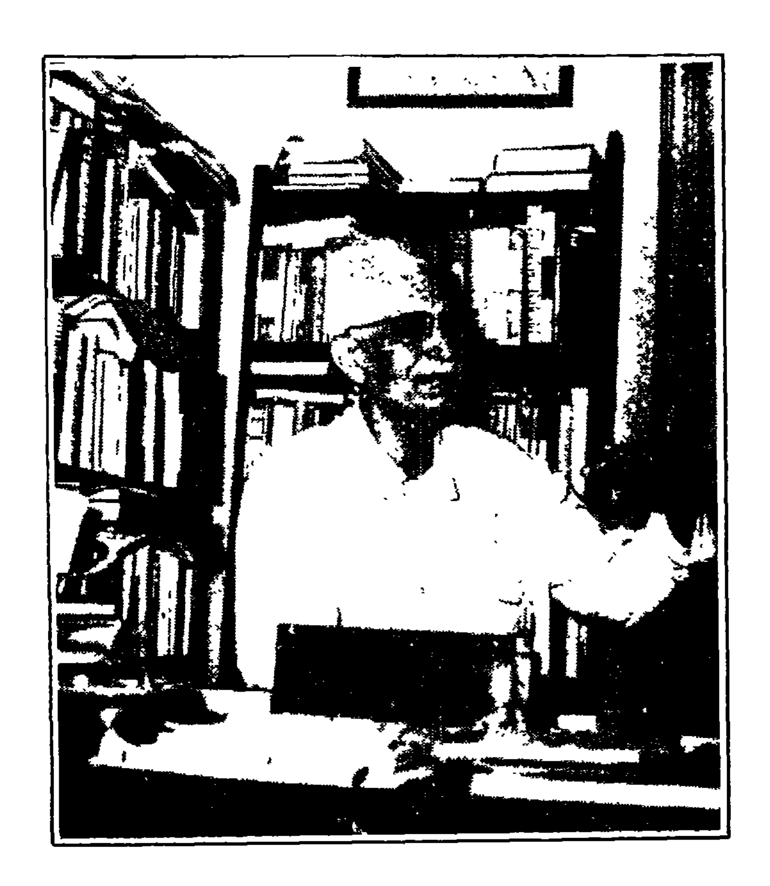
فلا أتكلـم بالمجـاز حـين أقـول لك يا صاحبـي : إننـي أراه من عالـم الروحانيات ، وإنني أشبع منه الروح والعين ولا أشبع منه العين وكفى ، وإنه شيء يرى ويرى ويرى ولا تمل رؤيته ولا يشبع من النظر اليه . وليس هو الشيء الذي غاية ما يكفيك منه انه يريك الاشياء .

قال صاحبي : هذا من عمل النشأة الأولى . هذا من عمـل أسـوان ! قلت : أو تظن ذلك ؟ ولم لا تظن أن النشأة الأولى تزهدنا فيما هو مبذول لدينا ، بل فيما هو مسلط علينا ؟ . . .

هل رأيت شاعراً من شعراء الصحراء يتغنى بالشمس المجيدة أو الشمس الفاخرة أو الشمس الباهرة كما يتغنى بها أبناء الفيوم أو أبناء الشمال ؟

لست معك يا صاحبي فيما قدّرت ، ولعلي كنت أقدّر معك هذا التقدير لو أنني نشأت في أسوان أحب الظلال وأكره سطوة النور وأحسبه من قضاء اللّـه الذي يطاق ولو في بعض المواسم الساعات .

ولكنني ـ على ما رأيت ـ أستطيع أن أقول لك : بل إنني لأحب النور على الرغم من النشأة في أسوان ، وإنني أحبه حين أنظره وأحبه حين أنظر به ، وأحبه



في حجرة المكتبة

حين أهتدي به في عالم البصر ، وأحبه حين أهتدي به في عالم البصيرة ، لأنني أحسبه سر الأسرار ، أو أحسبه سبيل الهداية إلى سر الأسرار أوشكت أن اؤمن بهذا الحسبان كل الإيمان .

قال صاحبي : ما أعجب أن يكون أظهر الأشياء هو أخفى الأشياء !

قلت يا صاحبي لا عجب أن يكون أظهر الأشياء هو المظهر للخفاء في كل معانيه ، ولا احسب أن حجاباً من الحجب الكونية سيرتفع في مجال العلم أو مجال الحكمة من طريق غير طريق النور ، مهما يطل الزمان .

وكنا نتحدث في المكتبة ، فتناولت بعض الكتب التي تبحث في الروح والمادة ، وقلت لصاحبي : أعرفت حجة السياسي الفيلسوف « أرثر بلفور » في نفي الصلة بين عالم المادة وعالم الروح ؟ . . . إنه يقول إن الروح لن تؤثر في الأجساد إلا بجسد مثلها . فكيف يكون هذا التأثير ؟ إن الروح تخالف الجسم في تكوينه فكيف تعمل فيه عملها ! وما هي الأداة الجسدية التي تتلقى عنها دوافعها ! فإما أنهما شيئان منفصلان فلا تتأتى بينهما صلة على وجه من الوجوه ، وإما أنهما شيئان متشابهان فلا اختلاف إذن بين تكوين الأرواح وتكوين الأجساد !

قال صاحبي : إخاله قوي الحجة في مقاله .

قلت : وكذلك إخاله ، ولكننا إذا شككنا في أحد العنصرين عنصر المادة وعنصر الروح ـ فأيهما أولى بالشك فيما تراه ؟

قال : على كل حال لا أستطيع الشك في المادة وهي تحيط بي وتصدني وتصدمني ، إذا أنا غالطت نفسي فيها .

قلت : بل في المادة تستطيع أن تشك وتفرط في الشك ، قبل أن تواتيك دواعي الشك في عالم الروح .

وإنما ساء فهم المادة والروح معاً من تصور الأقدمين هذه وتلك ، إذ

وضعوهما موضع النقيضين ، وجعلوا المادة كثافة لا حركة فيها ، وجعلوا الروح حركة لا كثافة فيها .

فهل المادة كذلك ؟

هل هذه الكثافة التي تصدمها بقدمك وتضربها بيدك هي الحقيقة التي لا تستطيع إنكارها ؟

أقول لك كلا . . . إنك حين تضرب الأرض بقدمك فتزعم أنك صدمت الحقيقة التي لا تقبل المراء ، إنما تصدم شيئاً غير الكثافة أو الجرم الذي يحسب عند بعض الناس وجوداً لا يقبل الإنكار . فإنما الوهم كل الوهم هذه الكثافة ، وإنما الوجود الحق هو ما وراءها من قوة تصدم القوى فتصدم الحواس .

هذه الكثافة المادية لا شيء يا صاحبي لولا القوة التي تكمن في أطوائها . . . وإن شئت مصداقاً لذلك فافرض أن يدك التي تقف عند هذه الخشبة قد زادت قوتها ألف ضعف أو عشرة آلاف ، ثم عد إلى لمس الخشبة بتلك القوة المضاعفة ، فهل تقف عندها ؟ . . . كلا . . . إنها لا تقف عندها بل تعبرها كما تعبر الماء أو كما تعبر الهواء .

أو تعال إلى الماء والهواء وهما مثال التخلخل في تلك الكثافة المادية ، فادفع الماء بقوة من بعض العيون . . . إنك اذن لتضربه بالسيف القاطع فلا يمضي فيه ويرتد إليك ، وادفع الهواء بقوة من بعض الفوهات . . . إنك إذن لا تثبت أمامه على قدميك .

فليست الكثافة المادية هي الحقيقة التي لا مراء فيها ، بل القوة هي الحقيقة الكامنة في تلك الكثافة وفي كل مادة ملموسه أو محسوسة .

قال صاحبي : مهلاً ، مهلاً . وأين هذا من النور ؟ وأين هذا من سر الأسرار ؟

قلت : صبراً يا صاح . إن كل جسم من الأجسام يتألف من الذرات ،

وكل ذرة من هذه الذرات تتألف من النواة والكهارب ، ثم من الحركة أو من طاقة الإشعاع والنور . . . تملصت كثافة المادة كلها ووصلنا إلى الشعاع والإشعاع : وصلنا إلى النور ، واقتربنا ولا نزال نقترب كثيراً من عالم الحركة التي لا كثافة فيها ، وابتعدنا ولا نزال نبتعد كثيراً من عالم الكثافة التي لا حركة فيها . إننا هبطنا بالكثافة المادية إلى أدناها ، إننا نظرناها بالأحداق ثم دقت حتى عن النظر بالأحداق . نعم إننا لم نصل إلى طرف الروح الأقصى ، ولكننا وصلنا إلى طرف المادة الأقصى ، أو لعلنا قد عرفنا طريق القنطرة بين العدوتين إن لم يكن قد أقمناها وشرعنا في العبور عليها . ماذا بقي من المادة الغليظة الجاسية ؟ ماذا بقي من الجرم الجاثم الذي يناقض الروحانية ؟ إننا نقترب . إننا نقترب . إننا نقترب . إننا مع النور نصل إلى الملتقى الموعود ، ولعلنا لا نصل إليه ـ إن وصلنا ـ من طريق غير هذه الطريق .

قل إن الكون حركة لا مادة فيه . ذلك أيسر لك من أن تقول : إن الكون جرم لا روح فيه !

قل إن الكون نور . قل إن الله نور السموات والأرض ، فاذا قصر بك الحس عن نور الله فثق أن هذا الضياء الذي يملأ الفضاء هو النور الإلهي الذي كتب لابن الفناء أن يراه .

***

وكان النهار بساماً مدلاً بشمسه ، مزهوّاً بنوره ، كأنما يحس روعته في الأنظار وبهجته في الأرواح ، وكأنما يتوهج من نظر العيون إليه كما تتوهج الوجنة الصبوح تحت لمحات الأحداق . كان نهاراً مبتكراً عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سويعة من يوم ! . . . خلقاً مبتكراً يخيل إليك أنه يتلألأ في فضائه الأول للمرة الأولى . وهل هنالك من فارق بين نور نهارنا هذا وبين النور في أبعد مكان من الفضاء ، وفي أبعد فترة من الزمان ؟ ها هنا شيء على الأقل تستطيع أن تقول إنه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين ، وأنك تذهب معه إلى أبعد من



العقاد يستمع إلى المذياع في حجرة الصالون .

مذهب أبي العلاء حين سأل الفرقدين :

واسأل الفرقدين عمن أحسَّا من قبيل وآنسا من بلادِ
كم أقامَا على بياض نهار وأنارا لمدلجٍ في سوادِ

إن الفرقدين وأخواتهما في السماء لأطفال تلعب في حجر هذا الشيخ السرمدي ، يلوح لك من جدته اليوم كأنه لم تنقض عليه ساعة من نهار !

قال صاحبي وهو يرسل الطرف في السماء ، ولا نهاية لمد البصر تصعيداً ولا تصويباً ولا من يمين ولا شمال : قصرت عين تحسب وهي تنظر الى هذا النور أنها تنظر إلى شيء مكشوف لا عمق فيه ولا طوية وراءه : كاشف الخفاء هذا هو ينبوع الخفاء !

وشاء أن يتكلم بلغة المكان ، لغة المكتبة ، لغة المجازيين والبلغاء ، فقال :

ونحن إذن في برزخ الأنوار : وراء الجدران نور الشمس في مدينة الشمس الخالدة ، وبين الجدران نور القرائح ونور الحكمة ونور البيان !

قلت : مجاز حسن وإن طال به عهد أصحاب المجاز . الكتب علم ، والعلم نور . ولكنني لا أحسبه مجازاً يجري في النفس كما يجري في لفظ اللسان . فهل من الحق أننا نواجه المكتبة كما نواجه النور ؟ وهل خطر لك قط أن تسأل نفسك : كيف تبده الكتب الكثيرة ـ مجتمعة في مكان واحد ـ من يدخل عليها لأول مرة ؟ كيف يقع ألف كتاب أو عشرة آلاف كتاب موقعها ممن يفجأ بها ويعرف ما هي وإن لم يعرف معناها ؟ إننا في هذه الحضارة قد تعودنا منظر الكتب متجمعات بالمئات والألوف . ولكننا خلقاء أن نتجرد من فعل العادة ولو لحظة عابرة لننظر إلى هذه الظاهرة من جانب غرابتها لا من جانب ألفتها . فكيف تبدهنا رؤية الكتب لمئات من أصحاب القرائح والعقول محشوة في بضعة رفوف ؟

إنني لا أسأل عن أولئك القراء والدارسين الذين ألفوا عشرات الكتب

بالليل والنهار . إن هؤلاء ينظرون إلى كتبهم كما ينظر الجوهري إلى الثروات المخزونة عنده في صناديق البلور من نوادر الفصوص والأحجار الكريمة ، أو كما ينظر البستاني إلى أحواض الزهر وهي تترعرع أو تذبل بين يديه ، أو كما ينظر صاحب القصر إلى أسراب الحسان المقصورات فيه . أو كما ينظر المهندس إلى الأزرار التي في لوحته وقد ينطلق كل زر منها بما يحرك مدينة بأسرها ، وكلهم يملكون زمامهم أو زمام تلك المرئيات وهم يحسون بها ، وكلهم يحضرون منها ما ألفوه وتعودوه وكرروه وقد يغيب عنهم منها جانب المفاجأة والغرابة . ولكنني أحب من حين إلى حين أن أستغرب ما آلف وأن آلف ما أستغرب . ويثير هذا الشوق في خاطري أنْ أشهد وقع هذه الغرابة مرتجلا في بعض النفوس ولا سيما النفوس التي تقارب الكتب من بعيد .

قال صاحبي : وماذا وقع من صورتها في نفسك كلما استغربت ما ألفت منها ؟

قلت لا أحدثك بهذا الآن . وإنما أحدثك بما شهدت وعاينت ، ثم أحدثك بماستدرجني إليه الخيال كلما ألقيت بمقادتي اليه .

لا أنسى وهلة فتاة ذكية حين دخلت هذه المكتبة عرضاً في بعض الايام .

كانت على شيء من التعليم ، وكانت تميل إلى القراءة كلما اتفقت لها قصة سائغة أو قصيدة شائقة ، ولكنها فوجئت بهذه الكتب المتجمعة فصاحت على غير روية منها ، يا سلام ، كتب ، كتب كتب ، كل هذا كتب . شيء يدوّخ ! ومالت برأسها كأنها تهرب من دوار ينذرها باغماء .

ألا ترى يا صاحبي أن هذه الفتاة قد عرفت الكتب فلم تعرفها جلوداً وأوراقاً وألواناً تشوق العيون ، ولكنها عرفتها كما هي في الحقيقة زحمة من الأفكار والمعارف تشفق منها على رأسها الصغير ؟

لقد عجبت يومئذ من هذه الوهلة لأنني أعلم على التحقيق أن الفتاة

شاهدت المكتبات في المدرسة وشاهدتها في السوق . فسألتها : أهذه أول مكتبة رأيتها في حياتك ؟

تعجبت هي أيضاً معي من هذه الوهلة ، ولم تزد على أن تقول : رأيت غيرها كثيراً ولكني لا أدري لماذا « دخت » وأنا أنظر إليها هنا . . .

ثم راجعت نفسي في تفسير ذلك فلم أعجب من وهلة الفتاة كما عجبت من صدق حاستها ، أو من مبادرة هذه الحاسة إلى التفرقة بين الأشياء المتشابهة حين يتفرق بها المكان .

فانما تختلف الأشياء عندنا بما يقترن بها من تداعي الخواطر وما توحيه من اللوازم والملابسات . فالكتب في السوق بضاعة للبيع ، والكتب في المدرسة موزعة بين أيدي الأساتذة والطلاب ، ولعلهم مئات ولعلهم ألوف ، فلا توحي إلى الخاطر تلك « الزحمة » التي ترهق الرؤوس . أما الكتب في حجرة واحدة في بيت رجل واحد فللفتاة العذر إذا أجفلت منها تلك الجفلة وخافت منها على رأسها الدوار .

إننا نمر بالمائدة في الفندق العامر فلا نستغربها وإن امتلأت بطعام جيش ، ولكننا إذا رأينا هذه المائدة بعينها أمام ضيف واحد خطرت لنا التخمة أو خطر لنا الغثيان ، ولنا المعذرة في هذه التفرقة بين المائدتين !

***

واحتجنا يوماً الى نقل بعض الرفوف من هذه الحجرة إلى الحجرة التي تليها ريثما نصلحها ونفرغ من طلائها . فاستعنا بقريب لبواب المنزل يومئذ على النقل مع خدم البيت ، وكان ريفيّاً أميّاً يزور قريبه أو يزور « آل البيت » على التعبير الصحيح . أو لعلها أول زياراته للقاهرة في طلب الخدمة وطلب البركة على السواء . . . ولم يكن له علم بالأحرف العربية ولا بالأحرف الإفرنجية ، فاذا رأى كتاباً في هذه الأحرف أو في تلك فكله كتاب ، وكله مما يقرأه المطهرون .



البيت الذى سكنه العقاد طوال حياته وهو
يحمل رقم ١٣ شارع السلطان سليم بضاحية
مصر الجديدة .

فلما اقترب من باب المكتبة خلع نعليه وتهيب أن يمد يده إلى الكتب لأنه كما قال لم يكن على وضوء !

أليس لهذا الريفي الأمي منطق صادق فيما فعل على البداهة ؟ إنه تعود أن يقرن صورة الرجل العالم بصورة رجل الدين ، فما باله لا يقرن كتاب العلم بالقداسة الدينية ؟ وهل يكون الكتاب لغير علم أو لغير قداسة ؟!

لقد أكبرت تحية الجهل للعلم في مسلك هذا الريفي الصالح ، وأستغفر اللّه لأنني أفسدت سمعة الكتب في رأيه على الكره مني ، فأعلمته أنها كأبناء آدم وحواء فيها الصالح والطالح وفيها الطيب والخبيث ، وأنها لا تحرم في جميع الأحوال على اللمس بغير وضوء ، فلم أجرئه على حرمتها ولا أقنعته بلمسها حتى أريته على غلاف بعضها صور التماثيل العارية ، وفي صفحات بعضها صور السادة والسيدات . فتحلل من حرج وأقدم بعد إحجام .

ولا اخال هذه « الهيبة » للكتاب بعيدة جدّاً من هيبة « المكتوب » عند القبائل الفطرية كما أنبأنا عنها رواد المجاهل الافريقية . فانهم لا يفهمون هناك كيف يقرأ الرجل الورقة ويفهمها ويعمل بما فيها دون أن يكون فيها روح مرصد أو طائف من الجان . وقد روى بعض الرحالين أنه أرسل خادمه الأسود إلى زوجته على مسيرة ساعات ليطلب بعض الأمتعة والأدوات من بيته ، فكتب له ورقة وأمره أن يأتيه بجوابها . فحمل الورقةمطمئنًاولم يلق إليها كبير اكتراث ، ولكنه لما رأى السيدة تقرأها وتراجعها كلما أسلمته أداة من الأدوات المطلوبة فيها خامره الشك وأيقن أنها تستوحي بمراجعة الورقة روحاً تفقه عنها ما تسأل عنه في صمت ووقار . فلما أسلمته السيدة تلك الأدوات تقبلها وحملها ولم يوجس منها ، ولكنه تردد وأوجس حين أسلمته الورقة بالجواب ! وحملها كمن يحمل ثعباناً يخاف أذاه أو شيطاناً يخاف سخطه وغضبه ، وأدى الأمانة بتمامها لأنه في حراسة رقيب ينقل عنه ما يظهره ويخفيه .

قال صاحبي : ويح الأسود المسكين لو انطلق عليه روح من وراء كل

كلمة مخزونة في هذه الرفوف ! . . . إن عفاريت الآجام جميعها لتصبحنَّ عنده من ملائكة الرحمة بالقياس إلى هذه العفاريت ، وإن سحرة أفريقية على بكرة أبيها لا ينقذونه من وبال هذا السحر المخيف !

قلت أو لم يحصل ؟ بلى قد حصل وفرغنا من محصوله !! وقد انهزم السحرة المساكين في وجه هذه الأرواح ، وهربت عفاريت الآجام من سطوة هذه العفاريت . وهل المعركة بين القارة السوداء وبين الواغلين عليها إلا المعركة بين الكتاب وتعويذة السحر القديم ؟

والتفت صاحبي إلى الرفوف يتصفح عناوينها ويسألني : و لا يزعجك بعض الأحيان أن تخلع على الكتب هذه الصورة ، وأن تراها حاضرة الأرواح جياشة الحركة بحياة مؤلفيها ؟

قلت : بل أنا لا أراها إلا على هذه الصورة كلما أعرضت عن صورتها الممثلة في الجلود والأوراق : أرواح في انتظار الطلسم ، أو مردة في قماقم سليمان . وأين برج بابل من لهجات رف واحد ها هنا لو تحركت له ألسنة وتفتحت له أفواه ؟ وأين الجحيم كلها لو انبعثت المردة من أرصادها وتمردت على الطلسم الأعظم الذي يحبسها في قماقمها ؟

قال صاحبي : خير للكتب وأولى . . نعم خير للكتب ألف مرة أن تكون أرصاداً للأرواح أو قماقم للمردة من أن تكون على تلك الصورة التي يصورها لنا أصحاب المائدة وصحاف الطعام ! . . . ولست أدري لمَ يحضرني خاطر الطعام المخزون في العلب كلما تحدثوا عن الكتب وما فيها من طعام العقول ؟ فما القول في رأس فيلسوف مجفف لساعة الحاجة اليه ؟ وما القول في هذه الأغذية المحنطة على الرفوف لطول البقاء واجتناب الفساد ؟ . هي ولا ريب أفضل ما اخترع الانسان من صناعات الخزن والتجفيف وأحسن ما استودع من وسائل الصيانة والتعقيم . ليت الثمرات كلها تصان وتظفر بالتعقيم والتجفيف على هذا المنوال . ولكننا لا نشتهي طعام العقول للعقول حين نعرض لها الرؤوس المجففة

والثمرات المحنطة ليوم القراءة أو ليوم التغذية المشتهاة . . . لا ، لا . إننا لا نود أن نشتهي الكتب هكذا لنأكلها برؤوسنا وأدمغتنا ، وإنما نؤثرها مردة في قماقم وأرواحاً في أرصاد . فعلى بركة اللّه فلنمض معها في سياحتنا إلى حيث تلقي بنا في آماد المكان والزمان ، ولنطلقها فرادى إن عز علينا أن نطلقها أسراباً وجماعات . . . على بركة اللّه !

قلت : نطلق ماذا يرحمك الله ؟ وإلى أين المنتهى إذا ابتدأنا معها واحداً واحداً أو سرباً سرباً إلى حيث تستطيع المسير ؟ . . . هذا يا صاحبي مارد يحملنا إلى قطب الشمال وبجانبه مارد مثله يحملنا إلى قطب الجنوب ! وها هنا مارد ثالث يتعدى بنا أقطاب الأرض إلى الشعرى اليمانية وما وراء السديم . . . فمع أيها نسير ومتى المعاد إن سرنا مع هذا أو ذاك ؟ وإنك لتعلم أنها قديرة على السفر في رحاب الزمان قدرتها على السفر في رحاب المكان . فهذا يحملك إلى القرن الأول للهجرة وهذا يحملك إلى القرن الأول للميلاد ، وغير هذا وذاك يحملك إلى ما قبل الهجرة والميلاد من أزمنة يضل فيها التاريخ وقلما يهتدي فيها الخيال ، وخطوة من هنا تلاقيك بهوميروس وخطوة من هناك تلاقيك بامرىء القيس ، وخطوة أخرى تجمعك بآدم وأبنائه الأولين . فأين المنتهى بعد هذا ومتى القرار ؟ . . . لا يا صاحبي يرحمك اللّه . . . لا نهاية لانطلاق هذه المردة في مداها فرادى ولا مجتمعات . فدعها في قماقمها وانظر اليها ومعك أرصادها . فليس هذا أوانها وليست سياحتنا هذه بالسياحة السرمدية التي لا نرقب نهايتها . فعلينا بالأفق الذي نحن فيه نلزمه ولا نتعداه ، وحذار أن تفتح القماقم مجتمعات ولا متفرقات ، ولك عندها بعد ذلك ما تشاء .

فالتفت صاحبي إلى القماقم يتصفح عناوينها ، ونظر هنا ونظر هناك على غير اطّراد كأنه يرتجح ولا يملك الانبعاث في طريقه دون أن يرجع إلى حيث كان . ثم هتف بي سائلاً : ما هذه المفارقات ؟ بل ما هذه المقارنات ؟ شعر وتاريخ وفن ودين وسير وطبائع حشرات تصاحبها طبائع عظماء ، وخليط من المطالب لا

تعرف لها وحدة ولا يطَّرد لها نظام . فهل هي مكتبة قارىء واحد أو هي مكتبات شتى أعددتها لمن يشاء ؟

قلت : بل هي مكتبة واحدة أعددتها لقارىء واحد ، ولا أحسب أن مكتبة القارىء الواحد تتفق على غير هذا النظام ، لأنك تعد الكتب في مطلب واحد لمئات القراء الذين يشتغلون به ويرجعون إلى مصادره ، ولكنك لا تحصر القارىء في مكتبة واحدة إلا اذا نوعتها له وأغنيته بها عن غيرها . ولا بد للقارىء الواحد على الأقل من مطلبين مختلفين : أحدهما للصناعة والعمل ، والآخر للمتعة والتسلية ، فان كانت صناعته الكتابة فقد تعدد ما يقرأ للعمل والصناعة وتعدد ما يقرأ للمتعة والتسلية . وكثيراً ما يكون التعدد مع ذلك في العناوين لا في بواعث القراءة . فان القارىء قد ينظر في خمسة موضوعات أو ستة أو سبعة لباعث واحد ونزعة واحدة ، وليس أقرب من بواعث القراءة في بعض الأحايين ، مع تباعد الموضوعات والعناوين .

خذ لذلك مثلاً هذين الموضوعين الغريبين : طبائع الحشرات وما وراء الطبيعة . أيبتعد عنوانان قط أبعد من هذا الابتعاد ؟ أيفترق شيئان في ظاهر الأمر كما يفترق البحث في الكون والسماء والخلود والبحث في جحور النمال ومباءة الجراثيم ؟ ومع هذا يتقاربان جد الاقتراب حين يهديك كلاهما إلى بداية الحياة أو نهاية الحياة ، وربما فسرت لك طبائع الحشرات « تصميم » بناء الحياة تفسيراً تعجز عنه عقول الفلاسفة والحكماء ، وربما عرفت من دوافعها وجواذبها وأنت ترقب الحشرة الضئيلة في أطوارها المتعاقبة ما لست تعرفه من مقاييس المنطق وتقديرات البديهة ، ودراسة المذاهب والتأويلات .

وخذ مثلاً آخر هذين الموضوعين الغريبين : الشعر والدين ! . إنهما ليبدوان في الغرابة كما يبدو لك منظر الناسك في الصومعة وإلى جانبه منظر الشاعر في مجال الأنس والسرور ، ولكنهما يلتقيان أقرب لقاء حين يعبر الشاعر عن نفسه ويريك جمال الخالق في خلقه ، وحين يبرز لك الانسان من وراء مسوح الزهاد

فاذا هو شاعر مستتر أو شاعر موثق بسلاسل العبادة ، وإذا العبادةلا تخرج به من نطاق الشعور ، ولا تنكر له فتنة الحياة بل تمثلها له قوية مخيفة يتقيها بالمجانبة فيشعر بها كما يشعر بها من يواقعها ولا يتقيها . وإذا الفراش الذي يقع في النار والفراش الذي يهرب من النار . . . كلاهما فراش !

ولقد سألت نفسي عن البواعث المتوافقة وراء هذه النقائص المفترقة فأجابتني عنها جواباً أرتضيه ولعلك ترتضيه ، ولخصته لي في كلمات معدودة : هي « الاستزادة من الحياة » .

ولك أن تستزيد من الحياة بتعميقها أو بتوسيعها أو بتفسيرها ، ولك أن تتوسل إلى ذلك كله بقصيدة من عيون الشعر أو بنظرة في عجائب حشرة ضئيلة تخالها من أسرار الصناعة المكتومة بل من « مسودات » الخلق الأولى . . . أو باستقصاء آماد الحياة فيما وراء الغيب وفيما بعد الموت وقبل الميلاد ، أو بالمقابلة بين سير العظماء على ضروب شتى من العظمة وبين سير الصغراء على ضروب شتى من الصغار . . . فكل أولئك باعث واحد مختلف العناوين ، وكله صِحاف تعطيك ألواناً شتى من الطعم والمذاق ولكنها لا تعطيك في النهاية غير دم واحد ينبض في العروق . . . ومعذرة بعد من هذه اللفتة إلى الطعام وأنت لا تحب ذكر الطعام في هذا المقام .

***

قال : لا عليك من المعذرة بعد هذه الفترة . فقد أوشكت الساعة أن أستطيب التشبيه الذي كنت أعافه منذ برهة ، وأوشكت مع هذا أن أؤمن بأن الثبات على الرأي في البلاغة غير الثبات على الرأي في الأخلاق . فقديماً قيل لنا إن الثبات فضيلة ، وأخشى أن أكون اليوم قد أخللت بهذه الفضيلة . . . لولا باب من الرحمة في هذا الخلاف بين شرعة البلاغة وشرعة الأخلاق . وليست هي مسألة فكرة تقاس بالرأي بل هي شيء أحسه الساعة ولا أبالي أن أفكر فيه . فما أرتضيه من البلاغة وأنا شبعان مكظوظ لا أرتضيه منها وأنا جائع أتلمس الطعام ،

وأنت لا تشهِّي الكتب إليَّ حين تشبهها بالمائدة وأنا من الكظة أعاف المائدة وأحاديثها ، ولكنك تشهِّيها إليَّ حين تصفها بهذه الصفة وأنا متفتح المعدة والرأس لكل غذاء .

قلت : هو ما قالوه قديماً وأصابوا فيه أكثر مما أرادوا . فالبلاغة هي « مراعاة مقتضى الحال » . . . ولقد كنت بليغاً في إشارتك هذه . . . فلك عندي من المكافأة عليها مائدة غير مائدة أفلاطون وأشباه مائدة أفلاطون !

وعدنا نستطيب القماقم والأرصاد بعد هنيهة ، ولكن على أن نتركها بسلام فلا نطلقها فرادى ولا جماعات ، وحسبنا منها العناوين والرفوف .

ثم راح يجول ببصره جولة الطائر فيما يعبره وهو يقول : ما أصغر نصيب القصص من هذه الرفوف !

قلت : نعم . وإنه لو نقص بعد هذا لما أحسست نقصه . لأنني ـ ولا أكتمك الحق ـ لا أقرأ قصة حيث يسعني أن أقرأ كتابا أو ديوان شعر ، ولست أحسبها من خيرة ثمار العقول قال : كيف ؟ أليس في الرواة والقصاصين عبقريون نابهون كالعبقريين النابهين في الشعر وسائر فنون الآداب ؟

قلت : بلى . ولكن الثمار العبقرية طبقات على كل حال ، وقد يكون الراوية أخصب قريحة وأنفذ بديهة من الشاعر أو الناثر البليغ ، ولكن الرواية تظل بعد هذا في مرتبة دون مرتبة الشعر ودون مرتبة النقد أو البيان المنثور . والمثل هنا أقرب إلى الايضاح من سوق القضية بغير تمثيل : إن الحديقة التي تنبت التفاح لا يلزم أن تكون في خصبها ووفرة ثمراتها أوفى من الحديقة التي تنبت الجميز أو الكراث . ولكن الجميز والكراث لا يفضلان التفاح وإن نبتا في أرض أخصب من الأرض التي تنبته وتزكيه .

ونحن نقرأ القصص التي تجود بها قرائح العباقرة من أمثال ديكنز وتولستوي ودستيفسكي وبوجريه وبروست وبراندلو فتؤمن بتلك العبقريات التي

لا تجارى في هذا المضمار ، ولكن إيماننا بها لا يلزمنا أن نضع القصة في الذروة العليا من أبواب الآداب ، ولا يمنعنا أن نقدم عليها غيرها في التقدير والتمييز .

قال : وما المقياس الذي نرتب به هذه الرتب يا ترى ؟

قلت : لعله مقاييس شتى لا مقياس واحد ، ولعل الناس يختلفون فيها كاختلافهم في كل شيء يرجع الى المشرب والتعبير . غير أنني أعتمد في ترتيب الآداب على مقياسين يغنياني عن مقاييس أخرى ، وهما الأداة بالقياس إلى المحصول ، ثم الطبقة التي يشيع بينها كل فن من الفنون .

فكلما قلت الأداة وزاد المحصول ارتفعت طبقة الفن والأدب ، وكلما زادت الأداة وقل المحصول مال إلى النزول والإسفاف .

وما أكثر الأداة وأقل المحصول في القصص والروايات ؟ إن خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذي يعطيكه بيت كهذا البيت :

وتلفَّتت عيني فمذ بعدتْ عني الطُّلول تلفَّت القلبُ

أو هذا البيت :

كأن فؤادي في مخالب طائر اذا ذكرت ليلى يشد به قبضا

أو هذا البيت :

ليس يدرى أصنع أنسٍ لجنٍّ سكَنوه أم صنع جنٍّ لانسِ

أو هذا البيت :

أعباالهوى كل ذي عقل فلست ترى إلا صحيحاً له حالات مجنونِ

أو هذا البيت :

وقد تعوضت عن كلٍّ بمشبهه فما وجدت لأيام الصبا عِوَضا

لأن الاداة هنا موجزة سريعة والمحصول مسهب باق ، ولكنك لا تصل في

القصة إلى مثل هذا المحصول إلا بعد مرحلة طويلة في التمهيد والتشعيب . وكأنها الخرنوب الذي قال التركي عنه ـ فيما زعم الرواة ـ إنه قنطار خشب ودرهم حلاوة ! أما مقياس الطبقة التي يشيع بينها الفن فهو أقرب من هذا المقياس إلى احكام الترتيب والتمييز . ولا خلاف في منزلة الطبقة التي تروج بينها القصة دون غيرها من فنون الأدب ، سواء نظرنا إلى منزلة الفكر أو منزلة الذوق أو منزلة السن أو منزلة الأخلاق . فليس أشيع من ذوق القصة ولا أندر من ذوق الشعر والطرائف البليغة ، وليس أسهل من تحصيل ذوق القصة ولا أصعب من تحصيل الذوق الشعري الرفيع حتى بين النخبة من المثقفين .

قال صاحبي : على أنهم قد أثاروا في أوائل هذا القرن ضجة حول القصة بالغوا فيها أيما مبالغة وخيلوا إلى الناس أن فنون الأدب كلها عالة عليها ، وأنه لا كتابة لمن ليست له قصة .

قلت : لقد فعلوها حقاً ، وكان ذلك على أثر ضجة أخرى هي ضجة الكلام الكثير في الدراسات النفسية و« السيكولوجية » بأنواعها ، فبدا لبعضهم أن القصة هي المعرض الوحيد لتطبيق هذه الدراسات في الكتابة الأدبية ، وأنها هي الوسيلة القريبة لفهم العلاقات بين النفوس البشرية وتفسير المواقف والمشكلات التي تنجم عن غرائب الطباع . ولم تخل ضجة القصة من أسباب قوية غير« السيكولوجية » وكثرة الكلام فيها ، فان شيوع القراءة بين الدهماء قد أشاع معها القصة التي تفهمها الدهماء وتؤثرها على غيرها من الفنون الأدبية ، وجاء شيوع الصور المتحركة بعد شيوع القراءة فأملى للدهماء في هذه النزعة أو هذه « الهواية » حتى غلبت عليهم وسرت منهم إلى النقاد الذين يتبعون الجماهير ويسمون نزواتها بروح العصر وهي نزوات بغير روح ! . . . . وجاء بعد شيوع القراءة وشيوع الصور المتحركة شيوع آخر هو شيوع الدعوة الشيوعية بين طائفة من طلاب الهدم والانقلاب . فعند هؤلاء أن القصة أشرف أبواب الأدب لأنها تكتب للجهلاء وتصلح لبث الدعاية الشيوعية . . . وعندهم أنها لا ينبغي

أن تدار على موضوع غير موضوع القضايا الاجتماعية . كأنهم يضربون الجهل على الفقير ضربة لازب ، أو كأنما هذا الفقير لا يكفيه الضنك الذي يضنيه في ساعات العمل أو في طلاب العيش ، فلا يزال في ضنكه حين يفتح الكتاب وحين يقرأ الصحيفة وحين يحلم وحين يناجي ضميره وحين يجب أن يعرف له من خصائص الانسانية شيئاً غير المعدة والزاد .

قال صاحبي : هان ذلك كله لو أنهم دبروا الزاد للفقير .

قلت : كلا يا صاح . لا هان ذلك ولا جعله اللّه يهون على الفقراء ولا على الأغنياء ، فليس من البر بالفقير أن يسلب الكرامة الانسانية أو يسلب الحرية الفردية كأنها حلية يزدان بها الغني وحده ولا يحفل بها الفقير ، وليس بالصحيح على كل فرض من الفروض وكل ظن من الظنون أن الشيوعية تدبر الزاد للفقير بفضل ما تقوم عليه من الأسس وما تشتمل عليه من الآراء . فكل مذهب يدعو إليه الدعاة الاجتماعيون يستطيع أن يدبر الزاد للعاملين في سنوات معدودات إذا صرف النظر عن الغايات البعيدة وانحصر همه فيما بين يديه . لقد دبرته النازية حين حصرت همها في صنع السلاح وأدارت المصانع على العدد الحربية والمطالب العسكرية ، وقد دبرته الفاشية في إيطاليا على قلة مواردها حين حصرت همها في هذا المطلب العاجل وهذه السياسة الوبيلة ، فلم يبق في إيطاليا ولا في ألمانيا عامل بغير عمل موقوت ولم تبق فيها مشكلة للمتعطلين ، وكان ثراثرة الاجتماع ينظرون الى ذلك فينعونه على الديمقراطية ويؤكدون به ما يعيبونه عليها من بطء الوسائل وتردد العزائم وطول المطال ، ولكن الديمقراطية أيضاً قد سبقت النازية والفاشية معا في المضمار فخلقت الأعمال لعشرات الملايين في بلادها وغير بلادها حين أدارت مصانعها على الذخيرة والسلاح ، وظهر أنها حيلة لا تعيي أحداً يقبلها على علاتها ويأخذها بتبعاتها ، وما تبعاتها إلا الخراب والفساد وغشيان الأرض كلها بطائف من الفزع والحسرة تهون معه مشكلة البطالة وكل مشكلة مثلها من مشكلات الاجتماع ، ويخطىء كل الخطأ من يحسب وعود

الشيوعية في هذا المطلب بشـارة جديدة من داع جديد . فليس أقـدم من هذه البشارة ولا أسبق من هذا الداعي في تاريخ الدعايات .

وشك صاحبي غير قليل ثم تمتم سائلاً كأنه يسأل نفسه :

أو ليست هي بشـارة « علمية » كما يقـول كارل ماركس وأتباعـه حـين يميزون بين دعوات الاصلاح التي يسمونها بالدعوات العـاطفية والخلقية وبـين دعوتهم « الجديدة » التي يسمونها بالدعوة العلمية ؟ إنهم يزعمون أنهم قدروا عواقبها وقاسوا مراحلها كما يفعل الفلكي حين يرصد مدار السيارات ويحسـب مواعيد الشروق والغروب وساعات الكسوف والخسوف !

قلت : هذه هي الخرافة التي لا ينبغي أن نصدقها أيها الـرفيق . فليس أقدم في هذا العالم الانساني من الدعوة إلى انصاف الضعفاء ، ولا من الوعد بأمنية النعيم المقيم ولا من إثارة النفـوس على الشيطـان الـرجيم ولا من تثبيت العقائد بالحماسة والكفاح . . . وهذه الدعوة التي يزعمونها « علمية » هي تبشير لا يعوزه شبح الشيطان ولا الفردوس ولا العقيدة العمياء ، وغاية الفرق بينها وبين سابقاتها أن الشيطان هنا هو « الرأسمالية » التي ترجع إليها جميع الخبائث والشرور ، وأن الفردوس هو العصر الموعود الذي يسود فيه الصعـاليك ، وأن حماسة العقيدة هنا هي حماسة المعدات والأحقاد . وليس أكذب ممن يزعم أنـه يخاطب العقل وهو يخاطب المعدة ويخاطب الحسد والحفيظة ، فلا إقناع هنا ولا إقناع في غير هذا من ضروب الحماسة والبغضاء ، وليس الاقنـاع بالمعـدة بعـد الاقناع بالروح تقدماً نغبط عليه .

إن صاحبهم كارل ماركس ليزعم أنه يتنبأ عن مصير الأحياء الانسانية وهو لم يحي في زمانه قط حياة إنسان ، ولم يشعر قط الا بشعور الجداول والأرقام حيثما كان يجمعها في المتحف البريطاني صباح مساء ، ولهذا حسب أن الآدميين آلات تقاس حركاتها بالأرقام كما تقاس حركات السكك الحـديدية والسيارات ، فلا يزال أصحاب الأموال يزدادون ثروة ولا يزال العمال يزدادون جوعاً حتى يصبح

العامل وما في يديه غير القيود وما في جوفه غير الجوع . . . فيثور ويجازف بالحياة لأن الموت أحب إليه من هذه الحال . ولكن ما القول إذا كان العامل إنساناً حيّاً ولم يكن آلة جامدة تدار بالحساب ؟ ما القول إذا كان هذا العامل يحس بالظلم قبل أن يبلغ مداه ويحس بالقدرة على دفع الظلم قبل أن يقتله الجوع ؟ ما القول إذا كان العمال في الأمم الصناعية يزدادون أجراً ولا ينقصون منذ مائة عام ، وكان في البلاد الأمريكية اليوم عمال يطلبون العلاوة في اليوم الواحد ثلاثة ريالات ؟ . . . القول إذن ان النبوءات عن مصير اللحم والدم تحتاج إلى عامل آخر غير عامل الحساب ، وتسبقنا إلى نتيجة أخرى غير نتيجة الجمع والطرح والقسمة على القرطاس ، وهذا الذي قد حدث فانقطعت بحدوثه تلك السلسلة « العلمية » التي وصل صاحبنا كارل ماركس حلقاتها فتراجع من أجر قليل إلى أجر أقل منه إلى حرمان ملازم إلى جوع كافر لا يعبأ بشيء ولا يدفعه إلى الحركة غير اليأس والقنوط !

وهذه الحركة التي قيل إنها لا تأتي من غير اليأس والقنوط من ذا الذي يقول إنها حكمة العقل وأنها مفتاح النعيم المقيم وأنها خير ما تهتدي إليه الانسانية وتتجه إليه العقول ؟

هب يا صاحبي أن النتيجة المزعومة ـ وهي الثورة الشيوعية ـ هي المصير المحتوم الذي يهدينا إليه الحساب العلمي الصحيح ، فمن ذا الذي يقول إنه إذن هو المصير السعيد الذي نسعى إليه ؟ ألا يجوز أن أعرف خط القطار وأن أحسب حركاته فاذا هي تنتهي إلى هاوية ليس لها قرار ؟ أإذا جمعت المسافة وقسمتها على تلك السرعة وأرضيت « التقدير العلمي » بهذا فانتهى بنا الى تلك الهاوية كان حتما لزاماً عليَّ أن أسوق القطار إليها وأن أستعجل دواليبه للنزول بها قبل فوات الفرصة الغراء ؟

فقال صاحبي : أليست الثورة الروسية بعد الحرب العالمية الماضية كانت على كل حال نبوءة من هذه النبواءت « العلمية » ؟

فبادرته قائلاً : بل حماك اللّه وحمانا أن نغتر بهذه اللجاجة التي أوضع فيها بعض الفارغين ممن لا يعقلون ما يقولون . فما كانت تلك الثورة الروسية إلا ثورة كسائر الثورات التي سبقتها منذ آلاف السنين ! ظلم يثور عليه مظلومون وتمالئهم قوة عسكرية فينتصرون على الظالمين . كذلك ثار الناس منذ عرفت الثورة في التاريخ . فان كان للنبوءات الماركسية فضل بعد هذا في ثورة الروس فذلك هو الفضل المعكوس ، لأن المؤمنين بها حاولوا تطبيقها كما آمنوا بها فضيعوا عشرين سنة في هذه التجارب المخيبة وضاعت معها ملايين الأرواح التي فنيت بالسلاح أو فنيت بالقحط والوباء ، ثم آل بهم الأمر إلى إقرار ما أنكروه وحاربوه وقتلوا الملايين من أجله ، وهو اقتناء الملك وإيداع المال في المصارف وتوريث الأبناء وإباحة الفروق في المعاش وإعلان العصبية الوطنية ، ولو لم يؤمنوا ذلك الايمان بالنبوءات الماركسية لبلغوا هذا المطلب في سنة واحدة وعافوا أنفسهم وعافوا الناس معهم من شرور تلك « التجارب » وخطوب تلك المحاولات .

قال صاحبي : وأنت على مقتك هذا للماركسية لا إخالك تبرىء نظام رأس المال كما نراه من عيوب وآثام يمقتها كل من يحب الخير لبني الانسان .

قلت : إن الماركسيين لا يستطيعون أن يمقتوا تلك العيوب كما أمقتها ، لأنهم يؤمنون بالمادة ولا يؤمنون بغيرها ، ومن آمن بالمادة هذا الايمان لم يستطع أن يلوم عشاقها كلَّ اللوم أو يعذرهم في عشقها بعض المعذرة . غير أنني بعد هذا كله أقول إن جشع المستغلين شر ولكن الشيوعية ليست بخير ، وإن رأس المال محنة للأخلاق ولكن الشيوعية محوٌ للأخلاق لا تقوم لها فيه قائمة . وسيأتي يوم يزدري فيه الناس المستغلين في المجتمع الانساني كما كانوا يزدرون قطاع الطريق بعد أن كانوا في بعض الأزمان عنوان الشرف ومناط الحمد والثناء . فاذا بلغوا تلك المرتبة كان بلوغهم إياها نمّواً ورشداً يستحقان كل ثمن تفرضه عليهم سنّة الارتقاء ، ولم يكن ضرورة من ضرورات العجز والحرمان . أما الشيوعية فما سبيلها إلى إبطال السرقة وإبطال القسوة في تجميع المال ؟ إن بلغت ما تريده وصح

لها ما تزعم وامتنعت السرقة في ظلها على ما ترجوه فانما تمتنع لأن الناس لا ينتفعون بالمال إذا سرقوه ، فلا يملكون به أرضاً ولا يودعونه، في مصرف ولا يتركونه بعدهم لوريث ، فهم يكفون عن سرقته لأنهم عاجزون عن الانتفاع به لا لأنهم عفّوا عن الظلم أو تنزهت ضمائرهم عن العدوان أو ارتقوا قليلاً او كثيراً في سلم المروءة والأخلاق . وتلك فضيلة المسجون أو فضيلة المضطر إلى العفاف ، وليست هي بخير من محنة الأخلاق التي تمحصها التجارب ويتعفف عنها الناس وهم قادرون .

قال صاحبي : وهل يرتقي الناس يوماً هذا المرتقى ؟ وهل يرتفعون إليه في مئات السنين بل في ألوف السنين ؟

قلت : إننا لم نستكثر على طبيعة الحياة أن تنقل الكلب من وحش لئيم يفترس الأطفال والغنم إلى حارس أمين يفتدي الأطفال والغنم بحياته ، فلماذا تستكثر عليها أن تنقل الانسان من حال إلى حال وقد نقلته كما رأينا وعلمنا بين شتى الأحوال ؟ . . . أما طول العلاج يا صاحبي فهو خير من علاج سريع يتبعه موت سريع . . أنسيت علاج العاطلين في مستشفى الأطباء المشعوذين ؟ أنسيت علاج النازيين والفاشيين للمتبطلين ؟ أعطوهم القوت أياماً ليسلبوهم ويسلبوا من يعولونهم الحرية ثم يسلبوهم جميعاً أنفاس الحياة . . وقدكان الجوع حيناً بعد حين خيراً من الموت والفزع والاستعباد . ومهما يكن من الشك في طب النفوس فأحق الأطباء بالشك في طبهم أولئك الذين ينشئون مذهبهم من اليأس وقلة الحيلة ويعلمون فضائلهم باليأس وقلة الحيلة ، ويحسبون أن الشر قد زال لأنه محبوس وراء الأقفاص والسدود .

وكانت في صاحبي على ما يظهر عادة كثير من الناس بل عادة أكثر الناس ، وهي أنهم يكرهون المرض الذي جربوه ولا يكرهون المرض الذي لم يجربوه حتى يجربوه ! . . . فيسمعون ذم الدمل الذي يقض مضاجعهم ويعرضون عن ذم السرطان وهو بعيد منهم . فقد كان يوازن بين مساوىء الجشع والاستغلال

ومساوىء الشيوعية والحكم المطلق كما يوازن بين الوقائع والفروض . . وليس السرطان الذي لم يصب به الانسان فرضاً من الفروض !

قال : ألا يجوز أن تكون عيوب الشيوعية عيوب المجال الضيق والحوض المحدود ؟ ألا يمكن أن تنصلح فيها هذه العيوب إذا عمت أجزاء العالم وشملت جميع أوطانه وشعوبه ؟

قلت : بل إخال يا صاحبي أن الشيوعية في وطن واحد أو بضعة أوطان شيء يجوز في الحسبان . أما الشيء الذي لا يجوز في حسباني فهو الشيوعية عامة شاملة بلا أوطان وبلا حدود . إذ ما العمل في تنظيم خطوط المواصلات بين أنحاء العالم ؟ وما العمل في تنظيم صادراته ووارداته ؟ وما العمل في تنظيم الزراعة والصناعة بين أقطاره ؟ وأي حكومة هي تلك الحكومة العالمية التي تحمل وطناً من الأوطان على أن يزرع أو يصنع لوطن غيره وهي قد أبطلت من النفوس حوافز المصلحة الشخصية وحوافز المصلحة الوطنية على السواء ؟ وإن بقيت الحكومات المتعددة في أنحاء العالم فعلى أي أساس تقوم الحدود والفوارق بين الأوطان ؟ وعلى أي أساس من الأسس يقوم توزيع المصالح وتقسيم الأعمال ؟ فربما كانت الشيوعية في الوطن الواحد حقيقة ممكنة بما فيها من العيوب والآفات ، ولكنها في العالم بأسره هي ولا ريب أسطورة الأساطير .

ولو انتظمت للعالم حكومة واحدة تسوس أعماله وتقرر منها المفيد وغير المفيد لكان هذا هو البلاء فوق كل بلاء . لأن هذه الحكومة قد تشل دوافع الحياة في النفوس وهي تزعم أنها تقتلع منها الحماقة والغرور . ولو أننا رجعنا إلى تواريخ بني الانسان لننزع منها آثار الحماقة والغرور كلها لانتزعنا نصف الحضارة الانسانية وذهب النصف الآخر بذهابه كما يذهب البيت كله إذا انهار نصف الجدران !

ما الولع ببناء القصور وفي الكوخ سعة لساكنيه ؟ إنه حماقة وغرور .

ولكن أين كان يذهب العلم بالهندسة والعلم بمسالك البحار والأرضين

والبصر بطبائع القبائل والشعوب لولا طواف الناس في طلب الحجارة والأخشاب لبناء تلك القصور ؟

ما الولع بالثناء يكذب فيه الشاعر كما كذب شاعرنا حين قال :

لو تعقــل الشجــر التــي لاقيتها مدت محيية إليك الأغصنا ؟

إنه حماقة وغرور !

ولكن أين يذهب الأدب والشعر وبليغ الكلام وبديع القرائح لولا هذه الحماقة وهذا الغرور في ذلك الممدوح ؟ ومتى كان للأدب في تلك الازمنة عائل غير هؤلاء الحمقى والمغرورين من أشباه ذلك الممدوح ؟

ما التوابل والأفاوية التي كانت تشق من أجلها البحار وتقتحم من أجلها مخاطر الأسفار ؟

إنهــا حماقـة وغـرور ! وفي سبيل هذه الحماقـة والغـرور كشفت القـارة الأمريكية واتصلت جوانب الكرة الأرضية ، وخرج كولمبس بسفينته لينتهي إلى الهند من غياهب بحر الظلمات . . . فلم يكن هذا الخاطر كله إلا حماقة وغروراً تنبعث من حماقة وغرور .

ومع هذا يهون على بني الانسان أن يعصف الزمن بكل ما كان في عصر كولمبس من الرشد ليبقى لهم ضلال هذه الحماقة وذلك الغرور .

اذكر هذا يا صاحبي واذكر ما كان يلقاه كولمبس لو أنه مثل في « مكتـب شيوعي » ليستأذن في السفر بمن معه من النواتية والعمال . . أكان بعيداً أن يدور بين كولمبس ورئيس المكتب المسؤول حوار كهذا الحوار ، وأن يكون مصيره بعد ذلك الى لهب النار أو جوف البحار ؟

ـ إلى أين تذهب يا هذا ؟

ـ إلى الهند من طريق المغرب !

- وهل ترجو الوصول حقاً من هذا الطريق ؟

- لي في ذلك عظيم الرجاء !

- وهبك في حل من أن تغرر بنفسك فهل يحل لك أن تغرر بهؤلاء النواتية المساكين وهؤلاء الاجراء المرهقين ؟ في أي سبيل يحل كل هذا التغرير ؟

في سبيل الحرائر والأبازير التي انقطع ورودها من طريق المشرق وعز انقطاعها على الموسرين والأغنياء ! . . .

لو نجا كولمبس من هذا الحوار بكلمة « مرفوض » دون غيرها لعددناه من السعداء . وكيف كان ينجو بها دون غيرها وهو ذلك الشيطان الرجيم الذي يغرر بحياة النواتية والأجراء ليستطيب الحمقى والمغرورون لبس الحرير وأكل الابازير ! . . . !

حذارِ يا صاحبي أن تسلم دوافع الحياة الى مسيطر عادل أو جائر ، وأن تقيدها بحكمة حكيم أو شهوة شهوان . إنك على أمن حين تمنع الجريمة والعدوان وتسلم زمامها إلى القانون ، ولكنك ترى كيف تكون العاقبة حين نسلم ما نسميه بحماقة الحمقى إلى ما نسميه بحكمة الحكماء أو صلاح العلماء ، فكيف تكون الحال لو سيطر الغباء على الذكاء ، أو تصرف الضلال بالرشاد ؟

***

وأخذ صاحبي يقلب في كتب الشيوعية والشيوعيين ، فتوقف بعد قليل ، وسألني مستغرباً : ما هذا ؟ خطب هتلر إلى جانب رسائل لنين ، وكتاب عن تاريخ الشيوعية يجاور كتاباً عن العنصر المختار من الآريين ؟ ألا تتوخى ترتيباً لهذه الكتب أو هذه الرفوف ؟

قلت : بلى . . . ترتيب ولا ترتيب . فأما الترتيب المفصل فلم أقصده ولم أشعر بالحاجة إليه ، وأما المجمل فالذي تراه مثال لما أتوخاه .

دع هذه الرفوف مثلاً وانظر إلى هذه الرفوف التي تليك ، مؤلف صيني حديث معه مؤلف قديم ، وشاعر من بني اليونان يصحبه ناقد من أبناء العالم الحديث ، والجامعة بينهم كلهم أنهم شعراء ، أو ينقدون الشعر ، أو يتكلمون عن الشعراء .

ودع هذه الرفوف وانظر ناحية منها إلى الرف الذي يليه : لعله أعجب وأبعد في المقاربة ـ أو في المباعدة ـ بين الجيران والخلطاء . فهذا سفر عن بيتهوفن ، تجاوره موسوعة عن الموسيقى ، وينزل معهما سجل عن الطير ومجلد تفتحه فلا تقرأ فيه كله صفحات مطبوعة وإنما تسمع من بعض صفحاته أصوات الأحياء في المواسم المختلفة وفي حالات الغضب والرضى والنفرة والحنين ، لأنها صفحات من قوالب الحاكي لا من سطور الكتاب والشعراء ، وعلى مقربة منها جميعاً عالم يتكلم عن الرياضة والطبيعة والأوزان ، وكلها من عالم واحد هو عالم الأصوات والأنساق والألحان ، وما أنا بقادر على ترتيب لها يهديني اليها أقرب ولا أوفق من هذا الترتيب .

أما الجوار بين الشيوعية والنازية فيا له من جوار . . . هو جوار لو انتقل إلى عالم المحسوس لا نبعث من هذه الرفوف القليلة فرقعة لا تسمعها من ألف طربيد ولا من ألف غيمة تومض بالبروق والرعود ، ولكنها لو انتقلت الى عالم المعنى لكان الجوار بينها أقرب جوار وأوفق جوار .

قال صاحبي كالمستنكر : أجوار الشيوعيين والنازيين أقرب جوار وأوفق جوار !

قلت نعم . لأن الفارق بين المذاهب الاجتماعية أو المذاهب السياسية ـ إن شئت أن تسميها بالسياسية ـ هو فارق واحد يهديك بينها جميعاً ولو بلغت المئات والألوف : هو الفارق في الحرية الفردية ، أو هو الفارق في التبعة التي يحملها الفرد في علاقته بأمته وبعالم الانسان على اتساعه . فاحسبها مئة مذهب أو ألف مذهب أو ما فوق هذا أو ما دون ذاك ، فانما هي في النهاية مذهبان اثنان :

مذهب يقدس الحرية الفردية ومذهب يستخف بها تقديساً لسلطان الدولة أو سيادة الزعيم ، ولا عبرة باختلاف الأسماء والعناوين .

وإن شئت أن تعلم لأيهما الرجحان ولأيهما الغلب على طول الزمان فالموازين التي توزن بها هذه المذاهب لا تحصى ، وليس بينهما ما هو أصلق من ميزان التاريخ وميزان الأخلاق .

قال : وما ميزان التاريخ أو ميزان الأخلاق في هذه القضية ؟

قلت : إن التاريخ لم يستقم قط في اتجاه واحد كما استقام في اتجاه الحرية الفردية أو في اتجاه النهوض بالتبعة ، وكذلك الأخلاق . فمنذ آمن الانسان بروحه وعلم أنه مثاب على عمله لم يكن له تقدم قط إلا في هذا الاتجاه ، ولم تقم على غير هذا الطريق قائمة من الأديان والأخلاق والحركات الاجتماعية في كل زمان وبين كل قبيلة . فما تفاضل عصران ولا امتاز شعبان ولا فردان ولا خلقان إلا استطعت أن تحكم بينهما بميزان التبعة أو الحرية الفردية . ولن يكون الراجح منهما إلا أوفر الطرفين نصيباً من تلك التبعة أو من تلك الحرية : من أفضل الفريقين الطفل أو الرجل ؟ العبد أو السيد ؟ الجاهل أو العالم ؟ المجنون أو العاقل ؟ الهمجي أو المتحضر ؟ الغالب أو المغلوب ؟ الحيوان أو الانسان ؟ لا اختلاف في جواب هذه الأسئلة جمعاء ، ولا اختلاف كذلك في أن الحرية أو التبعة تكونان حيث يكون الراجح المفضل من الفريقين .

قال صاحبي : إنه لميزان عادل . . ولكنه يزن بين النازية والشيوعية من جهة وبين غيرهما من المذاهب الاجتماعية من جهة أخرى . فكيف يكون وزنه بين النازية والشيوعية يا ترى ؟

قلت يا صاحبي : كلاهما شر وفي الشر خيار . وإنما المقابلة بينهما تعلو بهذه مرة وتهبط بتلك مرة ، كما يكون العلو والهبوط في المقابلة بين الحسد والغرور .

فالنازية في لبابها قائمة على خليقة الغرور ،لأنها لن تقوم إن لم يقم معها

غرور الزعيم بتفوقه على سائر الناس ، وغرور العنصر بتفوقه على سائر العناصر ، وغرور الأتباع بما يتاح لهم من مظاهر الزهو والخيلاء .

والشيوعية في لبابها قائمة على خليقة الحسد ، لأنك لا ترى شيوعيّاً إلا رأيته حاسداً للممتازين من خلق الله كيفما كان سبيل الامتياز ، وليس منهم من يشعر بالعطف على الضعيف أو الفقير ولكنهم جميعاً يحقدون على القوي والغني وعلى كل صاحب فضل يشيد به الآخرون ، وليست التفرقة عندهم بين الناس تفرقة بين من يحمد أو يذم ولا تفرقة بين من يحب أو يكره ، ولا تفرقة بين من يكرم أو يلؤم . . . وإنما هي على الجملة تفرقة بين من يحُسد أو لا يحُسد كائناً ما كان مثار الحسد عليه . وإنك لتستطيع ان تعلم مع من الخصمين يكون الشيوعي كلما علمت من منهما الراجح ومن منهما المرجوح : فهم في صف المرأة اذا نازعت الرجل ، وفي صف الولد إذا نازع الوالد ، وفي صف الجاهل اذا نازع العالم ، وفي صف الخامل اذا نازع المشهور ، وفي صف الدهماء اذا نازعوا أبطال التاريخ ، ولن ترى شيوعياً يسلم من الحسد بحال من الأحوال ،وبهذا وحده تفسر كل لغز يعرض لك من ألغازهم حين ترى فيهم من تظنه غريباً عنهم ، وفيهم أصحاب الأموال والأحساب .

قال والله لقد وددت حقّاً أن أعرف لم يكون صاحبنا فلان من الشيوعيين وهو سليل بيت قديم وصاحب مال موفور ؟

قلت تعرف ذلك حين تعرف أنه يحسد أمثاله وينقم على الدنيا لأنه لا يحسب منهم حين يحسب ذوو الكلمة أو ذوو الرأي أو ذوو المنصب والجاه ، وعلى قدر طمعه في ذلك وتوافر وسائله عنده يكون حقده وحسده واشتياقه إلى التقويض والتخريب .

وقس على ذلك إخوانه ممن تستغرب نخوتهم الشيوعية وهم موسرون أو مرابون يمتصون دماء الضعفاء قبل الاقوياء : أرأيت إلى المرابي فلان وثروته كلها مجموعة ممن يقترض الجنيه والجنيهين ويؤدي الفائدة ضعفين أو فوق الضعفين ؟

استمع إليه ـ أتسمعه يوماً يذكر إنساناً من الأقدمين أو المحدثين بحمد أو ثناء فما له لا يكون شيوعياً والشيوعية تمكنه من شتم « أكبر عدد مستطاع » من خلق الله ؟ يشتم الرسُل لأن الشيوعية تنكر الأديان ، ويشتم الأبطال لأن الشيوعية تنكر الأوطان ، ويشتم دعاة الحرية لأنهم « برجوازيون » يخدمون رؤوس الأموال من وراء الستار ، ويشتم حتى « غاندي » المسكين لأنه يخدر أعصاب المساكين ويعلمهم ترك العدوان ولا قيام للشيوعية بغير الثورة وسفك الدماء . . . ثروة من الشتائم يستمتع بها لسانه في ظل المذهب « المظلوم » ، وثروة من الأحقاد تخيل اليه أنه يمتص دماء الضعفاء لأنهم لا يستحقون الرحمة ، وليس لما فيه من لؤم وكنود .

قال صاحبي : أوكلهم ذلك الرجل ؟ أو ليس فيهم من رجل رشيد !

قلت : إلا من عصم ربك . وهم القليل ، أو هم الاستثناء في هذه القاعدة ، والأغلب أن يكون هؤلاء من الشبان الذين تنبض قلوبهم بحماسة الفتوة وحب النخوة ، ويسمعون وعود الماركسيين فيصدقونها ولا يدركون عقباها أو يفطنون إلى محظوراتها . فمن لم يكن من هؤلاء فهم السيئون المتعجلون ، لأنهم يتعجلون الصعود ويعجزون عنه فيودون لو يهبط الصاعدون ، ويحبون إلغاء الفروق بين الناس ليصبح الأعلياء كالأدنياء ، لا ليصبح الأدنياء كالأعلياء .

قال لي العالم الحكيم الدكتور يعقوب صروف منشىء « المقتطف » مرة إنه شهد الصبية يلعبون كرة اليد فرأى منهم من يعدو ليلقف الكرة ومن يعدو ليجذب الأول من قفاه ويرده إلى الوراء ، فلا هو يلقف الكرة ولا يطيب له أن يلقفها غيره ! . . . وهاتان الطائفتان من الخلق موجودتان في كل ميدان من ميادين الجد ولا تقصران على هذا الميدان الصغير من ميادين اللعب ، فان رأيت فتى في مقتبل عمره يهوى الشيوعية غير مخدوع في وعودها فهو بعض هؤلاء الذين لا يلقفون الكرة ولا يسرهم أن يلقفها السابقون .

وأود يا صاحبي أن نعطي هذه البواعث النفسية حقها في تفسير إقبال الناس على المذاهب أو إعراضهم عنها . لأن تفسيرهما بدرجات الفهم أو بأحوال المعيشة لن يغنينا عن تفسيرهما بتلك البواعث النفسية في وجهتها الكبرى ، ويزعم الماركسيون أن الأحوال الاقتصادية هي كل شيء في تفسير حركات التاريخ ومذاهب الدعاة ، ولكنهم لا يذكرون حركة واحدة من تلك الحركات المعروفة إلا كان الأمر فيها موقوفاً على مسألة شعور قبل كل شيء وبعد كل شيء .

وخذلذلك مثلاً هجرة الناس إلى القارة الأمريكية بعد كشفها فراراً من الفاقة أو من الحجر على ضمائر المعتقدين . فلماذا هاجر أناس وبقي أناس لو لم يكن فرق الشعور هو الفرق الأكبر بين الباقين وبين المهاجرين ؟ ولماذا رضيت طائفة بالذل والحجر فسكنت واستكانت ، ولم ترض طائفة اخرى فودعت الديار واقتحمت مجاهل البحار ومخاطر الأسفار ؟ وما تعليل « المادة » لهذا الفارق في الشعور والمهاجرون ينتمون الى كل طبقة وحالة الضيق شاملة لهؤلاءوهؤلاء ؟ إن آفة هذا المذهب البغيض أنه لا يرى أكرم العلتين للحادث الواحد إلا حاد عنها إلى أحقر العلتين ، وأنه لو وضع لعالم من الحيوان لما احتاج إلى تضييق ولا تقصير ولا إعادة تفصيل أو تحرير . لأنه لا يفهم من الانسان إلا جانب الحيوان .

وكان صاحبي من أولئك الذين يعلقون أحكامهم على الخطأ حتى يتبين لهم وجه الصواب فيه ، وكأنه لا يعرف أن هذا الوجه دميم إلا اذا عرف أن ذلك الوجه وسيم ، ولا يصدق أن هذا العلاج قاتل إلا إذا صدق أن ذلك الدواء محقق الشفاء . فشك طويلاً بعد ما سمع من مساوىء الشيوعية والنازية ثم عاد يسأل : ولكن ما العمل ؟ إن شيئاً لا بد أن يعمل ولا أحسبك إلا قد خرجت من هذا التيه المتراكب بزاوية تنفذ الى طريق ، ولو لم يفض بنا الطريق إلى الغاية المأمولة إلا بعد حين . فالشيوعية حسد والنازية غرور ، فأين يكون سواء الأخلاق وصلاح الأمور ؟

قلت : وهبنا لم نعرف طريق الصلاح ، أفيمنعنا هذا أن نحذر طريق الفساد ؟ على أنني أعتقد يا صاحبي أن الطريق الوحيد الذي فتح لنا بين هذه المتاهات هو طريق كتبت عليه كلمة واحدة لا تتبدل في مشكلة من المشكلات : وهي كلمة « التعاون » .

فلا خلاص للعالم بعد اليوم إلا بهذا الترياق الوحيد حيثما أعضلت عليه مشكلة في السياسة أو في المعيشة أو في الحكومة أو في الأخلاق .

التعاون بين الأمم كبارها وصغارها ، والتعاون بين الطبقات غنيها وفقيرها ، والتعاون بين السلطات ، والتعاون بين الأفراد ولا اختيار للناس في تعاطي هذا « الترياق » لأنهم مدفوعون إليه مقسورون عليه ، بعد نزاع بين الأمم ، ونزاع بين الطبقات ، ونزاع بين الحكام والمحكومين .

قال : وماذا يجدي التعاون في مشكلات الفقر والغنى ؟

قلت : يجدي ما ليس يجديه حل آخر من الحلول التي جرت قبل الآن أو ستجري بعد الآن .

خذوا الضرائب من الأثرياء وزيدوا الأجور للعاملين ، فاذا بكم قد حققتم غرض الشيوعية ولم تمسخوا الطبيعة الانسانية ، لأن المالك الذي يؤخذ منه معظم ربحه ضريبة للدولة إنما هو موظف في ملكها لا يتقاضى من الربح أكبر من أجر الوكيل المؤتمن على مصلحة غيره ، وكأنما ملكت الدولة مرافق البلاد كلها ولم تحرم المالكين ذلك الحافز « الفردي » الذي يحث المرء على العمل لغيره كأنه يعمل لنفسه ولأبنائه ، وما من شيء يستنهض الهمم للتجويد والافتنان كما تستنهضها هذه الحوافز التي تخلو الحياة من كل طعم إذا خلت منها .

وانشروا سنة التعاون في التجارة وتدبير أسباب المعيشة فاذا بكم قد أعدتم على الشاري فوائد الرخص والغلاء ، ووقفتم الاستغلال عند حده الذي يرضاه المنتفعون بالبيع والشراء .

ولا أزعم لك أن هذا « التعاون » سيبطل كل شكاية ويوفر كل مطلب وينصف كل محروم ، فان نظاماً من النظم لن يكفل هذا « الفردوس » لبني الانسان أبد الأبيد وآخر الزمان ، ولو أنه كفله لكان وبالاً عليهم ، لأن الأمان من كل قلق مدعاة للتواكل والقنوع ، ولأن الناس ما عملوا قط إلا وفي جوانحهم بعض الخوف وبعض النزوع إلى التغيير ، وهب أن بعض القلق لا يفيد هذه الفائدة في حياة الأفراد والجماعات فهل يكون القلق اليسير ثمناً كبيراً لحرية الفرد وإطلاق المجال لسباق الهمم والآمال ؟ ففي السجون يأمن السجناء على المأكل والمسكن والكساء والدواء ولكنهم شر من الطلقاء الذين يشبعون ويجوعون ، ويلبسون ويعرون ، ويدبرون لأنفسهم أمر المسكن والصحة اذا احتاجوا إليها .

قال صاحبي : وهل يقبل المستغلون من ذوي الجشع وطلاب التخمة سنة التعاون !

قلت : إن سنة التعاون لا تنتظم في هذه الدنيا لأن المستغنين يقبلونها أو لا يقبلونها ، ولكنها تنتظم على مقدار الحاجة إليها والايمان بها وغلبة المصالح التي توافقها على المصالح التي تناقضها وتقف في طريقها .

وربما تهيأت في وطن ولم تتهيأ في غيره ، وربما أسرعت هنا وأبطأت هناك ، وربما تعرضت دونها الصعوبات حيناً ولم تتعرض في حين آخر . . . على أنها اذا انتظمت بعد ذلك فانما تنتظم للدوام والتمكن والهداية كما تنتظم فضائل الرشد بعد فضائل القصور ، أو أدب الرجولة الناضجة بعد أدب الطفولة الفجة . وإنك لتمنع الطفل أن يمرض وتحميه أن يؤذي نفسه بيديه ، ولكنه لا يمتنع عن المرض باختياره ولا يحتمي من الأذى بنفسه إلا بعد خبرة عسيرة وتجربة طويلة ، من يحرمه منها يحرمه صفوة وجوده وقوام كيانه ولا يقال إنه رؤوف به عامل لخيره متعجل لنموه ورشاده . ولو أن الثورة الشيوعية قضت عشرين سنة في طلب التعاون والايمان بلزومه لبلغته ونهجت به منهجاً يتقدم العمل فيه ، ولكان

ذلك خيراً من تلك السنين العشرين التي قضتها في المحاولة وإهدار الجهود والدماء ، ثم ختمت المطاف بالعدول عنها وإقرار ما كانت تنكره وتأباه ! وعلى أي شيء ختمت المطاف ؟ على إقرار الملكية والاعتراف بالدين والوطنية والسماح بالميراث وخزن الأموال وتفاوت الأجر والمعيشة ، وسلب العامل حريته في الانتقال من مصنع إلى مصنع ، وتحريم الاحتجاج والاضراب عليه . وقد كان يحتج ويضرب في عهد القيصرية الجائرة . فأما اليوم فلا احتجاج ولا إضراب ، ولا غنى له عن بطاقة الخروج من المصنع إذا ضاق به وتحول عنه ، فان لم تكن بيده هذه البطاقة فلا حق في بطاقة السكن ولا بطاقة الطعام ولا بطاقة الحقوق المدنية في شيء ـ أو حضور جلسات . ! وهو حر كما يقال . . . ومن أجل حريته هذه فاضت دماء وتقوضت مدن وضاعت أيام وأعوام !

وإنني لأؤكد لك أنني لو ملكت الفصل قولاً وعملاً في قضية المذاهب الاجتماعية لأوجزت الحكم وحسمت الخلاف من أوجز طريق : ألف عامل في بلاد الشيوعية وألف عامل في بلاد الديمقراطية الصناعية يتبادلون المكان خمسة أعوام ، وليس يخامرني الشك طرفة عين أيهما يسرع إلى الصريخ والعويل ويلحف بعد قليل في التبديل والتحويل .

قال صاحبي وهو يتلفت كأنما يتعوذ من شيطان يسمع ما يقول : ويح هذه القماقم الهوجاء . لقد شغلتنا وهي مغلولة مسجاة ، فكيف لو انطلقت من عقالها ؟

قلت : وحسناً صنعت . فما أعلم أن موضوعاً في هذا العصر هو أولى بأن يشغلنا في موضوعها ، وما أحسب أن الانسانية قد احتاجت إلى التفرقة بينها وبين البهيمية منذ فارقت الغابة والكهف للمرة الأولى كما احتاجت إليها في هذه الآونة .

ونظرت إلى صاحبي فاذا هو يضم ما بين الخنصر والبنصر ويقول : ها نحن أولاء نقلب صفحة جديدة أو نفتح كتاباً جديدا . . . وها نحن أولاء نتكلم بالقول الصريح وبالقول المستعار في وقت واحد . فما أبعد النقلة ما بين الخنصر والبنصر في عالم الكتب : ما أبعد النقلة بين الأرض والسماء وبين المعاش والمعاد وبين فلسفة كارل ماركس وفلسفة ما وراء الطبيعة !

قلت : كلاهما يتصدى لعمل واحد وهو تفسير الكون وترتيب المعاش في هذه الدنيا على هذا التفسير .

وكان صاحبي قد انتقل كما قال ، فيما بين الخنصر والبنصر إلى عالم السماء : عالم البحث في الله ، وسر الوجود ، وأصل الحياة وما قبل الحياة وما بعد الحياة .

وكان على ديدن الكثيرين يرى أن هذا البحث فيما وراء الطبيعة من الوقت الضائع أو فضول القول . فسألني وهو يتحرج قليلاً لأنه يعلم أنني لا أستضيع وقتاً أنفقه في بحث هذه الأمور :

ما فائدة هذا كله وهو غموض في غموض وفروض من وراء فروض ؟ ألا يمكن أن يعيش الانسان على هذه الأرض وهو في غنى عن هذه الفلسفة التي يسمونها سر الوجود ؟

وأردت ألا أتخلف عنه في جرأة الرأي فقلت : بل هي آخر شيء يستغني عنه الانسان . وما أنت مستطيع أن تطل من هذه النافذة أو تبدأ عملك في الصباح ما لم تكن لك « فلسفة وجود » على نحو من الأنحاء .

قل لي : ماذا تستبيح وماذا تحرم وأنت تنظر من هذه النافذة ؟ أتستبيح أن تملأ عينيك من شيء غيرك كما قال الأديب الحجازي ؟ واذا استبحته فلماذا تستبيحه ؟ وإذا حرمته فلماذا تحرمه ؟ وما حدود المتاع بالنظر فيما تراه ؟ أله حدود أم ليست له حدود ؟

وأنت تذهب إلى عملك كل يوم في الصباح فلماذا تعمل أو لماذا تهمل عملك ؟ أعليك واجب ؟ أمناط هذا الواجب مصلحتك أم مصلحة الأمة ؟ ومشيئة الخالق أم مشيئة المخلوق ؟ وإن آمنت بهذه المشيئة أو بتلك فلماذا آمنت ؟ وإن لم تؤمن بهذه أو بتلك فلماذا كفرت ؟ وإن لم تكفر في شيء من ذلك فهل أنت إذن مثلٌ حسنٌ للآخرين !

مرحلة الحياة يا صاحبي كجميع المراحل التي نقطعها من مكان إلى مكان . لا تركب القطار حتى تحصل على التذكرة ولا تحصل على التذكرة حتى تعرف الغاية التي تسير إليها . غاية ما هنالك من فرق بين راكبين أن أحدهما يقرأ التذكرة والثاني لا يقرأها ، أو أن أحدهما يؤدي ثمنها من ماله والثاني يؤدي له الثمن من مال غيره . وإن أبيت المجازات فأحد الراكبين في مرحلة الحياة يبحث عن غايتها بنفسه والآخر توصف له غايتها بلسان غيره . . . لا بد يا صاحبي من هذه الفلسفة التي تريد أن تلقي بها في اليم وأنت على الشاطىء . وثق يا صاحبي أنها آخر شيء يلقيه راكب السفينة حين تلعب به الأعاصير في البحار اللجية . بل هي الشيء الذي لا يتركه ولو ترك السفينة أو تركته إلى الأعماق . ألم تسمع قولهم في الأمثال : « إنهم كالنواتية لا يذكرون الله إلا ساعة الغرق ؟ » . . . فاعلم يا صاحبي أن هذا الذكر هو فلسفة الحياة التي تبقى مع راكب السفينة بعد كل بضاعة يستغني عنها ، وبعد السفينة نفسها إذا حان حينها !

قال صاحبي : وهل وصلت قط من فلسفة حياتك إلى شيء ؟

قلت : نعم ، إن الله موجود

قال : باسم الفلسفة تتكلم أو باسم الدين ؟

قلت : باسم الفلسفة أتكلم الآن . والفلسفة تعلمنا أن العدم معدوم فالموجود موجود . موجود بلا أول ولا آخر ، لأنك لا تستطيع أن تقول : كان العدم قبله أو يكون العدم بعده ! وموجود بلا نقص لأن النقص يعتري الوجود

من جانب عدم ولا عدم هناك . . . موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص ولا قصور . . . والوجود الكامل الأمثلُ هو الله .

قال : وكيف توفق بين الوجود الأمثل وبين الشرور والآلام في هذه الحياة ؟

قلت : هذا سؤال غير يسير ، لأننا نحن الفانين لن نرى إلا جانباً واحداً من الصورة الخالدة في فترة واحدة من الزمان . ومن يدرينا أن هذا السواد الذي يصادفنا هنا وهناك هو جزء لازم للصورة كلزوم النقوش الزاهية والخطوط البيضاء ؟ . . . وماذا تستطيع أن تصنع لو ملكت الأمر وتأتّى لك أن تقذف بالشرور من الحياة ؟ بغير الألم والخسارة ما الفرق بين الشجاع والجبان وبين الصبور والجزوع ؟ وبغير الشر والسوء ما الفرق بين الهدى والضلالة وبين النبل والنذالة ؟ وبغير الموت كيف تتفاضل النفوس وكيف تتعاقب الأجيال ؟ وبغير المخالفة بينك وبين عناصر الطبيعة من حولك كيف يكون لك وجود مستقل عنها منفصل عن موافقاتها ومخالفاتها ؟ وبغير الثمن كيف تغلو النفائس والأعلاق ؟

قال صاحبي : أليس عجزاً أن نشقى وفي الوسع ألا نشقى ! أليس عيباً أن نقصرعن الكمال وفي الوسع أن نبلغ الكمال ؟

قلت : وكيف يكون في الوسع أن يكمل المتعددون ؟ إنما يكون الكمال للواحد الدائم الذي لا يزول .

قال صاحبي : قل ما شئت ، فليس الألم مما يطاق ، وليس الألم من دلائل الرحمة وآيات الخلود الرحيم .

قلت : على معنى واحد إن هذا لصحيح !

إنه لصحيح اذا كانت حياة الفرد هي نهاية النهايات وهي المقياس كل المقياس لما كان وما يكون . لكن إذا كانت حياة الفرد عرضاً من الأعراض في طويل الأزمان والآباد ـ فما قولك في بكاء الأطفال ؟ إن الأطفال أول من يضحك

لبكائهم حين يعبرون الطفولة ، وإنهم أول من يمزح في أمر ذلك الشفاء ، وليس أسعد الرجال أقلهم بكاء في بواكير الأيام .

يا صاحبي : هذا كون عظم . هذا كل ما نعرف من العظم ، وبالبصر أو البصيرة إذا نظرنا حولنا لا نعرف العظم إلا من هذا الكون . ماذا وراء الكون العظيم مما نقيسه به أو نقيسه عليه ؟ فان لم نسعد به فالعيب في السعادة التي ننشدها ، ولك أن تجزم بهذا قبل أن تجزم بأن العيب عيب الكون وعيب تدبيره وتصريفه وما يبديه وما يخفيه . ولك أن تنكر منه ما لا تعرف ، ولكن ليس لك أن تزعم أنه منكر لأنه مجهول لديك .

وبسط صاحبي ذراعيه وهو ينظر حوله بالبصر وبالبصيرة معاً في أجواز الفضاء السرمد ، ويخيل إلى من يراه في تلك الساعة أنه يفتح بصيرته وُسعها كما يفتح المشدوه عينيه وُسع الأجفان ، حين يحب أن يملأ العينين مما تريان . وكأنه أغمض بعد إعياء من التأمل والاستقصاء فقال : هذه آفاق شاسعة ! هذه أغوار لا يسبر لها قرار . وتساءل : أليس إلى معرفة الحقيقة من طريق غير هذه الطريق ؟ أليس للرياضة الروحانية مسلك إلى هذه الآفاق والأغوار ؟ إن نُساك الهند على ما يبدو لي لأخبر بهذه المسالك وأهدى في هذه الدروب ؟ إنهم لا يصدعون رؤوسهم بالبحوث والفروض ولكنهم يعرفون !

قلت : بل أحسب أن الطريقين مختلفان . إن نُساك الهند لا يطلبون المعرفة ولا يجعلونها غاية الغايات ، فان المعرفة قد تنال من إقرار الجسد كما تناله من إنكاره ، وقد تنجم من الاقبال على الدنيا كما تنجم عن الإعراض عنها ، ولكنهم طلبوا الطمأنينة والراحة أو طلبوا الرضوان ، وشتان بين من يطلب الرضوان ومن يطلب المعرفة حيثما وصل إليها أو وصلت اليه .

قال : أي رضوان وأي راحة ؟ إنهم ليعذبون أبدانهم ويقدعون نفوسهم ويشلون أعضاءهم بمشيئتهم . فكيف ينشدون الرضوان والراحة بهذا العذاب ؟

قلت : هل يعذبون أبدانهم إلا لأنهم راضون بهذا العذاب ومطمئنون إلى عقباه ؟ وهل شاء الانسان أمراً لا يشاؤه أو يختار أمراً لا يختاره أو يرضى بأمر لا يرضاه ؟

لعمري لئن لم يفتح النساك فتحاً عظيماً في جانب المعرفة لقد فتحوا أعظم الفتوح في جانب الأخلاق . بل أقاموا الأخلاق على أوثق أساس حين علموا الانسان أن رضوان النفس مطلب يهون في سبيله كل عذاب ، وأنه لا جزاء أوفى من رضوانها ولا عذاب أنكأ لها من سلب ذلك الرضوان ، وأي فهم لمعنى الثواب والعقاب أكمل وأفضل من هذا الفهم الذي لم يأت من جانب البحوث والفروض ؟ لا عذاب للنفس أنكأ لها من شعورها بالنقص ولا نعيم لها أنعم من شعورها بالرضوان . فكفى بهذا الفتح انتصاراً في معترك الأخلاق ، وإن لم ننسك كما ينسكون ولم نتعذب كما يتعذبون .

قال صاحبي : الحق أنني لم أشق في حياتي بشقاء أمر وأوجع من اتهامي لنفسي وسوء الظن بطويتي . ولو لم يكن هذا الشقاء أمرّ الشقاء على الطبيعة البشرية لما تحصنت منه بحصن الغرور ، وهو أعم الخلائق في البشر أجمعين .

قلت لغرور هو الجوهر الزائف الذي نتحلى به كلما أعوزنا الجوهر الصحيح ، وإنه على هذا لحصن مطروق لا يستعصم كل الاستعصام من ذلك الرقيب الحسيب . فربما اغتر الانسان فكبرت قيمته عنده ولم يقنع بما دونها فآلمه النقص وفاتته نعمة الرضوان .

ولقد قال اليونان قديماً اعرف نفسك ، فاذا قلنا معهم : نعم وارض عن نفسك أيضاً بلغنا كمال العلم وكمال الأخلاق . ترى هل يطلب الناس أجراً لأنهم يلبسون حلل الحرير ولا يلبسون الكرابيس ؟ ترى هل يأكل الناس الطعام المرىء اللذيذ ويصدفون عن الطعام المسقم الخسيس لأنهم يخشون العذاب ؟ فاذا عرفوا الكمال وعرفوا النقص فهل تراهم يطلبون أجراً لأنهم تجنبوا النقص وتعلقوا بالكمال ؟ وإذا عرفوا صحة النفس فهل تراهم يلتمسون الأجر على

الصحة كما يلتمس الأطفال أجرهم على تناول الدواء ؟ إنما الخوف من النقص هو أمر العذاب ، والرضوان عن الكمال هو أحسن الجزاء . وقد يتعذب الانسان في طلب الكمال وهو راض ، وقد يرفض النعمة فراراً من النقص وهو لا يخشى العقاب . فارض عن نفسك وأنت في غنى بعد هذا عن الوعد والوعيد في نشدان الكمال ، لأنك لا تحتاج إلى الوعد والوعيد لتستطيب ما أنت شاعر بطيبه وتنفر مما تعاف .

قال صاحبي : أكبر الظن أن « الذوق » هنا قد يغني ما ليست تغنيه المعرفة أو تغنيه التقاليد والموروثات ، وهنا يستوي الفن الجميل في مكانه إلى جانب المعرفة وإلى جانب الدين .

وكان صاحبي يداعب على القرب رفاً أمامه يقرأ عليه عناوين الكتب في تماثيل اليونان ومدارس الفن القديم والحديث ، فما هو إلا أن طرأ اسم الفن الجميل على لسانه حتى تناول واحداً منها ثم تناول ثانياً وثالثاً ورابعاً وهو يقلب صفحاتها ويقابل بين صورها ويقرأ سطوراً هنا وسطوراً هناك في التعقيب على تلك الصورة أو ذلك التمثال ، ولم يفته أن يدرك ما أدركته الأجيال بداهة وارتجالاً من ذلك الفضل السابق على جميع الأفضال في باب التماثيل : وهو فضل الاغريق الأقدمين . فراح يقول : صدق الذين أطنبوا في شأن هؤلاء الاغريق ووصفوهم بأنهم تراجمة الطبيعة الصادقون في كل باب ، ولا سيما باب التماثيل وباب التمثيل ، فما يبصر الانسان تمثالاً إغريقيا إلا اتصل بصره بالطبيعة على بساطتها بغير حائل وبغير حجاب ، وما يقرأ قصة من قصصهم المسرحية إلا اتصل بصره بالطبيعة كما يعيش فيها وتسيطر عليها العناصر والأقدار .

واختطف كلمة في هذا الكتاب وكلمة في ذاك عن فن مريون وفيدياس وليسبس ومن تلاهم من المتخلفين . فاذا الفن أيضاً مظهر لبروز الفرد الانساني من الغمار الشامل إلى مكان التخصيص والتمييز ، فالتمثال القديم نموذج للشكل والقالب والقوام يتساوى فيه كل ذي خلق سوي من الناس ، ولكنه شامل عام لا تتميز فيه الملامح والتعبيرات ولا يتمثل فيه التخصص والانفراد ، ثم تتعاقب

صور الأفراد بروزاً وتبايناً حتى ينسى الناظر إليها النماذج الشاملة ويتناولها بالتقسيم والتفصيل ، ويظهر هذا في تماثيل العصور الاغريقية لأنهم صدقوا وصف الطبيعة وصدقوا الشعور بها على السواء . . . وكأنهم حين يمثلون الأبطال الأقدمين يمثلون عناوين شتى لكل نموذج من نماذج البطولة يصنع على غراره قالب باق وتتعدد منه أنماط متكررات .

ولم ينته صاحبي من تقليب تلك الصور إلا وهو يقول : فن جميل . نعم فن جميل . . . ولكن ما غناء الفنون الجميلة في عصرنا هذا عصر العلوم والصناعات ! وأية أمة في عصرنا هذا تفرغ للفن كما فرغ له الاغريق وعليها ذلك الالحاح الدائم من حاجتها إلى العلم وحاجتها إلى الصناعة ؟

وتذكرت في تلك اللحظة سؤالاً سمعه الناس ولا يزالون يسمعونه منذ ظهرت بينهم الصناعة الحديثة والعلم الحديث . وقد سألته مرات وسُئلته مرات ، وأحببت في هذا المقام أن أكون أنا السائل قبل أن أكون المسؤول . فقلت لصاحبي : وأيهما أحق بالعناية والتقديم ؟ وأيهما أجدر بالأمم أن تفخر به وترعاه ؟

قال : وهل في ذلك جدال ؟ أحقها بالعناية والتقديم هو الذي تحتاج إليه ولا تستغني عنه !

قلت : ولكن هذا المقياس يا صاحبي أخطأ مقياس للتفضيل بين شيئين يتعلقان بالانسان ، لأن الذي لا نستغني عنه دائماً هو الضرورات الحيوانية التي تقارب بيننا وبين من دوننا من الأحياء . . . والذي نحسبه من الكماليات هو الكمال الذي تتفاضل به منازل الناس . فدع الحاجة ومقاييسها يا صاحبي فليست هي بمقياس صحيح ، وكيف يكون مقياساً للاختيار ما يسلبك الاختيار وينزلك على حكم الضرورة والاكراه !

قال : فماذا ترى أنت ؟

قلت : اذا لم يكن في الأمر اضطرار فنحن إذن قادرون على أن نختار ،

وعلينا إذن أن نختار بين أمة جاهلة ناقصة الاداة وأمة مريضة أو يوشك أن تموت .

فالأمة بغير علم أمة جاهلةولكنها قد تكون على جهلها وافية الخلق والشعور ، والأمة بغير صناعة أمة تعوزها أداة العمل ولكنها على هذا قد تكون صحيحة الحس صحيحة التفكير ، والأمة بغير تعبير أمة مهزولة أو مشرفة على الموت ، وكذلك تكون الأمم التي خلت من الفنون ، لأن الفنون هي تعبير الأمم عن الحياة .

ولا أكتمك يا صاح أن الاختيار بين هذه المقاصد الثلاثة خليق أن يعنت المختار . لأن الفن والعلم والصناعة ليست بديلاً من بديل وليست قريناً يقاس إلى قرين . وما أعطي الانسان التعبير ليبادل بينه وبين العلوم أو بينه وبين الصناعات . فانما التعبير جزء من حياة الانسان ، والعلم حالة من حالاته ، والصناعة أداة من أدواته . . . ولا محل للمفاضلة بين جزء لا ينفصل من النفس الانسانية وحالة من حالاتها التي قد تنفصل عنها ، ولا محل للمفاضلة بين هاتين وبين عصا يحملها المرء في يده أو فأس يضرب بها الأرض أو مطية يركبها أو شيء من هذه الأشياء المصنوعة على الاجمال . . . وما ظنك برجل يقول لك : تعال يا فلان ! إنك حي تعبر عن سرورك وألمك وتقول إني أحب وإني أبغض ، وإني أرجو وإني أخاف ، وإني أبتهج لتلك الروضة وأنقبض لتلك المتاهة ، وأعجبِ بهذا البطل الجسور وأهيم بذلك الوجه الصبوح . . . تعال يا فلان ! إنك تستطيع أن تقول هذا فلا تقله وخذ في مكانه العلم أو خذ في مكانه عشر سيارات وبضع طيارات ومصنعاً للحديد ومنسجاً للحرير . . . ما قولك في هذا الرجل يا صاح ! هل تراه قد عرض عليك الخيار في أمر يصلح للخيار ؟ وهل تراك قادراً على أن تجيبه ولو طاب لك أن تأخذ البدل المعروض وتعطيه التعبير المزهود فيه ؟

ذلك هو شأن الذين يفاضلون بين الفنون والعلوم والصناعات يخيرون

الناس في غير موضع للخيار ،ويسألونهم عن الأسعار في غير موضع للبيع والشراء . أما إن كان المقصد من هذه التسعيرة تقويم القيم والعلم بأقدارها فليعلموا إذن ما شاءوا أن يعلموه : ليعلموا أن للأصبع قيمة ، وأن للمصباح قيمة ، وأن للسيف قيمة وأن للرغيف قيمة ، ولكن المبادلة بينها لا تقبل في سوق الاختيار . . . وليس في سوق البيوع الجبرية مجال للايجاب والقبول !

ووقعت يد صاحبي على مجلدات الصور التي تسمى بصور المدارس الحديثة ، وهي أشكال وألوان من المستقبليين إلى فوق الواقعيين إلى الاحساسيين الغلاة ، إلى أشباه ذلك من البقع والخطوط والأصباغ التي تحمل عنوان التصوير وليست هي من التصوير في شيء ، لأنها في استطاعة كل من يتناول الريشة ويغمسها في الألوان ، وليست بالفن الذي تعرف له أصول وتدرس له مبادىء ويمتاز به الفنان بين سائر الناس .

نظر صاحبي إلى تلك الصور فاشتدت عليه النقلة من فنون الأقدمين ونظرائهم المحدثين إلى هذا الهراء الذي يشبه هذيان المجانين . فقال : إن كان الفن تصويراً فليس هذا بتصوير ، وإن كان هذا الفن الذي يسمونه بالحديث تصويرا فلنبحث عن اسم آخر لذلك الفن القديم . . . لن يجمع الفنين اسم واحد بأية حال .

قلت : لا حاجة إلى البحث عن اسم آخر للفن القديم فهو هو التصوير الذي يصنعه المصورون . أما هذا فهوألغاز وأحاجي كتلك الألغاز والأحاجي التي تنشر في صحف التسلية عن الحروف المتقطعة والأرقام المثلثة أو المربعة أو عن العيون التي ليست لها آناف والآناف التي ليست لها عيون ، وكلها من عمل الملغزين والمفسرين فلا اختصاص بها للمصورين والنحاتين دون غيرهم من العالمين .

قال صاحبي : ونستغفر الألغاز والأحاجي قبل هذا التشبيه بين الفنين . فان الألغاز والأحاجي ترجع إلى تفسير يتفق عليه كل من يفهمها بلا استثناء . أما

هذه البقع والخطوط والأصباغ فهي شيء لا يفهمه غير صاحبه ، ولا يستطيع أن يعمم فهمها بين طائفة من الناس . فكل صورة هنا كلمة من لغة لا يعلمها إلا إنسان واحد ، إن صح أنها شيء معلوم . وقد كانت الفنون لغة إنسانية عامة يفهمها على البداهة من لا يتفاهمون باللغات ، فأصبحت على أيدي هؤلاء المجّان خرافة سرية في ذهن رجل واحد لا يمثلها مرتين على نمط معروف .

ثم أومأ صاحبي إلى صحائف الاحساسيين فقال : هؤلاء هم الذين فتحوا الباب جزاهم الله !

قلت : أصبت . إنهم هم الذين فتحوا باب التصرف في الأصول الموروثة ولكنهم أصابوا في فتحه ، وهؤلاء دخلوا فيه ولكنهم دخلوا واغلين .

لقد كان الأساتذة الأقدمون يصورون ما يعلمون ويحسون ، فجاء من بعدهم أساتذة المدرسة « الاحساسية » ليصوروا ما يحسون وما يشهدون .

كان الأستاذ القديم يعلم وهو يصور الشجرة أن لها غصوناً وأوراقاً فيصورها ذات غصون وأوراق مفروزة كما يعلمها ، وإن كان يراها من حيث يجلس لتصويرها لوناً أخضر لا تنفصل ورقة فيه عن سائر الأوراق .

وكان الأستاذ القديم يحسب الظل سواداً لأنه نقيض البياض وإن كان ليضرب أحياناً إلى لون البنفسج أو الرماد .

فجاء الاحساسيون فأصلحوا هذا وذاك وكان لهم الفضل والتوفيق في هذا الابتداء .

وكأنما حسب الذين خلفوهم أن التصرف مقصود لغير غرض مقصود ، فوصلوا إلى ما هم فيه من هذيان المجانين .

كان الأقدمون يصورون ما يعلمون ويحسون ، وكان الاحساسيون الصادقون يصورون ما يحسون ويشهدون ، فجاء من بعدهم من يصورون ما يتوهمون ، وجاء من بعد هؤلاء من يصورون ما يزعمون أنهم توهموه ، وهم

كاذبون .

توهم مزعوم . فماذا يكون وراء الوهم الملفق والزعم المكذوب ؟

لن يكون إلا هذه البقع والخطوط والأصباغ ، ولن تكون فنّاً يتولاه فنان ، لأنها في مقدور كل يد تصبغ الألوان .

انظر إلى هذا الكلب الذي صوره رجل من المستقبليين ! أرأيت كلباً قط له اثنتا عشرة قدماً وذيلان أو ثلاثة ذيول ؟ إن هذا « المستقبلي » يصوره كذلك لأنه يزعم أن الكلب وهو يجري قد يرى له هذا العدد من الأقدام والذيول !! فمن الذي انبأه أن فن التصوير قد خلق لتصوير الكلاب وهي واقفة لا تنقل قدماً في قصارى شوطها فلم يجهل أحد رآها أنها تعدو غاية العدو وأن الحركة شيء داخل في صناعة المصورين . ولو جرى المصورون على هذا المذهب لما جاز أن يُرسم إنسان بعينين اثنتين . . . لأنه يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال ويرفعهما إلى أعلى ويصوبهما إلى أسفل فلا تستقران في لمحتين !

وانظر إلى هذا المنكود من غلاة الواقعيين كيف يصور الفتاة ؟ أفهذه فتاة أم جثة غريقة وارمة ؟ أم جلد آدمي محشو كما تحشى جلود الحيوان ؟

ولكنه يقول لك إنه يصور ما يراه الوعي الباطن ولا يصور ما تراه العينان . فمن قال له إن الوعي الباطن مخلوق في هذه السنوات التي سميناه فيها باسمه ؟ ومن قال له إن الأساتذة الأقدمين كانوا يعيشون في هذه الدنيا بغير وعي باطن وبغير أوهام وأحلام ؟ . . . إنه سمع اسماً جديداً فظنه خلقاً جديداً يرينا الدنيا على صورة لم تكن لها في الزمن القديم . . . ثم جاء المتجرون بالغرائب فسخروه وشجعوه ، ووقع في الفخ من يدعون غير ما يعلمون ، ومن يخافون أن يقال عنهم إنهم قوم متخلفون ، لا يفقهون الجديد ولا يجرون مع العصر الذي يعيشون فيه .

قال صاحبي : ترى لو تمثل صاحبنا في وعيه الباطن صورة السيارة كأنها الفتاة الحسناء اللعوب ـ أيؤمن بوعيه الباطن هذا فيلقي بنفسه تحت قدمها ، أو يقف في طريقها ليغازلها ويسعد بقربها .

قال صاحبي : ليتهم يصدقون الوعي الباطن هذا التصديق ، فيلحقوا بالوعي الباطن في عالم الخفاء وتسلم القرائح والأذواق . . لكنهم عند الجد قوم عقلاء . ينظرون بالعين التي ينظر بها الناس ولا يرون السيارة إلا سيارة ، ولا الرجل إلا رجلاً ولا الفتاة إلا فتاة !

وألقى من يده تلك المجاميع ليتناول مجموعة من صور التماثيل التي صنعها الأقدمون والمحدثون وحفظت أصولها في دور الفنون والآثار ، بعضها في متحفنا المصري وبعضها في العواصم الأوروبية . . . فبدرت منه هتفة إعجاب بنخبة من تماثيل الملوك والملكات والكهان في عصور الفراعنة ، وأدهشه ما يمثله الحجر ـ ثم تمثله الصورة المأخوذة عن الحجر ـ من قوة الخلق ودقة الملامح وبروز السمات على خلاف ما يوسم في تماثيل الاغريق .

قال : ما كنت أحسب أن المصريين برعوا الاغريق في هذه الفنون ، ولا سيما في النحت والتصوير .

قلت : كان ينبغي أن تحسب ذلك بداهة قبل أن تلمحه بالعيان ، فالمصري القديم كان يعنيه التخليد قبل أن يعنى بالنقل عن نماذج الطبيعة . ومن عني بنقل النماذج العامة أغناه الوصف المشترك بينها عن السمات الخاصة والملامح الشخصية . ولكن المصري الذي كان يطنع التمثال كما يحنط المومياء لتخليد صاحبها ودوام جسده ومقومات شخصه لم يكن له معدى عن تمييز معارفه والتدقيق في تمثيل صفاته . فمن ثم كان المصريون الأقدمون أبرع من الاغريق الأقدمين في نقل الملامح والقسمات ، ولولا أن الاغريق أطلقوا الدنيا وأن المصريين قيدوا دنياهم بآخرتهم لجاء فن الاغريق بعد فن الفراعنة الأقدمين بأشواط فساح .

قال : ولعلهم من أجل هذا قربوا الصلة بين قيود الفن وقيود الأخلاق . فندر في صورهم العري وعرض المفاتن المثيرة ، وتعمدوا أن يستروا من الأجسام ما تقضي الأخلاق بستره ، خلافاً للسنة الشائعة في رسم الصور ووضع

التماثيل .

قلت : إنهم في الواقع أقرب إلى ستر الأعضاء من غيرهم ، فلم يكشفوا من عورات الأجسام إلا ما صنعوه لآلهة التناسل في المحاريب المزوية ، ولكني لا إخال المسألة هنا مسألة حياء اتَّصف به قدماء المصريين وتجرد عنه الآخرون ، وإنما كانت تماثيل المصريين الأقدمين تماثيل أشخاص معروفين لا تماثيل أجسام يتخذونها نموذجاً للجسم القوي والجسم الجميل ، ولا حاجة إلى عرض خفايا الجسم في تماثيل الأعلام المعروفة : أما نماذج القوة ونماذج الجمال فيختلف الحكم عليها بعض الاختلاف ـ فان إظهار العضلات والألواح وإظهار الزوايا والمدارات ، قد يتمم النموذج ويلزم المثال في أداء عمله أشد من لزوم الوجوه والرؤوس .

ثم قلت : وعلى هذا ربما أدهشك كما أدهشني حين قرأت لأول مرة أن الأصل في ستر الأعضاء إنما يرجع إلى الانفة من وظائفها لا إلى الحياء من شهواتها ، وأنهم كانوا يعافونها فيسترونها ولم يستروها لأنهم يخشون فتنتها ، فما أعجب أصول الأخلاق ، وما أعجب منبت الحياء .

قال صاحبي : وكان من الذين يتحرجون ولا يمنعهم تحرجهم أن يسمعوا وجهات الأنظار : من أي منبت نبت فهو اليوم فضيلة من كبريات الفضائل ، أو لعله اليوم أصل الفضائل جميعاً . . . فلماذا يكشفون ما ينبغي أن يستر ، ولماذا يلزمون تماثيل الناس قلة الحياء وهم يطلبون الحياء من الأصل الأصيل !

قلت : أولى لهم أن يستروا ما يعاب كشفه ولا حاجة إلى إبدائه . على أن المثّالين قد خدموا الأخلاق من حيث لا يريدون حين عودوا الناس أن ينظروا إلى الجسد الواحد نظرات متعددات ، لأن النظر للشهوة وحدها معيب كعيب الخلاعة والابتذال ، وما زال العزل بين أنواع الشعور ثروة لنفس الانسان تخرجها من فاقة الطبع إلى غناه . فالطبيب ينظر إلى جسد المرأة الحسناء فينسى الجمال والشهوة ويذكر الطب والرحمة ، والرجل ينظر إلى اخته أو ابنته فينسى أنها

امرأة من جنس النساء ويذكر الحنان والمودة ، والممثل يقبل الممثلة وينسى لذة التقبيل ليذكر براعة التجويد والاتقان . والعينان اللتان تبصران ألف جسد على شاطىء البحر في كساء الحمام لا تفتنان كما تفتنان بجسد واحد في مثل هذا الكساء بين الجدران ، فاذا تعود الناس أن ينظروا إلى التمثال فيذكروا جماله واتساق أعضائه وتناسق أوصاله ينسيهم ذلك أنهم من ذوي الشهوات بضع لحظات ، فهم كاسبون في الأخلاق فضلاً عن الأذواق ، وليسوا بخاسرين .

وعاد صاحبي إلى ترتيب المكتبة الذي بدا لأول وهلة أنه لا يعجبه ولا يريحه ولا يتيح له أن يجد طريقه فيه ، لأنه أعرض عن كتب الصور والتماثيل ومد يده إلى بعض الكتب التي تجاورها على رفها فاذا هي في المنطق وما إليه . قال ما هذا ؟ أمن بيكاسو وأروزكو وبراك وتماثيل الفراعنة والجرمان إلى أرسطو وكانت وهيوم ؟ لم أر موضوعاً أبعد عن المنطق من موضعه في هذا المكان .

وكانت هذه الملاحظة وأشباهها ما تفتأ تعاد من كل زائر طرق هذه الحجرة ونظر في كتبها ورفوفها ، ولم تكن بي حاجة الى بيان عنها لأن البيان الوحيد أنني أجددها كل حين ولا أملك أن أرتبها كل حين ، وأنني مع هذا لا أضل فيها عن طريق كتاب أريده منها فما حاجتي إلى ترتيب لها غير هذا الترتيب ؟

ولكنني رجعت بصاحبي إلى المنطق الذي احتكم إليه فقلت : وهل يقضي المنطق بغير ما تراه ؟ ما الحاجة إلى عناء الترتيب والتبويب إن كنت بغير ترتيب ولا تبويب تدرك ما تريد ؟ وأي ترتيب ينتظم في هذه الحجرة من ناحية إلا ليختلّ من ناحية أخرى ؟ أترتيب الحجم أو الموضوع أم تاريخ الاقتناء أم المؤلفين ! ولم العناء ؟ إن المنطق الذي تحتكم إليه أسباب وعلل ؟ فهل من سبب وهل من علة ؟

قال : لست على المنطق بغيور فاصنع به ما تشاء وضعه حيث تشاء . وما جدوى المنطق في المكتبة وما في الحياة من منطق يعقله العقلاء .

قلت : أما هذا يا صاحبي فلا . وإننا لعلى شرطنا الأول أن ندع المردة في

فيا قمها ولا نطلقها ، ولكننا قادرون ـ وهي حبيسة ـ أن نقول في أمـان : إن المنطق والحياة لا يفترقان !! وإن الآفة فيمن لا يفهمون المنطق أنهم لا يحسونه ، وفيمن لا يحسون الحياة أنهم لا يفهمونها ، فما من شيء في هذه الحياة ينـاقض المنطق بحال ، فان فهمناه فهو مفسر بأسبابه ومقدماته ، وإن لم نفهمه فليس لنا أن نناقض بينه وبين المنطق أو القياس .

قال : عجباً ! أو كذلك ؟ إننا لنرى كل يوم أموراً لا نفهمها ولا يراها الناقدون لا تجري الا على خلاف وجهها ونقيض استقامتها ، هذا الغني بخيل وذلك الفقير كريم . هذا الفتى المقبل على الحياة يقـدم على الموت في شجاعـة وخيلاء ، وذلك الشيخ الذي شبع من الحياة يجبن ويخاف . هذا الذكي محروم وهذا الغني مجدود . فأي منطق في هذا وأي قياس ؟

قلت : كل المنطق وكل القياس . إن الذكي لا يصنع مقاديره فيصيب فيها بذكائه وإن الغني لا يصنع مقاديره فيخطىء فيها بغبائه ، وإننا لنضع المنطق في غير موضعه حين نجعله حسبة أرقام وأعوام ، فان الفتى الذي يقدم على الموت لا يفعل ذلك لأنه يحسب الأعوام التي عاشها والأعوام التي ينبغي أن يعيشها ، ولا يقدم على الموت لأنه يريد أن يقدم عليه ، ولكن الوضع الصحيح أن نضع دوافع الحياة التي تحفزه إلى المجد والغلبة والثناء وتخجله من العار والمهانة والعقاب، ثم نضع أمامها دواعي الحرص والحذر والاشفاق ، فاذا كانت تلك الدوافع أقوى من هذه الدواعي فالمنطق الصحيح إذن أن يقدم على الموت ولا يستسلم للحذر والمخافة ، وإذا كان الشيخ على نقيض ذلك قد تغلبت فيه المخاوف على دوافع الشباب فالمنطق الصحيح أن يتشبث بالحياة التي يرفضها ذلك الشـاب وهو في مقتبل صباه . وما من غرابة إلا وهي مفهومة معقولة منطقية قياسية حين نضعها في وضعها الصحيح ، وإنما نخطىء المنطق لأننا نخطىء الاحساس ، فلا تصدق خصيان العقول والنفوس حـين يزعمـون أنهـم من ذوي الاحسـاس لأنهـم لا يفكرون ولا يقيسون . فانما الاحساس القويم هو الفارق الوحيد بـين المنطـق القوي والمنطق الضعيف ، وإنما الخطأ في المنطق خطأ في الاحساس بالأمور على

حقائقها النفسية . . . أتعرف أولئك النظّامين الذين يحفظون التفاعيل ليحسنوا وزن الشعر ، فلا تستقيم لهم التفاعيل ولا تستقيم لهم الأوزان ؟ لو أحسوا بآذانهم لصححوا التفاعيل وصححوا الأوزان معها ، وكذلك الذين صفرت نفوسهم فلا يشعرون بالحياة على حقائقها يتهمون المنطق وهو براء ، وهم الذين لا ينطقون ولا يحسون .

ترى هل يخطىء المخطئون فيحسبون الغني أولى بالسخاء والفقير أولى بالضنانة لأنهم يحسون ولا يفكرون ، أو لأنهم لا يحسون ولا يضعون شعورا أمام شعور بل أرقاما أمام أرقام ! ترى لو أحسوا ماذا يختلج في نفس الغني فيبخل وماذا يختلج في نفس الفقير فيجود ؟ أكانوا يخطئون في المنطق ويضلون عن سواء السبيل ؟

إننا نتكلم في الغنى والفقر فلنمض في القافية ولا ندع الكلمتين قبل أن نقول : إن فقر العقول لم يكن قط شهادة بغنى النفوس ، وإن ثروة النفس لا تحرم صاحبها ثروة العقل بل تعينه عليها وتزيده منها . وهذا فيما أحسب فصل الخطاب في قضية الفقراء المنطقيين الذين يثبتون غناهم في الحس والشعور بشهادة فقر في باب المنطق والتفكير .

وقبل أن يتقدم صاحبي إلى ركن الشعر والشعراء وهو ربع المكتبة بادرته بالشرط المعهود : لا تفتح القماقم ولا تتجاوز العناوين !

قال : نعم الشرط فيما أرى . فما نحن بخارجين من هذه الحجرة لو أطلقنا مارداً واحدا هنا وانطلق وراءه إخوانه المتحفزون . ولا أخفي عليك أنني لست على مذهبك في الحفاوة بالشعر لأنه فضول شبعنا منه نحن الشرقيين وطال اشتياقنا إلى تعويد أبنائنا ملكة العمل بعد ملكة الكلام !

قلت : لك رأيك في الحفاوة بالشعر والشعراء . أما الحقيقة فهي أننا كنا عاملين عندما كنا قائلين ، وأنه لم توجد قط أمة عرفت كيف تعمل إلا عرفت كذلك كيف تقول . فلا تناقض بين القدرة على العمل والقدرة على القول . وما

يستطيع إنسان أن يعمل حسناً أو يقول حسناً إلا بوعي صحيح . والوعي الصحيح قسط مشترك بين ملكة العمل وملكة الشعر . ولولا أن الشعراء يحتاجون إلى صناعة التعبير ويفرغون لاتقانها لما منعهم الشعر أن يكونوا أقدر العاملين .

أتحسب العرب كانوا متخلفين في ميادين الأعمال لأنهم كانوا سباقين في ميادين القصيد زمناً من الأزمان ؟ أرأيت اليونان قد نبغ فيهم القادة والساسة والمدبرون إلا حين نبغ فيهم الشعراء والمنشدون ؟ أتعلم أمة من أمم الأرض في العصور الحديثة أطبع على مراس الواقع والعناية بالفكر العملي والخلائق العملية من أمة الانجليز ؟ فهل رأيت أمة من جيرانهم ومنافسيهم سبقتهم في مضمار الشعر وأنجبت نصف ما أنجبوه من عباقرة الشعراء ؟

زعمونا ـ أو زعمنا لأنفسنا نحن الشرقيين ـ أننا خياليون ، وأننا لو أصبحنا واقعيين لنفضنا عنا غبار الخمول . والحق الذي لا مرية فيه عندي أننا واقعيون فاشلون في الواقعيات ، فليست قصور ألف ليلة وليلة ولا حسانها وجواهرها وموائد طعامها وشرابها خيالاً يحتاج إلى ملكة من ملكات التصور والادراك ، ولكنها كلها واقع ناقص أو واقع موقوف التنفيذ . فاذا حصل التنفيذ حصل الواقع الذي يلمس ويرى ويشم ويذاق . واليوم الذي نتخيل فيه فنحسن التخيل هو اليوم الذي ننفض فيه غبار الخمول . لأننا نحسن الوعي بهذا التخيل ونطبع الصورة الصادقة في بداثهنا من صور الوجود ، ولن تنطبع في النفس صورة صادقة لما حولها وهي راكدة قاعدة أو عازفة عن الحركة والسعي والاستجابة لتحوُّل الأحوال .

فكن على رأيي أو رأي غيري في الحفاوة بالشعر والشعراء . ولكن لا تجعل الشعراء مقياسك الذي تقيس به قدرة العمل ، لأنهم يتفرغون للتعبير فيفوتهم التفرغ لما عداه من الشؤون ، واتخذ مقياسك من الأمم العاملة القائلة تجد أن الشعر الأصيل والعمل الأصيل يرجعان معاً إلى فرد مقياس ، وهو الوعي

الأصيل .

وهممنا أن نترك الحجرة التي قضينا فيها معظم هذه السياحة فأنصفناها أعدل الانصاف لأننا في الواقع نقضي فيها معظم الحياة .

وعدل صاحبي عن الرفوف إلى الجدران فقال : إننا دخلنا هذه الحجرة ونحن نقول : إن النور أخفى الأشياء ، لأنه أظهر الأشياء بل مظهر الأشياء ، وها نحن أولاء نغضي عن الجدران الظاهرة ونبحث عن الرفوف والصفوف . فمن هذا وما ذاك وما هنالك على هذه الجدران التي رأيناها أول ما رأينا ؟ ألم تكن أحق منا بالسؤال عنها أول ما سألنا ؟

وكانت على الجدران صورة فنية واحدة لا ثانية لها من نوعها وهي صورة الفتاة الحزينة على قبر حبيبها الدفين ، وقد كتبت عنها في ساعة من الساعات بين الكتب فلم يكن السؤال بحاجة إلى جواب . أما سائر الصور فقد كانت أوضح من أن تحتاج إلى توضيح ، جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول وكارليل وبيتهوفن ، وصورتان من صنع الفنان النابغ صلاح الدين طاهر إحداهما صورتي بعد الأربعين والأخرى صورتي بعد الخمسين ! .

ولقد تجمعت هذه الصور في أماكنها بمحض الاتفاق في نيف وعشرين سنة ، فلم أعرف لها وحدة تجمعها إلا بعد أن تجمعت وحدها وساءلت نفسي عن تلك « الوحدة » كما كان يسألني الناظرون إليها .

قال صاحبي وهو يومىء إلى الصور واحدة بعد واحدة . هذا موسيقي ألماني ، وهذا حكيم إنجليزي ، وهذا مصلح أفغاني ، وهذا وزير وهذا مفت ، وهما مصريان !. فما الذي جمعهم في صعيد واحد وهم بهذا التفرق في المواطن والشواغل والأهداف ؟

قلت : الجد والكفاح ونبل السليقة وقلة الاستخفاف .

فهؤلاء الثلاثة شرقيون من رجال العمل والحركة ، وأعمالهم فيها النهضة

الاجتماعية والثقافة الدينية والثورة الوطنية ، ولكنهم كلهم مجدون مكافحون نبلاء ، لا يستخفون بما يعملون ولا يدينون بشريعة الاستخفاف التي يتراءى بها بعض الساخرين من الحكماء .

قال : لكأني بك لا تحب الساخرين .

قلت : كلا . بل أحبهم ساخرين وجادين مكافحين . ومن أعجبه كارليل وبيتهوفن لا يكره السخر بل لا يكره السخط أحياناً على الحياة . ولكن شتان سخط وسخط وشتان رضوان ورضوان .

أتعلم يا صاحبي ماذا أحب وماذا أبغض من مذاهب السخرية بل من مذاهب السخط والتشاؤم ؟

إن النظرة إلى المرأة هنا هي مقياس النظرة إلى الحياة . فانك لا تسخط عليها إلا لأنك تكبرها ، ولا تترك السخط عليها والسخرية منها إلا لأنها هينة عليك حقيرة في عينيك .

الزوجة تغضبك وتقيمك وتقعدك ولكن البغي المستباحة لا تثير منك غضبة ولا تكلفك حساباً ولا عناية . فاذا اقترن السخط بالجد والاهتمام فالحياة شريفة مرعية تلقاك منها المغضبات بغير ما تتوقعه وما تتمناه ، وإذا بطل السخط وبطل معه السخر اللاذع فالحياة جثة مستباحة بلا عرض ولا كرامة ، وهذا الذي أوثر عليه سخط الساخطين وسخر الساخرين .

وإني لأسمع من هذه النافذة بين حين وحين صوت امرأة لا تني تنذر وليدها بالخيبة وسوء المآل : أأنت تفلح في شيء قط ؟ والله ما أنت بمفلح ولا بمقلع عما أنت فيه ! . . خيبني الله إن لم أرك خائباً هكذا بين أبناء الأمهات .

وهذا سخط كسخط فريق من الفلاسفة المتشائمين على الدنيا ومن فيها ، ولكنه سخط من يريد الخير ومن يسوءه صدق ما يقول ، ومن هو أول الفرحين والمستبشرين لو جرى الأمر على غير النبوءة التي يقسم عليها جاهداً ، ويخيل

اليك أنه قد جزم بها كل الجزم وفرغ منها غاية الفراغ .

هذا سخط من يعنيه أن يسخط ويعنيه أن يرضى ، هذا سخط من يسخط على نفسه وهو ساخط ، أو من يسخط لأنه يحاول أن يرضى فما استطاع .

أما أولئك الفلاسفة الراضون بالدنيا لأنهم يلتذون عيوب الانسان ويبحثون عنها بحث المحبور بالنقص المحزون بالكمال - فبينهم وبين أولئك الساخطين بون بعيد ، بين هؤلاء وهؤلاء ما بين الأم التي تنعى خيبة وليدها والعدو الذي ينعى خيبة عدوه ، فتلك تنعى وهي كارهة آسفة ، وهذا ينعى وهو راض قرير ، وتلك تحفز إلى العمل والصلاح ، وهذا يصد عن العمل والصلاح .

أولئك المتشائمون أصدقاء الحياة والانسان ، وهؤلاء المتشائمون أعداء الحياة والانسان .

وليست العبرة في مذاهب الحكمة بالأسماء والعناوين ، ولكنما العبرة حق العبرة بالبواعث والنيات ، وربما نظرت إلى البواعث والنيات فرأيت بعض المتشائمين أقرب إلى حب الحياة والاشادة بفضائل الأحياء من بعض المازحين والضاحكين .

قال صاحبي : إن كثيراً من الناس ليفهمون قولنا حين نقول لهم إن كارليل فيلسوف متشائم ، ولكن كم منهم يفهموننا حين نقول : إن بيتهوفن موسيقار متشائم أو مناضل ؟ وكم من الناس في الشرق خاصة يرى في صناعة الألحان متسعاً لآراء المتفائلين وآراء المتشائمين وآراء المناضلين ؟ . . . إنما يحسبون ذلك وقفاً على التعبير بالكلام ، دون التعبير بالألحان ، فان وصفوا لحناً بالتشاؤم فأول ما يسبق إلى أخلادهم أنه لحن جنازة أو لحن شجن وأنين . . . وإنما يسوغ التعبير الموسيقي في معاني المذاهب الفلسفية عند طبائع الغربيين ولا يسوغ عند طبائعنا نحن الشرقيين . أو ليس هذا هو الفارق بين موسيقى الغرب وموسيقى الشرق التي ورثناها عن الآباء منذ عهد بعيد ؟

قلت : لا أحب أن أظلم الطبائع الشرقية ولا أود أن أفرد الطبائع الغربية دون سواها بتلك الفضيلة ، فان الموسيقى الغربية لم تكن من قديم الزمان على هذا الطراز الذي نسمعه من بيتهوفن وأمثاله ، وإنما اتخذت منهجها الحديث حين نشأت في ظل القداسة الدينية ثم عبرت عن مسائل الروح وأسرار الوجود التي تشتمل عليها الأديان ، ثم استولت عليها المذاهب الكونية حين استولت في الغرب على تراث الدين كله وعلى مسائل الروح بما رحبت ، فلم ينعزل الموسيقيون عن الفلاسفة والشعراء وباعثي النخوة في صدور الأمم يوم تعاقبت بينهم نهضات الاصلاح والحرية ، وقديماً كان في اليونان وفي بلاد الجرمان منشدون وملحنون فلم ينهجوا على هذا المنهج الحديث ولم يرتفعوا بالموسيقى كثيراً عن منزلة الطرب وتمليق الحواس وتمثيل الشعور المحدود .

ولعلنا نقترب إلى الانصاف وندنو من التحقيق حين نقسم الموسيقى إلى نهجين يختلفان باختلاف الذوق والبديهة ولا نقسمها إلى إقليمين « جغرافيين » بين أناس في الشرق وأناس في الغرب ، أو أناس في الشمال وأناس في الجنوب .

فهناك موسيقى الحس المحدود وهي التي تؤدي لنا وظيفة الجارية والنديم ، وتسلينا بأنغام الفرح حين نفرح وأنغام الشجن حين تنوح .

وهناك موسيقى الروح وهي التي تخاطبنا من منبر الالهام وشرفات الغيب وتجلس لنا مجلس المفسرين والهداة ، وتقول لنا ما يعجز عنه الكلام ، لأن الالحان لا تقصر عن وصف الأسرار حين تقصر عنها المعاني والحروف .

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس الحي التي تطربنا وتشجونا كما يختلج الطرب والشجو بالجسم القوي الصحيح .

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس المريض التي تطرب من تطرب وتشجو من تشجو كأنها السم المخدر أو الشهوة السقيمة التي تترهل بها الأجسام في مخادع اللذات .

وقد تقترن الموسيقى بالسعة والضيق وبالسمو والهبوط ، على حسب السامع المصغي إليها والمتعقب لأنغامها .

فمن الآذان الشعرية مثلاً ما ليس يتسع لغير القافية الواحدة في القصيد الطويل .

ومنها ما يسمع القصيدة الواحدة وفيها عشر قواف تتكرر في أماكنها ، فتحسن انتظارها حين تعود وتجري مع كل قافية منها في مدار .

وكذلك الأوزان الموسيقية في آذان السامعين ، ربما أتعبت أناساً بتكرارها وأراحت أناساً بهذا التكرار ، وإنما المعوَّل في الحالتين على الأذن التي تتعقب وتحسن التعقب والتعقيب .

أترى اليدين اللتين تلعبان بخمس كرات وسكّينتين وبيضات مع الكرات والسكّينتين لا تزال تقذفها اليمين وتتلقاها الشمال أو تقذفها الشمال وتتلقاها اليمين ؟ إنهما يدان من لحم ودم كتينك اليدين اللتين تكسران البيضة الواحدة إذا تناولتاها على غشم وجفاء . فاذا مرنت البديهة الصاغية فقد تداول بين عشرين وزناً تتلقاها في مواقيتها ولا تحار بين واحدة منها وواحدة كلما رجعت إليها ، وإذا أخطأتها هذه المرانة ـ أو هذه القدرة ـ فقد يعنتها الوزن الواحد في غير ميقاته المحدود . ولا خطأ في الموسيقى هنا وهناك ، وإنما هو الخطأ في التناول والاتباع .

قال صاحبي مبتسماً : وإخالها لعبة عسرة على آذان المستمعين عندنا . . .

خمس كرات وبضع بيضات وسكينتان في يدين اثنتين . . . هذا كثير على سامعي العود والقانون في هذا الشرق « اللطيف » . . . إني لبائس من اليوم الذي يتجمع فيه لسماع الموسيقى العالية جمهور يعد بالمئات والألوف ، كذلك الجمهور الذي يتجمع لها في أندية الأوروبيين .

قلت : إن أجّلنا اليأس فلا ضير في تأجيله ، فان الأغاني الشعبية عندنا لا تزال سليمة من مرض الترهل والغواية ، وهي لا تحتاج إلى مرانة كبيرة في المنشدين ولا في المستمعين . فأما الموسيقى التي لا غنى فيها عن مرانة الآذان والأذواق فهي تلك الموسيقى العالية التي نتمنى لنا نصيباً منها كنصيب الأوروبيين أو أوفى من ذلك النصيب . وليس لنا أن نيأس من عقباها بيننا حتى نؤدي واجب المرانة المطلوبة في الجيل الناشىء تمهيداً لما بعده من الأجيال . فاذا حسنت هذه المرانة جيلاً واحداً ولم تثمر في الشرق ثمرتها المنشودة فهناك مجال لليأس أو للشروع فيه .

ويخيل إلينا أننا لم نبدأ هذه المرانة على وجهها المفيد . لأننا خلقاء ألا نترقب فنّاً موسيقيّاً عالياً قبل أن نفصل بين الذوق الفني وبين المتعة الجنسية أو المتعة الجسدية ، ونحن لا نزال نقبل على مجلس السماع جنسين جسديين ، يتعصب الذكور منا للمغنيات الاناث ويتعصب الاناث منا للمغنين الذكور .

قال : وما آية هذا الفصل بين ذوق الفن وبين الغريزة الجنسية ؟

قلت : آيته أن ترى السامعين يحيون السماع بغير ما ألفناه من التصدية والتصفيق ، وبغير ذلك الأسلوب الناشز من الخبط والصريخ ، فان الصفة الأولى التي لا تنفصل من الموسيقى والغناء هي صفة الانسجام والتناسب بين الأصوات ، ولن تسيغ الأذن الموسيقية زعيقاً ولا اقتضاباً وهي تصغي إلى تناسب وانسجام . إنما السامع المصغي إلى الغناء الذي يصيح تلك الصيحات المزعجة حيوان لذعته الغريزة فجمح في غير أناة ، وليس هو بانسان يملكه جمال النسق وتستهويه متابعة النغم في سالك الألفة والنظام . وليس في وسع الأذن أن تكون أذناً موسيقية ثم تنتقل من الفوضى إلى النسق ومن النسق إلى الفوضى في لمحة عين ، وليس في وسعها أن تسيغ الفن وتسيغ نقيضه في آنة واحدة ، وهل الفن إلا أوزان ؟ وهل نقيضه إلا الأصداء والأخلاط التي تنطلق بغير عنان ؟ . . .

فالصاخب الذي تلذعه الغريزة فيصيح ويقتضب الغناء معقول ومفهوم .

أما الذي لا يفهم ولا يعقل فهو ذو نظام وذو فوضى ينطلقان في لحظة واحدة ، ولا يزالان كذلك متقلبين مترددين في شخص واحد ساعة أو بضع ساعات .

قال : كأنما الذنب ذنب المستمعين .

قلت : ليس في فنون الجماهير ذنب واحد . بل ذنوب تشمل المسمعين ومن يستمعون إليهم ، ومن لا يسمعون ولا يستمعون !

وكانت صورة بيتهوفن تنحني إليناكأنها تصغي إلى حديثنا . فقال صاحبي : ما كان أعظم فجيعة المسكين بسمعه وهو السفير بينه وبين عالم الأصداء والأصوات. لو كان هو الذي أمامنا ولم تكن تلك صورته لما سمع من حديثنا أكثر مما سمعت هذه الصورة الصماء . فماذا كان على الدنيا لو أسمعت هذا الذي أسمعها من أقصاها إلى أقصاها ولا يزال يسمعها إلى اليوم !

قلت : هي محنة تمثلت فيها نزاهة الفن وخلوصه من ظاهرة الحس القريب . فقد سمعنا من نقاد الغرب من يقول : إن رافائيل لو ولد مقطوع اليدين لكان هو في ملكة التصوير روفائيل الذي علمناه . فان كان هؤلاء النقاد قد بالغوا بعض المبالغة فقد شاء القدر أن نرى أعظم الموسيقيين مقفل الأذنين لا يسمع ما يوحيه لأنه يتلقاه من عالم النسب المحض التي لم تترجمها الأصوات . وما يتفق هذا لأصحابنا أصحاب العود والقانون وربع المقام . لأنهم كالمرأة التي تنظر إلى مرآتها ولا تفارقها . فان فاتهم أن يسمعوا أنفسهم فقرة بعد فقرة لم يحسنوا إسماع الآخرين .

وتهيأ صاحبي لسؤال يتردد فيه فقال وهو ينقل بصره بين الصور المتجاورات إنك لم تجمعها عمداً على هذا التفاوت البعيد فيما بينها . فأما وقد اجتمعت على غير قصد منك فهل خطر لك قط أن توازن بين أصحابها وأن تسأل نفسك أيهم أعظم وأيهم أحق بالاكبار والاعجاب ؟

قلت : لا يخطر لك على أية حال أنني أنزل بقدر الموسيقي العظيم عن قدر المصلح العظيم أو الزعيم العظيم . إن الأئمة الموسيقيين أندر في العالم من أئمة الاجتماع وأئمة السياسة ، فلا تحسبنه حتماً لزاماً أن يكون زعماء الاجتماع أو السياسة أعظم من زعماء الفنون ، لأن المعول على الكفاءة اللازمة للعبقرية لا على أثرها في مواطن الجاه والسلطان ، وليست حاجة الناس إلى الشيء هي مقياس العظمة فيه ، لأن الناس يحتاجون إلى سنابل القمح ويستغنون عن اللؤلؤ ، وليس القمح بأجمل ولا أبدع في التكوين ولا أغلى في الثمن من الجوهر الذي لا نحتاج تلك الحاجة إليه .

قال : وهؤلاء الثلاثة العاملون . من أعظمهم في موازين الرجال ؟

وأشار إلى جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول .

قلت : أعظمهم أثراً في قطر واحد هو سعد زغلول ، وأعظمهم أثراً في جميع الأقطار هو جمال الدين ، وأعظمهم نفساً فيما أرى هو محمد عبده ، أوسط الاثنين .

قال : وبمَ كان أعظمهم في موازين النفوس ؟

قلت : إن عظماء البطولة الانسانية لا يوزنون بغير الصفة العليا التي تتجلى في البطولة ، وهي الايثار .

فاذا تعادلت كفاءات العقل واللسان وكفاءات العزم والعمل ، فليس في الميزان الانساني أصدق من وزنة الايثار للمفاضلة بين المتقاربين في الأعمال والأقدار .

قال صاحبي متعجباً : ومحمد عبده الذي تسنم المناصب ولم يحرم نفسه متعة الأبوة والزواج أعظم إيثاراً من جمال الدين ؟

قلت : قد تكون العزوبة مزيداً من الاعتداد « بالشخصية » وقد تكون الأبوة مزيداً من الايثار .

قـال : عليهـم سلام اللـه أجمعـين ، سابقـين ولاحقـين ، وراجحـين ومرجوحين ، فليس بالمرجوح من له الرجحان على الألوف وألوف الألوف ، وإن سبقه بالرجحان أستاذ أو مريد .

وتحول صاحبي إلى صورتي فقال وهو يردد النظـر بينـي وبينهـا : لقـد سألتك عن صور غيرك فما لي لا أسألك عن صورتـك ؟ كيف ترى صديقـك الفنان قد مثلك في هذه الأصباغ والألوان ؟

قلت : على شرطي في كل تمثيل .

وشرطي في الممثل القدير - على المسرح - أنه هو الممثل الذي يمثل لك ما لا يقال ، أو هو الممثل الذي يشغـل فراغ القـول بـين عبـارة وعبـارة من كلمات المؤلفين . لأن مصاحبة الكلمة الضاحكة بالمنظر الضاحك أو مصاحبة الكلمـة الباكية بالمنظر المحزن فن لا يعسر على الكثيرين ، وإنما يعسر عليهم أن يمثلوا لك ما لا يقال بين الكلمتين أو بين المنظرين : يصعب عليهم أن يمثلوا لك ما تدركه أنت ولا يقوله المؤلف بلسانه ولا تسمعه أنت بأذنيك .

وكذلك أرى صورتي كما صورها صديقنا الأستـاذ صلاح ، لأنـه يمثـل القابليات ، قبل تمثيل الملامح والمحسوسات ، فليس في الصورة حالة محسوسة عني بها دون غيرها ، ولكن ما من حالـة قد تطـرأ على النفس إلا نظـرت إلى الصورة فرأيتها قابلة لها موافقة للتعبير عنها ، وهذه هي ملكة الايحاء التي تشترط في جميع الفنون ، فما تحسبه الكلمات والأصباغ من المعاني أو الملامـح أقـل في العمل الفني مما ينطق به الخيال أو يسترسل فيه تداعي الخواطر والأفكار .

وكان آخر ما ودعه صاحبي من المكتبة نخبة من الكتب في فن الغذاء وأقوال المحدثين عن وحدات الحرارة والفيتامينات ، وأول ما استقبله وهو منصرف عنها باب المطبخ على اليمين . فنظر فيه ضاحكاً ، وبادرته سائلاً :

إنك الآن تضحك لأنك في حل من المقارنة بـين طعـام العقـول وطعـام

الجسوم !

قال : غير هذا قد خطر ببالي حين ضحكت ، وإنما ذكرت قولة لصديق لي كان يستعيدها في مناسباتها كما تستعاد الحكم المحفوظة ولست أدري كيف أطبقها في هذا البيت ، فانها غير قابلة فيه للتطبيق .

قلت : طبقها ولا حرج عليك .

قال : ... إنها لا تنطبق هنا بحال من الأحوال ، لأن صاحبي كان يقول ويزهى بالعلم الذي أوحي إليه حين يقول : إن خطبت فتاة فلا تسأل عن أبيها ولا أمها ولا تسأل عن مالها ولا أدبها ، وإنما تحتال حتى تلقي نظرة فاحصة على مطبخ بيتها ثم تخطبها إذا أعجبك نظام المطبخ وأنت مغمض العينين .

قلت : لم يعدُ صاحبك الصواب ، ولو شاء لعمم هذا الحكم المصيب على الأمم فقال : إن أردت أن تخبر أمة من الأمم فلا تسأل عن نسبها ولا حسبها ولا تسأل عن مالها ولا أدبها ، وإنما تسأل عن « مطبخها » فيغنيك العلم به عن كل سؤال .

قال : وكأني بهذا الرأي - لو صح - يتيح لنا أن نقول إننا نحن الشرقيين سادة العالم وقادة الشعوب ، لأننا أساتذة الشعوب في المطبخ والمخدع باتفاق الآراء ، وما ينازعنا القوم في الأستاذية إلا حين يذكرون المعمل والمدرسة ، أو حين يذكرون العلوم والصناعات .

قلت : وهنا أراك قد أخطأت التطبيق يا صاحبي في حكمة صاحبك الأديب . فان المطبخ « المثالي » هو المطبخ الذي يستخدم للغذاء وليس بالمطبخ الذي يستخدم للذة الطعام أو لذة النوم ، وقد يكون الطعام اللذيذ سمّاً في باب الغذاء ويكون الطعام وافر التغذية وهو قليل اللذة ، أو لا لذة فيه .

ولا ينكر علينا أحد أننا برعنا في مطبخ اللذة ، وورثنا في هذا الفن تركات روما وبيزنطة ومنف وبغداد وفارس والهند والصين ... وعرفنا كيف نطبخ

الطبخة التي تمتع ، والطبخة التي تكظ البطون ، والطبخة التي تهيج الأكباد ، والطبخة التي تعين على الشراب ، وجرب ذلك الغربيون فشهدوا لنا بالسبق في المجال من نساء ورجال .

كتبت « إيزادورا دنكان » أجمل الراقصات في العصر الحديث تاريخاً لرحلاتها في الغرب والشرق فذكرت أكلة لها في قطر من أقطار أوروبا الشرقية فلم تنس أن تقول : إنها أكلتها ونامت فاستيقظت وهي تعلم يومئذ كيف يستيقظ الرجال من النوم ويخرجون من البيوت !

وهذه البراعة في المطبخ الشرقي الفاخر لا نزاع عليها ولا تخلو من الدلالة مع هذا على نصيب الأمة من شواغل العيش ومطالب الحياة . ولكنها تقف بنا دون البغية المرموقة إذا طمحنا بها إلى مقام الأستاذية بين الشعوب ، وإنما كتب « سوء التغذية » على أغنيائنا وفقرائنا على السواء بهذا المطبخ اللذيذ ، وربما كان داء الغني المستمتع بهذا المطبخ أوبل من داء الفقير المحروم .

وأعرف من فتياننا الموسرين فتى تزوج فأراد أن يستعين على المخدع بالمطبخ فأصيب بداء السكر في أقل من شهرين ، وكان مصابه بالمطبخ المعين قبل مصابه بالمخدع المستعان عليه ، لأنه أقبل على الدسم والتوابل والمشهيات فأرهق الكبد واجحف بالبدن كله من حيث أراد له الصحة والمتاع . فبئس المطبخ مطبخ اللذة ، ونعم مطبخ الغذاء ، وأعني مطبخ الفرد والأمة على السواء .

قال صاحبي وهو يصطنع المزاح ولعله أقرب الى الجد منه إلى المزاح : إنك تخيفني الساعة بهذا التمهيد ، أترانا مقبلين على مائدة لا تلذ الآكلين ؟ أتحسبني أطيق أن نقلب صفحة من صفحات هذه الكتب الملعونة كلما أقبلنا على صحفة من الصحاف ؟

قلت : هوناً هوناً أيها الصديق ، فمهما يكن من حكم هذه الكتب الملعونة فكن على يقين أننا في هذه الحجرات المعدودات لا نعرف كتاباً يطاع كل الطاعة

ولا إماماً يتبع كل الاتباع ، ولك أن تطمئن فيها بعض الاطمئنان إلى غاندي ، وإن عز عليك أن تطمئن كل الاطمئنان إلى أبيقور .

زاهد الهند نعى الدنيا وصام   أنا أنعاها ولكن لا أصوم
طامع الغرب رعى الدنيا وهام   أنا أرعاها . ولكن لا أهيم
بين هذين لنا حد قوام   وليلُم من كل حزب من يلوم

إن هذه الكتب الملعونة ـ كتب الغذاء والفيتامين ـ حقيقة أن تراجع وتستشار، وليست بحقيقة أن تسيطر على العقول والأجساد ، لأنها تعطي الجسد ما يحتَاج إليه بمقدار ما يحتاج إليه ، فتسلبه بذلك ألزم خصائص الجسم الحي وهي طبيعة التعويض والتمثيل والتصحيح ، وخير من هذا أن نعطي أجسامنا شيئاً ناقصاً في هذه الوجبة وشيئاً زائداً في تلك فتبقى للجسم قدرته على تعويض النقص وتوجيه الزيادة إلى وجهتها ، ونعامله معاملة الراشد الذي يعمل لنفسه ولا يكلفنا أن نعمل له كل لقمة وكل جرعة وكل طبخة ، ولست ممن يرتضي القصور للعقول ولا للأجسام ، فكلاهما في القصور معيب ، وكلاهما في الرشد جميل .

قال صاحبي : وإن جسمي لمن أرشد الأجسام في ساعة الطعام .

قلت : إنك الساعة تخيفني أشد مما أخفتك يا صاح بذلك التمهيد .

واستقبلنا في ركن من أركان ردهة المائدة الصغيرة صندوقاً مربعاً يوحي إلى الناظر باسمه المتفق عليه ، وهو التابوت ! سماه باسم التابوت المقدس كل من رآه لأنه يشبه في منظره وموقعه توابيت القديسين في أركان المزارات . ولم أنكر التسمية لأن التابوت فيه تقديس وفيه تخليد ، وماذا على الموسيقى التي اشتمل عليها التابوت أن تتصف بالتقديس والتخليد ؟

كان هذا التابوت مشتملاً على حاك قديم وبضع مئات من القوالب الموسيقية أو الغنائية المختارة من مسموعات الشرق والغرب ، ومنها توقيعات على بعض الآلات السماعية العجيبة التي تختلف بسلمها الموسيقي عن السلم الشائع

في معظم البلدان ، كتوقيعات أهل الصين .

ومزح صاحبي مزحة ليست بالأولى من نوعها لأنها كذلك من وحي المقام . فقال : إن هؤلاء العازفين في موضعهم هنا لأنهم يعزفون لك على الطعام فلا يفوتك حظ الخواقين والشاهات في قصور البذخ والسلطان !

وأجبته كما كنت أجيب هذه المزحة في كل حين : إن الانسان يا أخانا لا يأكل أكلتين في لحظة واحدة : أكلة روح وأكلة معدة ، وما من كرامة الموسيقى الرفيعة أن تشتغل بشيء آخر وأنت تستمع إليها ، فانها شاغل كاف لمن يستوعبها ويتقصاها ويتأمل في معانيها وإشاراتها ، وليست تلك الموسيقى التي تتحدث وتأكل وتتشاغل عنها وأنت تسمعها إلا بمنزلة الجارية المستعبدة من السيدة المطاعة ، لأنها تسليك وتلهيك ولا تخاطب روحك وخيالك ووجدانك فتستدعيك إلى الاصغاء والمبالاة .

لا يا أخانا وكرامة ! . . . إنني أختار لهذا التابوت أحياناً ساعات كساعات التهجد في جنح الظلام ، فان كان الوقت شتاء فأكثر ما أرجع إلى هذا التابوت في ساعات اليقظة الباكرة بعد هدأة النوم الأولى . ويطول الليل وتثقل المطالعة في الهزيع الثاني أو الهزيع الثالث من ليل الشتاء المديد . إن قبلت هذا التقسيم والترتيب للهزع الليلية . فاذا بي معرضاً عن رفوف الكتب متوجهاً إلى هذا التابوت ، لا علالة من الأرق ولا بديلاً من الورق ، ولكن تلبية لنجوى العبقريات في وقت لا يسمع فيه غيرها ولا يوحي فيه السكون السابغ على الكون بغير وصية الاصغاء ، كأي من مدلج في الطريق تتسرب إليه الأصداء غير مفسرة ولا متصلة فيخالها من همسات الأرواح والأشباح في غفلة الأنس وناشئة الصباح .

وتعمدت العبث والدعابة فقلت لصاحبي : إننا لا نسمعها في أيام اذا سمعنا أناشيدها أنشودة أنشودة ، فليتنا نسمعها دفعة واحدة في وقت واحد ! . . . ترى كيف تتلقاها المسامع التي تطرب لها متفرقة ؟ أليس من حقها

أن تسر بالكثير أضعاف سرورها بالقليل ؟

قال صاحبي : ما أحسب أن أحسن الأنغام إذا قيلت معاً تفضل أسوأ الأصوات وأنكرها في الآذان .

قلت : ألا نستخلص من ذلك عبرة من عبر الحياة العظمى ؟ أليس الذين يتعجلون النغم فيخيل إليهم أن ازدحامها خير من تفرقها وأجمع لمحاسنها - يخطئون كما يخطىء الذين يتعجلون النغم فيحسبون أن مئة لحن في وقت واحد خير من اللحن الفرد وأوفى ؟

شيء واحد في وقت واحد ، وجميع الأشياء في جميع الأوقات . . . وهذا هو نظام العيش وقوام الجمال في كل نفع وكل سرور .

قال صاحبي : وهل تسمعها في الصيف كما تسمعها في الشتاء ؟

قلت : الحق أقول لك يا صاحبي إنني أود أن أسمعها صيفاً وشتاءً كلما انتبهت في هذا الموعد ، وقلما تمضي ليلة لا أتنبه فيها . ولكن الشتاء مقفل مستور والصيف مفتح مكشوف . ومنظر رجل يستمع إلى الحاكي في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل منظر يرشحني لسمعة الجنون المطبق بعد ليلتين أو ثلاث ، ولن تؤمنني من هذه السمعة اللازبة ألف شركة من شركات التأمين ، لو نصبت الشركات للتأمين على العقول .

كلا : إنني أسمعها في ذلك الموعد من الصيف ، ولكنني أستعيض منها بجلسة في الشرفة ونظرة إلى الطريق ، وقد يبلغني الاصغاء إلى السكون أحياناً ما يبلغنيه الاصغاء إلى أنبياء النشيد .

إننا نكبر بالليل جدّاً يا صاح .

إن الليل هو عالم النفس ، وأما النهار فهو عالم العيون والأسماع والأبدان .

إننا بالنهار جزء صغير من العالم الواسع الكبير ، ولكن العالم الواسع

الكبير كله جزء من مدركاتنا حين ننظر إليه بالليل ، وهو في غمرة السبات أو في غمرة الظلام .

ذلك النجم البعيد الذي تلمحه بالليل هو منظور من منظوراتك ووجود منفرد بك أمام وجودك !

ذلك الصمت السابغ على الكون هو شيء لك أنت وحدك رهين بما تملأه به من خيالك وفكرك ، ومن ضميرك وشعورك .

تلك المدينة الصاخبة التي نضيع فيها إذا أضاءتها الشمس هي شبح مسحور يلقيه رصد الليل تحت عينيك ، وهي ضائعة كلها إذا لم تأخذها في حوزة نفسك ، ومجال بصرك ، وكأنما هي من تلك المدن التي تسحرها لنا الأساطير . . . فكلها مفقود في غيبوبة الأرصاد ، إلا السائح الذي ساقه إليها القدر : وهو ساهر الظلام !

أنت عالم النفس بالليل ، كأنما توازن وحدك عالم الأنظار والأبدان .

وأنت تشمل الدنيا بالليل ، وهي تشملك بالنهار .

وأنت في حضرة أعظم من حضرة الحس حين لا حس يشغلك عن عالم السريرة .

أنت في حضرة الخالق حين لا تكون في حضرة المخلوقات .

ومن سعد بهذه النشوة في ساعة من ساعات الهزيع الأخير ، فلا ضير عليه أن تفوته نشوة السماع .

وكنا قد فرغنا من الطعام وقضينا سويعة في أشباه هذا الكلام . فاذا بصاحبي ينهض من المائدة وهو يقول :

ـ هذه المائدة ، وهذا التابوت ! . . .

قلت : وهذه المزامير !

وسمعنا بعض أدوار المطربين وشيئاً من أغاني الصعيد ولبنان . . . ثم نقلت صاحبي نقلة بعيدة فأسمعته بعض الألحان التي لا تعذب في جميع الآذان .

وسألته . أفهمت شيئا مما سمعت ؟

قال : لا والله !

قلت : وأنا مثلك . . . هذا موسيقار الغرب الأشهر وهلم فاجنر ، وأنا لا أفهم منه إلا أقل من القليل ، ولكنه عند نقادهم موسيقار جليل وعبقري نادر المثيل .

قال : وهل يفهمه الغربيون كلهم وهو مغلق على أناس منا كل هذا الاغلاق ؟

قلت : بل يسخر بعض الغربيين بهذه الموسيقى وأمثالها كما نسخر نحن منها ولهم في التندر عليها قفشات تذكرنا بقفشات أولاد البلد ، لأنها تجري على أسلوبها . هذا يزعم أن القرن النحاسي اعتدل من النفخ فيه بأمثال هذه الأنغام ، وذاك يزعم أن طبيباً أخذ مريضه الأصم إلى فرقة من هذه الفرق ليشفيه بضجيجها ، فسمع المريض وصمّ الطبيب ! .

فليست كل موسيقى مفهومة عند كل سامع ، ولو كان الموسيقيون والسامعون من بلد واحد . وليس من اللازم أن يستطيب محب الغناء كل غناء ، ولا أن يستطيب محب الشعر كل قصيد ، ولو كان من نظم أجود الشعراء .

قال : ولماذا لا نلغيه من عداد الموسيقيين كما ألغينا أولئك المبتدعين المحدثين من عداد المصورين ؟

قلت : أولئك فهمنا أنهم سخفاء . أما هذا فنحن لا نفهمه ولا ندينه بما لا نفهم . ولو كنا نحيط بكل سر من أسرار الموسيقى ونتلبس بكل مزاج من أمزجتها لصح أن نقضي عليه وعلى المعجبين به وبفنه ، فقصارانا أن نقضي فيه بأنه عندنا نحن « غير مفهوم ! » .

وامتدت السياحة خطوة فاذا نحن في حجرة النوم . . .

وحجرة النوم في بيت الرجل الأعزب كحجرة الاستقبال وحجرة المائدة وحجرة المكتب . ليس عليها حجاب .

غير أنني قلت لصاحبي : إن هذه الحجرة تعنيني ولا تعني أحداً غيري من الناس ، اللّهم إلا بعض الصور الفنية التي فيها . وكلها منسوخة من أصولها المحفوظة في متاحفها ، فليس فيها من صورة أصيلة أو تحفة غالية ، ما عدا واحدة بمفردها هي بينها آية الاستثناء في كل قاعدة من قواعد التعميم .

هذه شالومة أو سلامة ، صاحبة هيرود ، من تصوير الفرنسي بروسيير : كان ثمن رقصتها في زمانها رأس نبي من أنبياء بني اسرائيل . ولا تزال رقصات الفاتنات من خليقاتها تكلف الناس كثيراً من الرؤوس ، وإن لم تكن رؤوس أنبياء : فان هذا الصنف قد انقطع عن الدنيا منذ زمن بعيد !

وهذه صورة الزهرة من تصوير الأسباني فيلاسكيه . جسد بديع وقوام ساحر ومعاطف منسوقة لولا أمانة فيلاسكيه المشهورة لحسبناها من تنسيق الخيال . شغل بها المصور فمثلها على تمامها ولم يمثل لنا الوجه إلا في مرآة رفعها رب الحب أمام ربة الجمال .

وهذه صورة تاييس وهي تهدم إيمان الناسك المسكين : وقف أمامها وقد تبادلا الفتنة فأخذها بوعظه وأخذته بغواية جسدها ، ولبس هو طيلسان الأثرياء وخلعت هي كل طيلسان . وكأنما شاء المصور أن يعقد المقارنة بين هذه الفاكهة الشهية وبين ثمرات البساتين ، فجود ما شاء في العنب والموز والبرتقال ولكنه تركها إلى جانب هذا البستان الحافل كأنها الماء الذي لا طعم له ولا لون ، ولا يروي الظمآن إلا شراب ذلك البستان .

قوتان متناجزتان لم تشغل الميدان قوتان أكبر منهما منذ تصارعت في هذه الأرض قوتان :

عقيدة وشهوة ، نسك وفتنة . جسد تمرد من فرط الحرمان وروح تمردت من فرط المتاع بالشهوات .

ولقد رزقت المرأة فتنة قوية ولم ترزق عظمة قوية ، فلم يزل عزيزاً عليها أن تنخذل بالفتنة أمام العظمة ، ولم يزل من دأبها أن تجرب هذا السلاح أمام كل سلاح . فجربته في كفاح الوفاء وكفاح البطولة وكفاح النسك والزهادة ، وشاءت في هذه الجولة أن تضرب أقوى ضرباتها لأنها آخر ضرباتها . فلما ضربتها سقطت من الاعياء ساجدة . فكانت سجدة العمر إلى الممات ، وخرجت الراقصة عابدة من ميدان صراع .

وانتصر الخصمان وهما منهزمان أكبر انهزام : راقصة تفتن ناسكاً وناسك يصلح راقصة ، وذلك أقصى مدى الهزيمة والانتصار .

فلما انجلى الغبار كانت الراقصة راهبة في الدير وكان الراهب مفتوناً يهيم في وادي الغواية ، وكلاهما صارع مصروع ، ومفلح مخفق ، وصامد هارب من الميدان .

وهذه صورة لسوق الرقيق في عاصمة من عواصمنا الشرقية : تعجبني منها عصبية الفنان لوطنه وإن لم تعجبني منها حيدته عن الحقيقة في هذه العصبية .

فهذه السمراء الشرقية تراها مزهوة بعرض محاسنها كأنها ترحب بنظرات سيدها الذي أوشك أن يشتريها ، ولا يعنيها الخجل كما يعنيها أن تظفر في هذا الموقف المخجل بنظرة استحسان .

وهذه البيضاء الغربية تداري وجهها بيديها وتطرق برأسها وتدع الأنظار ترتع في محاسنها كأنهاتتلقاها على الرغم منها .

وفي الشرق خفر كثير لأنه وطن الحجاب ، وفي الغرب جرأة كثيرة لأنه وطن السفور . فاذا وجدت شرقية واحدة وغربية واحدة في سوق واحدة فهل من

الحتم أن تكون الشرقية مثلاً للتهتك الوقاح والغربية مثلا للخفر الخجول ؟

قال صاحبي : أو لا يجوز للفنان أن يتعصب لوطنه ؟

قلت : بلى يجوز . بل يجب في كثير من الأحيان ، ولكن على أن يصدق البيان ولا يتكفل بتشويه الحقيقة ، لأن الفن جمال ، والجمال عدو لكل تشويه .

وتلي صورة الجواري في سوق الرقيق صورة الينبوع العذب الصافي البرود . تكاد برودته تتراءى من صفاته في مجراه ، وقد جعله « أنجرز » صبية كاعباً تنضح بالصباحة والطهارة وبراءة المحيا ونقاوة القسمات ، وأعطاه عمراً وحياة كأنه لم يبلغ بعد سن الينابيع الكبار ، وكأنه بين موارد الماء الفياضة تلك الصبية الكاعب بين أمهاتها وجداتها من النساء .

وأصبحنا أمام الصورة الأصلية التي انفردت بين هذه النسخ المنقولة .

قال صاحبي : إنني أفهمها وإن لم أعلم بخبرها .

قلت : إنها لا تحتمل غير معنى واحد : فطيرة حلوة يشتهيها الجائع والشبعان ، بل يشتهيها المتخوم والمكظوظ . . . وعليها صرصور وذباب يحوم ، وفي القدح الذي يفرغ عليها الحلاوة عسل يضطرب فيه بعض الذباب ويموت . . . . فلا يأكل من الفطيرة الحلوة على هذه الصورة شبعان ولا جوعان . بل تعزف النفس حين تراها عن كل طعام .

وقيمة الصورة أن تاريخ الفن كله ـ بل تاريخ العبادة من أوائله ـ مرتبط بالباعث على تمثيلها في هذه الرموز .

فقد وجد الفن في الدنيا لأن النفوس تمتلىء بالشعور وتشتغل به كل الاشتغال ، فلا تقنع به شعوراً بل تطلبه حسّاً منظوراً ، ولا تشاء أن تظل فيها حاسة من حواسها فارغة منه غير مملوءة بمثاله . ومن هنا نشأ التصوير ونشأ التجسيم . ومن هنا نشأت هذه الصورة اليوم كأنها أول اختراع لفن التصوير .

وكانت جولة الوداع في حجرة الاستقبال .

قال صاحبي وهو يستقر فيها : لقد سمعت عن حديقة الحيوان وقرأت في وحي الأربعين عنها أنها « لا تجمع إلا الفنان أو المحب للفنون ، سمي كل زميل من زملائها باسم حيوان يلاحظ في اختياره اتفاق الشبه في الملامح والعادات ، وقد جمعها الفن كما كان أورفيوس المعروف في أساطير اليونان يجمع الأحياء حين يغني ويعزف فتقبل عليه من كل فصيلة وهي لا تشعر بخوف أو تهم بعدوان » . . . فهل لي مكان في جوار أورفيوس ؟

قلت : إن طال استقرارك ظفرت بمكان ، بعد الموافقة والامتحان . ولا تحسبن الطموح إلى هذه المنزلة من يسير الأمور التي تبلغ بغير عناء . فأولى لك أن تحسبه من الادعاء الذي يتطلب التزكية والشهادة ولا تحسبه من التواضع الذي يقبل بغير تزكية ولا شهادة . . . فهل تدري من هم أكثر الناس حرصاً على مظاهر الوجاهة وشارات الثروة وعناوين الفخار ؟ إنهم أحدث الناس نعمة وأقربهم إلى الضياع في غمار الوضعاء والأذلاء إن لم يتميزوا أبداً بتلك المظاهر وتلك الشارات وتلك العناوين . وكذلك مقياس الانسانية عندنا في هذه الحديقة : أصحاب الانسانية المحدثة هم أحرص على مظاهرها وشاراتها وعناوينها ، وأشبه الناس بالأحياء الدنيا من ينخلع عنه شعار الانسانية باسم وعنوان ، وإنما يقاس نصيب المرء من الانسانية بمقدار عطفه على الحيوان واقترابه من فهمه وفهم شعوره ، فمن قام بينه وبين معاطفة الحيوان حجاز حاجب فذلك حجاز بينه وبين الفهم والعطف والشعور ، وهي أكرم مزايا الانسان . قال صاحبي : أنا لا أنكر شيئاً في الحديقة وترشيحاتها ولكني أود أن أعرف كيف جمعتموها وكيف جاءت هذه التسمية أو كيف اخترتموها ؟

قلت : أحسبها تسمية ترجع إلى مرجعين لا إلى مرجع واحد ، أحدهما قريب ظاهر والآخر بعيد باطن . فأقرب هذين المرجعين هو فن المحاكاة عند صديق من أصدقائنا الأعزاء . فما تقع عينه على أحد يلفت النظر إلا أسرع إلى تشبيهه ومحاكاته ، فاذا هو شبه محكم ومحاكاة تطابق الشبه من جميع وجوه

المطابقة ، ولا يعفي من هذه العادة ألصق الناس به وأقربهم إليه ، بل هؤلاء هم في الغالب هدفه الأول وإصابته المسددة . . . وخلقته هو على هذا القياس هي أول ما يستهدف وأول ما يصيب .

فاذا تألب عليه الصحاب تندراً وسخرية ومزاحاً شهر عليهم هذا السلاح وأسكتهم عنه بالبدء بنفسه والعدل في توجيه نقمته . ومن دلائل عدله أنه لا يطلق على أحد شبهاً من الأشباه إلا وافقه الحاضرون جميعاً ما عدا صاحب الشبه . . . فانه قد يمانع هنيهة ثم يلقي يد السلم ويعترف « بالخلعة السنية » التي خلعت عليه .

أما المرجع الآخر فاحسبني أنا المسؤول عنه من حيث أريد أو لا أريد . فان عادة عندي ـ بل أقوى من عادة ـ أن أشعر بوحدة الخلق كله وأن أنظر الى جميع الأحياء كأنها تجربة واحدة تنجلي عن مقصد واحد ، وإننا ربما فهمنا مقصد التجربة من مسوداتها الأولى قبل أن نفهمه من النسخة المنقحة المصقولة . . . وإن كانت النسخة المنقحة المصقولة أجود في التعبير وأفصح في الأداء .

وما قرأت قط خرافات الأقدمين عن وشائج الأحياء إلا خيل إليَّ أنها تنطوي على أكثر من خرافة أو لعبة خيال ، وتساءلت قبل نيف وثلاثين سنة عن مغزى تلك الأساطير التي تحكي عن أناس لهم أجسام آدميين ووجوه كلاب ، أو مغزى تلك التماثيل التي تجمع بين أجسام الوحوش ورؤوس الآدميين ، فقلت من كتاب الفصول : « ما مغزى هذا الاجماع والتواتر ؟ وماذا في طي هذا الاعتقاد بأن الانسان يتحول أحياناً من هيئته إلى هيئة حيوان أدنأ منه ، أو أن في عالم الحياة مخلوقاً بعضه إنسان وبعضه حيوان ؟ هذا شعور لم يرد الينا من ناحية الحواس ولكنا لا نجهله ، وصحيح أن الخيال مفطور على مزج أشكال الحس وإلباس الموجودات لباس الانسانية ، ولكن لماذا فطر الخيال على ذلك ؟ أكان يستحيل أن يفطر على غير هذه الفطرة ؟ وهل لو خلق الانسان من غير عنصره المعروف كان

يتخيل هذا الخيال بعينه ؟ ألا يجوز أن يكون مغزى هذا الاجماع والتواتر أن في جبلة الانسان شعوراً راسخاً بوحدة الخلق وتلاحم سلسلة المخلوقات . . . شعوراً أعمق من الفكر لا بل أعمق من الخيال نفسه ، يتكلم باللسان فيكني ويلفق ويتكلم بالبديهة فيصرخ ويصدق ؟ ولماذا ننفي وجود شعور كهذا يصل الانسان على وجه ما بشيء من أسرار الحياة مع علمنا أن الانسان قد اتصل بالحياة قبل أن يصله بها عقله وحواسه ؟ أليس ترجيح وجود هذا الشعور أولى وأحرى بقدم العلاقة بين الأحياء والطبيعة ؟ . . . فلا يبلغن من قصور العقل ألا يصدق إلا بالعقل وحده ولا يبلغن من ضيق النظر أن نقسر حواس النفس كلها على أن تنمو نمو الحواس الخمس . كأن الانسان لا يتصل بالدنيا إلا بها ، وكأنما الخيال ليس جزءاً من الانسان كما هي جزء منه . . . » .

وهذا الشعور الكمين لا أحسبه كان غائباً عني يوم نشرت خلاصة اليومية وكتبت في تصديرها « إن الانسان حيوان راق ولكنه لا يزال حيواناً » . . . ويوم كتبت مجمع الأحياء وعقدت فيه مؤتمر الحياة بين الحمامة والأسد والنمر والقرد والثعلب والانسان والمرأة وسائر الأحياء ، ثم يوم رثيت كلبي بيجو وجعلته شاهدي على بعض المذاهب في التربية . . . والدراسات النفسية . . . فاذا كانت « حديقة الحيوان » فكاهة من فكاهات المجالس فليست هي من الفكاهات العابرة ولا من الفكاهات الرخيصة ، لأن لها أصلاً أصيلاً من الجد بعيد القرار .

ونظر صاحبي إلى يمينه وأوشك أن يجفل جفلة الخوف ، لأنه رأى هنالك تمثاليَ بومتين دقيقتين ، يحفّان بالساعة الصغيرة عن اليمين وعن الشمال . وقال : رب هذا من ذاك ! . . . ثم قال ترى لو دخل صاحبك ابن الرومي هذه الحجرة ونظر إلى هذين التمثالين المخيفين ـ ماذا كان يصنع يا ترى ؟

قلت : لا شك أنه كان ناكصاً على عقبيه على الأثر ، وإن كنت قد وضعت هذين التمثالين في موضعهما وتحديت الشؤم كله لأجله هو جزاه الله .

لاحقه الشؤم في حياته وقلَّ منصفوه بعد مماته ، وضل معظم النقاد في أمره لأنه من طراز غير الطراز الذي يقيسون عليه ، فهو عندي ـ بغير خلجة من

الشك ـ وحيد شعراء العالم من مشرقه الى مغربه ومن قديمه إلى حديثه في ملكة « الوعي والتصوير » ... وهي أنفس الملكات التي يرزقها رجال الفنون ، فلا يضارعه في هذه الملكة شاعر عربي ولا شاعر أعجمي ، ولا يناظره فيها فحل من فحول التشبيه والتصوير في أدب اليونان والرومان ولا في أدب الغربيين المحدثين ، ولم أعرف بين أدباء الأمم الأخرى التي اشتهرت بدقة التشبيه ـ كأدباء الصين واليابان ـ من يجري في غباره أو ينسج على غراره . ومثل واحد يغني عن مئات الأمثال ، وهو وصفه لحقل الكتان حيث يقول في بيتين اثنين :

وجلسٍ من الكتان أخضر ناعم تُوسّنه داني الرباب مطير
اذا اطَّردت فيه الشمال تتابعت ذوائبُه حتى يقال غدير

فالواعية الفنية وحدها هي التي تغريه بوصف حقل من حقول الكتان التي مرت بألف شاعر منذ الخليقة ولم يلتفتوا إليها ، لأن حقل الكتان لا يحسب من موضوعات الوصف التقليدية بين شعراء التقليد ، فليس هو بروضة من رياض الورد والياسمين وليس هو بستاناً من بساتين الفاكهة والثمرات ، ولا هو بمنزه من منازه الحسان أو موعد من مواعد الغرام . فانظر كيف علق هذا المنظر بوعيه اللاقط المستوعب وكيف أحصى عليه كل ما يحصيه التصوير في شرط النقد الحديث ، بعد طول المشاهدة والمراجعة لآيات الأساتذة من نوابغ التصوير ... واذكر كيف صنع ذلك بداهة وابتداعاً غير عامد ولا متنبه ، وهم يتعمدون ما يسجلون من ملاحظات النقد ويتنبهون إليه .

فالنقد الحديث يشترط على المصور النافذ البصر والبصيرة أن يستوعب المنظر فلا يفوته اللون ولا الملمس ولا الزمان ولا جو المكان ولا الحركة التي تشيع فيه إن كانت فيه حركة ، أو السكون الذي يشمله إن كان به سكون .

وكل اولئك تجده في البيتين الاثنين مطبوعاً منقولاً إليك نقل البداهة عن تلك الواعية المستوعبة التي لا تفوتها مدركة من مدركات الحس والخيال : لمح اخضرار اللون ، ونعومة الملمس ، وأحاط بوقت الصورة كما مثلت أمامه فهو

وقت الوسن ، وأحاط بجو المكان فهو المكان الذي يظل عليه رباب مسف فويق الأرض يؤذن بالمطر القريب ، وأحاط بالحركة وبمصدرها من ريح الشمال فاذا رؤوس الشجر تموج بالحركة الذاهبة الآيبة فكأنها صفحة غدير . لا موضع لنقص في الصورة ولا محل فيها لزيادة ، وليس أصدق من الوعي الذي أحسن اللقط وأحسن التمثيل في لمحة عين وفي بيتين اثنين .

مثل هذا المقياس الذي تقاس به الواعية الفنية لم يكن مقياس أولئك النقاد الذين جهلوا فضل ابن الرومي وأشادوا بفضل سواه ، ولو أنهم تتبعوا مئات الأبيات من شعره - بل ألوفها - على هذا المنوال لعلموا أنه مغبون - جد مغبون - حين يقرن بشاعر من شعراء العالم ما كان في هذه الملكة الفريدة . . فكيف بالغبن الذي يصيبه إذا قدموهم وأخروه ، وأشادوا بفضلهم وأنكروه .

أثارني هذا الظلم فآليت لأدفعنه عنه ، فاذا بصحبي يثنونني عن انصافه وهم وجلون ، ولئن كانوا غير جادين لقد كانوا كذلك غير مازحين . فما لقيني أحدهم مشتغلاً به الاصحاب بي ! حذار حذار ، إنه مركب غير مأمون العثار !! والرجل موصوف ببأسه في شؤمه ، فلا شأن لك بانصافه وظلمه ، ودعه لقضائه ، واقنع بأنك من قرائه ، فقد يتحداك شقاؤه المعهود إذا تهجمت على حرمة شقائه ! . . .

وكانت ثورة فأصبحت ثورتين : لقد ذل من يخاف ذلك الشؤم المعتز بجبروته ، ولقد طغى ذلك الشؤم الذي يسطو على فريسته في حياتها وبعد مماتها ثم ينذر بالنقمة من يتصدى لغوثها ، فاذا أنصفنا الشاعر المغبون وغضب الشؤم الواقف له بالمرصاد فليصنع الشؤم إذن ما يشاء .

وسكنت هذا البيت ورقمه ثلاثة عشر ، ووضعت فيه التليفون ورقمه يومئذ مبدوء بثلاثة عشر ، وجعلت أسأل الشؤم في كل دعوى من دعاويه وأولها دعواه الكبرى على البومة المسكينة . ما لهذه الطريدة المظلومة وهي قد تركت الدنيا والنهار للإنسان ولاذت منه بالليل والخلاء ؟ وما عيبه عليها وهي أوفى

الطيور في عشرة الأليف منها للأليف ؟ أليست هي إحدى الأحياء النادرة التي يسكن الزوج منها إلى زوجه مدى الحياة ؟ أليست هي التي تغني لنور القمر ولعزلة الليل ولا تقحم صوتها على من يأباه ؟ ألم تكن عند الأثينيين - وهم عباد الجمال - رمزاً للمدينة ينقشونه على الدراهم مع أغصان الزيتون ؟ فاذا جنى الظلم على سمعتها ولاحقها الظلم في خلوتها فليصنع ما بدا له فاننا نتلقاه منها باثنتين لا بواحدة ، لأنها لا تحب الفراق ، وإن زعموها نذير الفراق .

قال صاحبي : وكيف رأيت العاقبة ؟

قلت : خير بعد شر ، فلاح بعد كفاح ، فلا أخفي عليك يا صاحبي أن أمر ابن الرومي في سمعته تلك أمر عجيب مفرط في العجب ، وأنني لو صدقت خرافة من الخرافات لصدقت خرافة الشؤم والتشاؤم ، وصدقتها في ابن الرومي هذا قبل غيره . فما حدث منه قد شهدته بنفسي وخبرته في صحبي ، ولم أعتمد فيه على رواية الأقدمين ولا على مبالغات المتندرين ، لأنني تعاقدت على طبع كتابي عنه مع مدير المطبعة فمات هو وسجنت أنا قبل الفراغ من ملازم الكتاب الأولى ، وكان وزير المعارف « أحمد حشمت » قد أوصى بطبع ديوانه وأقام على تصحيحه مفتش اللغة العربية في الوزارة ، فعزل الوزير والمفتش وماتا قبل الفراغ من جزئه الثاني ، وكتب المازني فصولاً عنه فكسرت رجله ، ونشر صاحب الثمرات قصائد من ديوانه فكسرت رجله ، وهمَّ صاحب البيان بنشر مطولاته والعناية بأخباره فتعطلت مجلة البيان ، فلو كانت هذه المصادفات أسباباً يؤخذ بها وترتبط بنتائجها لكان الشؤم المزعوم حقيقة من الحقائق العلمية التي لا شك فيها ، ولكنها مصادفات سيئة تقترن بها مصادفات حسنة ، ولا يجوز لنا أن نركن إلى هذه ولا إلى تلك على انفراد . . . فقد أنجزت كتابي عن ابن الرومي فكانت السنة التي ظهر فيها من أسعد السنوات في حياتي الخاصة وأبرزها في حياتي العامة ، وسلك الكتاب سبيله بين مراجع الأدب المعدودة في هذا الجيل ، فان كان الشؤم على صولته التي يتخيلونها فقد تحديناه ، ونجحنا في تحديه بحمد الله .

ولم يكن في الحجرة شيء سبقته إلى سكن هذا البيت منذ سكنته قبل زهاء عشرين سنة ، فكل ما فيها قد دخل البيت يوم دخلته وبقي هناك كما بقيت . إلا بعض الصور ، والمذياع !

ففيها صورة للقصر المعروف باسم « أنس الوجود » من صنع الفنان التركي القدير الأستاذ هدايت . تلمح من نظرة واحدة إليها غرابة الجو المصري والألوان المصرية الوضاءة على آثارنا الخالدة كما تبدو في عيني الفنان الغريب عن الديار .

وفيها صورة لي من صنع الأستاذ « أحمد صبري » وهو من أساطين فن التصوير في هذا البلد ، وله ريشة ثابتة وألوان صحيحة وطريقة مأثورة عن عباقرة المدرسين الأقدمين ، لا تستهويه البدع المستحدثة ولا يروقه من ملامح الوجوه إلا ما ينم على جد واهتمام .

وفيها صورة لشاطىء الزمالك من صنع المصور الموهوب الأستاذ شعبان زكي ، وهو فنان ينظر ويحلم ويسبغ من أحلامه كثيراً على المناظر الطبيعية أو الحوادث التاريخية التي يسجلها ، ومن آثاره التي تتجلى فيها أحلام التصوير والأدب صورة امرىء القيس والعذارى وهو مرابط لهن على حافة الغدير .

وفيها صورة لترعة المحمودية من صنع الفنان المطلع الأستاذ صلاح الدين طاهر ، وهو لاشتغاله بتصوير الوجوه والأشخاص واطلاعه على الدراسات النفسية قد سرت إلى مناظره الطبيعية عدوى عنايته بالوجوه والنفوس ، فلا تخلو مناظره من ملامح « سيكولوجية » . على غير الأحياء .

وفيها صورة « أبي قير » لفقيد الفن الأستاذ لبيب تادرس ، وهو فنان مجتهد عوجل في شبابه قبل أوانه ، وكان له اقتداء بالمدرسة الاحساسية في التلوين وتمثيل الأشياء والأشخاص من بعيد .

وهناك تمثال نصفي أهداه إليّ بعض الهواة ممن يشتغلون بغير النحت ولا يظهرون آثارهم الفنية .

أما المذياع فلم يكن ذاع يوم سكنت هذه الدار ، ولم أكن أرى منه في مصر الجديدة إلا أدوات عاجلة يركبها بعض الكهربائيين على أيديهم ، وتسمع أو لا تسمع كالمركب الشراعي الذي يسير أو لا يسير « حسب التسهيل » .

قال صاحبي : إن نقل الصوت من المكان البعيد معجزة كافية ، فكيف إذا أضيفت إلى هذه المعجزة معجزة النقل من زمان بعيد ؟ إنهم يزعمون ذلك في الامكان ، ويقولون إن استخلاص أصوات الأقدمين كما نطقوا بها في حياتهم ليس بالمستحيل . لأنها محفوظة في بعض طبقات الجو البعيد ، لا يؤثر عليها الاختلاط إلا كما يؤثر الاختلاط على أصوات المحدثين .

قلت لو كان لي لسانان لقال أحدهما مرحى ! وقال الآخر في الوقت نفسه : أعوذ بالله ! . . .

إننا نحب أن نسمع الأنبياء وهم يخطبون والأبطال وهم يناضلون ، والشعراء وهم ينشدون ، وأصحاب الأغاني وهم يترنمون . . . ولكن من من هؤلاء الأبطال يرضى أن تسمعه وهو في خاصة وقته بين أهله أو ندمائه ! ومن من الناس في عصرنا يحب أن تنقل عنه كل كلمة قالها وكل سر همس به وكل آهة من آهات الضعف فارقت شفتيه ؟ إن الاستعاذة بالله هنا تحتاج الى مئة لسان إذا كان الترحيب يكفيه لسان واحد . فليكن « وعيد » العلماء إذن من المستحيل ، وإلا أصابهم منه ما يصيبون به الآمنين في القبور .

عشرون سنة بين هذه الجدران الأربعة !

قالها صاحبي وهو يؤذن بانتهاء السياحة التي أرادها أو أرادها الناشرون ، وكأنها لم تكن ستقضي في حجرة أخرى من حجرات الاستقبال في بيت من البيوت ؟

قلت : أكثيرة هي على هذه الجدران ؟ فعلى أي الجدران هي ليست بالكثيرة ؟

قال : لعلها كانت أولى أن تنقضي في التنقل من مكان إلى مكان ، ومن حي إلى حي ، ومن دار الى دار .

قلت : إن السياحة يا صاحبي لها حجتها الناهضة فما هي بحاجة منا إلى حجة جديدة . ولكن المكث في المكان الواحد أيضاً له حجته التي تضارع حجة السياحة ولا تقصر عن شأوها ، فاذا كانت مشاهدة الأمصار ومداولة الديار تعلمنا الحكمة وتبصرنا بألوان الحياة فاعلم يا صاحبي أنني لا أعرف شيئاً ينفذ بنا إلى حقائق الآمال والمخاوف ، وبواطن الأفراح والأحزان ، كمراسنا لها في المكان الواحد الذي يقل فيه التغيير .

إذا وجل القلب فهذا الكرسي يعلمني أن الخوف عبث وأن الذي أخافه قد يخطئني ويسبقه إليَّ الذي أرجوه . فكم من مرة جلست عليه أطول النظر في أعقاب الأمور وأقلب الظنون في كل وجه من الوجوه ، ثم جاء الوقت المحذور ولم يجيء معه ما حذرناه !

وإذا تقطعت النفس حسرات على نعمة من نعم العيش فهذه الشرفة تقول لي : بل انتظر طويلاً أو قصيراً فسنرى كما رأينا وسنعلم كما علمنا أنك ستعيش بغير هذه النعمة التي كنت تقرنها بالحياة ، كما عشت الشهور والسنين بعد تلك النعم التي أدبرت ثم زالت وكنت تترقب ـ بل تتمنى ـ أن تزول الحياة قبل أن تزول .

وإذا رجوت أو قنطت ذكرني هذا المقام أن القنوط يخدع كما يخدع الرجاء ، وأن رجاء اليوم وقنوطه ، كرجاء الأمس وقنوطه ، كلاهما في طبائع الصدق والكذب سواء .

وبعض هذا يحبب إليَّ البقاء حيث بقيت .

ولكنني لو سئلت : لم بقيت أول الأمر حتى طال بي البقاء فلست أدري ما أقول ، وقد أجيب كما أجبت السؤال الذي سُئلته في الصحف : « إنها الكتب

وما أعانيه في نقلها وترتيبها من العناء الذي لا يوكل إلى آخرين » .

ثم أقول كما قلت : « وهو سبب وجيه ولا جدال ، ولكنني أحس كلما أجبت به أنه طبقة من الأسباب وراءها طبقات . ولعلي أوجز الحقيقة كلها ببيت حافظ ابراهيم الذي قاله في مثل هذا المسكن وإن لم تطل مدته فيه كهذا الطول :

كم مرَّ لي فيه عيش لست أذكره ومرَّ لي فيه عيش لست أنساه

فهذا البيت قد كتبت فيه خير كتبي وأحبها إليَّ ، وقد عشت فيه تلك الكتب عيشاً حيّاً باقيَ الآثار قبل أن أنقلها من عالم النفس إلى عالم الأوراق ، وهذا المسكن قد صعدت سلالمه ثلاثاً ثلاثاً ثم صعدتها اثنتين اثنتين ، ثم أصعده درجة درجة على غير عجلة ولا اكتراث ، وهذا المسكن قد نزلت به والشعرات البيض يتوارين في السواد ، وما زلت أنزل به والشعرات السود يتوارين في البياض . . . [1] .

وقد استقبلت فيه آمالاً ، واستحييت فيه ذكريات ، ومن غار على ذخيرة آماله وبواطن ذكرياته فقد يغار على مواطنها أن تستباح بعده لكل من يشاء .

تلك يا صاحبي سياحتي التي أردتها في بيتي وأردت أن تحيط بما يحوطني فيها من شاغل أو عمل أو مقال ، أطلعتك منها على ما يعني الناس وتتصل فيه حياة الكاتب بين العالم والدار . فأما الذي يعنيني ولا يعني أحداً غيري فلأن أقول أنا إنه لا يعنيهم خير من أن يقرأه قارىء فيسأل قارئاً آخر : وما الذي يعنينا نحن من هذا المقال ؟ ثم يتفقان على الجواب !

وإذا شاء القارىء فلتكن هذه دعواي لإبداء ما أبديت وإخفاء ما أخفيت . إذ الواقع أنني لا أحسب القارئين اللذين يتفقان على الجواب يكثران بين أفراد الناس . لأن الفضول قد يغري الأكثرين بما نخفيه دون ما نبديه .

---

(١) المصور في ٧ يوليو سنة ١٩٤٤ .

الآن وقد مضت السنون العشر ، ماذا تغير وماذا بقي فلم يتغير على مر تلك السنين ؟

تغير الكثير من أمور العالم ، وتغير الكثير من أمور مصر ، وتغيرت من الناس أمور يراها من كان يعرفها ، فلا يعرفها الآن .

وبيتي هذا هو بيتي هذا ، لم أغيره ولم يغيرني ، ولم يطرأ عليه وجه غريب إلا ريثما يغيب .

وكل ما جد فيه فهو رابطة جديدة توثق من روابطه الأولى : كتب تزداد حتى ليتعسر انتقالها من موضع إلى موضع ، وذكريات تزداد حتى لتجور على عالم الحاضر ، وعالم المآل ، وعالم الامال !
والسلالم التي صعدتها مثنى مثنى وواحدة واحدة ، قد تغير عليها شيء قليل في أيام قليلة . . .
صعدتها بعكاز ، بعد تلك العثرة التي أقعدتني في الاسكندرية قرابة شهرين ، ثم ها هوذا في ركنه أنظر إليه كلما هبطت السلالم أو صعدت عليها ، ليجنبني مرآه مزالق العثرات .

لي قصيدة ألقي فيها على لسان « مسكن للايجار » أبياتاً يقولها في ساكن من نزلائه بعد ساكن ، فيذكر منهم من يذكره بالخير ، ويذكر منهم من لا يأسى عليه .

في ذمة الغد شاعر يلقي على هذا المسكن رأيه في هذا المقيم ـ المطيل ، أتراه يحمد منه أنه ارتقى به من ابتذال التنقل إلى كرامة البقاء والاستقرار ؟ أم يضجر منه ويشيعه بالمذمة بعد هذا المكث الطويل ؟

ليقل ما سيقول ، ذلك الشاعر المجهول .



في حجرة المكتب وفي جلسة من جلسات التفكير
والرؤية .

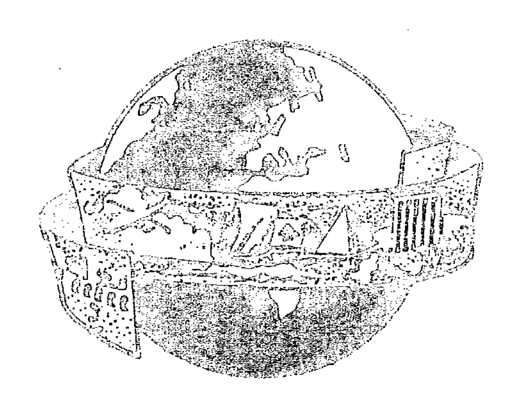


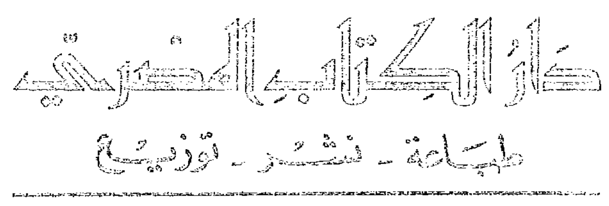
مع السيدة درية شفيق في حجرة المائدة ويرى
الكتب على اركان البيت جميعها .

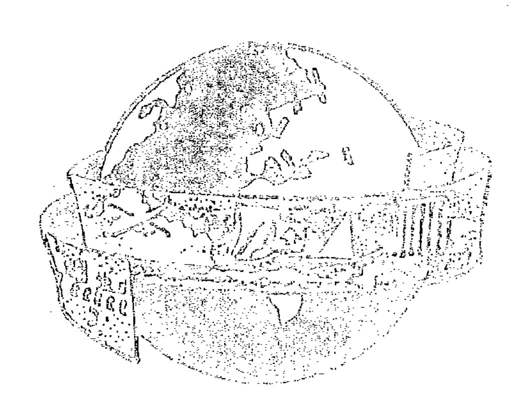
فهرس كتاب عالم السدود والقيود

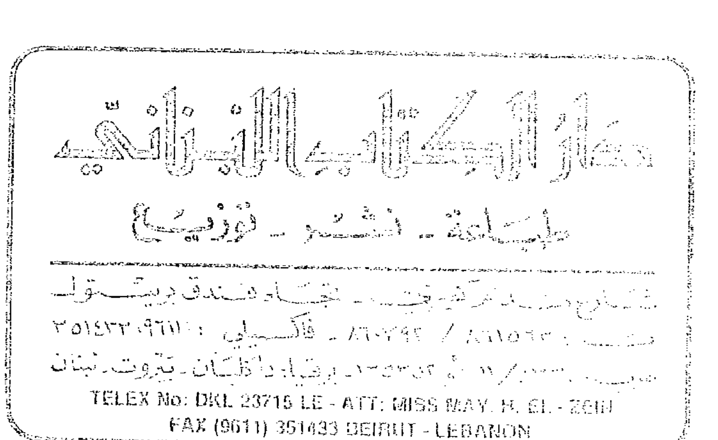
فهرس كتاب سارة

فهرس كتاب في بيتي




دار الكتاب المصري
طباعة - نشر - توزيع
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي: (٢٠٢) ٣٩٢٤٦٥٧
ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - برقيا: كتامصر
TELEX No: 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL-ZEIN
FAX: (202): 3924657 CAIRO - EGYPT




دار الكتاب اللبناني
طباعة - نشر - توزيع
TELEX No: DKL 23715 LE - ATT: MISS MAY. H. EL - ZEIN
FAX (9611) 351433 BEIRUT - LEBANON

The Complete Works of
ĀBBAS MAHMOUD AL - ĀAKAD

Volume XXIII

DAR
AL-KITAB
ALLUBNANI

